

بشيامين تشنياهو

مكان بين الأمم

إسرائيل والعالم



الكتاب
للشؤون الدولية

ترجمة: محمد عبدة الدويدي
مراجعة وتوثيق: كاشم السعدي

مکان بین الامر

بنيامين ثنياهو

مكان بين الأمم

إسراخيل والعالم

ترجمة: محمد عودة الدويري
مراجعة وتصويب: كلثوم السعدي



رقم التصنيف : ٣٤٠,٥٦
المؤلف ومن هو لي حكمه : بنيامين نتيناهو، ترجمة - محمد عودة الدويري
عنوان المصنف : مكان تحت الشمس
رؤوس الموضوعات : ١ - الصهيونية - تاريخ
رقم الإيداع : (١٩٩٥/٩/١١١)

الأهلية للنشر والتوزيع
الأردن، عمان/ وسط البلد، خلف مطعم القدس
ص.ب. ٧٧٧٢، هـ ١٤١٦، فاكس...

دار الجليل
للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية
الأردن، عمان - ص.ب. ٨٩٧٢، هـ ١٤١٦-١٤١٧
تلكس ٢٣٠٣١ - فاكس ١٨٣٦٦٨

بنيامين نتيناهو
مكان بين الأمم (إسرائيل والمالم)
ترجمة: محمد عودة الدويري
مراجعة وتصويب: كلثوم السعدي

Benjamin Netanyahu
A Place Among the Nations
(Israel and the World)

حقوق النشر محفوظة
الطبعة العربية الثانية، ١٩٩٦
صدرت الطبعة العربية الأولى عن دار الجليل في الأردن، عام ١٩٩٥

تصميم الغلاف
زهير أبو شبيب
الصف الضري
دار الجليل/ عمان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced,
stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means with prior permission in writing of the
publishers

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشرين.

المحتويات

الصفحة	
٧	تقديم
١١	مقدمة المؤلف للطبعة العربية
٢١	مدخل
	الفصل الأول:
٢٧	ظهور الحركة الصهيونية
	الفصل الثاني:
٦٧	التخلي عن الصهيونية
	الفصل الثالث:
١٠٧	حقيقة القضية الفلسطينية
	الفصل الرابع:
١٤٥	قلب حقيقة السبب والمسبب
	الفصل الخامس:
١٩٥	حصان طروادة
	الفصل السادس:
٢٥٥	نوعان من السلاح
	الفصل السابع:
٢٧٧	الجدار الواقي
	الفصل الثامن:
٣١١	المشكلة السكانية
	الفصل التاسع:
٣٤٣	سلام دائم
	الفصل العاشر:
٣٨٥	مسألة القوة اليهودية

تقديم و تنويه

يحبس المرء، وهو يقرأ كتاب "مكان تحت الشمس" لزعيم الليكود، بنيامين نتنياهو، ان الرجل، جمع اوراق التطرف، من جميع اطرافها، ووضمها في ملف، تأبطه في طريقه الى طاولة المزايدات، سعياً لبلوغ قمة هرم السلطة.

لقد لطم نتنياهو غوغاء التاريخ اليهودي، أفتأت على الحقائق، وطوع الجغرافيا، وشكل من كل ذلك جسراً، لخوض الزحام، تشرئب عنقه نحو بريق الحكم، دونما وازع من اخلاقيات الامانة العلمية والتاريخية، فالغاية عنده تبرر الوسيلة.

كانت "الكارثة" اول محطات نتنياهو، لينطلق منها الى قناتين معا يسمى مسيرة الشعب اليهودي:

✱ الاولى: وهي البكاء على الاطلال، وتتصل بمأساة الشعب اليهودي، ابان الحكم النازي، وهي مخصصة لكسب تعاطف الشعوب الاخرى، وابتزاز حكوماتها، باعتبارها مسؤولة عن المأساة الكارثة دونما التفات الى عنصر التقادم.

✱ الثانية: وترتكز الى قدرة المنصر اليهودي على النهوض من تحت الانتقاض، ذلك ان "الافران" التي احرقته اجساد اليهود، لم تكن قادرة على اخماد روح الارادة اليهودية، وفي ذلك اشارة واضحة الى "تميز" شعب الله المختار، الذي فصل لان يكون السيد المطاع، وما عداه خدماً.

على ان تعامل نتنياهو، مع موضوع الكارثة يدخل في باب الاسقاط، ذلك ان الشعب العربي عموماً، والفلسطيني خصوصاً، ليس لهم اي علاقة، لا من قريب ولا من بعيد فيما يسمى بالكارثة.

أحقية اليهود في ارض فلسطين، اخذت من نتنياهو جهداً كبيراً، من خلال خلط اوراق التاريخ والجغرافيا والتوراة والتلمود، ومستنداً في ذلك الى شهادات صهيونية أو مشايعة للصهيونية، اصحابها كانوا ذات يوم من سدنة الاستعمار، الذي وجدوا في اليهود وسيلة لتحقيق الاهداف الاستعمارية مقابل الثمن.

ان المستعسكات التي استشهد بها تنياهو لتغيير اسم فلسطين الى
مسمى "ارض اسرائيل"، لا تخرج عن اطار القصص الخرافية، التي ربما
تتطلي على السذج من الاطفال، او تصلح لان تكون مادة للتسلية، ومع
ذلك فثمة اناس في العالم الغربي يصدقونها، في غياب اعلام عربي مواز،
يستصرخ الحقائق بالقول والعمل.

ولم ينس تنياهو ان يعزف الحان الديمقراطية، التي ينعم بها شعبه،
ودولته فيما بعد، ويجمل منها مقياساً لصنع السلام، ذلك ان الدول
الديمقراطية من وجهة نظره هي القادرة على احلال السلام، واستبعاد
الحرب، مؤكدا ان سلاماً بين الديمقراطية الاسرائيلية، لا يتسنى له ان
يتحقق مع الدكتاتوريات العربية.

مثل هذا الطرح، قد يكون مقبولاً لدى دول الغرب التي لا تتوفر
لها الدرجات الدنيا من الحقائق عن "ديمقراطية" اسرائيل، التي تميز
بين اليهودي الغربي ونظيره الشرقي، والعلماني والمتدين، وعن "الفلاشا"
حدث ولا حرج، حتى اذا ما وصلنا الى "العربي الاسرائيلي"، فهو مواطن
من الدرجة الاخيرة.

لقد مضى الزمان الذي كانت فيه الديمقراطية الاسرائيلية تثير
الاعجاب، ذلك انها اصبحت لا تتعدى السباب والتقاتل في الكنيست وفي
الحكومة، وسيادة لغة الشوارع.

لعل اكثر ما يثير الانتباه في كتاب "مكان تحت الشمس" ذلك الفصل
الذي يتحدث عن العداء العربي - الاسرائيلي، ذلك ان تنياهو اثر تحييد
الاحتلال على الارض، باعتبارها ارضاً اسرائيلية مسلماً بها، ليس
للفلسطينيين اي حق فيها، ليحيل الصراع، الى كراهية العرب للغرب،
ولان اسرائيل تنتمي الى الغرب، بل هي جزء لا يتجزأ منه، لذلك انتقلت
الكراهية العربية الى اليهود، كتحصيل حاصل.

وهذا الاستنتاج ليس ساذجاً، ذلك انه اعلامي تحريضي في هدفه
الأول، ويدخل في اطار العداء العربي، وهو امر مغاير للحقيقة تماماً،
والاصطفاث اليهودي الغربي، الذي يعرف بالاستعمار قديمه وحديثه،
هو الذي خلق حالة العداء، وما يسمى بالحضارة الغربية، ليس سمة من
سمات الامة العربية، ويبدو ان تنياهو، اغفل حقيقة ان العرب هم اساس

الحضارات، وتناسى انهم آباء العلوم والاداب والطب... وان الغرب عموماً
مدّين لهم في كل ما وصلوا اليه.

سلسلة طويلة من الاوراق المختلطة البهشة، نجدها ماثلة في كل جملة
وكلمة ومصطلح في كتاب تننياهو، ولعل الباحثين عن الفكر الصهيوني
في اقصى يمينه، يستطيعون ان يجدوا ضالتهم في كتاب تننياهو، بدءاً
بالكراهية والحقد مروراً بالتطرف والارهاب، وانتهاء بالاطماع التوسعية،
وهم سيجدون فكر الليكود في اجلى صوره، الذي ما زال يحلم بارض
اسرائيل الشرقية، مجسداً بمقولة "الاردن ضفتان هذه لنا وتلك ايضاً".

كتاب تننياهو صدر بالانجليزية اولاً، وتحت عنوان "مكان بين الامم"،
ومن ثم ترجم الى العبرية تحت اسم "مكان تحت الشمس"، ولم تكن
الاتفاقية السلمية بين الاردن واسرائيل قد وقعت، وفي ظل تأييد الليكود
للاتفاقية، تسامنا، عما اذا كان تننياهو يضمن غير ما يعلن، فحاولنا
عبر طرف ثالث انتزاع وثيقة منه، يحدد من خلالها موقفه من معاهدة
السلام الاردنية - الاسرائيلية، تحديداً، ومواقفه من النزاع العربي -
الاسرائيلي عموماً، وقد آتت جهودنا اكلها، حيث خصنا تننياهو بمقدمة
للطبعة العربية، كتبها باللغة الانجليزية، ووجدنا، استكمالاً للقائدة ان
نصورها كما جاءت، اضافة الى ترجمة امينة لها باللغة العربية اضافة الى
تعقيبنا عليها محل مقدمة الكتاب الاصلية، التي سنوردها ايضاً في
مطلع الكتاب.

في القراءة الاخيرة لكتاب "مكان تحت الشمس"، كانت الفصّة قد
بلغت الحلقوم، من فرط ما جاء في الكتاب من اسامات، تجراً من خلالها
على اتهام شخصيات عربية مشهود لها بالاصالة والشرف والوطنية.

هذا الاشكال، وضعنا امام احد امرين لا ثالث لهما:

■ الأول حذف الفقرات المسيئة، وهي على كثرتها ستفرغ الكتاب من
مضمونه، وفضلاً عن ذلك، ليس لدينا مصلحة في تشذيب افتراءات
المؤلف.

■ الثاني: ابقاء هذه الفقرات على حالها، ذلك أننا لسنا بحاجة الى
استدعاء فطنة القاري، القادر على تمييز الفث من السمين، وهذا ما
اعتمدناه، وهو في المحصلة يعبر عن وجهة نظر المؤلف.

كتاب "مكان تحت الشمس" لزعيم حزب الليكود بنيامين نتنياهو، واحد من المؤلفات الصهيونية المبرمجة، اعد ليكون برنامجاً انتخابياً، يخوض بموجبه انتخابات الكنيست القادمة، فضلاً عن انه ورقة عمل يهتدي بها اذا ما اعتلى نتنياهو سدة الحكم، فهو يرسم ابعاد الفكر الصهيوني، مجسدة في شخص ربما كان رئيس الوزراء الاسرائيلي القادم.

والله الموفق
أسرة دار الجليل

مقدمة المؤلف للطبعة الصبرية

اعتدت خلال عملي كسفير لاسرائيل لدى الامم المتحدة، في منتصف الثمانينات، الالتقاء احيانا بصورة سرية مع احد السفراء العرب في الامم المتحدة.

في احد اللقاءات، قال لي الدبلوماسي العربي: انني اقول لآخواني العرب - لقد انتهى الامر. سألته: ما الذي انتهى؟

اجابني: الخيار العسكري العربي. فننذ حرب حزيران لم تعد لدينا امكانية اخضاع اسرائيل في ميدان المعركة، وان اية حكومة اسرائيلية لن توافق على العودة الى خطوط عام ١٩٦٧. انني اقول لآخواني: لا خيار لدينا سوى التسليم بوجود اسرائيل.

لقد انطلوت تلك الحادثة على اعتراف جديد كان ينتشر تدريجيا في كل الدول العربية بعد الانتصار الاسرائيلي في حرب الايام الستة. ادى هذا الانتصار الى نقل حدود الدولة من ضفاف نهر اليركون الى ضفاف نهر الاردن، ومن ضفة بحيرة طبريا الى مرتفعات الجولان، ومن مشارف النقب الى قناة السويس.

في مثل هذا الوضع، لم يعد بمقدور الجيوش العربية التغفل الى قلب اسرائيل في اجراء سريع ومفاجيء.

وقد اتضحت للعرب صحة هذا التقرير في حرب يوم الغفران، التي نشبت على حدود اسرائيل الموسعة، وبدأت في ظل ظروف تفاوضية، بالنسبة للعرب، ولكن، في نهايتها، وقف الجيش الاسرائيلي على ابواب القاهرة ودمشق.

ادى الاعتراف بعدم قدرة العرب على هزيمة اسرائيل في حدودها الموسعة، الى خلق نظريتين مختلفتين في العالم العربي:

النظرية الاولى، تقتضي بضرورة التسليم، ولو بحكم الامر الواقع، بوجود اسرائيل، والشروع في نهاية الامر بالتفاوض معها على السلام.

ادت هذه النظرية الى مصالحة تدريجية بين الاردن واسرائيل، ثم في نهايتها التوقيع على معاهدة سلام رسمية بين الدولتين. وكانت تلك هي

نظرية السفير العربي، الذي كنت اتحدث معه في الامم المتحدة، وعناصر اخرى في العالم العربي، تتقدم بثبات منذ حرب الايام الستة، نحو تحقيق سلام رسمي وكامل مع اسرائيل.

غير انه، في المقابل، تطورت في الاوساط العربية نظرية اخرى مختلفة في غايتها، اذ اعتقد اصحاب هذه النظرية، ان العرب غير مضطرين للتسليم بوجود اسرائيل، وباستطاعتهم مواصلة السعي للقضاء عليها، فان لم يكن بالامكان تدمير اسرائيل ضمن حدودها الحالية، فيجب اعادتها اولاً الى الحدود الضيقة التي سبقت حرب الايام الستة، ومن ثم شن هجوم مدمر على الدولة اليهودية. ومن اجل اعادة اسرائيل الى خطوط ١٩٦٧، يجب العمل ضدها عن طريق الدمج بين الهجمات الارهابية والعنف، ومن ثم الانتفاضة، بالاضافة الى ممارسة ضغوط عربية على الدول الغربية التي ستحمل اسرائيل على الانسحاب.

تقود منظمة التحرير الفلسطينية التوجه الثاني منذ اكثر من عشرين سنة، منذ اللحظة التي تبنت فيها، بشكل رسمي، مشروع المراحل في ٨ حزيران ١٩٧٤ وبناء على هذا المشروع، تقيم منظمة التحرير الفلسطينية، في المرحلة الاولى، دولة فلسطين على اي منطقة من الارض يخلها العدو الصهيوني. وفي المرحلة الثانية، يتم ابرام ائتلاف عسكرية بين هذه الدولة، وبين دول المواجهة الاخرى، بغية شن هجوم مشترك على اسرائيل المصفرة، لتدميرها.

حتى عام ١٩٩٢، عملت كافة الحكومات الاسرائيلية من اجل تقوية النظرية الاولى في العالم العربي، والتي، على اساسها، سعت لتحقيق مصالحه تدريجية بين العرب واسرائيل، في حدودها الموسعة.

وعلى الرغم من وجود خلافات في الرأي حول خطوط الحدود الدقيقة، كان هناك اجماع وطني واسع بشأن عدم العودة الى حدود عام ١٩٦٧، وعدم السماح بقيام دولة فلسطينية غرب نهر الاردن.

لقد ادى انهيار دولة الاتحاد السوفياتي، التي كانت تدعم الدكتاتوريين العرب، وهزيمة العراق في حرب الخليج، الى خلق ظروف دولية مريحة لتحقيق الهدف الاسرائيلي - اي، تحقيق تسويات سلمية مع العرب، لا تسلب من اسرائيل مكاسبها في حرب الايام الستة.

وعلى اساس هذا المفهوم شرعت اسرائيل لأول مرة في مفاوضات مباشرة مع كل جيرانها في مؤتمر السلام الذي عقد في مدريد عام ١٩٩١. غير انه لدى تسلم حكومة يسارية السلطة في عام ١٩٩٢، طرأ تحول حاد في السياسة الاسرائيلية، فمن خلال تجاهل مدهش للهدف النهائي المعلن من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، عملت حكومة اسرائيل يدا بيد مع عرفات، في اتفاق اوسلو ١٩٩٣، وتبنت، في واقع الامر، المرحلة الاولى من مشروع المراحل الفلسطينية - انسحاب اسرائيلي فعلي الى خطوط عام ١٩٦٧ وخلق الظروف لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (باستثناء المستوطنات التي ستبقى في المرحلة الانتقالية بمثابة جزر معزولة في منطقة فلسطينية معادية، والقدس التي التزمت الحكومة الاسرائيلية ببحث وضعها في المرحلة النهائية للمفاوضات).

كيف حدث هذا التحول في السياسة الاسرائيلية؟

ان من يدرس التيارات الفكرية التي تفرض اي اجراء سياسي، يمكنه ان يدرك حيلة السنوات الماضية، كيف نجحت الدعاية العربية في التغلغل عمقا داخل اوساط واسعة في اليسار الاسرائيلي، وعن طريقه الى اجزاء اخرى من المجتمع اليهودي في البلاد.

لم يكن من الصعب على منظمة التحرير الفلسطينية، ادراك انه لن تكون هناك امكانية لحمل اسرائيل على الانسحاب، دون حملة اعلامية شاملة تؤدي الى احداث تغيير في الرأي العام العالمي، ومن ثم في الرأي العام الاسرائيلي.

دمجت الاستراتيجية التي تبنتها المنظمة بين الارهاب والانتفاضة، وبين الادعاءات الاعلامية التي ظلت تؤكد باستمرار حق الشعب الفلسطيني في ارض اسرائيل - الادعاء الذي لاقى قبولا لدى بعض الجمهور الاسرائيلي كحقيقة غير قابلة للجدل.

ومن خلال التأكيد على الظلم الذي تسببه اسرائيل بسيطرتها على شعب آخر واحتلال ارضه، ظلت منظمة التحرير تكرر التأكيد على ان السلام يمكن تحقيقه بعد زوال الاحتلال فقط، اي بعد اقامة دولة فلسطينية، الى جانب دولة اسرائيل المصغرة.

لم يكن بالامكان نجاح هذه الدعاية لولا جهل اجزاء واسعة من

الجمهور الاسرائيلي بحق الشعب الاسرائيلي في ارضه، وتاريخ النزاع العربي - الاسرائيلي، والاهداف الحقيقية لمنظمة التحرير الفلسطينية وشركائها. والخطر الفظيع الذي يمكن ان يهدد اسرائيل في حالة عودتها الى خطوط ١٩٦٧.

لكن هناك سبباً آخر لنجاح هذه الدعاية.. سبباً يجب اعتباره ظاهرة مزمنة موجودة لدى الشعب اليهودي لأكثر من مائة عام. فمنذ ظهور الحركة الصهيونية السياسية وبدء عملها الجاد للنهضة القومية اليهودية، بدأت تظهر بين يهود أوروبا الشرقية، حركات يسارية متطرفة تحدد بشدة على الصهيونية واهدافها. هذه الحركات مثل بوند التي نادى بمستقبل يهودي اشتراكي في المهجر، والشيوعيين اليهود الذين اعتبروا الحركة الصهيونية أداة للأمبريالية البريطانية. لم تتوقف عن إثارة الجماهير اليهودية في الشتات ضد الصهيونية، وإبراز أخطائها وإخفاء إنجازاتها. وقد زاد هذا التحريض، بشكل خاص في أعقاب أعمال المقاومة العربية الأولى في البلاد عام ١٩٢٠، وذلك عندما استخدموا المقاومة العربية التي نظموها الحاقدون على اليهود من البريطانيين، كدليل على أن الصهاينة يحاولون احتلال أرض ليست لهم، واقتلاع العرب منها وهم أصحابها الحقيقيون.

في الفترة التي سبقت حرب الاستقلال وفي السنوات الأولى للدولة، انتشرت تدريجياً هذه الادعاءات من قبل معارضي الصهيونية في اوساط اليهود، لتصل الى اوساط يسارية داخل الحركة الصهيونية نفسها، ومع اشتداد المقاومة العربية واصبحت هذه الادعاءات حقائق مسلماً بها، غير انها ليست معقولة، لدى شريحة واسعة من اليسار الصهيوني.

هذا الاعتراف الداخلي، بأن تقدم الحركة الصهيونية يتوقف على قمع العرب في البلاد (الذين كان قد أطلق عليهم اسم الشعب الفلسطيني) كان بمثابة الأساس الفكري الذي خلق الخلفية الشعورية لاستيعاب وقبول الدعاية العربية في أعقاب حرب الأيام الستة. وهكذا تبلور لدى هذا الجمهور الاستعداد لقبول ادعاءات منظمة التحرير ومؤيديها، بأن اسرائيل ملزمة بأن تعيد للعرب الاراضي التي احتلتها في عام ١٩٦٧، واعتبار هذه الاعادة، بمثابة تعويض للعرب، أو تلبية جزئية لمطالبهم

العادلة، يمكن ان يجعلهم يتصالحون مع الصهيونية.
في الواقع، تحولت الرغبة في التخلص من المناطق الى ما يشبه احدي
المسلمات لدى الاشخاص المفكرين الاخلاقيين، والثقيين، لا يجوز
معارضتها: يجب على اسرائيل الخروج من المناطق، بما فيها هضبة
الجولان، التي لا يوجد فيها عرب تقريباً.

ولكي يبرروا الانسحاب على هذه الجبهة، يورد مؤيدوها مقارنة كاذبة
بين نزع السلاح من منطقة سيناء. بموجب اتفاقيات كامب ديفيد، التي
أبقت بأيدي اسرائيل العنق الاستراتيجي التي تحتاجه للدفاع عن نفسها،
وبين انسحاب اسرائيلي من مرتفعات الجولان، التي حتى لو تم نزع
السلاح منها، ستبقى اسرائيل مكشوفة لهجوم مستقبلي.

اما ما يتعلق بمناطق الضفة الغربية، فان اهميتها من حيث الحق
اليهودي التاريخي في هذه البلاد، لا تحظى حتى بالتطرق اليها من قبل
مؤيدي الانسحاب ولم تعد لها في نظرهم اية اهمية أمنية.

لذا اصبح الطموح في التخلص، او الانفصال، عن قلب ارض اسرائيل
مبدأ ايديولوجياً وامراً الهياً لدى قسم كبير من الجمهور الاسرائيلي.

ولتحقيق هذا الهدف، تجدد عدد من الكتاب، والمسرحيين،
والمحاضرين، والصحفيين المعروفين في الدولة، وفي سبيل ذلك، كانوا على
استعداد لتجاهل كافة المؤشرات الانذارية التي تؤكد بأن منظمة التحرير
الفلسطينية وشركاءها لم يتنازلوا قيد أنملة عن خطتهم لآبادة اسرائيل.
حتى انهم كانوا على استعداد لقبول تفسير ياسر عرفات، المضحك، بأنه
قصد السلام، عندما دعا المسلمين، في اعقاب اتفاق اوسلو، الى الجهاد من
اجل تحرير القدس.

وهذا الاستعداد لتقديم تنازلات بعيدة المدى، تمت تغطيته منذ
البداءة، من قبل مسؤولي حكومة رابين، من خلال تقديم الانتقائي في
مرحلة الانسحاب من غزة واريحا، كجزء من اتفاق اوسلو.

لقد سميت هذه المرحلة بـ "غزة واريحا اولاً"، مع تركيز خاص على
غزة، التي كانت في نظر جزء كبير من الجمهور الاسرائيلي ليست ذات
قيمة أمنية او تاريخية، بل عبئاً ومصدراً للازعاج، ولذلك لم يعارضوا
التخلي عنها.

ولكن، بعد مرحلة الانسحاب الأول هذا، اتضح نهائياً أن ما هو قادم بمقتضى اتفاق اوسلو، هو تحقيق المطلب العربي في الانسحاب الى خطوط عام ١٩٦٧، واقامة دولة فلسطينية، وجعل القدس الشرقية عاصمة لهذه الدولة.

ومن قبل اعداد الرأي العام لمواصلة الانسحاب، كان لا بد من التغلب على ثلاثة عناصر رئيسية:

* المخاوف الامنية السائدة لدى الجمهور من تسليم مناطق استراتيجية، في وسط البلاد وشمالها لسيادة عربية.

* الرابطة الوطنية العميقة مع هذه الاجزاء من البلاد، التي تشكل قلب الوطن اليهودي.

* التعبير العملي لهذه الرابطة (العلاقة) المتمثل باستيطان يهودي واسع في هذه المناطق.

لذا كان على دعاة الانسحاب الغاء اهمية كل واحد من هذه العناصر لدى الرأي العام الاسرائيلي، وبحماس متزايد، اخذوا يدعون بأن العدو ليس عدواً، والوطن ليس وطناً، والاستيطان ليس استيطاناً، انما هو عبء زائد ألقي على كاهل العناصر الامنية ويجب التخلص منه.

ان الزعماء اليساريين، بتجاهلهم المنهجي لنوايا منظمة التحرير الفلسطينية المعلنة، يوافقون في قرارة أنفسهم على الادعاء العربي، بأن الصهيونية تستند الى خطيئة، تتمثل في احتلال اراض شعب آخر. غير ان موافقة اليسار الاسرائيلي هذه، لا تنطوي على تأييد تشويه تاريخي خطير فحسب، انما تعزز مقاومة العرب لدولة اسرائيل، وتمنحهم عدالة اخلاقية لدى الرأي العام العالمي، وتقوّض الايمان بعدالة قضيتنا، لدى شعبنا في الداخل وفي المهجر.

ان نظرية "ما بعد الصهيونية" هذه، تعتبر اكثر خطورة على مستقبلنا من هجمات خارجية، حيث ان تنازل دولة اسرائيل عن المبادئ الصهيونية، يعتبر تنازلاً عن مصدر حياتها، وعندئذ تبدأ بالذبول.

ان الافتراض القائل بأنه يمكن اصلاح الظلم الذي لحق بالعرب، عن طريق اعادة الضقة الغربية الى حكم عربي، مانعين بذلك إثارة مطالب مشابهة بالنسبة لمناطق اخرى، كان خرج منها العرب في عام ١٩٤٨. يعتبر

افتراضاً فارغاً.

لا يمكن اصلاح الظلم الكبير عن طريق تقليص حبة الجريمة لتقتصر على المناطق الواقعة داخل الخط الاخضر.

اذا لم يكن هنالك حق لليهود في الاستيطان في الخليل وفي بيت ايل، فليس لهم الحق ايضا في البقاء في حيفا ويافا، كما تدعي منظمة التحرير الفلسطينية.

عناً يحاول دعاة الانسحاب، التخلص من هذا الاستنتاج ويمنعهم تفاولهم الساذج من رؤية هذا المبدأ الاساسي.
ان من شأن التنازل عن الضفة الغربية تعزيز المطالبة العربية بالجليل والنقب ومناطق اخرى، في دولة اسرائيل فقط.

اضف الى ذلك، انه ليس من الصعب الادراك سلفاً انه بعد ان تحصل المنظمات الفلسطينية من الحكومة الاسرائيلية عن التنازلات المطلوبة منها اليوم، ستستأنف بقوة اكثر الاعمال الارهابية ضد اليهود، قبل ان تشن حرباً حاسمة. فما هي، قد حصلت عن طريق الارهاب، من حكومة اسرائيل، على عقارات بالغة القيمة، وما الذي يمنهم من الايمان بانهم قد يحصلون على مكاسب اخرى عن طريق استئناف الاعمال الارهابية وتوسيع نطاقها؟

وبناء على هذا المفهوم، سواء بالنسبة للهدف النهائي، او بالنسبة لاسلوب تحقيقه، تشكل منظمة التحرير الفلسطينية مرشداً وقيماً لحماس، ولبقية الحركات الاسلامية المتطرفة.

ان المعنى العملي لتسليم مناطق لمنظمة التحرير الفلسطينية، هو، على اية حال، تسليم هذه المناطق الى قوى الارهاب والاسلام الاصولي.

هكذا، سيؤدي الاستمرار في تطبيق اتفاق اوسلو الى تمطيق اسرائيل بحزام من قواعد الارهاب الاسلامي، هدفها الوحيد القضاء على دولة اسرائيل.

ان الهدف من هذا الكتاب هو تنفيذ الفرضيات الاساسية للنظرية الخاصة بعناصر النزاع العربي - الاسرائيلي وطرق تسويته، كما تعرضها الدعاية العربية - تلك الفرضيات التي اصبحت مسلماً بها، لدى شريحة لا بأس بها من الجمهور الاسرائيلي، لقد جاء التعبير عن الاعتراض على

هذه الفرضيات في مجالين رئيسيين:

- المجال الأخلاقي - عرض النظرية الصحيحة وحق الحركة الصهيونية، وتعمية كذب الادعاءات العربية المضادة.

- في المجال العملي - عرض النظرية السياسية والامنية المطلوبة لضمان بقاء دولة اسرائيل، وتحقيق سلام حقيقي مع جيرانها.

مقابل خطة اليسار الاسرائيلي المؤدية بالضرورة، الى استئفاف المطالبة العربية بتطبيق مشروع التقسيم من عام ١٩٤٧، وتطبيق حق العودة، يبين هذا الكتاب، بأنه توجد طرق أخرى أخلاقية ومألوفة عملياً، في مجال معالجة مشاكل الاقليات القومية- طرق لا تنطوي على تعريض وجود الدول، التي توجد فيها مثل هذه الاقليات، للخطر.

يشرح هذا الكتاب نظرية مختلفة لحل هذه المسألة، ويرفض الرأي القائل، بأن الطريق الوحيدة لحل مشاكل الاقليات بيننا، هي تنفيذ سياسة الترحيل (ترانسفير) بالنسبة للعرب، او فصل الشعوب الذي يعني خروج اليهود من المناطق التي يعيش فيها عرب أيضاً، بما فيها مناطق داخل الخط الاخضر، والتي سيطولها التمرد ضد الحكم اليهودي.

كما ان الكتاب يبين، أيضاً، كيف يمكن ان نحافظ ونوسع دائرة السلام بيننا وبين الدول العربية، دون القيام باجراءات قد تعرض السلام للخطر، وتؤدي في نهاية المطاف الى انهياره.

مثلاً ان السلام التدريجي بيننا وبين العرب، اصبح ممكناً كنتيجة لالغاء الخيار العسكري للقضاء على الدولة العبرية في اعقاب انتصارنا في حرب الايام الستة، كذلك، ستؤدي عودتنا الى خطوط عام ١٩٦٧ لابتعاد العرب تدريجياً عن السلام، ولزيادة الاعمال الارهابية، لتأخذ ابعاداً أوسع. من كل تلك التي عرفناها حتى اليوم، واستئفاف حالة حرب دائمة بيننا وبين العرب في الداخل والخارج.

وفي اعقاب التنازلات الكبيرة في مجالي الارض والقوة، التي ستطلبها اسرائيل في انسحابها لخطوط ١٩٦٧، وبعد مراسيم الدعاية الاحتفالية التي سترافق التوقيع على اتفاقيات هذا الانسحاب، سيتبدد الغبار الذي يثقل على رؤية الأمور على حقيقتها، وستقف مفرمين ضغفاء، في مواجهة واقع مرّ ومحرز : عندئذ سنتسمع من حولنا ، وبشدة أكثر ، المطالب

المطروحة اليوم أيضاً، بشأن مواصلة التنازل عن المناطق التي احتلناها بصورة غير مشروعة، وخلافاً لاتفاق التقسيم الاصيل، وسنجد أيضاً بيننا، من يؤيد الادعاء بأنه ليس لنا الحق في الاحتفاظ، حتى في هذا الجزء الصغير من البلاد، المتبقي بأيدينا.

هذه المسيرة، ستؤدي بالضرورة، اما الى حرب جديدة فضيلة، او الى القضاء على دولة اسرائيل بالطرق السلمية، هذه المسيرة التي يجب علينا ان نوقفها. وهذا التوقف ممكن، عن طريق التخلي عن سياسة التنازلات المتلاحقة، واستبدالها بسياسة واعية وشجاعة، تعمل على تجنيد الرغبة في البقاء لدى الشعب، وتجدد ايمانه القوي بمستقبله.

نحن نقف الآن على اعتاب فترة تاريخية تنطوي على آمال وأخطار معاً، فالنظام العالمي القديم، انهار، في حين ما زال النظام العالمي الجديد بعيداً عن القدرة على الوقوف على قدميه، والضمان الوحيد لبقاء دولة صغيرة في فترات عاصفة كهذه، هي قدرتها على التحرك بصورة صحيحة بين التيارات المتلاطمة لهذا الواقع، وان تستحضر من داخلها، الاصرار المطلوب للنضال، من اجل حقها في تكريس وجودها في وطنها العتيق، وبناء مستقبلها من جديد عليه.

وانه لما يدعو للأسف، أننا نرى طبقات معينة من الجمهور الاسرائيلي تركض بجنون، نحو ما هو مفروض علينا من منظمة التحرير الفلسطينية - ركضاً يبيع من روح مجنونه سيطرت على جزء من الشعب، ومن تفضيل ما هو آني على ما كان وما هو آت معاً، ورؤية سياسية وأمنية قصيرة المدى، والتخلي عن حقوق الشعب اليهودي في ارضه، التي تعتبر الاساس الاخلاقي الوحيد لاحتفاظنا بأي جزء من هذه البلاد.

ان أحداً لا يعلم ما ينتظر الشعب اليهودي في القرن الواحد والعشرين، ولكن علينا بذل كل جهد ممكن، لكي نضمن ان يكون مصيره افضل من مصيره في النصف الاول من القرن العشرين، قرن الكارثة، فمن جهة، ثباتنا، من جديد، على ارض اسرائيل، واستئناف السيادة اليهودية وقوة الدفاع اليهودية، واحياء الثقافة اليهودية، على اساس القيم الدائمة لشعب اسرائيل - كل هذه الامور، تعتبر مؤشرات لثورة كبرى في وضعنا القومي، التي بمقدورها أيضاً، ان تؤدي الى قبولنا

لدى معظم جيراننا كحقيقة قائمة في المنطقة. وضمان مستقبل الشعب اليهودي كله.

ومن جهة ثانية، تبرز حالياً مؤشرات أخرى لا تبشر بالخير لشعبنا.
اننا نشهد تصاعداً جديداً للاسامية، بما فيه موجة قوية من الكراهية
لاسرائيل، من جانب القوى الإسلامية التي تزداد قوة، كما نشهد زيادة
سريعة في الانحصار اليهودي في المهجر - وهما العنصران اللذان يشكلان
أهم عناصر المشكلة اليهودية في العالم.

غير أن المسألة اليهودية برمتها، لا تشغل اليسارين في الزعامة السياسية، الذين تسيطر عليهم فكرة تحرير الفلسطينيين من نير الاحتلال الاسرائيلي، من خلال خروجنا من قلب وطن الشعب اليهودي.
ان الاعتراف بأن الشعب اليهودي ايضاً يجب ان يكون له مكان تحت الشمس، وان ليس له مكان آخر سوى أرض اسرائيل، ليس هو النظرية التي تحرك رجال اليسار، اليوم، وعلى اية حال، فإن الفكرة ليست متجذرة في فهم عميق لمصادر الحق اليهودي على هذه الأرض، وفي معرفة الشروط المطلوبة لترسيخ هذا الحق فعلياً.

غير أنه، بدون ايمان قوي بعدالة قضيتنا، لن نستطيع مواجهة التحديات، ودون معرفة واضحة بوضعنا الوطني، لن يخلق فينا مثل هذا الايمان.

على اية حال، ان تنمية وعينا الوطني، هو الامر الذي سيحدد مصير صراعنا الطويل مع العالم العربي، وهو الذي سيضمن مستقبل الامة في عهد السلام ايضاً، وهو موضوعنا الرئيسي في هذا الكتاب.

المؤلف

مدخل

تعتبر عودة اليهود الى منصة التاريخ كأمة ذات سيادة ، حدثاً فريداً في تاريخ البشرية ، ولكن ، رغم خصوصيته ، لا يمكننا البحث في صراع الشعب اليهودي في سبيل لقامة دولة اسرائيل ، بعيداً عن توق كافة الامم لنيل الحرية والاستقلال .

لذا يمكننا ادراك تكون الحركة الصهيونية ، بصورة كاملة ، من خلال التطرق الى الصراعات الكبيرة التي حددت مسيرة التاريخ في القرنين الآخرين - الصراع بين الطموحات القومية ، وبين الطموحات الامبريالية ، الاصطدامات بين المطالبة بحق تقرير المصير ، وبين الايديولوجية الشيوعية ، التي تعتبر دولية وفوق دولية من اساسها .

لهذا السبب ، لا بد ان تكون هنالك تأثيرات عظيمة للتقلبات السياسية التي تشهدها نهاية القرن العشرين ، على مستقبل دولة اسرائيل . من الصعب ايجاد قرائن تاريخية للانهيال المدهش الذي اصاب الاتحاد السوفياتي ، ففي لحظة ، انفجر الحلم السوفياتي لتحقيق حكم عالمي يشرف على سلسلة من المناطق المنضبطة من اوروس الشرقية وحتى امريكا اللاتينية .

وهكذا ، بشكل مدهش ، تبخر الايمان بالشيوعية كنظرية يمكن ان تؤدي الى نظام عالمي وعدالة بشرية - نظرية آمن بها ملايين الناس ، بحساس بلغ درجة التعصب الديني .

ان انهياراً مزدوجاً كهذا ، الذي اصاب اكبر امبراطورية في التاريخ (من حيث المساحة) ، واكبر كنيسة في التاريخ (من حيث عدد اتباعها) ، لا بد ان يترك اثاراً سياسية عظيمة تظل كافة الامم والدول .

ليس عبثاً ان يدور الان جدال حاد حول مبادئ جديدة يمكن ان تساعد البشرية على تهدئة عالم عاصف .

من المفهوم في حد ذاته ، ان يتركز هذا الجدل ، في البداية ، حول الجمهوريات السوفياتية السابقة والدول التي شكلت الكتلة السوفياتية ، ونالت حريتها الان . غير انه ستكون هناك اثار على التسويات التي ستتع

في هذه الدول ، على بقية اجزاء العالم ، وعلى الطريقة التي بواسطتها ، يتم حل النزاعات القومية والعرقية المختلفة التي تتدلع في العالم صباح مساء .
ان المجتمع الدولي وهو يسعى لتحقيق نظام جديد ، يعود مرغماً تقريباً ، الى النقطة التي سبقت ظهور الشيوعية ، فظهور الشيوعية والحرب الباردة التي تمخضت عنها ، كانا بمثابة جليد ، طمر تحته كثيراً من المشاكل غير المحلولة من القرن التاسع عشر ، مشاكل ربما كانت طيلة عشرات السنين غير مرئية ، لكنها ظلت مجمدة ومحفوظة جيداً (على غرار ما نشهده الان في الصراع العرقي المتجدد في البلقان) .

في الواقع ، هناك من يدعي بأن القرن التاسع عشر لم يكن ذا مشاكل ابداً . اذ انه في اعقاب هزيمة نابليون في عام ١٨١٥ ، اصبح هذا القرن هو الأهدأ منذ الفي سنة- منذ "سلام روما" الذي تحلق بتهديد العساكر .
لقد اقتسمت الامبراطوريات المتنازعة فيما بينها ، العالم ، كمناطق تقوّد ، دون الحاجة الى الدخول في حروب كبيرة او التسبب في كوارث خاصة .
غير انه تحت الواجهة الخارجية الهادئة تلك ، كان هناك غليان لا ينقطع .
حيث ان قبائل تاريخية عريقة ، وامارات مستقلة ، ومدناً كبيرة على غرار ما كان سائداً في العصور الوسطى ، تعاونت معاً في انحاء اوروبا ، واوجدت أمماً محددة ، وانتقل ملايين الاشخاص من القرى الى المدن الكبرى الصناعية .

وهذه المسيرة ، لا زالت قائمة في عصرنا هذا ، انتقلت من اوروبا الى اسيا وافريقيا ، وهي تغيّر وجه العالم كله اليوم .
الحركات القومية ، التي ظهرت في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، سرعان ما اصطدمت بالنظام العالمي في تلك الفترة وبعد "ريبع الشعوب" القصير قُمعت الثورات القومية في عام ١٨٤٨ دون رحمة .

غير انه في نهاية الامر ، عندما انهارت الامبراطوريات الكبيرة في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، دعت الضرورة الى ايجاد حلول لمختلف المشاكل المتعلقة بتقرير المصير للشعوب التي كانت ضمن سيطرتها .

وعلى اية حال ، بعد الانتصار في الحرب العالمية الاولى عملت دول

الحلفاء بدءاً واحدة، من أجل وضع نظام عالمي جديد، وقعت على معاهدة فرساي، انشأت عصبة الأمم، واعترفت رسمياً بنظرية تقرير المصير، التي نادى بها الرئيس ويلسون.

كان مؤتمر فرساي، في الواقع، أول مؤتمر في سلسلة طويلة من المؤتمرات الدولية التي عقدت في الفترة ما بين ١٩١٩-١٩٢٢، من أجل تقرير نتائج الحرب العالمية الأولى، وكان رئيس حكومة بريطانيا ديفيد لويد جورج، أحد مهندسي هذه الاجتماعات (المؤتمرات)، قد شارك بها لا يقل عن ٣٣ مؤتمراً في تلك الفترة.

كان من أبرز تلك المؤتمرات (بالنسبة لليهود)، مؤتمر فرساي (الذي عقد في كانون ثان ١٩١٩)، ومؤتمر لندن الأول (نيسان ١٩٢٠) مؤتمر سوار في فرنسا (آب ١٩٢٠). ولعدة أسباب، يمكننا تعرض القرارات التي اتخذت في تلك المؤتمرات بأنها "تسويات فرساي".

لقد تمخض عن مؤتمر فرساي والمؤتمرات التي تلتها خطة مفصلة، تحدد بموجبها من يأخذ كذا... ولماذا.

كانت تلك الخطة تستند في أساسها الى نظرية ويلسون التي تمنح الحق للجماعات القومية المتفرقة باقامة دولة لها، تستطيع في اطارها تحديد نمط حياتها بأسلوبها الخاص وبمحض حريتها.

لم يكن بالامكان دائما تطبيق هذه الخطة حسب هذا المفهوم. ففي حالات معينة، عندما كان يبدو عدم وجود امكانية عملية لنج كل قومية مكانة مستقلة، كان يتم تجميع عدة اسم في دولة واحدة، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا، يوغسلافيا، غير ان هاتين الحالتين كانتا فريدتين. فمثلا، حظيت جمهوريات البلطيق-ستونيا، لاتفيا، ولتوانيا- التي تتمتع كل واحدة منها بلغة وتاريخ وثقافة خاصة بها، بمكانة اسم مستقلة. كما حظيت بالاستقلال ايضاً، بولندا، التي كانت مقسمة طيلة ما يزيد على مائة عام، بين روسيا، بروسيا، والنمسا. كما تم تحرير هنغاريا، التي كانت تخضع آنذاك تحت حكم الامبراطورية النمساوية-الهنگارية.

وبناء على هذا المقياس ، كان من المقرر ان تتحرر ارمينيا ، جورجيا ،
واذربيجان من النير الروسي .

كما ان اقاليم في انطوليا الغربية المأهولة بأغلبية يونانية ، كان مقرراً ان
تتقل الى اليونان ، وكذلك البانيا ، نالت استقلالها ، في حين نالت كردستان
حكماً ذاتياً . اما استراليا ، كندا ، وجنوب افريقيا ، فقد اعترفت بها لأول
مرة كدول ذات سيادة ، ومنح اعتراف مماثل لشعب واحد آخر هو : الشعب
اليهودي .

كانت الحالة اليهودية ، مختلفة ، بالطبع ، اذ انه خلافاً لبقية الشعوب ،
كان الشعب اليهودي مشتتاً ، بعد ان هجر موطنه قبل مئات السنين ، غير
ان هذا الامر لم يكن كافياً لتغيير قرار دول الحلفاء ، في مطلع القرن
الحالي ، القاضي بحق اليهود في دولة خاصة بهم ، بل على العكس ، عزز
تشردهم المأساوي المستمر ، الايمان بأنهم يستحقون دولة خاصة بهم ، تضع
نهاية لتشردهم .

علاوة على ذلك ، ساد آنذاك انضاق واسع على ان من حق اليهود ان
يقيموا من جديد حياتهم القومية في وطنهم العتيق ، فلسطين ، التي كانت
حتى عام ١٩١٧ تحت حكم الامبراطورية العثمانية ، التي اختفت لتوها من
العالم . وهكذا حظيت الحركة الصهيونية بالاهتمام الذي حظيت به حركات
اخرى ، كانت تطالب بتحقيق اهدافها القومية .

بعد ذوبان جليد الحرب الباردة ، التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ،
عاد عالم فرساي ليطفو على السطح من جديد ، حيث بدأ المجتمع الدولي
ينفض الغبار عن مبادئ فرساي ، ليميد الحياة الى التسويات التي تقررت
آنذاك : المشاكل غير المحلولة (مثل البلقان وتشيكوسلوفاكيا) ، عادت
لتندلع بشدة ، وكأن شيئاً لم يحدث منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى .
وعادت جمهوريات البلطيق لتبيل استقلالها . وكما ان الحرية التي ضمنها
معاهدة فرساي لشعوب وسط وشرق اوربا ، اعيدت الى نصايها ، حتى ان
اتحاد اوربا الغربية الذي اعلن عنه ببهجة كبيرة ، والذي يرى الكثيرون
بأنه محاولة للقضاء على الولاعات القومية ، لا يظهر اية مؤشرات بأنه قد
ينجح في احداث تحول كبير في مشاعر الانتماء القومي والعرقى . وهكذا

شهد من جانب جديد تأثيراً متزايداً للمشاعر القومية بقوة دافعة في الحياة الدولية، ولقدرة الصمود لكثير من الحلول التي تحققت في مطلع القرن الحالي لنزاعات قومية متنوعة- حلول حظيت بموافقة وقبول معظم دول العالم .

غير ان الامر مختلف بالنسبة للقومية اليهودية ، فهناك حكومات وزعماء دول ، يتكبرون اليوم لما كان مقبولاً في فرساي ، كحل عادل للمشكلة اليهودية ، ومعظم هؤلاء موافقون على ان للشعب اليهودي حقاً في دولة خاصة به ، لكنهم يرفضون تماماً ما تم اقراره في فرساي ، بشأن مساحة الوطن اليهودي ، ففي افضل الحالات يوافق زعماء العالم على ان يلقوا لليهود بعض الفتات من الاقتراح الاصلي .

لقد تم في فرساي ، التمهيد لليهود باقامة دولة في فلسطين . وشمل الوطن القومي آنذاك ضفتي نهر الاردن .
هذه المنطقة التي تسمى ارض اسرائيل الانتدابية (المنطقة التي كلفت بريطانيا عام ١٩٢٠ ان تقيم فيها وطناً لليهود) ، شملت اراضي دولتي الاردن واسرائيل اليوم ، غير ان الكثيرين يدعون اليوم ، ان اليهود لا يستحقون حتى ٢٠% من هذه الاراضي (اي ، اسرائيل بما فيها الضفة الغربية وغزة) ، ويطالبون بأن يكتفي الشعب اليهودي بـ ١٥% فقط من منطقة الانتداب الاصلية (اسرائيل ، بدون الضفة الغربية وغزة) .

ان خطوة كهذه ، ستبقي لليهود دولة يبلغ عرضها حوالي ١٥ كم ، تزدهم مدنها ومستوطناتها على طول شواطئ البحر المتوسط ، في حين يظل العرب الذين يقودهم زعماء كارهون لليهود ، يسيطرون عليهم من على جبال الضفة الغربية التي تشرف على الدولة برمتها . وهكذا لن يبقى من تعهدات فرساي للشعب اليهودي التي تقضي بأن يحصل على دولة ضمن مساحة معقولة ، ذات قدرة على البقاء واستيعاب ١٥ مليون يهودي وذريتهم ، سوى "جيتو" متور الجناحين ، مضغوط بصورة تثير الشفقة ، في قطاع ساحلي ضيق .

أي مقابل غريب هذا : في فرساي ، ثم التمهيد للشعب اليهودي ببيت

قومي في وطنه التاريخي ، على ارض تبلغ مساحتها خمسة اضعاف مساحة دولة اسرائيل حالياً . وقد أعطي هذا التمهيد في اعقاب اعتراف دولي واضح بحق اليهود في العودة الى الارض التي اخرجوا منها رغم ارادتهم ، معزز بتعاطف العالم مع المعاناة الفظيعة التي لحقت بالشعب اليهودي أثناء فترة تشرده الطويلة .

والآن ، بعد سبعين سنة ، من مؤتمر فرساي ، وبعد اباداة ستة ملايين يهودي في الكارثة ، وبعد خمس حروب ، حاول العرب بها اباداة ما تبقى من الشعب اليهودي ، الذين تجمعوا على هذه الارض الصغيرة ، التي أعترف بها كأرض لهم ، يقولون لنا ان هذه الارض كبيرة للغاية بالنسبة للشعب اليهودي .

والاسوأ من هذا ، انهم يقولون لنا ، ان الرغبة في ان يكون عرض دولتنا ٦٥ كم بدلاً من ١٥ كم ، تعتبر دليلاً على أن الشعب اليهودي شعب عدواني وتوسعي .

كيف حدث ان الصهيونية ، التي تمتعت بتأييد دولي في مطلع القرن الحالي ، تتعرض لهجمات شديدة الى هذا الحد ، في نهايته ؟ وكيف حدث ، ان الحركة حظيت بدعم حماسي من قبل زعماء كبار مثل وودرو ويلسون ، لويد جورج ، جورج كلمنصو ، وتوماس مسريك ، تتعرض الآن لانتقادات سلبية ، ولضغوط مستمرة ، من جانب زعماء العالم في عصرنا هذا ؟

ما هو السبب وراء تحول مصطلح "صهيوني" الذي سبق أن تفاخر يهود ومسيحيون باطلاقه على انفسهم ، الى مصطلح مرفوض ، او على الاقل ، مثير للشكوك ؟ كيف حدث هذا التغيير بعيد المدى ؟

ولكي نجيب على هذه الاسئلة ، يجب علينا ان ندرس أولاً الصعود المذهل للحركة الصهيونية التي استعانت باكبر دول عظمى في العالم ، ومن ثم تخلي تلك الدول العظمى نفسها عن هذه الحركة .

الفصل الأول

ظهور الحركة الصهيونية

في خريف عام ١٨٩٥، زار ثيودور هرتسل، مراسل الصحيفة النمساوية المشهورة (Neue Freie Presse) في باريس، صديقه الكاتب المعروف، ماكس نورداو. اراد هرتسل الاستماع من نورداو الى تعقيبه على فرضيته القائلة: ان اللاسامية المتصاعدة تعرض يهود اوروبا لخطر لم يسبق له مثيل، ومن شأن، هذا الخطر ان يدفع باعداد كبيرة من اليهود الى صفوف الشيوعية، الامر الذي من شأنه زيادة أوار اللاسامية. وهذه التطورات، حسب رأي هرتسل، ستكون مأساوية ليس فقط بالنسبة لليهود، بل لاوروبا كلها. والحل الوحيد هو اقامة دولة يهودية فورا، وغروج اليهود المطاردين اليها.

كان هرتسل صريحا بالنسبة للقبول الذي حظيت به أفكاره لدى الاوساط اليهودية المتنفذة في اوروبا. وقد اقترح عليه احد اصداقائه ان يشرح خطته امام نورداو، الذي كان عالما نفسانياً. قال هرتسل: "يعتقد شيف انني مجنون".

رد عليه نورداو، الذي كان يكثر من الكتابة حول افول نجم المنية الاوروبية، بقوله: "إذا كنت أنت مجنوناً، فأنا مجنون مثلك أيضاً. انني اقف الى يسارك، وتستطيع ان تثق بي". وهكذا، بعد ان جتد هرتسل، نورداو، الى جانبه، بدأت شراكة مدهشة ومميّزة، مزجت بين نبوة وهدف عملي، انبثق عنهما قيام الحركة الصهيونية السياسية، تلك الحركة التي أحدثت ثورة في تاريخ الشعب الاسرائيلي. كان جبل صهيون، في قلب مدينة القدس، في نظر هرتسل ونورداو، يمثل رمز اقامة الدولة اليهودية من جديد، التي سيعود اليها عدد كبير من يهود الشتات لتجديد حياتهم القومية. ولهذا اطلقا على حركتهما اسم "صهيونية".

بالطبع، كان للحركة الصهيونية سابقة عديده، بدءاً بطموحات اليهود المستمرة، منذ العهد القديم، لاستعادة حياتهم السيادية في وطنهم، وحتى مطالبات الخلاص القومي التي نادى بها الحاخام يهودا القلعي من صربيا، في الاربعينيات من القرن التاسع عشر، والحاخام تسفي هيرش كليشر من بولندا،

وموشه هاس العلماني، في الستينات من ذلك القرن.

كان هاس يأمل، في البداية ان يجد حلاً للمسألة اليهودية في اطار الشيوعية، لكنه تمسك في نهاية الامر بفكرة النهضة السياسية للشعب اليهودي على أرضه. من الاهمية بمكان، الاشارة هنا، الى انه سبقت هرتسل، الحركة اليهودية القومية التي نمت في روسيا في سنوات الثمانينات من القرن التاسع عشر، بزعامة م.ل. ليلانبلوم، وليثون فينسكرك، لقد تناول كتاب فينسكرك المختصر والجريء، بعنوان "تحرير الذات"، الذي صدر عام ١٨٨٢، بعد سنة واحدة من المذابح في روسيا، كافة المواضيع الرئيسية التي طُوّرت، فيما بعد، من قبل هرتسل.

لقد أثار كتاب فينسكرك الوعي القومي اليهودي لدى اوساط عديدة في يهود روسيا، وبعث روح الحياة في الرغبة بالاستيطان في "أرض اسرائيل" الذي بدأ في مطلع عقد الثمانينات.

لم يقرأ هرتسل كتاب فينسكرك، قبل ان يؤلف كتابه "دولة اليهود" عام ١٨٩٦، لكنه توصل الى نفس الاستنتاجات بنفسه، اضف الى ذلك انه عندما كتب هرتسل افكاره، لم يكن يعلم ابداً بأنه أصبحت هنالك ارضية خصبة لاستيعابها في اوساط الطوائف اليهودية المتواجدة في شرق اوروبا. غير انه سرعان ما أصبح هرتسل معروفاً لدى هذه الحركة، بعد أن بدأت افكاره تترك اصداءً في العالم اليهودي، لكن هرتسل كان مختلفاً عن أي ايديولوجي، او حامل يهودي سبقه.

في عام ١٨٩٤، غطى هرتسل، بتكليف من الصحيفة، محاكمة درايفوس في باريس، وقد دفعته المشاهد اللاسامية التي رافقت المحاكمة، الى التفكير في المسألة اليهودية، وسرعان ما بلور خطة محددة، لحل هذه المسألة: سلسلة اجراءات عملية لاقامة دولة قومية يهودية حديثة في "أرض اسرائيل"، تكون شاطئه امان، وبيتاً للملايين اليهود المقيمين في اوروبا، الذين يسيمرون نحو نهاية فظيعة، وسعى هرتسل الى الحصول على تأييد الدول العظمى ودعمها لاستيطان يهودي في "أرض اسرائيل" يحمي نفسه بقوة جيشه.

ولتحقيق هذه الغاية، طلب وضع كافة الموارد والطاقت المالية التي يملكها الشعب اليهودي، في كافة انحاء العالم، واسس صندوق (Jewish Cononial Trust) صندوق الاستيطان اليهودي - الذي استخدم قسم بسيط من رأس ماله، لاقامة البنك القومي الاسرائيلي محدود الضمان.

ان الطابع السياسي الذي اضفاء هرتسل على الحلم اليهودي القديم في العودة الى ارض اسرائيل، هو الذي أثار خيال ملايين اليهود وغير اليهود في انحاء العالم.

كان جدي الحاخام تان ميلايكويسكي، الذي تجنّد للحركة الصهيونية في شبابه، في عقد التسعينات من القرن الماضي، واحداً من عدد لا يعد ولا يحصى من المتحمسين لهذه البشري، واصبح احد مبشري هذه الحركة الرئيسيين، ونشر مبادئها بين اليهود في شرق سيبيريا حتى مينوسوتا في الولايات المتحدة الامريكية. وبعد فترة من الوقت، في عام ١٩٢٠، اثبت أنه ليس من الذين يقولون ولا يفعلون، انما يقول ويفعل: حمل عائلته الكبيرة، وأبحر من ترايست الى حيفا، واستوطن في ارض اسرائيل.

انني احتفظ بصورة له بصفته عضواً في احد المؤتمرات الصهيونية الاولى. وتعود الصورة الى المؤتمر الصهيوني الثامن الذي عقد في لاهاي عام ١٩٠٧. كان جدي، آنذاك، في السابعة والعشرين من عمره، وكان ذلك اول مؤتمر يشارك فيه. وفي نفس المؤتمر، شارك ايضاً هاييم فايتسمان، الذي اصبح بعد بضع سنوات، رئيساً للمستدروت الصهيونية العالمية، وفيما بعد، أول رئيس لدولة اسرائيل، وكذلك الكاتب والخطيب زئيف جيبوتنسكي، الذي تزعم، فيما بعد، الحركة الاصلاحية، وحدثت بين الاثنين خلافات وصدامات حول اهداف الحركة الصهيونية، غير انه في عام ١٩٠٧، ساد بينهما اتفاق في الرأي تجاه معظم المراضيع.

لم يجتذب المؤتمر اليه نشطاء سياسيين فحسب، بل شارك في ذلك المؤتمر هاييم نحمان بيالك، اكبر الشعراء اليهود في العهد الجديد. كان بريق فكرة هرتسل وقوتها كبيرين لدرجة جعلت عدداً كبيراً من أفضل الكتاب والمثقفين، والفنانين اليهود في اوروبا ينضمون اليها، كما حظيت بتعاطف جميع الامم المتحضرة، والحكومات الاوروبية.

حدثت الصهيونية السياسية الطريق لتحقيق نظام حكم يهودي قومي، ووقّرت الايحاء لاستيطان جماعي متجدد في الوطن اليهودي المهجور. كان التأييد للفكرة الصهيونية، منذ البداية بين من هم غير يهود، اكبر بكثير منه في الاوساط اليهودية. فقد تمكن هرتسل، على سبيل المثال، من مقابلة قيصر المانيا فيلهلم الثاني، الامر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة لصحفي يهودي آنذاك.

لم يكن سرّ تأثير هرتسل، يكمن في شخصيته وميزاته الخاصة فحسب، انما في حقيقة كونه أول يهودي يكتشف فن السياسة، واستغلال المصالح المشتركة على الصعيد السياسي.

فقد وصف هرتسل امام القيصر الالمانى، الحركة الصهيونية، بأنها عبارة عن مشروع من شأنه اجتذاب قسم من المتطرفين الشباب في المانيا، وقيم في مفترق طرق لالمانيا، وتفتح امام القيصر الطريق الى الهند. وطلب هرتسل الرعاية الالمانية للحركة الصهيونية، على افتراض ان المانيا ستجني ربحا سياسيا، غير ان القيصر كان معنياً ايضاً بتخليص مملكته من بعض المراهبين اليهود.

كما نجح هرتسل في مقابلة السلطان التركي في القسطنطينية في ايار من عام ١٩٠١، وفي حديث مع السلطان، ذكر هرتسل ما حدث لاندروكلوس، الذي اقتلع الشوكة من كف الاسد، وقال للحاكم التركي، المفلس، "جلالتك، هو الاسد، وربما اكون انا الاندروكلوس وربما توجد شوكة يجب اخراجها. والشوكة حسبما اراه انا، هي الدين الوطني على جلالتك". اقترح هرتسل اقتلاع هذه الشوكة بوساطة ارباب المال اليهود.

ان الاهتمام الذي ابداه زعماء العالم بالمشروع الجديد الذي لازال في مهده، يدل على صحة اسلوبه وشخصيته. ففي تشرين اول وتشرين ثان ١٨٩٨، اي بعد سنة واحدة فقط من اول ظهور للحركة الصهيونية في المؤتمر الصهيوني الاول، التقى هرتسل مرتين بالقيصر الالمانى.

كما ان الانفتاح الذي لقيه هرتسل في بلاط الملوك وكاتب السياسيين الكبار في عصره ، لم ينسه ، ولو للحظة ، الاهمية العليا التي تكمن في تجنيد مؤيدين

للمسيحية، في اوساط الشعب اليهودي نفسه.

وكانت الشخصية الكبيرة بعد نورداو، من بين المثقفين اليهود الذين جندهم هرتسل، هو الكاتب اليهودي البريطاني المعروف، إسرائيل زنيفيل، حيث قام زنيفيل بترويج الافكار المسيحية، في اوساط يهود بريطانيا، التي كانت آنذاك اكبر دولة في العالم، غير ان التأييد الحماسي الذي حظي به هرتسل لم يكن مصدره الصالونات اليهودية في وسط اوربا وغربها، انما من جماهير اليهود من اوربا الشرقية - في بولندا وبروسيا.

هناك، وجد هرتسل الطبقة اليهودية المثقفة التي تبنت المسيحية بحماس الشباب المتمرد على "الجيتوهات" المغلقة، التي كان يعيش فيها، آنذاك معظم ابناء شعبه.

بدأ هرتسل معركته الجماهيرية في السادسة والثلاثين من عمره، وتوفي بعد ثماني سنوات فقط، في الرابعة والاربعين. لكنه، في غضون هذه الفترة القصيرة، نجح في احداث ثورة لا سابق لها في تاريخ شعبه. وفعلاً لم تكن رؤية هرتسل الثانية جنوباً. اذ ان الفطائع التي تنبأ بها سلفاً، وكذلك النجاح الباهر الذي لقيته فكرته، تحققت خلال خمسين سنة.

فقد اتحدت المواقف اللاسامية المتفرقة، لتشكل حريقاً واحداً هائلاً، يلتهم الجالية اليهودية القديمة في اوربا، وفي نفس الوقت، وقف الشعب اليهودي على عتبة اقامة دولة اسرائيل، وكل هذا كان وفقاً لتنبؤات هرتسل. كيف كانت نوعية ارضية الرأي العالم العالمي التي تجذرت فيها عميقاً افكار هرتسل؟

كان التأييد الذي حظيت به المسيحية من جانب الدول العظمى في العالم، في مطلع القرن العشرين، يكمن في نظرة جديدة للشعب اليهودي، تطورت في عصر الثقافة، وبرزت الحق الطبيعي في الحرية لكل بني البشر.

فقد اكد كثيرون من اقطاب الحركة الثقافية العالمية ان اليهود عوقبوا على ذنب لم يقتربوه وسلبت حقوقهم بدون مبرر، لذا فللشعب اليهودي الحق في العودة لاحتلال مكانة محترمة، ومتساوية مع بقية الشعوب.

ها هو، روسو، صاحب الكثير من افضل وأسوأ الافكار التي كونت شخصية الحركة الثقافية، يفهم جيداً خصوصية وضع الشعب اليهودي، ويقول: "يعرض اليهود أمامنا فكرة ليست بالعادية: قوانين نوما، ليكوجوس، وسولون، انتهت. في حين ان قوانين موسى الاقدم بكثير، ما زالت قائمة، اثينا، اسبارطة، روما، دمرت واختفت من العالم، هي وشعوبها، غير ان اليهودية لم تفقد اتباعها، على الرغم مما لحق بها من خراب، انهم يعيشون في اوساط كل الامم، لكنهم لا ينصهرون فيها، ليس لهم زعماء منهم، لكنهم ما زالوا امة: ليس لديهم دولة، لكنهم رعايا..."

في البداية، بدا ان حل المشكلة اليهودية امر سهل حيث يحصل اليهود على المساواة في الحقوق المدنية والدينية في المجتمعات التي يعيشون ضمنها. ففي الولايات المتحدة، بدأ يتكون فيها آنذاك مجتمع جديد يقام على اساس المبادئ الثقافية، كتب جفرسون، انه سعيد جداً بأعادة الحقوق المدنية الى اليهود. وحدث تقدم مسائل ايضاً في اماكن مختلفة في اوروبا. وبدا آنذاك ان المشكلة اليهودية في طريقها الى الحل... احقاً هذا؟

روسو، الثوري والمتشكك، في آن واحد، تحدث عن شكوكه في هذا المجال. اذ لم يكن روسو واثقاً من قدرة اليهود على المساهمة في الحركات الجديدة، في المجتمع الجديد، بما فيها حرية التعبير: لن اصلق ابداً، بأنني استمع الى مطالبة جنية من جانب اليهود، طالما لا توجد لهم دولة حرة، ومدارس وجامعات خاصة بهم يستطيعون ان يتحدثوا فيها دون خوف. عندئذ فقط، نستطيع ان نعرف ما يريدون.

بأقواله هذه، كان روسو، بين الاوائل الذين اشترطوا الحرية الفردية بوجود حرية قومية.

في هذا القرن الذي نعيش فيه، عصر الدكتاتوريات، اعتقد الكثيرون أنه يمكن اقامة حرية قومية حقيقية دون حرية فردية، لكن روسو يلتصق هنا، الى فكرة عكسية تماماً: ان اليهود كأفراد، لن يستطيعوا أبداً ان يكونوا احراراً بحق، الاّ اذا توفرت لديهم دولة حرة خاصة بهم.

بعد وقت ما ، طوّّر الصهاينة هذه الفكرة ووصلوا الى استنتاج انه لن يكون

بمقدور اليهود، الى الابد، التمتع بمساواة حقيقية، الا اذا عاش ابناء شعبهم المطاردون في دولة خاصة بهم، وكذلك اليهود الذين يمكن ان يبقوا في الشتات في الدول التي يتمتعون فيها بمساواة بالحقوق مع الاغلبية، ستكون لهم مكانة مريحة. واذا لم يكن الامر كذلك، يكون لهم وطن ذو سيادة، يعزز شعورهم بهويتهم ويسكن ان يهاجروا اليه، اذا رغبوا في ذلك كما هي ايرلندا بالنسبة للايرلنديين، وايطاليا للايطاليين، والصين للصينيين، الذين يعيشون في امريكا، غير ان مشكلة اليهود، كانت تنبع من حقيقة انهم لا يملكون مثل هذا الوطن.

لقد وصف اللورد بيرون صهيونية وضع اليهود في مؤلفه "آلحان العبرية" بقوله: "حتى الحمامة وجدت لها عشاً، عرين لكل رجل، وصخرة لكل ارنب، ولليهودي - قبر فقط".

ان فكرة المساواة في الحقوق المدنية ضرورة، لكنها غير كافية لحل المشكلة اليهودية. بدأ هذا الرأي يتعزز ببطء، في بادىء الامر، ثم بدأ يتسارع مع مرور الوقت. وسرعان ما تبلور الاعتراف بأن اعادة بناء القومية اليهودية في الوطن اليهودي فقط، ستؤدي الى حل مرضي. فهذا من شأنه اعادة اليهود الى وضع طبيعي، ليس كأمة فحسب، انما كأفراد أيضاً، قال الرئيس الامريكي، جون ادامز: "أتمنى ان يعود اليهود الى يهودا كأمة مستقلة، لانني اعتقد... انه بعد ان يعودوا الى مكانة مستقلة، لن يكونوا مطاردين بعدها، سيزيلون من على انفسهم، التصلب والغربة في طباعهم".

كما ان نابليون، كان شريكاً بالرغبة في رؤية اليهود عاندين الى وطنهم، بعد ان ادرك، على ما يبدو، ان منح جنسية فرنسية لليهود الفرنسيين، لن يعوضهم عن رد اعتبارهم القومي.

في عام ١٧٩٩، عندما كان جيشه يقف على بعد ٤٠ كم من القدس، اعلن نابليون: افيقوا ايها الاسرائيليون حان الوقت للمطالبة بوجودكم السياسي كأمة بين الامم".

في القرن التاسع عشر، تزايد التعاطف مع اليهود في بريطانيا والولايات المتحدة، وتزايد ايضا عدد الزوار من الغرب الى "ارض اسرائيل"، كما بدأت حركة

هجرة يهودية متزايدة اليها، وظهر اول المشروعات المحددة لاستيطان يهودي واسع النطاق، في "أرض اسرائيل".

كل هذه الامور، ادت الى تعزيز التأييد الغربي لفكرة النهضة القومية اليهودية. وانبرى كتاب وادباء وصحفيون وفنانون وسياسيون، في بريطانيا وامريكا وفرنسا، لترويج فكرة عودة اليهود الى وطنهم المهجور، واعادة تعميره.

ففي عام ١٨٣٠، على سبيل المثال، كتب اللورد شفتسبري انه متأثر بالنسبة لامال ومصير الشعب اليهودي. وقال: كل شيء جاهز لعودتهم الى فلسطين... ان الحيوية الكامنة في الشعب اليهودي تتجسد من جديد بقوة مدهشة... لكن النهضة الكبرى لا يمكن ان تحدث الا في الارض المقدسة.

في عام ١٨٤٠، اقترح اللورد فلمرستون، وزير خارجية بريطانيا، توفير الحماية لكافة اليهود في "أرض اسرائيل"، وتعهد ان يقنع السلطان التركي، بأن الخير يمكن ان يجني، فقط، من حقيقة ان "يقتنع اليهود الموزعون في اوربا وافريقيا، بالقدوم والاستيطان في فلسطين.

كذلك، قال اللورد ليندسي في عام ١٨٤٧: "لقد حافظ الشعب اليهودي على البقاء بصورة مدهشة... وربما توفرت امامه الان الفرصة للبدء في مرحلة اخرى من وجوده القومي، وربما يعود ليملك وطنه من جديد". وفي ١٨٤٥، دعا السير جورج جاولر، حاكم جنوب استراليا ومؤسس الصندوق للاستيطان في فلسطين"، الى توطين المزارع والحقول الفلسطينية، ببناء الشعب النشط، الذي يمنح حبه الاكبر لارضه".

كان السياسيون البريطانيون، الذين اعلنوا عن تأييدهم للنهضة القومية اليهودية، من المعروفين وذوي الاهمية في الادارة البريطانية وهم: فلمرستون، شفتسبري، ويزرائيلي، اللورد سولبري، واللورد مانشستر. كما اعلن عدد من الرؤساء الامريكيين عن تأييدهم للصهيونية ومن ضمنهم: وليام ماكنلي، ثيودور روزفلت، وليام تبت.

منذ مطلع القرن التاسع عشر فصاعدا، بدأت الحركة الصهيونية، على اية حال تتمتع بتأييد متواصل من جانب عناصر ذات نفوذ في العالم غير اليهودي. وقد تم التعبير عن هذا التأييد ، في ادب تلك الفترة ففي عام ١٨٧٦

تنبأت الكاتبة الانجليزية المعروفة، جورج اليوت، بالنهضة اليهودية في كتابها "دنييل ديرونذا" الذي يقول فيه بطل القصة: "لدينا ما يكفي من كنوز الحكمة لتأسيس مجتمع يهودي جديد اصلي، بسيط، وعادل، على غرار المجتمع القديم - جمهورية تكون فيها مساواة في الحماية - المساواة التي اشرفت كنجم على جبين مجتمعنا القديم، وتائق بين ممتلكات الشرق الطامعة، اكثر من ضوء الحرية الغريبة... لان المجتمع الذي سينشأ في مشارف الشرق، سيكون مزيجاً من ثقافات كافة الامم ذات الامة في العالم، ويحظى بتأييدها".

اندمج في هذه الحركة الجماهيرية ايضا تيار بالغ الامة، زادت قوته في القرن الماضي، هو الصهيونية المسيحية. فقد آمن اتباع هذه المفرسة، بأن خلاص البشرية الروحاني، لن يتحقق، الا بعد تجميع الشتات اليهودي وفقاً لما ورد في التناخ.

على اية حال، كانت الصهيونية سواء بالنسبة لليهود او المسيحيين بمثابة تحقيق لنسبة قديمة: "ويحصل معجزة للفرياء، ويجمع اسرائيل الشتات، ويجمع اليهود من كافة اقطار الارض". هكذا، قال يشعياهو. كما تنبأ يحرقييل: "وخلصكم من الفرياء وجمعكم من كل الاقطار، وأحضركم الى ارضكم".

لقد استخدم رجال دين مسيحيون هذه الآيات، قبل خمسين سنة من ظهور الصهيونية. ففي عام ١٨١٤، نشرت في نيويورك الموعظة المشهورة للقس، جون مكديونالد، اكد فيها الدور المركزي الذي تنبأ به النبي يشعياهو، للدولة الجديدة في امريكا، في اعادة اليهود الى ارضهم، قال القس: "يا سفراء امريكا، انهضوا، واستعدوا لاسماع بشرى السعادة والخلاص لانباء شعب منقذكم، الذين يعانون من الظلم... ارسلو ابنائهم واستخدموا اموالهم في سبيل تحقيق هذه الرسالة الالهية". في ١٨٢١ دعا المبشر ليفي برسونس بقوله: "في قلب كل يهودي، تتأجج رغبة لا يمكن اخسائها، لاستيطان الارض التي أعطيت لاجدادهم اذا دُمرت الامبراطورية العثمانية، فان معجزة فقط يمكنها ان تمنع عودة اليهود الفورية الى ارضهم، من كافة اقطار العالم".

وكما زاد حجم الاستيطان اليهودي في القدس والخليل وصفد، وزاد الاهتمام الدولي بالصهيونية، كان يتضح اكثر فاكثراً، بأن هذه التنبؤات ستتحقق.

في عام ١٨٤١، وقبل خمسين سنة من انعقاد اول مؤتمر صهيوني، اعلن زعيم "المرونيتم" اورسون هايد: ان فكرة نهضة اليهود في فلسطين، تقوى يوما بعد يوم... لقد بدأت العجلة الكبرى بالدوران، لا شك في ذلك، وان الرب قد امر بأن تدور هذه العجلة على محورها.

ومن اجل ازالة اية شكوك في هذا الموضوع، كان هنالك بعض المسيحيين، على استعداد لمساعدة العجلة على الدوران.
في عام ١٨٤٤، عيّن، ووردر كرسون، قنصلًا للولايات المتحدة في القدس، لكنه بدلا من ذلك، ساعد على انشاء مستوطنة يهودية - مسيحية اسست في انجلترا.

وبعد ذلك بحوالي خمسين سنة، شذت الصهيونية المسيحية قرة ملموسة. وفي اعقاب المذابح في روسيا، عام ١٨٨١، وعندما بدأت هجرة كبيرة من اوربا الشرقية، استطاع القس الامريكي وليام يوجين بليكستون، تجنيد دعم ما يزيد على ٤٠٠ امريكي من ذوي الشهرة- بينهم جون د. روكفلر، ج.ف. مورغن، واعضاء كونفرس ذوو اهمية، قضاة ومحروو صحف- وتقديم عريضة للرئيس بنجامين هاريسون، طلب فيها، العمل في سبيل اعادة الشعب اليهودي الى ارضه. قال بليكستون في عريضته: منذ ما يزيد على الف وسبعماية سنة، ينتظر اليهود، بصبر، هذه الفرصة الفريدة، هيا نعلمهم الى الارض التي سلبت منهم ببشاعة.

ظل بليكستون مخلصا لفكرته. فبد اكثر من عشرين سنة، وعندما نوقش اقتراح اقامة وطن قومي لليهود في اوغندا، ارسل كتاب تناخ الى هرسل، و اشار فيه بوضوح الى كل النبوءات التي تتحدث عن عودة اليهود الى ارضهم.

والى جانب النشاط الصهيوني - المسيحي، ظهرت في العالم غير اليهودي، حركة علمانية مؤيدة للفكرة الصهيونية، ومن جانب آخر: برز الاهتمام العلمي بالتناخ والتراث اليهودي.

فقد استخدم الباحثون، على مختلف انواعهم، طيلة القرن التاسع عشر، الاساليب الجديدة في التنقيب عن الاثار، وتحليل رموز اللغات، والكشف عن المضمون التاريخي للآثار المكتشفة في ارام نهرايم ، وفي اماكن اخرى في الشرق

اللاوسط. غير ان ارض التناخ، جذبتهم اكثر من اية ارض اخرى.

هل هناك حقيقة تاريخية في قصص "المكراه" ام انها مجرد تخيلات فقط؟
هل فعلاً هنالك وجود للاماكن الوارد ذكرها في التناخ؟ وهل يمكن تحديد
مواقعها اليوم بدقة؟ وعلى ماذا سيعثرون اذا ما حضروا في هذه المواقع؟
لقد شملت محاولات الاجابة عن هذه الاسئلة، العالم كله، وسرعان ما ظهر
باحثون استعان كل واحد منهم بابحاث من سبقه:

ادوارد روبنسون، الامريكى (الذي عمل في ارض اسرائيل في الفترة
١٨٣٧-١٨٣٨ و ١٨٤٥-١٨٤٧).

وتيتوس تويلر، الالماني (١٨٤٥-١٨٤٦).

ه. و. جرين، الفرنسي (١٨٥٢-١٨٧٥).

وكلود كوندر، البريطانى (١٨٧٢-١٨٧٧).

اجمل عالم الآثار الامريكى، الذي حفر في "ارض اسرائيل" في العقد التاسع
من القرن التاسع عشر، ما قام به اولئك الباحثون الطلابيون بما يلي: "يدل عمل
الباحثين الاربعة التالية اسماؤهم على تقدم منطقي. روبنسون، وضع المبادئ.
الصحيحة للبحث. وتويلر، استخدم هذه المبادئ بدقة كبيرة، ولكن في مجال
جغرافي ضيق فقط. وينفس الدرجة من التعمق حاول جرين اجراء بحث ودراسة
للمنطقة كلها - يهرذا، شومرون، والجليل - لكنه كان يعاني من ضيق
الامكانيات التي يعمل بها باحث وحده في العادة، فيما نجح، كوندر، الذي
ترأس وفدًا جيداً مزوداً بالمعدات اللازمة، في سد الثغرات الكثيرة التي خلفها
سابقوه في المجال الطوبغرافي".

ثم انضم اليهم السير تشارلي ويلسون، والسير تشارلي وورن (اللذان اكتشفا
آثاراً هامة في القدس)، وشارل كلرمون جنر (الذي حدد موقع "جيزر" التي تعود
لعهد المكراه)، وفلندرس بيري (الذي اتبع اسلوب دراسة الفخار كوسيلة لتحديد
تاريخ الآثار).

لقد شجعت بعض الدول الأوروبية، الابحاث التي يقوم بها مواطنوها، بعد ان
كان بالامكان دراسة الطاقة السياسية والعسكرية للبلاد التي يجري التنقيب فيها،
وبخاصة بريطانيا التي امتازت باستغلال ابحاث "المكراه" لاغراضها:

في ٢٢ حزيران ١٨٦٥ ، تأسس برعاية الملكة فكتوريا ما عرف بـ (Palestine Exploration Fund-PEF)، من قبل مجموعة من السياسيين والمثقفين ورجال الدين البريطانيين وكان، فيما بعد، تأثير كبير جداً، لهذا الصندوق، على النظرة إلى ارض اسرائيل، التي بدأت تتبلور في بريطانيا وفي اماكن اخرى. كما ان عدداً من الباحثين المذكورين آنفاً، قد مؤثروا ابحاثهم من هذا الصندوق، لكن اهم عملية مؤثروا الصندوق، كانت ارسال كلود كوندرا، الى ارض اسرائيل، للقيام بدراسة واسعة النطاق في غرب البلاد، فقد ترأس طاقماً مؤهلاً، وقام كوندرا برسم اول خريطة حديثة للمنطقة – من نهر الاردن حتى البحر المتوسط، ومن جبال لبنان حتى صحراء سيناء. كان للدراسة العلمية التي اجريت على ارض اسرائيل درو هام في تبديد الضباب، الذي كان يغطي هذه ارض، في الرأي العام الدولي. اذ انه، قيل هذه الدراسة، كانت الفكرة عن هذه الارض، انها مجرد مملكة "المكره" الخيالية، لكن خلال اجراء الدراسة اصبحت هذه المملكة حقيقة متجسدة اذ لم تعد القدس منطقة مهجورة، بل مدينة، وكذلك الامر بشأن بيت لحم، الناصرة، الخليل، ويافا.

صحيح ان هذه الاماكن، قد تقلص حجمها، لتصبح صغيرة وقليلة السكان، لكنه تبين انه ليس بالضرورة ان تبقى هكذا، وكثير من الباحثين الذين زاروا المنطقة، استنتجوا انه من الممكن اعادة الازدهار لهذه المدن، شريطة السماح لليهود باستيطانها من جديد.

في ١٨٧٥، صدر كتاب "ارض الميعاد" "The Land of Promise" تأليف عالم الآثار والباحث السير تشارلز وورن، اقترح فيه على البريطانيين، استيطان هذه الارض، من خلال رغبة معلنة بادخال اليهود اليها تدريجياً.

لم يكن لدى وورن ادنى شك في ان هذه الارض تستطيع ان توفر مصادر الرزق لسكانها اليهود، وعلى هذا الاساس – هكذا كان يؤمن – "سيعود اسرائيل الى ارضه".

واضاف وورن؛ يجب ان نطلب من الجمهور الاعتراف بهذه الحقيقة، وفي نفس الوقت، بعث الحياة القومية اليهودية، كلها او بعضها، برعاية دولة عظمى واحدة او اكثر".

كما ان كلود كوندور، كانت لديه القناعة بأن اي شعب آخر، لن يستطيع العودة لبناء هذه الارض بحماس ونشاط، مثلما سيفعل اليهود، وكان واضحاً له، انه بعد ان يبدأ اليهود في العمل، ستنهض البلاد من جديد بسرعة.

ان البحث العلمي الذي اجري في "ارض اسرائيل" حول، البشري الصهيونية الى مشروع عملي يمكن تنفيذه، سواء بالنسبة لليهود او لغير اليهود، اوجد الحماس العلمي مشاريع عملية للاستيطان، مثل اقتراح السير لورنس اوليفنت، لعام ١٨٧٩، الخاص باسكان يهود في جلعاد، الخطة التي حظيت بتأييد رئيس حكومة بريطانيا وولي عهدا ووزيري خارجية بريطانيا وفرنسا.

في ١٨٩٨، بعد نحو مائة عام من الاهتمامين الديني والعلمي بارض اسرائيل، احرب السيد ادفين شروين وولتر، القنصل الامريكي في ارض اسرائيل عن المزاج العام التالي: "شعب اسرائيل، بحاجة الى وطن، الى ارض يستطيع القول انها ارضه، الى مدينة يستطيع ان يجسد فيها خلاصه. كل هذه الامور ليست بيده الآن. بيته الحالي، بين الغرياء... الدول التي يعيش فيها ليست له... يمكن ان نحقق آمال شعب اسرائيل بوطن خاص به، لكنها لن تتحقق الا في فلسطين... انني اؤمن بأنه لن تطول الايام، حتى تصبح فلسطين بأيدي شعب يعيد لها خصوبتها القديمة. الارض، تنتظر، والشعب مستعد للقدوم، وهو سيأتي اليها فعلاً في اللحظة التي تؤمن له فيها الحياة والمتاع".

لقد اثر الصهاينة اليهود، وغير اليهود، من بريطانيا والولايات المتحدة، المتدينون والعلمانيون معاً، بصورة مباشرة، على آراء السياسيين ذوي الاهمية في مطلع القرن التاسع عشر مثل، ديفيد لوريد جورج، ارثر بلفور، و وودرو ويلسون. جميعهم كانوا مثقفين ومطلعين في تاريخ ارض اسرائيل وتاريخ الشعب اليهودي المحلي. بالمعاناة، وكتب بلفور يقول: "ينصب اهتمامي فقط، على ايجاد بعض الوسائل التي يمكن بواسطتها، وضع نهاية للوضع الحالي الفظيع الذي يعيشه كثيرون من ابناء الشعب اليهودي".

لقد ساعدت صهيونية هؤلاء السياسيين الغربيين من غير اليهود، الصهيونية اليهودية، على تحقيق هدفها - نهضة الشعب الاسرائيلي.

غير انه كان هناك عنصر آخر ، اقنع هؤلاء الزعماء بصدق الصهيونية - لا

يقبل اهمية عن التراث اليهودي في المكراه، والبحث العلمي لارض اسرائيل، والاعتراف بمعاناة اليهود. كان رجال فرساي، أولاً وقبل كل شيء، ذوي فكر سياسي، درسوا مسألة النهضة القومية اليهودية، على اساس مبادئ سياسية مثل: الحقوق القومية. وتقرير المصير، مثلما درسوا مطالب قوميات اخرى. ومن خلال هذه الدراسة، نجح الصهاينة اليهود في اقناعهم بعدالة مطالبهم.

وفعلًا، كان زعماء الحركة الصهيونية، بدءاً من هرتسل، شركاء طبيعيين لكبار السياسيين من ابناء جيلهم (كانت هناك حالات نبتت فيها هذه الشراكة من علاقات سابقة، قبل ان يصبح لويد جورج رئيساً لحكومة بريطانيا بوقت طويل، عمل محامياً وكيلاً لهرتسل ووضع صيغة انشاء منطقة رعاية بريطانية في فلسطين).

لقد ادرك هرتسل، نورداو، وزملائهم، انه اذا كانوا يريدون النجاح فعلا في مهمتهم الصعبة، المتمثلة في تجميع شتات اليهود في تلك الزاوية المهملة والفقرية في اسيا، يجب عليهم الحصول على تأييد دولي واضح، وتعزيز الاعتراف بالعدالة التاريخية والضرورة السياسية لهذه المهمة.

قال الصهاينة ان اليهود، يجب ان يحصلوا على دولة خاصة بهم في ارض اسرائيل، ووافق زعماء العالم على ذلك، رغم معرفتهم بأنه لا توجد سابقة لمحاولة اقامة دولة من لا شيء، كما عرفوا ان المشروع الصهيوني، قد يشير مقاومة من جانب سكان المنطقة. في مطلع القرن، كان الرأي العام العالمي يميل بوضوح الى جانب اليهود.

واليوم، يدعي العرب انه في فترة مؤتمر فرساي لم تكن لليهود اية حقوق سياسية، على ارض اسرائيل وان مثل هذه الحقوق، كانت فقط للعرب الذين يعيشون على هذه الارض، لهذا فهم يقولون ان الجريمة القديمة التي ارتكبتها المجتمع الدولي المتمثلة بتأييد الحركة الصهيونية، لم تكن في عام ١٩٤٨، ولا في عام ١٩٦٧، انما في عام ١٩١٧ وذلك عندما اصدرت الحكومة البريطانية اعلان وعد بلفور، وتعهدت لليهود باقامة وطن لهم في ارض اسرائيل. بيد انه من الواضح، ان زعماء العالم، آنذاك، كانوا يرون الامور بصورة مختلفة. كانوا يعتقدون بأن هناك حقاً تاريخياً خاصاً لليهود في هذه الارض ، وهذا الحق يغطي على اية

مطالب محتملة من جانب سكان المنطقة.

ماذا كانت مصادر هذا الاعتراف الواسع بحق اليهود التاريخي "بارض اسرائيل"؟
لكي نجيب على هذا السؤال يجب ان نبدأ أولاً بتحديد طبيعة الحقوق التاريخية بشكل عام.

هناك من يدعي بأنه، لا معنى للمناقشة النظرية للحقوق التاريخية للشعوب، وان اقامة الدول تنجم في الواقع عن عدة عناصر. اذا بحثنا المسألة على الصعيد التجريبي، وليس على الصعيد الاخلاقي نجد ان هذا الادعاء، ينطوي على درجة لا بأس بها من الحقيقة. وإذا كان المبدأ هو ان صاحب القوة هو صاحب الحق، فهذا يعني ان الممثل الاخير هو صاحب الحق. وبناء على هذا التعريف، فان اسرائيل هي صاحبة الحق في السيادة على ارض اسرائيل، لكن من الواضح، انه ليس هذا هو المقياس المناسب عندما يتعلق الامر بنهضة اليهود القومية، وإذا كان اليهود يقيمون في فلسطين بمقتضى حقهم وليس كصلدة كما قال تشرشل في عام ١٩٢٢، فمن الهمية بمكان، فهم القاعدة الاخلاقية لدولة اليهود. وبالنسبة لمطالب اليهود القومية، فان السؤال الرئيسي هو: هل يحق للشعب الذي فقد ارضه المطالبة بها من جديد، بعد مرور اجيال عديدة؟ وبشكل خاص، هل يحق له ذلك، حتى لو استوطن هذه الارض شعب آخر؟

يكرر مزيدو العرب طرح هذين السؤالين، ويجيبون عليهما بالسلب دائماً. كما يدعون بأنه لا يوجد لليهود نزاع مع العرب، بل مع الرومانيين الذين طردوهم من هذه البلاد في البداية، وعندما جاء العرب، كانت البلاد خالية تقريباً من اليهود.

اما اليهود ومزيدوهم، فلا يكثرون من الجدال حول هذه الادعاءات، التي يثيرها العرب بوضوح وباستمرار، ومما لا شك فيه ان هناك اجابات على هذه الادعاءات.

معظم الاشخاص يعرفون، بدرجات مختلفة، تاريخ اليهود خلال السنوات الالف الاولى من هذا التاريخ، وهي ما يعرف بعهد التناخ: انهم يعرفون ان اليهود، ابناء اسرائيل كانوا عبيداً في مصر ، واصبحوا شعباً بعدما تحرروا من

العبودية، ونالوا حريتهم، وتلقوا توراة موسى. كما يعرفون بأنهم استوطنوا ارض آبائهم ويعد ان احتلوها بقيادة يهوشع بن نون.

في سنة ١٠٠٠ قبل التاريخ تقريباً، نشأت في ارض اسرائيل مملكة موحدة برئاسة الملك داود، ومنذ ذلك الحين، ظلت تلك المملكة تصارع دولة اثر دولة، من اجل الحفاظ على استقلالها السياسي.

ينتهي تاريخ شعب اسرائيل الوارد في التناخ، بعودة صهيون، وتجديد الاستقلال اليهودي، في عهد كوروش ملك الفرس، عام ٥٣٨ قبل الميلاد. اما الاسكندر الاكبر، الذي احتل البلاد من ايدي الفرس فلم يمنح السيادة لليهود، لكنه في عام ١٦٧ قبل الميلاد تمرد اليهود على الحكم اليوناني، ونجحوا بقيادة الحشمونائيم، لكنهم فقدوا استقلالهم من جديد، لدى استيلاء الرومانيين على البلاد في عام ٦٣ قبل الميلاد ولكن، حتى عندما كانت البلاد تحت الاحتلالين الفارسي واليوناني، طيلة مئات السنين، استمر اليهود في تعميق جذورهم القومية في هذه الارض.

كيف اُقتلع اليهود أخيراً من ارض اسرائيل؟ ويشكل عام، نلقي بالتهمة على الرومانيين فقط، فالاعتقاد السائد، هو ان الرومانيين هم الذين انهوا السيادة اليهودية، وسلبوا الارض من ايدي اليهود، وطردوهم منها الى الشتات، الذي استمر حتى يومنا هذا.

غير ان هذا الاعتقاد ليس صحيحاً، فخراب بيت المقدس على ايدي الرومانيين في عام ٧٠م، كان حدثاً كبيراً فعلاً في تاريخ اليهود على ارض اسرائيل، لكن ليس هو الحدث الذي ادى الى تصفية السكان اليهود، في هذه البلاد.

من هنا، نجد ان الادعاء السائد ألفا سنة من الشتات ادعاء ينطوي على التضليل: لم تبدأ الهجرة مع خراب بيت المقدس، بل كانت هنالك جالية يهودية كبيرة ونشطة تعيش في الاسكندرية وبابل، وفي اماكن اخرى في العالم القديم، منذ مئات السنين، قبل قدوم الرومانيين. ومن الخطأ ايضاً القول، ان الرومانيين هم من انهوا الحياة القومية اليهودية على ارض اسرائيل فقد حدث هذا الامر، بعد مئات السنين من الاحتلال.

نفي عام ١٢٥م، أي بعد ٦٥ سنة، من خراب القدس، كرد اليهود تمردهم على الرومانيين بزعماء باركوخفا، وتم قمع تمرد باركوخفا بوحشية، لكن البلاد كانت يهودية في معظمها، وبعد وقت قصير من التمرد، حصل اليهود من الرومانيين على درجة كبيرة من الحكم الذاتي، استمر ما يزيد على ٢٥٠ سنة.

في سنة ٢١٢م، عندما منح القيصر "كر كلا" الجنسية الرومانية لعظم مواطني الامبراطورية، حجبها عن اولئك الذين ليس لهم ارض خاصة بهم، وقد حصل اليهود على الجنسية، لانهم اعتبروا شعبا له ارض خاصة به، وتجدر الاشارة ايضا، الى ان اهم المؤلفات القانونية اليهودية، المنشاه والتلمود المقدسي، كتبت في "ارض اسرائيل" ابان الحكيم الروماني والبيزنطي، وتدل على وجود حياة فكرية نشطة في تلك الفترة الطويلة.

والمدعش ايضا، انه في عام ٦١٤ كان اليهود يناضلون من اجل الاستقلال، وذلك عندما قاتل جيش يهودي، تم تجنيده في البلاد، الى جانب الفرس، الذين غزوا البلاد وساعدهم على احتلال القدس والقضاء على الحكم البيزنطي.

ان ما يدل على حجم وحيرة السكان اليهود في القرن السابع، هي حقيقة اشتراك ما يزيد على ٢٠ الف مقاتل يهودي، في حصار مدينة صور.

ولكن في عام ٦٢٦، بعد بضعة سنوات من عودة البيزنطيين برئاسة القيصر هيركوليوس، دخل العرب الى "ارض اسرائيل" بعدما دمروا نهائياً الاستيطان اليهودي الكبير والمزدهر، في شبه الجزيرة العربية.

كان الحكم البيزنطي قاسياً بالنسبة لليهود، ولكن في عهد الحكم العربي فقط، اصبح اليهود اقلية قليلة في "ارض اسرائيل" ولم تعد لهم قوة قومية حقيقية.

في بادئ الامر، علق اليهود آمالاً كبيرة على المحتلين الاسماعيليين، كما عُرِفوا في تلك الفترة، ولكن في غضون سنوات قليلة، انتضحت سياسة العرب، وتلاشت كافة آمال اليهود. خلافاً للمحتلين الذين سبقوهم.

غمر العرب البلاد بموجات كبيرة من المهاجرين الذين كانوا في اغلب الحالات ابنا. عائلات الجنود الذين وصلوا مع الكتائب التي رابطت في البلاد. لقد طبق الاستيطان العربي المسلح، عن طريق مصادرة الاراضي والبيوت

والقوى العاملة. ونجحت هذه السياسة في تحقيق ما لم تتجفع فيه من قبل، أي دولة عظمى في البلاد - اقتلاع الفلاح اليهودي من أرضه. ومن هنا، نجد ان اليهود لم يسلبوا العرب ارضهم، انما العرب هم الذين سلبوا ارض اليهود.

ما هي اهمية هذه الاقوال؟ فقد مضى اكثر من ١٢٠٠ سنة: اسم انت، وامم ذهب، والتاريخ مستمر.

حتى لو كان صحيحاً ان العرب هم الذين اكملوا عملية اقتلاع اليهود من أرض إسرائيل ما الضرير في ذلك؟ لقد احتلوا البلاد، وهي لهم منذ ذلك الحين.

ان الجدل بين العرب واليهود، حول حقوقهم التاريخية في أرض إسرائيل، يشبه، من وجوه عديدة، الجدل حول حقوق ملكية انسان على بيته، فاذا طرد صاحب البيت من بيته، يظل حقه في البيت قائماً. وماذا يحدث اذا اجري الساكن الجديد تغييرات في البيت لتتلاءم مع احتياجاته في الوقت الذي لا زال صاحب البيت حياً ولا يوافق نهائياً على التغييرات التي أدخلت على بيته؟

وهنا ايضاً، يكون حق صاحب البيت مفضلاً على حق الساكن الجديد. فكيف اذا جعل الساكن الجديد البيت بيتاً له، وسمح ايضاً بتدميره: لا شك في انه ليس له اي حق فيه، وان صاحب البيت الاصلي له الحق في العودة اليه واستعادة كل ممتلكاته.

على هذا الاساس، يجب ان نطرح سؤاليين مبدائيين فيما يتعلق بالادعاءات المتناقضة التي يوردها العرب واليهود بشأن حقوقهم التاريخية:

- اولاً: هل ظل اليهود متمسكين بادعائهم ان الارض تعود لهم ابان سنوات شتاتهم؟

- ثانياً: هل نال العرب ملكية قومية وحيدة على هذه الارض بعد ان طردوا اليهود منها؟

واضح ان الاحتلال في حد ذاته، لا يمنح المحتل حقوقاً قومية في الاراضي التي احتلها. فبراء كل ادعاء اقليمي قومي، يقف شعب منفرد، يختلف عن غيره، له ارتباط مستمر بقطعة ارض محددة.

وهذا هو اساس الادعاء اليهودي، وهذا هو السبب ايضاً، الذي من اجله يحرص العرب على التأكيد، على انه قبل مئات السنين، نشأ شعب عربي منفرد

وخاص، على ارض اسرائيل - الشعب الفلسطيني.

خلاقا لما هو متبع في حل الخلافات بين الافراد، حول حق ملكية بيت ما، ليس بقدور الادعاء بالتقادم، تسوية خلافات حول وطن قومي، في النزاعات بين الشعوب. ويمكننا ادراك هذا الامر في ضوء ما يحدث الان في اوروبا الشرقية، التي تشهد الان نزاعات قومية عمرها مئات السنين. لكن هناك نموذجا اقرب، يتمثل في قضية الاحتلال العربي لاسبانيا.

استولى العرب على شبه الجزيرة الابرية في عام ٧١١ واحتفظوا بمعظم اراضيها مئات السنين. ولم يبق بأيدي الاسبان سوى قطعة ارض جبلية صغيرة في الشمال، واصبح المسيحيون في بقية البلاد، مع مرور ايام، اقلية، والمسلمون اغلبية حاسمة، وعندما حرر الاسبان ارضهم، كانت مختلفة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي.

عادت قرطبة الى ايدي المسيحيين بعد ٥٠٠ سنة ومملكة غرناطة بعد ٨٠٠ سنة، وطيلة هذه الفترة الطويلة، لم تتوقف اسبانيا عن كونها وطننا للاسبان رغم علاقات المسلمين بالارض، ورغم الحضارة العربية المزدهرة التي نشأت في تلك البلاد. وهذا هو السبب الرئيس، الذي يمنع اي انسان من الادعاء بأن الاسبان الحقوا ظلماً تاريخياً بالعرب في اسبانيا، عندما احتلوا ارضهم من جديد.

ان ما حققه الاسبان بعد ٨٠٠ سنة، حققه اليهود بعد ١٢٠٠ سنة - لكن المبدأ متشابه. والاكثر اهمية هي الفروق في الطريقة والظروف، التي بواسطتها، حقق الشعبان نهضتهما القومية:

عاد الاسبان واحتلوا اسبانيا بالنار والدم، في حين قام اليهود بذلك عن طريق الاستيطان المشروع حسب قوانين البلاد، وامتلكوا السلاح للدفاع عن النفس فقط.

حارب الاسبان الامة التي اقامت احد المراكز الحضارية الهامة في تاريخ البشرية، واستعادوا لانفسهم بلادا مستقلة ومسكونة في معظمها. في حين لم يجد اليهود الذين عادوا الى ارض اسرائيل فيها سوى ارض الخراب، وعدد قليل من السكان.

ان القاسم المشترك بين اسرائيل واسبانيا ، هو استمرار بقاء الشعب الذي

احتلت ارضه، والامل الذي لم ينقطع لدى ابناء هذا الشعب في العودة لاقامة
وطنه القومي على ارضه.

في الواقع، نجح الاسبان في الاحتفاظ بجزء من ارضهم، ومن هذا الجزء بدأوا
بتحريرها، لكن هذا الامر سهل عليهم المهمة فقط: انه لم يحدد حقهم الاساسي في
العودة اليها.

ورداً على هذه التبريرات، يورد مؤيدو العرب ادعاءات مختلفة: المؤرخ
البريطاني، ارنولد توينبي، مثلاً، لم يحب الشعب اليهودي، لانه لم يتصرف حسب
منطق التاريخ. لقد اراد توينبي ان يفرض قيوداً قانونية على الادعاءات القومية،
على غرار القوانين التي تنظم تسوية الخلافات المدنية بين الافراد. لذا يرى
توينبي، انه لو عاد العرب واحتلوا "ارض اسرائيل" من ايدي اليهود، بعد خمسين
سنة، مثلاً، يمكن اعتبار هذا الاحتلال عادلاً. ولكن في المقابل، بما ان اليهود
احتلوا الارض من العرب، بعد فترة زمنية اطول بكثير، يجب الا يكون هذا
الاحتلال عادلاً، غير ان ادعاءات التقادم هذه، المتعارف عليها في القانون المدني،
لا تتلام ابدأ مع النزاعات القومية. وهنا يجب عدم اللعب بالارقام، كما يفعل
توينبي، وان اية فترة زمنية، طال أم قصرت، يجب ان لا تلغي حق شعب في
ارضه، ان الحق ساري المفعول، من الناحية التاريخية، ولا يلقى الا اذا اختفى
المطالبون به.

وعلى هذا الصعيد يختلف اليهود في حقيقة الامر عن اي شعب اخر في
التاريخ: على الرغم من بقائهم في الشتات مدة تزيد على الف سنة، فقد رفضوا
الاختفاء..

ان تاريخ الشعوب مليء بنماذج الامم التي تلاشت ارادتها القومية بعد
اجلائها عن ارضها بالقوة، وانصهرت، كنتيجة لذلك، مع شعوب اخرى، وحضارات
اجنبية، او انها استولت على ارض اخرى، وجعلتها وطناً قومياً جديداً لها.

في الواقع، كان هناك يهوداً انصهروا في بوتقة شعوب اخرى، ولكن كأفراد
فقط، اما التجمعات اليهودية، فقد رفضت الانصهار والاختفاء، كما رفض اليهود
فكرة اقامة كيان سياسي مستقل في اي مكان آخر — في بيروبيدجان، الارجننتين،
اوغندا ، ومنشوريا — ولم يتخلوا عن رغبتهم في العودة الى "ارض اسرائيل" ،

والىها فقط.

في عام ١٩٠٢، في اعقاب احداث كيشينيف، واجهت الحركة الصهيونية خطر انقسام عميق، عندما بدا ان هناك امكانية لتمكين الصهيونية من اقامة وطن قومي لليهود في شرق افريقيا، التي كانت آنذاك تحت الحكم البريطاني، والتخفيف من معاناة اليهود في شرق اوروىا، وقد اعمل "مشروع اوغندا" اخيراً عندما رفض زعماء يهود شرق اوروىا هذه الفكرة واصروا على اعتبار ارض اسرائيل "وحدها، هي الوطن القومي الوحيد، الذي يمكن ان يكون لليهود مستعدين لاقامته.

ربما نستطيع ادراك اسلوب هرتسل الواقعي الذي كان يرى كضرورة ملحة، ايجاد ملجأ، ولو مؤقتاً، لانتقاذ ملايين اليهود من اوروىا، لكن اخلاص الشعب الاسرائيلي لارض اسرائيل، كان اقوى من الرغبة في التخلص من الخطر الذي كان يهدد يهود اوروىا، وفي نهاية الامر، كانت قوة هذا الاخلاص، هي الوسيلة الوحيدة لتعبئة جماهير الشعب اليهودي، لعمل سياسي منسق.

عشاً، حاول هرتسل ان يشرح موقفه بأن اوغندا لا تعدو كونها محطة في الطريق الى ارض اسرائيل"، وليست الهدف النهائي للشعب اليهودي. في الواقع، ظل اليهود طيلة عدة اجيال يحملون آمال العودة الى وطنهم، وهذا الشرق لم يكن دافعاً مؤقتاً فقط، اذ انه كلما مرت السنين، تزايد هذا الدافع، بدلاً من ان يتلاشى او يضعف. وكان الحنين الى الوطن، يمثل بالنسبة للشعب اليهودي، سبب بقائه وصراعه الفريد من نوعه، كان تعبيراً لرغبته في العودة، واقامة وطنه القومي على ارضه القديمة، التي يحتلها غريباء، ليس لانها ارض اجداده فحسب، انما لانه رأى فيها القرن الذي صهرت فيه هويته وايمانه، وفيها فقط، سيكون قادراً على العودة لحيائهما، بعد سنين من الشتات والمصاعب.

لا يمكننا عدم المبالغة في اهمية فكرة عودة صهيون، في تاريخ اليهود، وقيام دولة اسرائيل، رغم ان احد الآراء السائدة اليوم، يقضي بأن الكارثة كانت السبب الرئيس لاقامة دولة اليهود.

صحيح انه في اعقاب الكارثة، نشأ تعاطف مع اليهود من جانب كثيرين من ابناء الشعوب الاخرى _ هذا التعاطف الذي سهل ، الى درجة كبيرة، اقامة دولة

اسرائيل. ولكن، مع ذلك، يجب ان نذكر هنا، ان الكارثة كانت عملية ابادة فظيعة، قضى فيها على ملايين اليهود الذين كانت اعينهم ترنو الى صهيون، وادت الى القضاء تقريباً على القاعدة البشرية لدولة يهودية دائمة. كانت الكارثة ذروة طريق طويلة من الكوارث، التي حلت بالشعب اليهودي ... اعمال قتل ومذابح ومحاولات ابادة شعب.

دون فكرة العودة الى صهيون، ربما لم تكن الكارثة لتؤدي الى شيء، سوى قليل من التعاطف والمؤاسة من جانب الغرباء، وربما كان ملايين اليهود الذين قتلوا في الكارثة يشكلون طرية محيطة للشعب اليهودي كله. ولولا ان الكارثة كانت مسبقة بالفى سنة من الآمال بالنهضة القومية، ومائة سنة من العمل الصهيوني في سبيل العودة واعادة ترميم البلاد الخربة، لما قامت دولة اسرائيل ابداً.

ان فكرة عودة صهيون، هي، على اية حال، جزء لا يتجزأ من سر بقاء الشعب اليهودي. وكانت القرة المحركة في ولادة دولة اسرائيل، وهي المفتاح لاستمرار بقائها.

لقد حوفظ على حلم العودة متكاملًا، منذ العهد القديم وحتى يومنا هذا، بفضل الطابع الخاص لليهودية ذاتها. يعتقد ابناء العالم الغربي، بشكل عام، ان اليهودية، شأنها شأن المسيحية، مجرد دين، لذا فهي لا تشمل وعياً قومياً. لكن اليهودية، منذ بدايتها، كانت ديناً وقومية معاً. كما ان الغرباء، الذين استوعبتهم واعتنقوا دينها، اصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الامة، مثلما قالت رون المؤابية الى نعمي: "شعبك شعبي، والهك الهى".

وفي ارض الشتات، زادت اهمية هذه الازدواجية في اليهودية. فبعد ان فقد اليهود ارضهم، وحكومتهم، ولغتهم، ووزعوا في انحاء العالم، اصبح الدين الاداة الرئيسة للمحافظة على هويتهم وطموحاتهم القومية. ودخل هذه الاداة، سكب اليهود احلام العودة الى صهيون، وتجميع الشتات في ارض اسرائيل.

الديانة اليهودية، بما يتكرر فيها من ايام الصوم في ذكرى خراب القدس، والصلاة التي تقرأ ثلاث مرات في اليوم "تجمعنا سورياً، من مختلف اقطار الارض لنعود الى ارضنا" وعادات اخرى مختلفة لاحياء "ذكرى الدمار" على غرار "اذا

نسيك يا قلس"، أصبحت مجموعة من ذكريات الماضي وآمال المستقبل في ارض الاجداد.

ان هذه العلاقة القائمة بين الشعب والارض، تميز اليهودية عن بقية الاديان الاخرى. فالكاثوليك، على سبيل المثال، لا يصلون من اجل ان يكونوا السنة القادمة في الفاتيكان". وفريضة الحج، التي يؤديها اتباع الديانات الاخرى، هي عبارة عن رحلات موسمية الى مواقع مقدسة يستطيع المؤمن ان يجدد فيها ويعمق شعوره وحلته مع ربه.

ولكن عندما ظل اليهود في مختلف البلدان يصلون طيلة مئات السنين من اجل السنة القادمة في القدس"، كانوا يقصدون شيئاً آخر مختلفاً في غايته: لم يكن ذلك هو امل الفرد في العودة الى المدينة المقدسة للصلاة فيها، انما رغبة شعب كامل في العودة لبناء حياته القومية على ارضه، التي تعتبر القدس قلبها.

بعد ان فقد اليهود في ارض اسرائيل، مكانة الاغلبية من حيث عدد السكان والقوة المسيطرة، جاءت مئات من سنين الامل والحنين لاستعادة السيادة اليهودية على هذه ارض، ويمكننا ان نجد خلال تلك الفترة الطويلة، وافرأ من المؤلفات التي تعبر عن هذا الامل بين سطور الشعر والنثر، باقلام كبار الادباء والشعراء والمثقفين اليهود.

ففي القرن الثاني عشر، على سبيل المثال، اعلن الحاخام يهودا هليفي، الذي كان يقيم في اسبانيا، ان عودة اليهود الى ارضهم، هي الامل الوحيد لوضع حد لمعاناتهم على ايدي العرب، الذين لم يشهد اليهود امة اكثر عداء منهم، ولا امة اساءت اليها وقرقتها وقللت عددها وحقرتها، اكثر منهم". لكن الحاخام اكد بقوله: "لا يمكن الا ان يأتي من نسل سليمان رجل يجمع شتاتنا".

لقد ذهب الحاخام هليفي الى ابعد من هذا ايضاً فقد قال في القرن الثالث عشر: ان الاقامة في ارض اسرائيل واجب ديني، مكلف به كل انسان يهودي، ويطبق هذا القول على نفسه، اذ هاجر الى ارض اسرائيل، وساعد على ترميم الطائفة اليهودية، التي كانت قد ابيدت تقريباً في الحملات الصليبية.

في القرن السادس عشر، برزت فكرة تقضي بأن التحالف بين اليهود والمسيحيين قد يؤدي الى احتلال البلاد من ايدي المسلمين - الامر الذي السب

حماس وآمال كثير من يهود ايطاليا والبرتغال.

اقام مهاجرون من اسبانيا الحي اليهودي في الخليل بعد ان اعادوا ترميمه، في حين اعاد، دون يوسف نسي، من البرتغال، ترميم انقاض طبريا باذن من السلطان. وادت هذه العودة ايضا الى بحث الحياة الفكرية والثقافية اليهودية في صدد، وحتى نهاية القرن، كان يقطن فيها ما بين ١٠-٢٠ ألف يهودي.

وفي القرن السابع عشر بدأ يهود بولندا الاستعدادات للعودة الى صهيون. بعد ان كانوا توقفوا عنها لفترة قصيرة، بتأثير من الحركة المسيحية، بزعامة شبثاي تسفي، ولكن رغم خيبة الامل التي سادت في أعقاب قضية شبثاي تسفي، واصل حاخامات يهود اوروا الشرقية الدعوة الى تنظيم جماعات للاستيطان في أرض اسرائيل.

وبالفعل، وجد الطلابيون الصهاينة، الذين بدأوا بالوصول الى "أرض اسرائيل"، اواخر القرن التاسع عشر، في عدة مدن، تجمعات يهودية صغيرة، أقامها تلاميذ كبار حاخامات هؤلاء، ويهوداً آخرين استوطنوا هناك قبلهم. وفي القدس ذاتها، كان اليهود في تلك الفترة يشكلون أكبر عنصر سكاني.

وهكذا، شيئا فشيئا، عاد اليهود الى أرضهم واستوطنوا فيها. كان من بينهم من اجتازوا، سيرا على الأقدام، صحراء روسيا، ومروا عبر دمشق وبيروت، ودخلوا البلاد من جهة الشمال، وآخرين أبحروا الى ميناء يافا عبر البحر الابيض المتوسط، الذي كان يعج بالقراصنة. وفور ان وطئت أقدامهم "أرض اسرائيل" انضموا الى الجاليات القديمة في الخليل، طبريا، صفد، أو القدس، التي ظلوا يحافظون على وجود يهودي طيلة أجيال، على هذه الأرض المهجورة. ونتيجة لهذا لم تكن هنالك فترة في تاريخ شعب اسرائيل. كانت فيها البلاد خالية تماما من اليهود، (في قرى بقيمين وشفر عام (شفا عمرو)، في الجليل ظل يهود يقيمين باستمرار منذ العهد القديم وحتى يومنا هذا).

غير أن الهجرة بمجموعات كبيرة، لم تكن ممكنة حتى ظهور الحركة الصهيونية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث عبر اليهود عن حنينهم بالعودة إلى أرض صهيون، بصورة عملية وسياسية.

إن مؤلفات هاس (روما والقدس من عام ١٨٦٢)، وفينسك (تحرير الذات،

عام ١٨٨٢)، وغيرهما كانت بمثابة مدماك آخر في الايمان بإمكانية الخلاص في الوقت الحاضر.

في اعقاب موجة المذابح في روسيا، عام ١٨٨١، تُرجمت هذه الطموحات والأمال إلى حركة صهيونية عملية لاستيطان "أرض اسرائيل" تحت اسم "هواة صهيون" التي تسخضت عنها هجرة يهودية واسعة النطاق، وأدت هذه الافكار والمشاعر إلى تهيئة الأرض لظهور الصهيونية السياسية قبل حوالي مائة عام، عندما بدأت الامبراطورية العثمانية تتهاوى.

وللمرة الأولى، منذ تدمير الهيكل الثاني، برزت فرصة سياسية حقيقية لاعادة بناء السيادة اليهودية وهجرة يهودية جماعية إلى "أرض اسرائيل". وبرز على المنصة رجال ذوو بصيرة، أمثال هرتسل نورودو، أدركوا هذه الفرصة التاريخية التي سُنحت امامهم. لم يقترح هرتسل خطة مفصلة ومحددة لإنشاء الدولة اليهودية فحسب، إنما أقام المؤسسات التي ستدير هذه الدولة، في المستقبل، مثل "الهستدروت الصهيونية العالمية" والمؤتمرات الصهيونية التي عقدت الواحد تلو الآخر، منذ عام ١٨٩٧ فصاعداً.

نجح هرتسل في ترجمة المشاعر الصهيونية الطبيعية التي كانت تدق في قلوب ملايين اليهود، إلى حركة سياسية، عرفت كيف تأخذ بنظر الاعتبار العالم الحديث. لقد أفلح أيضاً في فهم لعبة القوى في السياسة والتاريخ. وكانت لديه معرفة كاملة بأن يهود أوروبا يواجهون خطراً مدمراً، إلى جانب إيمانهم الكامل بإمكانية العودة لاقامة دولة ذات سيادة. لذا عمل هرتسل من أجل الفكرة الصهيونية، بكل ما أوتي من سرعة ونشاط.

ثم جاء من بعده أشخاص بعثوا الروح في الصهيونية في بلدان كثيرة وعملوا على إقامة الدولة، وفي نفس الوقت بدأ طلائعين يهود بحملة لاستيطان البلاد. كان "آلفانديت" العرب، الذين يملكون معظم الأراضي، قد تركوها واهملوها إلى درجة كبيرة، في حين كانوا هم أنفسهم يعيشون حياة بذخ ورفاهية في بيروت أو دمشق. في حين حوّل المستوطنون اليهود المستنقعات والأراضي الصخرية الوعرة إلى أراض زراعية خصبة غُطّيت في بادئ الأمر بالمستوطنات القروية ومن ثم بالمدن. وقد ساعد عدد من أرباب المال اليهود ، من أمثال ، موشه مونتفيوري،

والبارون روتشيلد، مشروع الاستيطان اليهودي، وكانت أول مستوطنة أُقيمت في "أرض إسرائيل" من جديد في عام ١٨٨٢ من قبل رجال الهجرة الأولى، ريشون لتسيون. وكانت مستوطنة زراعية أقامها يهود قادمون من روسيا، تلقوا الدعم المالي من البارون روتشيلد.

في ١٨٩٦، عندما جاء إلى ريشون لتسيون، إبراهيم ماركوس، والد جدي لامي، وجد فيها مجموعة من المنازل المشيدة والمدهونة باللون الأبيض مع أسقف من القرميد الأحمر، سقف شامخة في قلب صحراء رملية مترامية الأطراف. وكان إبراهيم، عضو حركة "هواة صهيون"، يطمح لأن يكون فلاحاً مثقفاً. ففي النهار كان يفرس الأشجار، وفي الليل يواظب على دراسته. وعندما وُلدت أمي في بيتع تكفا، القريبة، عام ١٩١٢، كانت الأسرة قد أصبحت تسكن في قلب بيارات زرعها أبنائها، في بيت جميل يزيّنه صفّان من أشجار النخيل على مدخله، لكن اقلاء فقط هم الذين استطاعوا التمتع بمثل هذه الحياة الهانئة. إذ أن معظم المهاجرين الجدد كانوا يعيشون في ظروف أصعب بكثير.

ففي عام ١٩٢٠، عندما جاء جدي لامي إلخاخام نتان ميلويسكي، إلى "أرض إسرائيل" لم تكن فيها طرق معبدة ولا وسائل نقل حديثة، لقد نزل أبناء الأسرة من السفينة إلى الشاطئ بزوارق تجديف، إذ لم يكن آنذاك في يافا ميناء حقيقي. وبعد أن مكثوا فترة ما في أول بيوت بُنيت في تل أبيب، سافروا بطرق ترابية إلى سمخ، في رحلة استغرقت يومين كاملين، ومن هناك إستقل جدي وأمي سفينة إلى طبريا مع الأمتعة، بينما تابع بقية أفراد الأسرة طريقهم على متن عربة. وبعد قضاء ليلة في طبريا توجهت الأسرة على متن عربة إلى صفد، وفي روش بينا تم استبدال الخيول التي تجرها. وباستثناء روش بينا كانت المنطقة كلها قاحلة، إلّا من عدة مضارب بدوية، كانت بمثابة نقاط في المنطقة، متفرقة هنا وهناك. وهكذا فإن الرحلة من يافا إلى صفد، التي تستغرق اليوم ثلاث ساعات، إستغرقت آنذاك ثلاثة أيام.

لقد غيّرت موجات المهاجرين التي جاءت الواحدة تلو الأخرى منذ عام ١٨٨٢، وجه البلاد كلياً. حيث شق اليهود الطرق وعبدوها، وأقاموا المدن والمستوطنات والحقول الزراعية والمستشفيات والمصانع والمدارس. وكانت كلما زادت الهجرة اليهودية، زاد عدد السكان العرب في البلاد أيضاً. حيث وصلت إلى البلاد

هجرة عربية جماعية بحثاً عن امكانيات العمل التي توفرت لهم، ومستوى الحياة الأفضل، الذي توفر لهم بفضل الاقتصاد اليهودي النشط.

في عام ١٩٣٩، قال الرئيس الأمريكي فرنكلين روزفلت: لقد زادت هجرة العرب الى فلسطين منذ عام ١٩٢١، بدرجة كبيرة على هجرة اليهود اليها في كل الفترات الأخيرة. وبفضل التحسن الذي طرأ على الاقتصاد والصناعة والتجارة، طرأ ارتفاع متزايد على الأجور والتصنيع في اوساط عرب "أرض اسرائيل" قياساً على الدول العربية المجاورة. ففي عام ١٩٤٧، كانت أجرة العامل العربي في يافا، ضعف أجرة العامل في نابلس التي لم يستوطنها يهود أبداً.

كما أن المعامل الصناعية التي يملكها العرب، زاد عددها ٤٠٠٪ في الفترة مابين ١٩٣١ - ١٩٤٢، وزاد عدد العمال في هذه المصانع عشرة أضعاف في الفترة ما بين ١٩٣١ - ١٩٤٦.

كانت الزيادة المؤثرة في الهجرة العربية الى المناطق التي يقيم فيها اليهود. فمنذ عام ١٩٢٢، السنة الأولى للانتداب البريطاني، وحتى عام ١٩٤٧، زاد عدد العرب في المدن المختلطة بنسب كبيرة: ٢٩٠٪ في حيفا، ١٥٨٪ في يافا، ١٣١٪ في القدس (مقابل ٦٤٪ في الخليل، ٥٦٪ في نابلس، ٣٧٪ في بيت لحم، التي كان يقيم فيها عدد قليل فقط من اليهود).

لكن الهجرة العربية إلى المناطق التي أصبح يملكها فيما بعد ملايين اليهود، لم تتغير شيئاً في الرأي الذي ساد العالم، بأن هذه الأرض مخصصة لتكون وطناً قومياً لليهود، تكون فيه أقلية عربية.

وعلى أية حال، إن المطالبة اليهودية في السنوات المائة الأخيرة بحق اليهود على "أرض اسرائيل"، تعززت بفضل الجهود التي لا تعرف الكلل لاستيطان الأرض وإعادة إحصائها من جديد.

وعلى الرغم من أن مطالبة اليهودية كانت شديدة، ربما كانت ستضعف قليلاً، لو أظهر العرب درجة مماثلة من الاصرار والاخلاص للأرض خلال الاجيال التي سبقت ظهور الصهيونية.

ويدعي العرب اليوم، أنه عندما إعترف المشاركون في مؤتمر فرساي بحق اليهود التاريخي على "أرض اسرائيل"، تجاهلوا وجود أمة أخرى كانت قد نشأت،

في تلك الأثناء، على هذه الأرض، أمة عربية - فلسطينية، أوجدت روابط حضارية وثقافية مع هذه الأرض لا تقل عن تلك الخاصة باليهود.

ويقول العرب؛ لقد أخطأ زعماء العالم عندما آمنوا بأنهم "يمنحون أرضاً بلا شعب إلى شعب بلا أرض".

لويد جورج، اللورد بلفور، وودرو ويلسون، وسياسيون كثيرون آخرون، في مؤتمر فرساي، كانوا رجالاً مثقفين، أذكاء وذوي بصيرة، فهل فعلاً أعمتتهم رغبتهم في احياء الماضي التناخي الى درجة جعلتهم يتجاهلون الحقائق السكانية والقومية التي كانت قائمة في "أرض اسرائيل" في تلك الفترة؟ كلا، وألف كلا. لقد عمل هؤلاء الزعماء من خلال إدراك واضح للموضع الذي كان سائداً آنذاك في "أرض اسرائيل"، الذي كان معروفاً وموثقاً جيداً.

على أية حال، يدعي العرب ان اليهود احتلوا "أرض اسرائيل"، من أيدي شعب عربي عاش عليها مئات السنين، وكان صاحبها الشرعي. فقد أعلن ياسر عرفات في كلمته في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ ما يلي:

"بدأ الغزو اليهودي في عام ١٨٨١... كانت فلسطين آنذاك أرضاً خضراء يسكنها أبناء شعب عربي كان مشغولاً ببناء حياته واثراء نشط لثقافته الداخلية". ويرى العرب في عام ١٨٨١، علم الهجرة اليهودية الأولى، بداية الغزو الصهيوني. في ذلك العام، كان عدد اليهود في القدس أكبر من عدد سكانها العرب منذ ٦٠ عاماً.

لقد تعمقت جنود هذا الادعاء، الذي يكرره الناطقون العرب، وكان اليهود اغتصبوا الأرض من أهلها العرب، في اوساط واسعة في الغرب وفي اسرائيل أيضاً، إلى درجة أصبح من الصعب جداً إقناعها. غير ان هذا الادعاء ليس له أي أساس تاريخي. فالوصف الذي يورده عرفات وغيره، "لأرض اسرائيل"، قبل عودة اليهود إليها، بأنها أرض خضراء مكتظة بالسكان، يتناقض تماماً مع مئات التقارير التي أوردها شهود عيان اوربيون وأمريكيون، زاروا البلاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن ضمنها تقارير كبار علماء الآثار من روبنسون فصاعداً.

في القرون الأخيرة ، عندما بدأ الغرب يهتم بأبحاث فترة "المكراه" زاد تيار

الزوار "لأرض اسرائيل" وشمل أدباء وعلماء آثار وجغرافيين، وغيرهم. ودون كثير من منهم بالتفصيل، ما شاهدوه في مذكراتهم وفي صحف تلك الفترة. وجميعهم، بدون استثناء، يوردون اوصافاً ديمغرافية وطبيعية تختلف كلياً عما يحاول عرفات تصويره.

في عام ١٦٩٧، كتب هنري مونتلور، ان الناصرة هي عبارة عن "قرية صغيرة ليست ذات اهمية"، وفي نابلس يوجد شارعان فقط، واصبحت أريحا "قرية حزينة قذرة"، وعكا عبارة عن "خربة كبيرة".

في ١٧٣٨، كتب عالم الآثار البريطاني، توماس شو، عن "أرض اسرائيل" أنها أرض "قاحلة لا يوجد فيها شيء ... نظراً لقلّة عدد السكان"، وفي عام ١٧٨٥، وصف قسطنطين فرنسوا وولني، الأرض بقوله: "وجدنا صعوبة في التعرف على القدس ... يبلغ عدد سكانها ما بين ١٢ - ١٤ ألف نسمة ... المكان الثاني الجدير بالذكر هنا هو بيت لحم ... فلاحه الأرض سيئة ... يحتمل ان يكون في هذه القرية ٦٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح ... والمكان الثالث والأخير من حيث الأهمية هو الخليل، أقوى قرية في هذه المنطقة .. تستطيع تجنيد ٨٠٠ - ٩٠٠ مسلّح".

في عام ١٨٣٥، وصف الشاعر الفرنسي، الفونس دي لامارتن المنطقة بقوله: "خارج أبواب القدس، لم نر مخلوقاً حياً، ولم نسمع صوت مخلوق. صادفنا فراخاً وسكوناً تامين يخيم على المدينة، على الطرق، على البلاد كلها.... إنها قبر لشعب كامل".

في عام ١٨٥٧، كتب القنصل البريطاني في "أرض اسرائيل"، جيمس بين، الى المسؤولين عنه في لندن: "البلاء خالية الى درجة كبيرة من سكانها، لذا فهي بحاجة ماسة الى مجموعة كبيرة من السكان".

أما الكاتب الأمريكي الذي اشتهر برحلاته الى "أرض اسرائيل" مارك توين، الذي زار البلاد في عام ١٨٦٧، فقد وصف إنطباعاته عنها في كتاب "رحلة ملذّات في الأرض المقدسة " The Innocents Abroad : "في سهل مرج بن عامر بكل طوله وعرضه ... ثلاثون ميلاً لكل جهة - لا تجد ولو قرية واحدة. إنما تجد في الواقع ما بين ٢ - ٣ مضارب بدوية صغيرة ، ولكن ولا

قرية دائمة واحدة. تستطيع ان تركب لمسافة عشرة أميال في هذه المنطقة دون أن تصادف ولو عشرة أشخاص".

ويضيف: "أن من تشاقق نفسه لرؤية العزلة الموحشة، فليذهب إلى منطقة الجليل وطبريا الحزينة. أما أريحا الملعونة فهي اليوم عبارة عن خربة مهدامة، تماما، كما تركها يهوشع بن نون، قبل ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة... وبيت لحم المقدسة، خالية من كل مخلوق ذي حياة".

ويصف ضواحي القدس بقوله: "كلما أبعدنا ... ترتفع درجة الحرارة وتصبح الأرض أكثر صخرية وعراء منفرة وقاحلة. كثيرة الحجارة بشكل لا يصدق. لا توجد فيها حتى ولو شجرة واحدة. حتى أن أشجار الزيتون والصبر، التي اشتهرت بها هذه الأرض، فليس لها وجود هنا. والقدس المشهورة، أجمل أسم في التاريخ، فقدت حجمها التاريخي وأصبحت قرية حزينة".

لقد تكررت انطباعات تورين هذه في انطباعات خبير الخرائط البريطاني المعروف ارتور فرين ستانلي، عندما كتب عام ١٨٨١، (العام الذي يعتبره عرفات بداية الغزو الصهيوني واقتلاع سكان محليين نشطين من ارض خضراء)، يقول: "كن أبالغ إذا قلت انه على مسافة ميل وراء ميل لا نرى في منطقة يهودا علامة حياة، ولا وجوداً لقرية ماهرة واحدة".

إن أهمية الأمر لا تكمن في ادعاء عرفات هذا، إنما في ان هذه الكذبة التي يكررونها باستمرار وبإسهاب، قد احتلت مكان الحقيقة التي كانت جلية بالنسبة لكل إنسان مثقف في القرن التاسع عشر، وهي ان الأرض كانت خالية تقريباً، وكانت تتسع لملايين اليهود الذين عاشوا انذاك في "جيتوهات" أوروبا في ظروف لا تحتمل، وفي ظل خطر متزايد، وكانوا يتوقون إلى العودة للبلاد لحياتها من جديد.

من المفهوم، انه كان هناك عرب في "أرض اسرائيل"، وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان عددهم يزيد على عدد اليهود فيها. ولكن حتى نهاية الربع الثالث من ذلك القرن، كان عدد سكان البلاد يهودا وعربا حوالي ٤٠٠ ألف نسمة، أقل من ٦% من عدد سكانها اليوم.

عام ١٨٨١، بدأ الاستيطان اليهودي في "أرض اسرائيل"، ومع انتهاء الحرب

العالمية الأولى، كان عدد السكان في ضفتي نهر الاردن بلغ ٩٠٠ ألف نسمة، منهم حوالي ٦٠٠ ألف غرب النهر، غير ان هذا العدد كان ضئيلاً بالمقارنة مع عدد السكان الذي يمكن ان تستوعبهم هذه البلاد.

عام ١٨٩٨، زار القيصر الالماني، "أرض اسرائيل"، ولدى اجتماعه بهرتسل قال له: أن المستوطنات التي شاهدها سواء الالمانية منها أو تلك التابعة لابناء شعبك، يمكنها ان تكون نموذجاً لما يمكن ان نفعل في هذه البلاد. يوجد هنا مكان للجميع".

عندما أدرك سياسيون واعون، أمثال ووردو ويلسون ولويد جورج، الوضع المهل في "أرض اسرائيل"، أدركوا ان الوجود العربي القليل في هذه البلاد، الذي لا يستغل الأراضي الخالية لسد الاحتياجات المتواضعة للسكان، لا يمكن ان يكون عنصراً حقيقياً مقابل مطالبة ملايين اليهود من كل أنحاء العالم، بدولة خاصة بهم، خاصة اذا أخذنا بالاعتبار المنطقة العربية الواسعة (التي تبلغ مساحتها ٥٠٠ ضعف "أرض اسرائيل" القريبة لها) التي تشكل الوطن القومي للعرب.

وبهذه الروح، قال زئيف جيبوتنسكي امام لجنة أقلية في "أرض اسرائيل"، لكنني أنفي ان يكون مثل هذا الوضع سيلحق بهم الأذى. ان هذا الأمر سيأ لاي شعب ولا لأية أمة، توجد لديها عدة دول قومية قائمة الآن، وستكون لها دول قومية أخرى في المستقبل. جزء صغير، فرع واحد من هذا الشعب - وليس فرعاً كبيراً - سيضطر للعيش في دولة اجنبية ... وواضح بالنسبة لي، أن أية أقلية تفضل ان تكون أغلبية، وسكننا ان ندرك رغبة عرب "أرض اسرائيل"، الذين يفضلون ان تكون "أرض اسرائيل" الدولة العربية الرابعة أو الخامسة أو السادسة ...، ولكن عندما نقارن بين مطالب العرب ومطالب اليهود في الخلاص، نكون وكأننا نساوي بين مطالب صاحب الشهية، وبين مطالب الذي يحتضر جوعاً".

في إطار محاولاتهم لترسيخ مطالبهم التاريخية "بأرض اسرائيل"، لم يشوة العرب الظروف الديمغرافية والطبيعية لهذه الارض في القرن التاسع عشر فحسب، إنما حاولوا إقناع العالم ، بأن عرب أرض اسرائيل ، بلوروا خلال مئات السنين

الآخيرة هوية قومية خاصة بهم، منفردة ومختلفة .

وقد قاموا بهذه المحاولة من خلال المعرفة، أنه بدون هوية كهذه، لن يستحقوا تقرير المصير. لذا فهم يدعون ان اليهود الذين غزوا البلاد، استولوا على بلاد مستقلة هي فلسطين، كان يعيش فيها شعب منفصل وخاص – الفلسطينيون .

غير أن هذا الادعاء أيضاً يسخر من الحقيقة التاريخية الصريحة. فبعد احتلال العرب في القرن السابع لم تعد هناك فلسطين، كما يقول البروفيسور برنارد لويس:

"منذ إلغاء الدولة اليهودية في العهد القديم وحتى بداية حكم البريطانيين، لم تكن للمنطقة المعروفة باسم فلسطين أية حدود باستثناء الحدود الادارية. وكانت المنطقة جزءاً إدارياً من ضمن كيان أكبر".

قسم الأتراك البلاد إلى أربع مناطق ادارية عرفت باسم "سناجق": منطقة القدس، وشملت سيناء وامتدت الى داخل افريقيا، في حين كانت السامرة، والجليل، وشرق الاردن، تشكل ثلاث مناطق منفصلة أخرى. ثم قسم الحكام الأتراك الواحد بعد الآخر، المنطقة إلى أجزاء ورزعوها حسب مناطق نفوذهم

لم تكن دولة فلسطين العربية قائمة أبداً، كما لم تكن هنالك منطقة عربية تحاذي منطقة أرض اسرائيل. حتى أن اسم فلسطين نفسه لم يعد مستعملاً بين العرب، البريطانيين هم الذين أحيوه، ومنهم صادرة العرب لأنفسهم، في القرن الحالي.

من هم الذين كانوا زعماء تلك الأمة الفلسطينية الخيالية خلال المائتي سنة من حكم المماليك، والأربعائة سنة من الحكم التركي ؟ وما هي المنظمات السياسية، أو المؤسسات الاجتماعية، أو المؤلفات الأدبية أو الفنية أو الدينية أو حتى تبادل الرسائل الخاصة، التي ورد فيها ذكر أو تعبير عن علاقات تلك الأمة بهذه الأرض المجزأة والمقسمة؟

كل هذه الأمور لا وجود لها نهائياً. فطيلة هذا التاريخ الطويل، لم يعرب السكان العرب في "أرض اسرائيل"، ولو تلميحاً، عن رغبة في الاستقلال القومي، أو فيما يعرف اليوم "تقرير المصير" . كان هنالك عرب عاشوا في "أرض اسرائيل"،

مثلما عاش عرب آخرون في أماكن أخرى كثيرة، لكن لم يكن هناك شعب فلسطيني ذو وعي قومي أو هوية قومية، أو حتى مصالح قومية مشتركة؛ ومثلما لم تكن هناك دولة فلسطينية، لم يكن هناك شعب فلسطيني، أو ثقافة فلسطينية.

كانت تلك أيضاً، إستنتاجات اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل) التي حاولت في عام ١٩٣٧ تحديد مستقبل "أرض إسرائيل":

"في القرون الاثني عشر، منذ الاحتلال العربي، اختفت هذه البلاد تقريباً عن النصّة التاريخية ... وسواء على الصعيد الاقتصادي أو السياسي، بقيت هذه البلاد خارج تيار الحياة الرئيسي في العالم. وعلى الصعيد الفكري والعلمي والادبي كذلك، لم يكن لها دور في المدنية".

هناك من يدعي أنه في الثلاثينات، اتخذ هذا الموضوع مغزى سياسياً، ولذلك لا يمكننا إقرار حقيقة تاريخية بالاعتماد على أقوال قيلت في تلك الفترة. غير أننا لا نستطيع أن ننسب مثل هذا المغزى لتقارير شهود العيان الذين زاروا البلاد في القرن السابق. فها هو الدارس السويسري، فيليكس بثنه، الذي زار أرض إسرائيل عام ١٨٥٨ يقول عن الوضع الذي شاهده هناك: "لم يعرف الصليبيون الذين احتلوا الأرض المقدسة كيف يحتفظون بها، ولم يسبق لها أن كانت بالنسبة لهم أكثر من ميدان معركة ومقبرة. أما العرب الذين أخذوها منهم فقد تركوها هم أيضاً ليسيّطرها عليها الأتراك والعثمانيون. ... هؤلاء، حولوها إلى صحراء قاحلة، لا يجرؤون على السير فيها دون خوف. والعرب أنفسهم، الذين هم سكانها، لا يمكن اعتبارهم سوى أنهم يغيّمون فيها. لقد نصبوا خيامهم في حقولها الرعوية، أو أنهم اتخذوا لأنفسهم ملاجئ في خرابها. إنهم لم يؤسسوا شيئاً فيها، لأنهم غريبون عن الأرض، لم يسبق أن ملكوها. وإن رياح الصحراء التي جلبتهم إليها، قادرة على حملهم في أحد الأيام، دون أن يخلّفوا وراءهم أية آثار يمكن أن تدل على عبورهم عليها".

وعندما تجرّول إدوارد روبنسون، كلود كوندر، وعلماء آثاريون، في البلاد، لأول مرة، استطاعوا التعرف، بسهولة نسبية، على المواقع الأثرية اليهودية، لأن العرب لم يهتموا حتى ولو بتغيير أسمائها، وتركوا الأسماء العبرية القديمة (مع

بعض التعريف في العربية).

ومن بين المواقع اليهودية التي لم تتغير أسماؤها تقريباً، وجد الباحثون مدينة يرمياهو، عناتوت (عناتا)، وميادين المعارك التي خاضها المكابيون في لبونة (لويان) وفي بيت حورون (بيت عور)، والحصن الأخير لباركوخفا، بيتار (بتير)، وشيلا (سلوان). وعراد (تل عرويد)، واشكلون (عسقلان)، وبئر شمع (بئر السبع)، بني براك (ابن ابريق)، بيت شآن (بيسان)، بيت شيمش (عين شمس)، ادوراييم (دورا)، اشتموع (السموع)، ومئات المواقع الأخرى. في حقيقة الأمر، أقام العرب خلال ١٢٠٠ سنة من وجودهم على أرض اسرائيل، مدينة جديدة واحدة هي الرملة.

هذه الحقائق الواضحة، دفعت السير جورج أدام سميث، مؤلف كتاب الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة "The Historical Geography of the Holy Land" ليكتب في عام ١٨٩١ مايلي :

"لا توجد أية حضارة محلية في فلسطين يمكن أن تكون بديلاً للحضارة التركية، سوى الحضارة اليهودية التي منحت فلسطين كل شيء، ذي قيمة إلى الأبد".

لقد كان زعماء العالم محقين عندما لم يبحثوا في فرساي مطالب الفلسطينيين القومية. إذ لم يطرح أي زعيم عربي في فرساي (ولا في أرض اسرائيل أيضاً) مثل هذا المطلب.

فبصل، ابن شريف مكة، وملك العراق فيما بعد، الذي ترأس الوفد العربي، كان مشغولاً في تحقيق الاستقلال للدولة العربية الذي كان يأمل في ان تشمل سوريا اليوم والعراق وشبه الجزيرة العربية، وفي الحقيقة اعتبر العرب، الصهاينة حلفاء، لهم بالقوة، وتجدر الإشارة أيضاً، إلى انه خلافاً لما يدعونه اليوم بأن البريطانيين وعصبة الأمم كانوا يعرفون جيداً انه يوجد في "أرض اسرائيل" عرب يعارضون التسوية التي تقضي باقتطاع جزء صغير في منطقة الشرق الأوسط، من السيادة العربية، ليقام فيه وطن قومي لليهود. وقد تم التعهد لهؤلاء العرب بمنحهم حقوق المواطنة الكاملة، وبما أنه كان يعيش في "أرض اسرائيل" ٥% فقط من ملايين العرب الذين كانت بريطانيا قد حررتهم من الامبراطورية العثمانية.

في نظر بلفور ، كانت للصهيونية جذور بعيدة في الماضي ، ومتطلبات في

الحاضر، وآمال مستقبلية، تزيد في عمقها ادعاءات وطموحات ٧٠٠ ألف عربي كانوا يعيشون آنذاك في الأرض العتيقة".

تم التوقيع على اتفاقيات فرساي، وسُلم الانتداب على "أرض اسرائيل" للبريطانيين في مؤتمر سان - ريمو ١٩٢٠ بعد أن قام محرضون من دمشق بإثارة اضطرابات دامية في القدس، قُتل فيها ستة يهود ونُجرح مئات آخرين. تجدر الإشارة إلى أنه في تلك الاضطرابات أيضاً لم يطلب العرب الاستقلال لفلسطين، بل ضمها إلى سوريا المستقلة.

عبرت السياسة البريطانية بوضوح عن الاتفاق العام بأنه يوجد شعبان، شعب عربي، وشعب يهودي، وأن الاثنين لهما الحق في الحصول كل على حصته. وفي كانون أول، ١٩١٧، بعد فترة قصيرة من إصدار وعد بلفور، أجل اللورد روبرت ساسل، نائب وزير الخارجية البريطاني، سياسة بلاده بكلمات بسيطة: "نُرجب في أن تكون البلاد العربية للعرب، وأرمينيا للأرمن، ويهودا لليهود".

بعد عدة سنوات من مؤتمر فرساي، وعندما اتضح للورد لويد جورج، أن العرب يدعون بأنهم ظُلموا في أرض اسرائيل وفي أماكن أخرى، قال: "لا يوجد شعب حقق مكاسب أكثر من العرب، مما تمهدت به الدول الحليفة للشعوب المهزومة. فبفضل التضحيات الكبيرة التي قدمتها دول الحلفاء، وبخاصة بريطانيا وإمبراطوريتها، نال العرب استقلالهم في العراق والسعودية وسوريا وشرق الاردن، رغم أن معظم الشعوب العربية قاتلت في الحرب الى جانب الأتراك ... العرب الفلسطينيون (بشكل خاص) حاربوا من أجل السلطان التركي".

ولهذا لم يفاجأ أحد، في الثاني من تشرين ثان ١٩١٧، عندما أشار بلفور بصورة رسمية في رسالته إلى الاتحاد الصهيوني البريطاني، بواسطة اللورد روتشيلد، إلى أن بريطانيا تنتظر بعين العطف للطموحات اليهودية بإنشاء وطن قومي يهودي في "أرض اسرائيل"، وكان الجميع يعرفون آنذاك أن هذه الطموحات تعني تحقيق أغلبية يهودية في البلاد، وحكماً يهودياً، في نهاية الأمر. وقد عُرِفَت تلك الرسالة فيما بعد باسم "وعد بلفور": "تنتظر حكومة جلالتها بعين العطف لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في أرض اسرائيل، وستبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الهدف من خلال ادراك واضح، بأنه لن يحدث شيء قد يمس

بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في أرض اسرائيل، ولا في الحقوق والمكانة السياسية لليهود في أي مكان آخر.

بالنسبة للسكان العرب، أكد وعد بلفور على أنهم سيظلون يتمتعون بحقوق مدنية ودينية في أرض اسرائيل. اعتقد الجميع أنه لا ضير في وجود أقلية عربية وسط اليهود، طالما أُحترمت حقوقها الفردية، كما ورد صراحة في وعد بلفور.

في عام ١٩٢٠، سلّمت عصبة الأمم، بريطانيا، مهمة الانتداب على أرض اسرائيل في مؤتمر سان ريمو، على أساس وعد بلفور المؤيد للصهيونية من عام ١٩١٧، حيث صُمِّمَ إلى كتاب الانتداب كجزء لا يتجزأ منه: "يكون صاحب الانتداب مسؤولاً عن أن تسرد في الدولة ظروف سياسية، وإدارية واقتصادية، تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي".

كما أن صيغة كتاب الانتداب، اشتملت على "دعوة للسماح بهجرة يهودية واستيطان يهودي مكثف في البلاد".

كانت هذه التسوية عادلة في نظر بريطانيا. إذ قبل فترة وجيزة، كان البريطانيون قد حرروا العرب من الحكم التركي الذي استمر مئات السنين، ومنحهم بلاداً واسعة لتحقيق طموحاتهم القومية واعتقد البريطانيون، أن اليهود أيضاً، يستحقون إعترافاً خاصاً، نظراً لإخلاصهم لبريطانيا ومساهمتهم في المجهود الحربي في الحرب العالمية الأولى.

فقد حارب عدد كبير من اليهود في إطار جيوش دول الحلفاء وساهموا في إنتصارها، في حين لم يفعل العرب شيئاً، للتححر من نير الحكم التركي.

معظم العرب، وبخاصة، عرب أرض اسرائيل، ساعدوا الاتراك المسلمين بالذات، كما أشار لويد جورج. ويستثنى من ذلك، بعض الهجمات المتفرقة على الخط الحديدي الحجازي، التي نفذتها عصابات عربية بقيادة لورنس. في حين، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الجنود اليهود الذين خدموا في جيوش دول الحلفاء، إشتراك في الحرب، الكتائب العبرية التي أقيمت في إطار الجيش البريطاني بمبادرة صهيونية بقيادة الكولونيل، جون هنري بترسون، حيث قدمت هذه الكتائب مساهمة كبيرة في الحرب ضد الاتراك في مناطق شومرون، والجليل، وشرق الاردن.

على أية حال، أبدت بريطانيا، التزاماً تجاه المطلب التاريخي لليهود على أرض إسرائيل من خلال الاعتراف بمساهمتهم في اليهود العربي، ويحقوهم التاريخية. لذا لم يكن مستغرباً أبداً أن يؤكد السياسيون البريطانيون حقوق اليهود في إطار كتاب الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، ولم يواجه هذا التأييد أي اعتراض من جانب أحد، نظراً لأن كثيرين آخرين، كانوا يعترفون بهذه الحقوق آنذاك.

في حقيقة الأمر، لم يمنح الانتداب اليهود الحق على هذه الأرض، إنما اعترف بحق موجود وقائم، وأكد العلاقات التاريخية للشعب اليهودي بهذه الأرض وحقه في إعادة بناء وطنه القومي عليها.

لقد بدا هذا الاعتراف في تلك الأيام طبيعياً ومنطقياً، لأن معظم أبناء الطبقات المثقفة، آمنوا أن حق الشعب اليهودي على أرض إسرائيل، يحصل عليه بحكم التاريخ، ورغبة هذا الشعب المستمرة في العودة لحياء وجوده القومي عليها.

إن أفضل من استطاع التعبير عن حق اليهود هذا، كان وينستون تشرشل، عام ١٩٢١، عندما قال: "واضح للغاية أن العدالة تقضي بأن يكون لليهود الموزعين، مركز قومي ووطن قومي يتحدون فيه من جديد، وأين يمكن أن يكون مثل هذا الوطن، إن لم يكن في فلسطين، التي يرتبطون بها ارتباطاً وثيقاً وعميقاً، منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة؟ نحن نعتقد أن هذا الأمر سيهود بالفائدة على العالم، وعلى اليهود، وعلى الامبراطورية البريطانية وعلى العرب أنفسهم الذين يعيشون في فلسطين ... سيكون هؤلاء شركاء في خير وتقديم الصهيونية".

كان تشرشل متمسكاً برأيه، أن اليهود سيكونون قادرين على بناء وطنهم القومي على أرض إسرائيل، وجلب الفائدة أيضاً لسكان البلاد من العرب، وقد رد على العرب الذين طلبوا منه عدم السماح لليهود بشراء أراض في أرض إسرائيل، والاستيطان فيها، بقوله: "إن أحداً لم يسألكم ... فالحلقة الملقاة على عاتق اليهود، أصعب بكثير من مهمتكم . فما عليكم سوى الاستفادة من ممتلكاتهم.

في حين أن اليهود ملزمون بايجاد مصادر عيش للأشخاص الذين يجلبونهم الى بلاد خربة".

وفي أعقاب تعرضه للهجوم والانتقاد في مجلس النواب البريطاني، بسبب منحه اليهود امتيازاً لاقامة مشروع كهربائي على نهر الأردن، قال تشرشل: "يقولون لي أن بإمكان العرب عمل ذلك بأنفسهم. من يصدق هذا؟ إذا تركوا عرب فلسطين لشأنهم فلن يقوموا بإجراءات مفيدة لريّ فلسطين وكهربتها، حتى ولو بعد ألف سنة. إن الأسهل بالنسبة لهم الإقامة - مجموعة من البشر ذوو منطق فلسفي - في مروج قاحلة تحرقها الشمس، وترك مياه نهر الأردن تتدفق دون عوائق، الى البحر الميت".

كانت نظرة التأييد هذه سارية، بالطبع، على جانبي المحيط، حتى أن أحداً لم يستغرب إعتراف الولايات المتحدة بوعده بلفور. فقد تمت المصادقة على هذا الاعلان في حزيران ١٩٢٢ من قبل مجلسي النواب والشييوخ الأمريكيين، وصادق عليه الرئيس الأمريكي وورن ج. هاردينغ، في شهر أيلول.

وهكذا، في ١٩٢٢، بعد عشرات السنين من العمل السياسي بلغت الحركة الصهيونية ذروة نجاحها الدولي. حيث إعترف الكثيرون بصديق طريقها، وحظي زعمائها بالتقدير والاحترام، وكان هدفها الأساسي - إقامة وطن قومي لليهود على ضفتي نهر الاردن - مقبولاً على العالم كله تقريباً.

في الحقيقة، أن الوطن القومي اليهودي، كان من المقرر له أن يكون صغيراً ومتواضعاً، معظمه أرض صحراوية ومستنقعات، وكله معرض لأشعة الشمس الحارقة، لكنه كان خالياً وواسعاً ... وعلى هذا الأساس سَدَ الحاجة الرئيسية.

ألم يعمل أبازهم (اليهود) في أرض جلعاد شرق النهر، وغرسوا الكروم في يهودا، واصطادوا الأسماك من بحيرة طبريا وأبحروا بنفسمهم من شاطيء يافا؟

ذرية اليهود، ستقوم بكل هذه العمال، وأكثر من هذا. كما تنبأ هرتسل في كتابه "التنقيلات"، ستحيي مدينة اليهود تقاليد قديمة، وينفس الوقت ستطوّر العلوم والتكنولوجيا؛ وستكون "جمهورية تحمل ثقافة وأحاسيس اهم الأمم في العالم". كما تنبأ، جورج اليوت.

وستزدهر "أكثر من بريق الحرية الغربية بين مملكات الشرق الظالمة".

في عام ١٩٢٢، وعلى الرغم من سحب العاصفة التي كانت تقترب أكثر فأكثر من فوق رؤوس اليهود في أوروبا، بدا وكأنه في القريب العاجل سيكون هنالك ملجأ آمن لليهود. إذ لم يكن مستقبل اليهود وديتاً إلى هذه الدرجة منذ ألفي سنة.

المصل الثاني

التخلي عن الصهيونية

لم تجر الأمور كما يجب. إذ أنه قبل عام ١٩٢٠، عندما كُلفت بريطانيا بإنشاء وطن قومي يهودي، في مؤتمر سان ريمو، كانت عناصر مختلفة في الحكومة البريطانية قد بدأت تعمل ضد الالتزام البريطاني في مؤتمر فرساي. وقبل المصادقة في مجلس عصبة الأمم على الانتداب عام ١٩٢٢، كان واضعو السياسة البريطانية قد بدأوا بالتراجع عن عزمهم تنفيذ إعلان وعد بلفور.

وفي إطار سياستها الجديدة، تراجعت بريطانيا عن التعهدات التي أخذتها على عاتقها بموجب وعد بلفور. إذ أصبح ما بدا في نظر البريطانيين حقائق أخلاقية ووعوداً قومية قبل تسلمهم الانتداب رسمياً، في نظرهم الآن، سياسة غير واقعية.

ففي عام ١٩٢٢، انتزعت بريطانيا شرق الأردن من منطقة الوطن القومي اليهودي، وبجرة قلم واحدة، انتزع من الأراضي المخصصة للشعب اليهودي ما يقارب ٨٠% من هذه الأراضي، وتم إغلاق شرق الأردن بكاملها في وجه الاستيطان اليهودي حتى يومنا هذا.

سلمت بريطانيا هذا الجزء من أرض إسرائيل إلى الملك عبدالله، الذي ينتمي إلى الأسرة الهاشمية من مكة، وتوجته أميراً وأقامت من أجله دولة جديدة باسم "شرق الأردن"، واليوم (المملكة الأردنية)، تلك الدولة التي لا زالت تعاني حتى اليوم من الظروف الاصطناعية لولادتها.

على خلفية الادعاء بأن الاستيطان اليهودي في "أرض إسرائيل" هو السبب الذي أثار الاضطرابات العربية، أصدرت بريطانيا، عام ١٩٣٠ "الكتاب الأبيض" ضمنه قيوداً كثيرة على هجرة اليهود إلى البلاد وعلى شراء الأراضي. وقد بدأت سياسة الحصار البريطانية تزداد قوة في سنوات الثلاثينات. وعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد صدور "كتابين أبيضين" خنقت بريطانيا الهجرة اليهودية، بصورة كاملة تقريباً، وحددت شراء اليهود للأراضي بجزء ضئيل فقط من البلاد. حتى أن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت لم يتردد في أن يسأل وزير خارجيته، كوردل هال: لقد كنت في فرساي، وأعرف أن البريطانيين لم يخفوا عن أحد أنهم

تعدوا فلسطين لليهود. فلماذا يتراجعون عن تعهدهم تلك الان؟.

ما هو سبب هذا التحول؟ وما هي القوى السياسية التي استطاعت التأثير على بريطانيا العظمى، لجعلها تتخلى من جانب واحد، عن تعهدها باقامة وطن قومي لليهود، وتبقيهم دون وطن ولا قوة، في الوقت الذي كانت فيه آلة الدمار الهتلرية تسحق، بوحشية، وسط أوروبا؟

لقد تبنت حكومة، لويد جورج، وعد بلفور وأيدته في فرساي، لسببين لا يختلفان كثيراً عن التبريرات التي يطرحها كثير من الأمريكيين، لدعم اسرائيل اليوم. فقد آمن، لويد جورج، بأن تأييد فكرة إنشاء وطن قومي لليهود، له ما يبرره على الصعيد الأخلاقي (نظراً لصديق الادعاء اليهودي)، لكنه إعتقد أيضاً أن دعم الحركة الصهيونية ينسجم مع المصالح البريطانية. وشأنه شأن القيصر الألماني، رأى هو أيضاً، اليهود كقوة يجب أخذها بعين الاعتبار. إذ أن تحالفاً مع أمة يهودية في "أرض اسرائيل" تتواجد في محاذاة قناة السويس، وتشرف على الطريق البرية الى الهند، سيكون بالنسبة لبريطانيا ثروة ذات أهمية على مدى الأيام. ولهذه الأسباب آمن، لويد جورج، بأن تعزيز قوة اليهود في "أرض اسرائيل" يعني تعزيز قوة بريطانيا نفسها، وفي نفس الوقت، تقوية القيم الغربية، التي كان يرى ان بريطانيا مسؤولة عن المحافظة عليها.

كان التحول في نظرة بريطانيا الى الحركة الصهيونية، بعد سقوط حكومة لويد جورج، ينبع من تغييرات أساسية في الأسلوبين التاليين:

- أولاً؛ توصل السياسيون البريطانيون إلى استنتاج بأن التحالف مع العرب أفضل بكثير لبريطانيا من تحالفها مع اليهود.

- ثانياً؛ بما أن معظم الزعماء العرب عارضوا الاستيطان اليهودي في "أرض اسرائيل"، ادعى البريطانيون أن تفضيل الصهيونية سيلحق الظلم بالعرب.

هاتان النظرتان المتعلقتان بالمصالح السياسية، ومسألة العدالة، تبلورتا في بريطانيا خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين، لكنهما ظلتا قائمتين في النصف الثاني من القرن الحالي. وكانتا قاعدة للاستعداد الذي أبداه البريطانيون، مع مرور الزمن، لقبول الادعاءات العربية كحقائق مجردة، وهما اللتان حددتا الى درجة كبيرة، السياسة الأوروبية والأمريكية تجاه اسرائيل حتى اليوم.

يجدر بنا اذن، فهم مصدرو هاتين النظريتين، والتعرف على مدى الفائدة التي حققتها السياسة البريطانية، التي اعتمدت عليهما، على صعيدي العدالة والمصالح البريطانية.

بالطبع، لم تكن معارضة إقامة وطن قومي لليهود، سياسة كل من بلفور، ولويد جورج، انما جاءت من جانب موظفي وزارتي الدفاع والخارجية البريطانيتين.

في الحرب العالمية الأولى، احتلت بريطانيا من أيدي العثمانيين جزءاً كبيراً من العالم العربي. كانت مثاليات، ويلسون وبلفور، قد اندمجت جيداً في دعاية الحرب، ولكن منذ اللحظة التي انتقلت بها الى أيدي سوريا، وارض اسرائيل، والعراق، والعربية السعودية، بدأت بريطانيا تواجه مشكلة عملية: "شخص ما" يجب ان يحكم هذه البلدان، وهذا "الشخص" كان عبارة عن مجموعة صغيرة ومتناسكة من الموظفين "المستعربين".

في وزارة الخارجية، أمضوا سنوات طويلة في تعلم اللغة العربية، والاقامة في اساكين عديدة، مثل القاهرة أو الخرطوم، وأصبح لديهم اعجاب رومانسي بـ "البدو الاصيل".

كان هؤلاء يحملون بانشاء امبراطورية عربية موالية لبريطانيا، تمتد من السودان وحتى العراق، وضم هذه الإضافة الشرق أوسطية الى الامبراطورية البريطانية لتشكل إتصالاً برتياً بريطانياً، من جنوب افريقيا حتى الهند. وخلال الحرب، ناضل هؤلاء الموظفون باخلاص، من أجل تحرير العرب من الحكم العثماني، واجتهدوا لابرار زعماء عرب، يقومون بتوحيد القبائل العربية المتفرقة ويضعونها الى جانب بريطانيا. ويبدو أن هؤلاء "المستعربين" لم تزعجهم حقيقة أن مئات الآلاف من العرب، حاربوا وقُتلوا إلى جانب الأتراك بالذات، وان بضع مئات فقط من البدو، تم اقناعهم بصعوبة، للمشاركة في القتال الى جانب دول الحلفاء، بعد أن حصلوا على رشوة مالية وسياسية سخية جداً. لم يول "المستعربون" أهمية كبيرة لمجموعة السكان العرب القليلة في "أرض اسرائيل"، لكن المنطقة بالذات، كانت في نظرهم تشكل جسراً برياً استراتيجياً يربط بين القاهرة ودمشق وبغداد. ونظراً لرغبتهم في كسب ود العرب، كان هؤلاء الموظفون البريطانيون على استعداد لتبني العداء العربي للصهيونية ودمجه في إطار سياستهم . وهكذا، على

سبيل المثال، طلبوا بعد وقت قصير من الانتداب، ضم "أرض اسرائيل" لسوريا التي أصبحت تحت سيطرتهم.

فور سقوط القدس بأيدي البريطانيين، في ١١ كانون أول ١٩١٧، وبعد شهر واحد على صدور اعلان وعد بلفور، كانت قد بدأت تظهر مؤشرات لمقاومة الصهيونية في أوساط الموظفين البريطانيين في أرض اسرائيل. ولم يكن هدف هؤلاء المعارضين تحقيق العدالة، او تنفيذ تعهدات حكومتهم، بل كسب ثقة العرب. إذ سارع البريفادير جنرال جلبرت كلايتون، المستشار السياسي للجنرال اللنبي، للاعراب عن تحفظه من وعد بلفور، حيث اعلن: "علينا .. أن ندرس ما إذا كان الوضع يستوجب حقاً دعماً غير محدود للحركة الصهيونية، حتى لا نشير ضدنا عداً العرب، في هذه اللحظة الحرجة بالذات".

وجاء في ادعاء كلايتون أمام السيد مارك سايكس، الموالي للصهيونية: "أرى من واجبي الاشارة الى انه في الوقت الذي نعمل فيه لأجلهم (لأجل الصهاينة) بهذا النشاط الذي نقوم به، فالتنا نعرض انفسنا لامكانية أن تصبح الوحدة العربية حقيقة واقعة، وتقف ضدنا".

لقد لاقى مرقف كلايتون، التأييد من المندوب السامي البريطاني على مصر السير رجنلد فينجاي، الذي حذر اللنبي من أن سايكس، تمادى كثيراً في دعمه للصهيونية، وإذا لم يعتدل فقد يقلب الأمور رأساً على عقب.

كما أن الحاكم العسكري الجديد للقدس، رونالد ستورس، عمل هو أيضاً، على تبرير حماس البريطانيين تجاه المشاريع الصهيونية. وطالب بالنظر بتعاطف مع مطالب العرب المحليين، وان يتم أي تغيير يحدث على الأرض بصورة تدريجية، لكي لا نشير عداً مستديماً.

اما الجنرال اللنبي نفسه، فقد رفض السماح حتى بنشر اعلان وعد بلفور في "أرض اسرائيل"، وبدلاً منه، نشرت ادارة الحكم العسكري إعلاناً بشأن النية في التشجيع والمساعدة على انشاء حكم وادارة محلية للسكان في سوريا و "مسروطة".

وافترض الرجاء العرب، بالطبع، ان هذا الاعلان ينطبق عليهم أيضاً، إذ كانت "أرض اسرائيل" في نظرهم جزءاً من سوريا (حتى أن البريطانيين أرسلوا لهم

نسخاً من الاعلان). وقد وصف جيبوتنسكي سياسة الحكم العسكري البريطاني في "أرض اسرائيل" بـ "اعتذار عن هفوة اللسان التي صدرت عن بلفور".

وسرعان ما وصلت الإشاعات بشأن هذه المعارضة لسياسة حكومة صاحب الجلالة الرسمية، إلى وزارة الخارجية في لندن. وكان بلفور لا زال على سدة الحكم، وبدأ العمل فوراً.

في ٤ آب ١٩١٨، وصلت برقية إلى الحاكم العسكري البريطاني في "أرض اسرائيل"، تتضمن تعليمات واضحة بشأن إعتبار اعلان وعد بلفور سياسة بريطانية رسمية وملزمة، بكل معنى الكلمة، غير أن هذا لم يؤثر على الحكم العسكري البريطاني، الذي ظل يسخر من سياسة إنشاء وطن قومي لليهود، ومن اليهود أنفسهم، وبصورة علنية وصريحة.

أما الجنرال، ارتور موني، الذي حل محل الجنرال اللنبي في رئاسة ادارة الحكم العسكري، فقد اشتكى بشأن أصدقاء لويدي جورج "اليهود"، وأمر بطباعة نماذج رسمية باللغتين الانجليزية والعربية فقط، ورفض أيضاً الوقوف اثناء عزف نشيد هتكفا (الأمل). في حين شكّل الحاكم العسكري البريطاني لمنطقة يافا اللفتنان كولوئيل، هابرد، أول منظمة سياسية عربية ومولها، بهدف استخدام الممثلين العرب الذين وضعهم على رأس هذه المنظمات، كوسيلة لمحاربة الصهيونية. وترددت أنباء مفادها أن هابرد أعلن، أنه اذا اراد العرب تنظيم مظاهرات ضد اليهود، فانه لن يمنعهم.

أما بالنسبة لفكرة السماح لليهود بالقدوم والعيش في أرض اسرائيل، فقد أعربت اجهزة المخابرات البريطانية عن مخاوفها من نتائج مثل هذه الخطوة غير المسؤولة، وضغطت على وزارة الخارجية، لثنيها عن اعطاء تأشيرات هجرة لليهود، إلى حين استقرار الوضع العسكري.

توصل جيبوتنسكي، الذي كان حتى ذلك الوقت من مؤيدي التعاون مع بريطانيا، إلى استنتاج يدعو للأسف، وهو أن الادارة البريطانية أصبحت "بوابا اللاسامية". و اضاف جيبوتنسكي: " أن الكراهية لليهود التي سادت أوساط الجيش البريطاني في أرض اسرائيل خلال الفترة ١٩١٩ - ١٩٢٠ لم يكن لها مثيل حتى في روسيا وبولندا".

لكن الادارة البريطانية كانت تضم عدداً من الأشخاص المؤيدين المخلصين للصهيونية، حيث نهض هؤلاء للدفاع عن الصهيونية، رغم ان هدفهم كان خدمة سياسة لويد جورج ويلفور. وكانت آراء هؤلاء معارضة تماماً لنظرية المؤيدين للعرب. كانوا يؤمنون بأن بريطانيا لا تستطيع الاعتماد على العرب، لفترة طويلة، وان العرب المؤيدين لها، سيظهرون في نهاية الأمر ضعفاء وغير مستقرين. لذا، فان مصلحة بريطانيا تتطلب دعم اليهود بالذات، لكي يتمكن هؤلاء من ان يبنوا في قلب الشرق الأوسط، قاعدة غربية قوية، تساهم في استقرار المناطق العربية المجاورة.

كان على رأس المنادين بهذه الفكرة، الكولونيل، رتشارد ماينر تسهاجن، رئيس فرع المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط، الذي كان لعملياته المضلّة الناجحة دور كبير في المساعدة على طرد الأتراك من أرض اسرائيل، عام ١٩١٧.

ويعترف ماينر تسهاجن، بأنه، كان في بداية طريقه، ذا ميول لاسامية، غير أن افكاره بشأن اليهود والصهيونية تغيّرت، بعد أن بدأ بتشغيل عملاء مخابرات يهود وعرب، أثناء الحرب. وعندما عُيّن في منصب الضابط السياسي الرئيس. في "أرض اسرائيل" عام ١٩١٩، أصبح واحداً من أكبر الصهاينة من غير اليهود، في تاريخ الصهيونية، حتى أنه اجتمع فيما بعد مع هتلر، بهدف محاولة انقاذ يهود من المانيا وجلبهم الى "أرض اسرائيل".

وكان تأييد، ماينر تسهاجن، للصهيونية ينبع، أولاً وقبل كل شيء، من ايمانه بأن هذا التأييد ينسجم مع المصلحة البريطانية.

ويقول عن نفسه: انه بصفته مندوباً لوزارة الخارجية البريطانية في "أرض اسرائيل"، كان "معزولاً بين الغرباء. في تأييده للصهيونية". ومع ذلك ظل يتمسك برأيه القائل: ان دعم فكرة انشاء وطن قومي لليهود، يخدم بوضوح المصلحة البريطانية، ويقول: "قد نواجه تحدياً قومياً، يؤثر على مكانتنا. اننا لا نستطيع مصادقة العرب واليهود في آن واحد، لذا اقترح ان نصادق أولئك الذين يمكن ان يحافظوا على عهدهم — اي اليهود — فعلى الرغم من أننا علمنا الكثير من أجل العرب، إلا أنهم لا يعرفون ما هو الاعتراف بالجميل، حتى أنهم سيكونون عبئاً علينا، في حين سيكون اليهود ذخراً لنا ... أضف الى ذلك ان اليهود أثبتوا قدرتهم على الحرب، منذ ان احتل الرومان القدس. أما العربي فهو مقاتل حقير،

ورغم أنه قومي جداً في مجالات السلب والتخريب والقتل ... ان من شأن إقتراحي، تعزيز مكانتنا في الشرق الأوسط.

قبل ثلاثين سنة من قيام دولة اسرائيل، كان مايير تسهاجن واثقاً تماماً، من ان تحالفاً مع اليهود المؤيدين للغرب، سيكون في نهاية المطاف الطريق الوحيدة لحماية مكانة بريطانيا في الشرق الأوسط، إذ قال: "في عام ١٩٦٦، من المقرر ان تنتهي سيطرتنا على قناة السويس، وفي تلك السنة سَنُطْرَد من مصر، بحيث تستطيع مصر، حينئذ إغلاق القناة في وجه سفننا ... لقد اعتبرت فلسطين دائماً مفتاح الدفاع عن الشرق الأوسط. لهذا توجهت (في الاسبوع الماضي) الى فايتسمن، للاستيضاح منه، فيما اذا كانت بريطانيا ستكون قادرة على الحصول على قواعد عسكرية بحرية وجوية في فلسطين، بعد أن تُقام فيها دولة يهودية مستقلة. أضف الى ذلك، أننا نستطيع الاعتماد على اليهود بالمحافظة على الاتفاقيات، في حين لا نستطيع الثقة بالعرب إطلاقاً ... واذا كانت لدينا قواعد في فلسطين، فستكون مكانتنا في الشرق الأوسط مضمونة الى الأبد".

بلغ الصراع بين، مايير تسهاجن، وبين معارضي الصهيونية على مستقبل الانتداب، ذروته، في آذار ١٩٢٠، عندما تَرجَ فيصل، بتأييد المستعربين البريطانيين ملكاً على سوريا كلها، بما فيها "أرض اسرائيل"، وبما ان مرطفي الادارة البريطانية في "أرض اسرائيل" كان محظوراً عليهم ضم "أرض اسرائيل" رسمياً الى مملكة فيصل، نظموا سلسلة من المظاهرات العربية العنيفة، مطالبين بوضع حد لسياسة الوطن القومي اليهودي، وضم "أرض اسرائيل" الى سوريا. ويتنسّق كامل مع فيصل، وعى حاكم القدس، ستورس، ورئيس اركانه، ريتشارد ووترس تايلور، مجموعة من العرب المتطرفين، كان من المقرر لهم أن يؤيدوا المطالبة بضم "أرض اسرائيل" الى سوريا، التي انتقلت السلطة فيها، كما أسلفنا، الى أبناء اسرة فيصل، الهاشميين. وترأس هذه المجموعة مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، الذي اعتمد البريطانيون عليه لتأييد ضم "أرض اسرائيل" لسوريا.

يقول، مايير تسهاجن، الذي أُضطر لزِرع عملاء لمراقبة النشاطات المعادية للصهيونية، داخل الادارة البريطانية، ان، ووترس تايلور، توجه الى هؤلاء العرب، مطلع عام ١٩٢٠، بشأن تنظيم مظاهرات عنيفة ضد اليهود، لاقتناع الادارة

البريطانية، بأن السياسة الموالية للصهيانية ليست شعبية ولا مقبولة". كما أن ستورس، والملك فيصل، كانا على اطلاع على سر هذه الخطة.

اجتمع، ووترس تايلور، مع الحسيني، وأكد له الأهمية الحاسمة لمثل هذه الاضطرابات. وقد كتب ماينر تسهاجن تقريراً عن هذا الاجتماع، جاء فيه: اجتمع ووترس تايلور مع الحسيني يوم الاربعاء قبل عيد الفصح، وأوضح له أنه، في عيد الفصح، ستكون لديه فرصة ذهبية، ليظهر للعالم كله، أن العرب في فلسطين لن يتحتلوا سيطرة اليهود على أرضهم، وأن الصهيونية مرفوضة، ليس من قبل رجال الادارة البريطانية في فلسطين، وإنما في "أيت هول (الحكومة البريطانية)، وإذا ما اندلعت الاضطرابات، وكانت على درجة كافية من العنف في القدس، خلال أيام عيد الفصح، فسوف يوصي الجنرال بولس، والجنرال اللنبي، بالتخلي عن فكرة الوطن القومي اليهودي".

في يوم الاضطرابات، غُطيت شوارع القدس، بمنشورات جاء فيها: "الحكومة معنا، اللنبي معنا، اذبحوا اليهود، إن من يقتل اليهود لا يعاقب". كما هتف محرضون عرب: "يعيش ملكتنا، الملك فيصل، باسم الملك ندعوكم لمحاربة اليهود".

وتم ابعاد افراد شرطة يهود من وظائفهم ولم تشاهد قوات الأمن في أي مكان، باستثناء بعض افراد الشرطة العرب، الذين ساهموا في الواقع بالاضطرابات. هكذا، ترك الشارع للجمهور الذي شرع في أعمال القتل والاعتصاب والنهب لمدة ثلاثة أيام متتالية، دون أي ازعاج.

وتم الافراج عن معظم المتظاهرين العرب الذين اعتقلوا، حتى قبل انتهاء الاضطرابات حيث عادوا لينضموا الى زملائهم. ونجم عن هذه الاضطرابات، مقتل (٥٦) يهودياً وجرح (٢١١) آخرين. وأخيراً، بعد أن هدأت الاضطرابات، وعاد النظام الى نصابه، اعتقل البريطانيون اثنين من العرب بتهمة اغتصاب امرأتين يهوديتين، وعشرين من اليهود بينهم جيبوتنسكي، بتهمة تنظيم قوة للدفاع الذاتي. في حين فرّ الحاج أمين الحسيني، الذي أشرف على الاضطرابات، من البلاد.

وفي اجتماع عقده وجهاء مسلمون، فور إنتهاء الاضطرابات قال أحد زعماء المحرضين، عارف العارف: "من حسن حظنا أن الادارة البريطانية تقف الى

جانبنا، ولن نُس بسوء. لهذا أقترح مواصلة ضرب اليهود".

في الأيام الأولى التي تلت الأحداث، بدا للحظة أن سياسة ماينر تساهجن، ستغلب على سياسة المستعربين". فالاحتجاجات التي بعث بها إلى وزارة الخارجية في لندن، التي كانت ما زالت مؤيدة للصهيونية، إضافة إلى افادته أمام لجنة التحقيق الخاصة، التي أقيمت بعد الأحداث، أحدثت هزة لدى الحكومة البريطانية، بلغت درجة جعلتها تقرر حل إدارة الحكم العسكري. حيث تم إقالة الجنرالين لويس بولس، ووترس تايلور، وأفرج عن جيبوتنسكي وزملائه. وفي تموز ١٩٢٠، سُلّمت "أرض اسرائيل" إلى سلطة المندوب السامي، الذي كان معروفاً بأنه مؤيد لامع للصهيونية - هاربرت صموئيل.

في تلك الأثناء، هاجم الفرنسيون دمشق، واطاحوا بنظام الحكم الهاشمي، الذي أقامه البريطانيون هناك، وسيطروا على سوريا. وهكذا ثلاثت نهائياً خطة "المستعربين" لضم "أرض اسرائيل" إلى سوريا تحت الحكم البريطاني. غير أنه لم تمض بضعة أشهر، حتى اتضح أن المعركة بشأن الوفاء بتمهد البريطانيين، ستكون قاسية وطويلة. إذ كتب الكولونيل بترسون يقول: "ذهب بولس، لكن السياسة التي أسسها لا زالت قائمة. فالموظفون اللاساميون الذين أحضرهم معه ما زالوا في مراقبهم". أما صموئيل، فعلى الرغم من نواياه الطيبة، لم يستطع التغلب على مرؤوسيه، الأمر الذي جعل الوضع يزداد تدهوراً بسرعة.

واصل موظفو المندوب السامي شكاوهم من كراهية العرب للبريطانيين، بسبب اليهود، واهتموا بتعيين العرب في المناصب المهمة في الإدارة، حتى في جهاز الأمن. ونتيجة لضغط الموظفين المواليين للعرب، عفا، هاربرت صموئيل، عن الحسيني كبادرة حسنة تجاه العرب. وهكذا عاد كبير المعرضين إلى القدس ليبدأ عمله فوراً.

وخشية حدوث "مواجهة مع أصدقائنا العرب" تم اقناع صموئيل بالتخلي عن معارضته لفصل شرق الأردن عن بقية أجزاء "أرض اسرائيل".

وعندما شغل منصب مفتي القدس، رشع الحاج أمين الحسيني نفسه لهذا المنصب، بهدف استخدام الواجهة والقوة الاقتصادية، التي يتمتع بها المفتي، ضد اليهود. وعندما أُجريت الانتخابات لمنصب المفتي، هُزم الحسيني وحصل على

المركز الرابع فقط، غير أن مؤيدي العرب في الادارة البريطانية، عزلوا الفائز الحقيقي وضلّوا صموئيل، بأن الحسيني هو الممثل الوحيد لعرب "أرض اسرائيل". وأخيراً عُيّن الحسيني في المنصب الجديد الذي أنشئ من أجله، منصب المفتي الأكبر "مدى الحياة". وهكذا، وبجرة قلم مصيرية، منح البريطانيون الشرعية لأكبر وأعنف عنصر في وسط عرب "أرض اسرائيل" ومنحوه مكانة الزعيم الأعلى. وهكذا، تحدد نموذج زعامة عرب "أرض اسرائيل" التي ظلت قائمة، حتى نهاية القرن العشرين.

وكتب عنه ماير تسهاجن يقول : أنه يكره اليهود والبريطانيين، ويعتبر تمييزه جنوناً حقيقياً". في حين اجمل لويد جورج هذا الموضوع بقوله: "صموئيل ، رجل ضعيف".

في عام ١٩٢١، كانت جنود العداء لليهود قد تعمقت في لندن ذاتها. في تلك السنة انتقلت المسؤولية على أرض اسرائيل، من وزارة الخارجية الى "دائرة الشرق الأوسط" وهي دائرة خاصة أقيمت في وزارة المستعمرات.

كان رجال الدائرة من قدامى بناء الامبراطورية، الذين تعود احوالهم الى مستعمرات بريطانية مثل، كينيا، سيراليون، وجنوب روديسيا. وترأس الدائرة السير جون أفلين شاكيرغ، وكان رجلاً مشبهاً باللاسامية، وبعثت الصهيونية واليهود. كان شاكيرغ من كبار مؤيدي النظرية القائلة أنه من أجل ترسيخ قبضتها في الشرق الأوسط، يجب على بريطانيا معارضة الصهيونية، لكي تكسب ثقة ولاء رعاياها العرب، في مصر والعراق والخليج العربي.

على الرغم من أن معظم مؤيدي العرب من البريطانيين (المستعمرين) كانوا مفتونين بسحر النمرودج العربي الذي كانوا يصفونه بـ "خفايا الشرق"، كان لديهم سبب آخر لنقل تأييدهم من الصهاينة الى العرب. فقد اعتقد هؤلاء الموظفون، ان السيطرة على العرب، ستكون أسهل من السيطرة على اليهود. بحيث يمكن تضليلهم الى ما لاتناهية، وتأجيل مطالبتهم بالاستقلال — طالما بقي عداؤهم لليهود، يمنعهم من معارضة الحكم البريطاني.

كان من بين زملاء شاكيرغ، في وزارة المستعمرات، عدد من قدامى الحرب العالمية الأولى، الذين عرفوا بحبهم للعرب، ومنهم، توماس ادوارد لورنس، المعروف

يلقب كورنيس العرب".

كان لورنس قد اشتهر في بريطانيا وامريكا، بفضل تمثيلية ناجحة، بالغت في وصف معركة البريطانيين ضد العثمانيين، وعرضت لورنس مع مجموعة صغيرة من العرب، كأبطال رئيسيين لهذه المعركة.

ولكي يرسخ شهرته، سعى لورنس باصرار، لإثارة الانطباع، بأن بريطانيا مدينة جداً للعرب عامة، ولقيصل والهاشميين، خاصة.

في تلك الفترة، ترأس وزارة المستعمرات وزير تنقصه الخبرة هو، وينستون تشرشل، حيث استطاع موظفوه ذوو الخبرة في الوزارة، من امثال، شاكبرغ، ولورنس، إستغلال عدم خبرته، وجعله ينفذ سياستهم.

تسلم تشرشل مهام منصبه، وهو معروف كمؤيد قوي للصهيونية. وفي شباط ١٩٢٠، أثار الهلع في قلوب الموظفين المواليين للعرب، عندما قال لصحيفة "صاندي هارولد" انه يتنبأ بقيام دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن ... يعيش فيها ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي".

بأقواله تلك، كان تشرشل وفتياً "فرساي" التي أيدت بوضوح، حق الشعب اليهودي في العودة والاستيطان على ضفتي الاردن، في الاماكن التي عاش فيها في عهد المكراه.

وفي حينه كتب بلفور الى لويد جورج بهذا الشأن، ان الحدود الشرقية لأرض اسرائيل يجب أن تمر بعيداً الى الشرق من نهر الأردن، بغية توفير امكانية تطوير الزراعة الصهيونية.

وقد وافق هاربرت صموئيل على ذلك بقوله: "لا يمكن ان يعيش شعب كبير دون أرض. وكل خبير يعرف أنه من أجل ازدهار فلسطين، يجب ان تكون لها أرض مناسبة الى الشرق من نهر الاردن".

كما أن أهم صحيفة بريطانية "التايمز" كتبت آنذاك، أن "أرض اسرائيل" بحاجة الى حدود عسكرية جيدة تكون قريبة قدر الامكان من حدود الصحراء".

وأضافت الصحيفة: "نهر الأردن ... غير مناسب ليكون الحدود الشرقية لفلسطين، وواجبنا كأصحاب إئتداب، أن نهتم بأن لا- تعيش فلسطين اليهودية، في صراع دائم، بل تكون دولة قادرة على إدارة حياة ممتلئة وقومية مزدهرة".

وبعد بضع سنوات، أجمل اللورد، أرنولد، نائب وزير المستعمرات، الموقف الرسمي البريطاني في الحرب العالمية الأولى في خطاب القاء أمام البرلمان البريطاني، على النحو التالي: "خلال الحرب، إعترفنا باستقلال العرب ضمن حدود معينة ... وجرّت مناقشة مسألة تحديد المناطق التي ستكون مشمولة داخل هذه الحدود، غير أنه لم يكن هنالك أي خلاف بشأن شرق الأردن. ولا شك بأن شرق الأردن مشمولة ضمن الحدود التي تطرّق إليها اعلان وعد بلفور (إبان الحرب)". وكما قال الملك عبد الله انه: "بعون الله، تمكنت من اقامة حكومة شرق الأردن بفضل فصل هذا الجزء من الأرض عن اعلان وعد بلفور، الذي كان مشمولاً ضمن حدوده منذ أن قررت اتفاقية سايكس بيكو من عام ١٩١٦، أن يكون تحت النفوذ البريطاني.

ويبدو أن الأمير عبدالله، شأنه شأن أخيه فيصل، عرف أهمية هجرة اليهود الى شرق الأردن واقامة البنية الاقتصادية هناك، وقد جرت محاولات في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ لبيع وتأجير أراض في شرق الأردن لليهود من "أرض اسرائيل" الغريبة. وتم إحباط هذه المحاولات، في نهاية الأمر، من قبل الادارة البريطانية في البلاد.

غير أنه في ضوء التأييد القوي لاستيطان يهودي شرق نهر الأردن، كان واضحاً لموظفي دائرة الشرق الأوسط، أنه اذا ما تركوا تشرشل لشأنه، فانه سيحاول تحقيق فكرة اقامة "الدولة اليهودية على ضفتي نهر الأردن". لذا سارعوا الى العمل بهدف إحباط هذه الامكانية. فقد نقل شاكيرغ ولورنس وزملائهم معلومات كاذبة الى تشرشل، مفادها أن مناطق شرق الأردن قد تعهدت بها بريطانيا لفيصل والأسرة الهاشمية من مكّة، خلال الحرب. وهكذا أدى الأمر الى انشاء نظام حكم الأمير عبدالله، شقيق فيصل، على شرق الأردن (بدعم من جيشه الخاص البالغ آنذاك حوالي ٢٠٠) جندي، رغم احتجاجات المندوب السامي، صموئيل وغيره، الذين ادعوا أن شرق الأردن جزء لا يتجزأ من "أرض اسرائيل".

وادعى لويد جورج بشدة، أنه حتى لو لم يكن هنالك خيار سوى جعل شرق الأردن إقليماً عربياً، يجب إعتباره "إقليماً عربياً من فلسطين يهودية، أو إقليماً

مضموراً إليها".

كان مرطفو تشرشل، على قناعة بأن مثل هذه التسويات ستكسبهم ولا العرب. وقالوا لتشرشل ان مثل هذه الهدية للعرب، لن تضر باليهود نهائياً. وكان تشرشل، شأنه شأن زعماء غربيين كثيرين، جاؤا بعده، ليس مطلعاً على التفاصيل الكاملة للقضية، لكي يتمكن من دحض هذا الادعاء.

وفي تلك الأثناء، نُقل ماينر تسهاجن، الى دائرة الشرق الأوسط في لندن، ومرة أخرى وجد نفسه معزولاً في محاولاته جعل بريطانيا تفي بتمهاتها لليهود، وكتب يقول: أجز السائد في وزارة المستعمرات معاد جداً لليهود، وأسرأ الموجودين هناك، شاكيرغ، المسؤول عن دائرة الشرق الأوسط ... كدت أنفجر عندما سمعت أن تشرشل اقتطع شرق الأردن من فلسطين. لقد أرضوا الأمير عبدالله على حساب البيت القومي اليهودي الممتد على كل فلسطين التناحية. كما كان لورنس الى جانب تشرشل، وبالطبع، استغل نفوذه لديه ... وهكذا تقلص الوطن القومي اليهودي الى ثلث مساحة فلسطين المكرائية. وتعلن وزارة المستعمرات والادارة البريطانية في فلسطين حالياً أن بنود الانتداب المتعلقة بالوطن القومي اليهودي، لم تعد تنطبق على شرق الأردن .. وكل هذا لم يتفوهوا به إلا عندما أرادوا مصالحة أمير عربي".

ويغضب شديد، طلب ماينر تسهاجن مقابلة تشرشل: "... ذهبت إليه وأنا في حالة غضب شديد. استمع تشرشل لأقوالي كاملة: قلت له سنلحق ظمناً شديداً باليهود، فهذا هو التزام آخر تتصل منه، ومن غير المنطق ان نرى وعد بلفور يتجزأ، وأن نرى التخريب في سياسة جلالتة بشأن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين المكرائية"، وان نرى أن دائرة الشرق الأوسط، المسؤولة عن تنفيذ تعليمات الانتداب، تكن العداء لليهود ...

قال تشرشل: انه يدرك ما أقوله وتعهد باعادة النظر في القرار. ورغم اعتقاده بأن الوقت متأخر بالنسبة لامكانية التغيير، لكنه قال: ربما يمكن تحديد فترة زمنية لحكم الأمير عبدالله في شرق الأردن.

ولإنصاف تشرشل، نقول، انه نجح في صد محاولات المستعربين " لاقتناعه بالغاء تطبيق وعد بلفور على المنطقة الواقعة غرب نهر الاردن، غير أن تأييده هذا

للمسيحية، لم يكن كافياً لاضعاف العرب. فقد أدرك هؤلاء، أن بريطانيا في طريقها للرضوخ لمطالبهم، نتيجة الاضطرابات التي يقومون بها في "أرض اسرائيل".

في أيار ١٩٢١، شرع الجمهور العربي بسلسلة هجمات ضد اليهود في أماكن مختلفة من البلاد، قُتل خلالها حوالي ٥٠ يهودياً، بينهم الكاتب يوسف حاييم برنر. وكان أول هجوم، في تلك السلسلة، على يهود في يافا. وبعد الأحداث كتب القاضي العسكري في الادارة البريطانية، هورس صموئيل مايلي: "عرب يافا ... بدأوا يقتلون ويجرحون وينهبون اليهود، تحت غطاء رسمي، وبمساعدة عدد كبير من شرطة يافا ... جمهور من العرب هاجم مقر المهاجرين التابعين للجنة الصهيونية، بالحجارة والعصى. في البداية، احبط المهاجرون المحاولة لكن سرعان ما تعزز المهاجمون بعدد من الشرطة العرب المسلحين بالبنادق والقنابل والذخيرة.

اقتحم أفراد الشرطة المنزل ثم تبعهم الجمهور وقتل ثلاثة عشر شخصاً من المهاجرين ...".

في اعقاب هذا الهجوم على يافا أدرك البريطانيون ماذا يجب عليهم ان يفعلوه: اضطرابات الأول من أيار، وقتل اليهود في مقر المهاجرين، كانت بمثابة إشارة واضحة الى أن عرب يافا يعارضون نهائياً أية هجرة يهودية جديدة الى البلاد. واتصل المندوب السامي، الذي كان يفضل الدبلوماسية على القوة، هاتفياً، بعد ٤٨ ساعة فقط من الأحداث، بنائب حاكم يافا، ميلر، وأمره أن يبلغ العرب، أنه بناء على طلبهم، ستتوقف الهجرة اليهودية حالياً".

لكن العرب لم يستريحوا لهذا التمهيد، وفي الأسبوع التالي واصلوا مهاجمة مستوطنات يهودية أخرى في أنحاء البلاد. وأمر الجنود البريطانيون بعدم إطلاق النار. وقُتل خلال الأحداث ٣٥ يهودياً وجرح المئات.

ويقول القاضي صموئيل، أن ستورس أوصى بإغلاق الرشاوى على العرب، على أمل الامتناع عن القيام بشوة علنية. وقُبِلَ رأيه هذا، وفرض لأول مرة حظر على الهجرة اليهودية. ورغم أن هذا الحظر استمر بضعة أشهر فقط، إلا لأنه تحدد هنا النموذج الذي بموجبه هُضمت حقوق اليهود بضغط من الابتزاز العربي – تلك السابقة التي سرعان ما احتلت مكان وعد بلفور، كسياسة بريطانية فعلية.

في تلك الأيام لم تكن التعهدات العربية في نظر المستعربين البريطانيين ،

إبتزازاً. إنما كانوا راضين عن مقاومة العرب لذلك الشعب، الذي لا يحظى بالتعاطف في أي مكان آخر في العالم. هؤلاء "المستعمرين والاستعماريون الذين سيطروا على شعوب بأسرها، يدعون الآن بأن وجود نظام حكم يهودي في "أرض اسرائيل" سيلحق الظلم بالعرب، سكان المنطقة، لأنه سيكون نظاماً استعمارياً، نظاماً غريباً على المنطقة.

مثل هذا الادعاء، قاله إستماري بارز آخر عام ١٩٢٠، هو اللورد كرزون، وزير الخارجية البريطانية الجديد. حيث قال كرزون: ان الانتداب الذي "تفوح الرائحة اليهودية من كل بند فيه" ليس منطقياً من أساسه، بالنسبة للعرب.

وفي عام ١٩٢١، ورد رأي مماثل، على لسان القائد الجديد للجيش البريطاني في "أرض اسرائيل"، الجنرال كونغريب. حيث قال في منشور وزعه على جنوده: صحيح انه لا يطلب من الجيش ابداء رأي سياسي، لكنه لا يستطيع تجاهل الظلم الذي يلحق بالعرب، عندما يُسمح لليهود بالاستيطان في فلسطين. وسرعان ما أدى هذا التوجه، الى تأثير قوي على السياسة البريطانية في المنطقة. لقد استنتج، إدجار رتشموند، مستشار المندوب السامي للشؤون العربية، بأن الصهيونية "تتلقى الايمان من روح شريرة" - وبدأ يخطط لتسليم الحاج أمين الحسيني، منصب المفتي الاكبر كخطوة تصحيحية لهذا الظلم.

أدى العداء للصهيونية، الذي كان يتزايد في لندن، والتخوف من تهديدات العرب، الى تقليص محاولة دعم إنشاء كيان يهودي قوي في "أرض اسرائيل". وهكذا بدأت السياسة البريطانية تفرق في تناقضات داخلية.

لقد اتضح لماينر تسهاجن، ان التراجع في موضوعي الاستيطان والهجرة، بدأ يؤثر أيضاً على مسائل استراتيجية، وذلك عندما حاول في عام ١٩٢٣ تحقيق نظام لتعاون عسكري مستقبلي بين اليهود وبين البريطانيين في أرض اسرائيل:

"لم يرغب تشرتشل في أن أ طرح هذا الموضوع في جلسة لجنة شؤون فلسطين، لأنه خشي ردأ معادياً. وسائله عما اذا كانت الحكومة البريطانية لا زالت ملتزمة بوعده بلفور. وأجاب بـ "نعم"، لكنه أضاف انه في هذا الوقت، يجب التقدم بببطء لأن الحكومة لن توافق أبداً على تطبيق سياسة، من شأنها إثارة مقاومة العرب".

كان الاخلاص لوعده بلفور لا زال يعشعش في قلوب مجموعة من الشخصيات

العامة البريطانية مثل، اللورد ياشيا ووجود، فينهام ديلس، وليوبولد أمري، ولكن نفوذهم ضعف خلال سنوات معدودة، لدرجة أنه بدأ يتلاشى نهائياً.

في التاسع من آب ١٩٢٩، هاجم جمهور من العرب، يهود الخليل والقدس وصفد ومستوطنات أخرى. وظل العرب يمارسون هجماتهم طيلة ثمانية أيام، دون ان يردعهم أحد. قتلوا (١١٣) يهوديا وجرحوا المئات، ودمروا ست مستوطنات يهودية تدميراً كاملاً، من بينها الطائفة اليهودية القديمة في الخليل. ومرة أخرى، أحجم البريطانيون عن التدخل، لكنهم هذه المرة، كانوا أكثر صرامة، في مصادرة الاسلحة غير القانونية من "أيدي اليهود". ومن خلال الشعور باليأس، كتبت صحيفة "دافار": "هل يوجد قانون يفرض على رجالنا التخلي عن حياتهم وحياة اولادهم، ويترك بناتهم يتعرضن للاغتصاب وممتلكاتهم للنهب؟ أي نظام وأي قانون هذا الذي يطلب من بني البشر مثل هذا الطلب؟؟".

في تلك الاثناء، كان اللورد بنسفيد، وزيراً للمستعمرات. ورغم ان هجرة اليهود الى "ارض اسرائيل" كانت تقلصت، الى درجة كبيرة، في السنتين اللتين سبقتا أحداث ١٩٢٩، فقد توصلت الوزارة الى استنتاج، يقضي بأن الهجرة اليهودية، كانت أحد أسباب الاضطرابات الدامية. ومرة اخرى، خضعت بريطانيا للمطالب العربية: أعلن وزير المستعمرات ، انه من الآن فصاعداً، لن يتم تخصيص أراضٍ لاستيطان يهودي. كما دعا الى ضرورة فرض رقابة مشددة على الهجرة، وحث اليهود على التخلي عن فكرة الوطن القومي.

طلب العرب عدم السماح لجيبرتسنسكي بالدخول الى البلاد، لأنه كان يسعى لاقامة دولة يهودية، ووضخ البريطانيون لهم في هذا الموضوع أيضاً. وهكذا، مرة واحدة، تبلورت العودة بكاملها: أوشكت بريطانيا على التخلي نهائياً، عن فكرة الوطن القومي اليهودي. ومن الغريب، ان كثيراً من اليهود لم يعترفوا بهذه الحقيقة. حيث رضوا بسماع بعض التصريحات العلنية، التي يعتبر فيها البريطانيون عن ودهم للشعب اليهودي، بعد كل تنازل يقدمونه للعرب.

وما أن الشعب اليهودي لم يجرب حياة الدولة، طيلة عدة أجيال، فقد أصيب معظم اليهود بقصر نظر سياسي فظيع. لم يدركوا دوافع السياسة البريطانية وتناجزها المدمرة ، بالنسبة لهم ، اذا لم يهبوا لمقاومتها بشدة _ تماماً مثلما لم

يدرك يهود أوروبا ماذا كان النازيون سيفعلون بهم بعد بضع سنوات.

القليلون، مثل جيبوتنسكي، الذين أدركوا جيداً ما يدور من أحداث، أُضطروا لمحاربة رأي الأغلبية، الذين رفضوا الاعتراف بالواقع، وطلبوا عدم الدخول في مجابهة مع بريطانيا، تلك الدولة العظمى آنذاك.

اعتاد الشعب اليهودي طيلة أجيال عديدة، الامتنثال للأوامر، واعتقد كثير من اليهود، أن مسألة المجابهة مع بريطانيا يجب أن لا تخطر على البال أبداً. والغريب، أن هذا الضعف اليهودي، حدث في الوقت الذي كان الرأي العام العالمي قد بدأ يشعر بالاجرامات المعادية للصهيونية، التي اتخذتها وزارة المستعمرات البريطانية عام ١٩٣٠.

فعلى سبيل المثال، انتقدت لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم، موقف بريطانيا الاخلاقي، خلال مناقشة مسألة "أرض اسرائيل"، وفي عام ١٩٣٠، أعلنت ان بريطانيا هي المذنبة في اندلاع الاضطرابات العربية في البلاد، كونها لم توفر الحماية الشرطية المطلوبة. غير أنه في ذلك الوقت، كان نفوذ عصبة الأمم ضئيلاً جداً، وتلاشى هذا النفوذ نهائياً مع غزو اليابانيين لمنشوريا، وغزو موسكويني لاثيوبيا عام ١٩٣٥.

إن الفكرة الخيالية التي تبلورت في اعقاب الحرب العالمية الأولى، والتي تمهدت الدول العظمى، بمقتضاها، باحترام التزاماتها تجاه الشعوب الصغيرة، كانت على وشك الانقراض المطلق في "أرض اسرائيل".

كانت أفعال بريطانيا تدل بوضوح، على مراجعة عامة، تمهيداً لتنصلها نهائياً من الصهيونية، بعد بضع سنوات. في عام ١٩٣٣، تسلم هتلر مقاليد الحكم في ألمانيا، وفي غضون ثلاث سنوات فقط، تضاعف عدد اليهود في "أرض اسرائيل". وأدرك المستعمرون البريطانيون وحلفاؤهم العرب، ان البلاد تتحول، أمام أعينهم، الى ملجأ للمهاجرين اليهود القادمين من أوروبا، وإذا لم يتصرفوا على الفور، سيحقق اليهود أغلبية في "أرض اسرائيل"، ويقوموا فيها دولة يهودية. وهكذا يتعرض للخطر، الحلم بشأن إتصال إقليمي تحت سيطرة الامبراطورية البريطانية في الشرق الوسط.

في ١٩ نيسان ١٩٣٦ ، أعلن العرب الاضراب الشامل بهدف شلّ البلاد

نهائياً لارغام السلطات على وقف الهجرة، أبدى البريطانيون تعاوناً معهم، ولم يمتنعوا الاضراب، وفرضت عصابات عربية يرعاها المفتي الارهاب على البلاد كلها. وخلال "الثورة العربية" عذّب رجال العصابات وقتلوا معارضيههم من العرب، وهاجموا اليهود في كل زاوية. وظل الجيش البريطاني، وقتاً طويلاً، لا يتدخل ويصادر السلاح من اليهود، في حين غص الطرف عن كميات السلاح الكبيرة، التي كانت تتدفق على العصابات العربية ، اضافة الى جماهير المتطوعين العرب، الذين انضموا اليها من الدول العربية المجاورة. وبلغ عدد القتلى اليهود في نهاية الاحداث ٥٠٠ قتيل، من ضمن سكان يبلغ عددهم حوالي نصف مليون نسمة.

ماينر تسهاجن، إستعرض المنبة وتنبأ بقوله: "يا الله ... كيف تخلينا عن اليهود. إذا لم تتصرف بحذر، سنفقد شرق البحر الأبيض المتوسط، والعراق وكل شي. ذا قيمة في الشرق الأوسط".

في ذلك الوقت المتأخر أيضاً، كان هنالك بين البريطانيين من يعتقد، بأن السلوك العنيف للعرب، يرهن لهم، أن مع اليهود فقط، يمكن ان تبرم بريطانيا حلفاً قوياً. وكان ابرهزم النقيب، اورد فينجايث، الذي جتّد ودوّب، في "أرض اسرائيل"، قوات يهودية لمحاربة الارهاب. وقامت هذه الوحدات التي عُرفت باسم "سرايا الليل" بعدة هجمات ضد العرب.

لقد شرح فينجايث ضرورة إعداد مجندين يهود بقوله: "نظراً لطبيعة المنطقة ومعرفتها، يقف الجيش عاجزاً في مجابهة مقاتلي العصابات، وذلك رغم تسليحه الأفضل وتدريبه وانضباطه. لذا فمن المناسب ان نشكّل جماعات مختلطة، تضم جنوداً بريطانيين ومواطنين موثوقين من أبناء المنطقة. واليهود هم الوحيدون الذين يمكننا ان نشق بهم. إنهم يعرفون المنطقة جيداً، ويتحدثون لغة البلاد. اصف الى ذلك انهم يحسنون التدريبات الميدانية، كما انهم منضبطون وجريشون في الحركة".

ولكن، في ضوء الغليان المستمر في "أرض اسرائيل"، حال معظم رجال الادارة البريطانية للمرضوخ لمطالب العرب. لقد اعتقدوا ان الهجرة اليهودية، هي العنصر الذي يدفع العرب لمقاومة البريطانيين، وتأييد النازيين، كما آمنوا بأن الهجرة اليهودية تعرض للخطر أيضاً كل ما أقامه البريطانيون في الشرق الوسط ، بجهد

كبير جداً.

في عام ١٩٣٧، كتب أقلين شاكيرغ، الملحق في السفارة البريطانية في القاهرة، رسالة إلى والده "ألمستعرب" جو شاكيرغ في لندن، لخص فيها النظرية المؤيدة للعرب في القرن العشرين بقوله: "كيف يمكن لنا أن نعرض للخطر مكائنتنا في العالم العربي بسبب فلسطين؟".

في واقع الأمر، كانت هذه النظرية قد تمتعت جذورها في لندن. ففي تموز ١٩٣٧، منحت اللجنة الملكية (لجنة بيل) تأييداً واضحاً للسياسة المؤيدة للعرب. وجاء في تقرير اللجنة، أن الانتداب، وإنشأ وطن قومي لليهود في فلسطين، أمران قابلين للتنفيذ بسبب المقاومة العربية. واقترحت اللجنة تقسيم البلاد إلى دولتين، يهودية، وعربية؛ تمتد الدولة اليهودية على أجزاء من الأرض من قطاع الساحل والجليل - حوالي ٥% فقط من المساحة التي حُصصت لإنشاء الوطن القومي اليهودي بموجب الانتداب، ويواصل البريطانيون الاحتفاظ بالقدس وحيفاً، في حين يتم ربط الدولة العربية مع شرق الأردن، وتشمل بقية أجزاء البلاد - حوالي ٩٠% من مساحتها.

لكن العرب ادركوا جيداً، ضعف الموقف البريطاني، ورفضوا الخطة نهائياً. لقد طالبوا بكل شيء.. وفي أيلول ١٩٣٧، قتل اوهاييون عرب الحاكم البريطاني الجديد لقضاء الجليل، الذي بدأ في نظرهم مؤيداً متحسناً لمشروع التقسيم. وهكذا، تجددت الاضطرابات، وأصرّ العرب على مطالبهم القديمة: توقف مطلق للهجرة اليهودية، والتخلي عن فكرة إقامة وطن قومي لليهود في "أرض اسرائيل". وفي نهاية المطاف، رضخ البريطانيون لكل مطالب العرب. ففي مطلع عام ١٩٣٩، وضع رئيس الحكومة البريطانية، نيفيل تشامبرلن، مبدأ التراجع الدبلوماسي الذي كان يهدف "لإحلال السلام نهائياً" ليس فقط في أوروبا، إنما في الشرق الأوسط أيضاً؛ وتتصلت بريطانيا من وعد بلفور.

نشر "الكتاب الأبيض" لحكومة تشامبرلن، في أيار ١٩٣٩، قبل أربعة أشهر من اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي رافقتها إبادة يهود أوروبا؛ تقرر في الكتاب الأبيض، أنه بعد دخول ٧٥ ألف يهودي آخرين، يتم توقيف الهجرة نهائياً. ومنذ الآن، ستعمل بريطانيا في سبيل إنشاء دولة "ثنائية القومية"، عربية ويهودية.

عندئذ أدرك كل من له عقل يفكر به، أن تشامبلن قضى نهائياً على فكرة الدولة اليهودية.

بعد ستة أشهر فقط على خيائته للتشكيكين في ميونخ، كرر تشامبلن نفس السلوك عندما غدر باليهود.

في حقيقة الأمر، رفضت عصبة الأمم هذا الاجراء البريطاني الذي يتناقض مع الانتداب، غير أنه في عام ١٩٣٩، لم يكن أحد يهتم برأي هذه الهيئة التي تحتضر. لا يمكننا تقدير مغزى خيانة البريطانيين للشعب اليهودي، بشكل مناسب، إلا في ضوء ماحدث في اوروبا في سنوات الثلاثينات.

عندما رضخ البريطانيون للمطالب العربية، وفرضوا قيوداً على الهجرة اليهودية، أغلقوا في الواقع طرق التجارة بالنسبة لليهود الذين حاولوا الخلاص من اوروبا التي تشتعل النيران فيها.

كان الجستابو، يرسل الى البحر سفناً محملة بيهود المانيا، لكي يثبت بأن أحداً لا يريدهم، في حين كان البريطانيون يميلون السفن من شواطئ البلاد الى الموانئ التي أبحرت منها، وحياناً بعد اطلاق النار عليها.

كان مغزى هذا السلوك واضحاً تماماً بالنسبة لماينر تسهاجن حيث قال: "يعتزم الالمان تنظيف المانيا من اليهود، وهم يستطيعون عمل ذلك. ان احداً لا يحب اليهود ولا أحد يريدهم، لكننا تمهدنا بمنحهم وطناً في فلسطين. وبدلاً من ذلك، نغلق الابواب في وجوههم، في اللحظة التي يجب ان تكون مفتوحة على مصارعها. كما أننا نقلّص من مساحة وطنهم في الوقت الذي يجب علينا توسيعها. ان أفعال حكومة صاحب الجلالة في فلسطين، قريبة جداً من أفعال هتلر في المانيا. ربما تكون أفعال الحكومة البريطانية أكثر رقة، لكن النتيجة بالنسبة لليهود هي واحدة - المسّ بأمنهم، والمعاناة، واليأس، والقتل".

لقد أغلق البريطانيون أبواب "أرض اسرائيل"، أكثر من عشر سنوات، في وجه اللاجئين اليهود الفارين من المحرقة الاوروبية.

ولم يعمل البريطانيون من أجل تدمير الوطن القومي اليهودي، الذي لم يكن ليقام دون الهجرة، فحسب، بل أصبحوا شركاء في جريمة إبادة اليهود في اوروبا. وها هو، اللورد هليفكس، وزير الخارجية البريطانية، الذي كان احد المسؤولين الرئيسيين عن هذه السياسة، يشرح سبب تخلي بريطانيا عن التزامها بإنشاء وطن

قومي لليهود في "أرض اسرائيل، فيقول: "توجد أوقات تتطلب أن تخلي إعتبارات العدالة المجردة، مكانها لاعتبارات تتعلق بسهولة الإدارة".

عندما بدأت تصل الى وزارة المستعمرات في لندن معلومات أولية بشأن إبادة اليهود في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، رفض جون شاكبيرغ التوسلات بشأن فتح الابواب لانتفاذ اللاجئين اليهود، مدعياً أن ذلك عبارة عن "تباكي صهيوني غير مسؤول". "هناك أوقات نواجه فيها الواقع، ولا نستطيع الانحراف عن سياستنا بسبب المشاعر الانسانية المشوهة، التي سادت قبل اندلاع الحرب، في عام ١٩٣٩".

وفعلاً، ظل البريطانيون طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية، متمسكين بأصرار بسياسة رفض "الانسانية المشوهة" تلك. وعندما كان اليهود وقوداً لنيران هتلر، ظل البريطانيون يصدون كل لاجيء يهودي رغب في الوصول الى "أرض اسرائيل".

لقد نجح بعض هؤلاء اللاجئين بالدخول الى البلاد خلسة، في إطار ما عُرف "بالهجرة غير المشروعة"، ويعيش هؤلاء هم وذريتهم في دولة اسرائيل. لكن معظمهم لم يحالفهم الحظ، وعادوا الى أوروبا ... الى حتفهم. لم تكن هنالك دولة في العالم تريدكم، في حين أُغلقت في وجههم البلاد الوحيدة في العالم، التي كانت تنتظرهم.

في عام ١٩٤٥، مع انتهاء الحرب اضطر حاييم وايزمن المؤيد لبريطانيا. الى الاستقالة من زعامة الحركة الصهيونية. وفي خطابه الأخير كرئيس للهيستدروت الصهيونية، استعرض فايتمسان بمرارة، نتائج نصف يوبيل من السنوات التي أمضاها، وهو يؤمن بصداقة بريطانيا. بقوله : "هناك من قال لنا أن إبعادنا عن فلسطين ضروري لرفع الظلم عن أمة أخرى، توجد لديها سبع دول تبلغ مساحتها مليون ميل مربع. وفي مناسبة أخرى قالوا لنا أنه إذا سمحوا للاجئين اليهود بالدخول، فمن شأن ذلك تعريض الأمن العسكري للخطر في سنوات الحرب .. كان من الأسهل بالنسبة لهم الحكم على يهود أوروبا بالموت المحقق، من أن يجدوا طريقة للتغلب على هذه المصاعب".

حتى بعد ان تأكدت المعلومات بشأن قتل اليهود في أوروبا ، وبدأت تصل

الصور من معسكرات الإبادة، لم تلتن القلوب المتحجرة في الحكومة البريطانية. فقد صمم هؤلاء على منع إقامة دولة يهودية بأي ثمن.

لذلك، طلبوا التاكيد من أن يبقى الناجون من الكارثة في أوروبا. وبعد عام ١٩٤٥، ظلت بريطانيا تمنع دخول اللاجئين اليهود الى "أرض اسرائيل" بكل الوسائل التي كانت متوفرة لديها، وأبعدت كثيرين منهم الى افريقيا، والهند، وقبرص. وفي نفس الوقت واصل البريطانيون تسليح جيوش الدول العربية التي كانت تستعد لإبادة اليهود في "أرض اسرائيل".

وفي نيسان ١٩٤٨، في الوقت الذي كانت قد بدأت تدخل جماعات عربية مقاتلة غير نظامية الى "أرض اسرائيل" من دول خارجية، جمعت الادارة البريطانية التي كانت تحتضر آنذاك، ما تبقى لديها من قوة، لابعاد اليهود من البلاد.

ورغم كل هذه الجهود، فشلت السياسة البريطانية المعادية للصهيونية فشلاً ذريعاً. وبالطبع، لم يفقد البريطانيون نفوذهم لدى العرب بسبب اليهود، إنما بسبب انهيار الامبراطورية البريطانية.

رغم كل هذا، كانت كراهية العرب للغرب قوية لدرجة كبيرة، جعلت تحريرهم من العثمانيين، والمعاداة البريطانية للحركة الصهيونية، واعادة سفن المهاجرين اليهود الى المحرقة الأوروبية، غير قادرة على مساعدة بريطانيا على كسب تأييد العرب. إذ أنه، عندما حان وقت الاختبار الحقيقي، في الايام الصعبة من الحرب العالمية الثانية، كافأ العرب البريطانيين، كما دت هم؛ اذ وقف العرب في العراق، وسوريا ومصر، علانية الى جانب النازيين، تماماً كما تنبأ، ماينر تسهاجن. وكان بينهم من حج الى برلين للتطوع في إطار المجهود الحربي الألماني، حتى أن الألمان شكلوا وحدة عربية، تم ضمها في وقت لاحق، الى الخدمات السرية (إس. إس.).

كانت هنالك أغنية شائعة آنذاك في الشارع العربي يمكن أن تعبر تماماً عما كان يدور في خلد الجماهير العربية التي كانت تتمنى اللحظة التي يتخلصون فيها من البريطانيين والفرنسيين البغيضين، وهي:

لا مسيو ولا مستر ، بعد اليوم .
الله في السماء ، وهتلق على الأرض .

في المقابل، تجتذ يهود "أرض إسرائيل" في إطار اللواء اليهودي في الجيش البريطاني، وحاربوا بامتياز، وأكدوا نبوة ماينر صهاجن، بشأن إخلاص اليهود للدول الحليفة في ساعة الاختبار.

وبعد الحرب، ذكر، ديفيد نيلس، أحد مستشاري الرئيس الأمريكي، ترومان، المقربين، بالدعم الذي قدمه يهود "أرض إسرائيل" للحلفاء إبان الحرب، كحقيقة تبرر السماح بهجرة مائة ألف يهودي آخرين إلى فلسطين، وقال: "يبدو لي أن ١٠٠ ألف يهودي آخرين، سيكونون عوناً لنا في تلك المنطقة، مثلما كان يهود فلسطين عوناً لنا في الحرب العالمية الثانية. أما العرب فلم تحصل دول الحلفاء منهم على شيء، بينما كانت مساعدة يهود فلسطين لها كبيرة".

كما أن، برتلي كرام، عضو اللجنة التي حقلت في وضع اللاجئين، أعرب عن رأي مسائل، حيث قال: "يجب أن لا ننسى كيف تجاهل يهود فلسطين خلافتهم مع بريطانيا، وساعدوها بكل طاقتهم للقضاء على النازيين ... في أعمالهم هذه، سطر اليهود فصلاً رائعاً، لم يرو بعد بكامله. وفي المقابل، أبدى الجمهور العربي في فلسطين، عدم اكتراث، بشكل عام، بالمجهود الحربي".

غير أن هذا الدرس البسيط، لم يدركه المستعمرون البريطانيون، الذين لم يتحولوا قيد أنمله عن سياستهم تجاه اليهود. وخلال بضع سنوات، فقدت الامبراطورية البريطانية كل مواقعها في الشرق الوسط.

طيلة ثلاثين سنة، ظل البريطانيون يحاولون مصالحاة وأرضاء العرب، على حساب اليهود، وفي النهاية، تبين أن سياستهم لم تحقق لهم أية منافع – لكنها كلفت اليهود ثمناً باهظاً.

هنالك تأثير واحد، على الأقل، لتلك السياسة لا زال قائماً حتى يومنا هذا: لقد تم تبني سياسة وزارة الخارجية البريطانية من قبل معظم وزارات الخارجية في العالم. إذ كانت بريطانيا أكبر دولة عظمى في العالم، وحظي دبلوماسيها بتقدير واحترام، وكثيرون هم الذين قلنوا سياستها.

وهكذا، إنتشرت نظرية "المستعمرين" من وزارة المستعمرات ووزارة الخارجية البريطانييتين إلى وزارة الخارجية الأمريكية، وبخاصة، بعد أن عثرت شركات امريكية في الثلاثينات على حقول نفط ضخمة في شبه الجزيرة العربية . وحقت

هذه الشركات أرباحاً هائلة، واتسعت صناعة النفط خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، عندما زاد الطلب على النفط، نظراً لتوسع الصناعات في العالم، وبخاصة في العالم الغربي. وفي مطلع الستينات، قُدرت كمية النفط المتوفرة في حقول الخليج العربي بحوالي ٦٠% من احتياطي النفط المعروف في العالم.

وعندما فرضت الدول العربية المنتجة للنفط الحظر على تصديره الى الدول الغربية، عام ١٩٧٣، أدرك زعماء هذه الدول، أنهم يسيطرون على مصادر النفط في العالم كله، الأمر الذي يوفر لهم امكانية رفع اسعاره دون قيود. ولكن سرعان ما تبين ان الواقع الاقتصادي غير ذلك، إذ إنضمت الى الدول المنتجة للنفط دول أخرى جديدة، مثل بريطانيا والنرويج، وتم ايجاد بدائل للنفط، كمصادر للطاقة، مثل الغاز الطبيعي.

أضف الى ذلك، أن الدول الغربية بدأت تطوّر صناعاتها وسياراتها بشكل يقلل من استهلاك الوقود، الأمر الذي أدى الى انخفاض متتال في اسعار النفط في السوق العالمية. وتبين كذلك أن سوق النفط هي مجرد سوق تجارية، وأن العرب لم تعد لديهم القدرة على السيطرة على هذه السوق. ولكن، في الثلاثينات، لم تكن هذه الأمور معروفة. لذا، ليس من الغريب، أن يتوصل موظفون أمريكيون كثيرون الى استنتاج بشأن ضرورة الأخذ في الاعتبار المطالب العربية، ومن ضمنها إضعاف الصهيونية.

وفعلًا، منحت وزارة الخارجية الأمريكية "بصتها" دعماً للكتاب الأبيض، الذي أصدره تشامبرلين، بشأن اغلاق مداخل "أرض اسرائيل" في الحرب العالمية الثانية. كما واصلت وزارة الخارجية الأمريكية معارضة الهجرة اليهودية الى "أرض اسرائيل" بعد الحرب أيضاً، حتى أقيمت دولة اسرائيل.

وعندما قرر الرئيس ترومان، رغم هذه المعارضة، تأييد مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة وإقامة دولة يهودية، كتب رئيس طاقم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، جورج كنان، انه بهذا القرار تكون قد أُنزلت ضربة قاسية بالهبة الأمريكية في العالم الاسلامي، وتضررت كثيراً، المصالح الاستراتيجية الأمريكية في البحر المتوسط وفي الشرق الأوسط.

فيما بعد، كتب ترومان يقول: "في تلك الفترة كانت وزارة الخارجية الأمريكية

متزعجة من الرد العربي، أكثر من انزعاجها من معاناة اليهود.
وتعززت هذه السياسة، مع مرور الوقت، عن طريق وجود مؤيدين للعرب في دائرة الشرق الأدنى التابعة لوزارة الخارجية. حيث انه على الرغم من أن الشعب الأمريكي كان يؤيد، بشكل عام، اليهود (وبعد ذلك، الدولة اليهودية) كانت نظرة صولفي وزارة الخارجية الأمريكية، مغايرة، في احيان كثيرة لهذا التوجه.

لا زال في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، من يدعي، حتى هذا اليوم، ان ابتزاز تنازلات من اسرائيل، أو ارغامها على التخلي عن شوة هامة لأمنها، سيؤدي الى كسب ود العرب وولائهم لأمريكا، وكما كانت الحال في الثلاثينات، فان هذه النظرية تعاني اليوم من قصر نظر شديد.

غير أن التيار المؤيد للعرب في الولايات المتحدة، لم يكن مقتصرأ على الدبلوماسيين المحترفين فقط. ففي كل دولة في العالم، توجد مؤسسة للسياسة الخارجية، تضم رجال سياسة، وأكاديميين، وصحفيين، وخبراء في الشؤون الخارجية.

في السبعينات، عندما تضاعف التأثير العربي، بفضل العائدات الضخمة من تجارة النفط، كانت معظم وزارات الخارجية في العالم، قد سلك الطريق المؤيدة للعرب.

وبعد نصف يوبيل من السنوات، مضت على قيام دولة اسرائيل، لا زالت عناصر مؤيدة للعرب تقول: ان اسرائيل وُلدت بخطأ جغرافي - سياسي، إذ ان وجودها بالذات، يمنع الغرب من كسب تأييد العرب.

يصعب علينا تقدير مدى إحتفاظ تلك المجموعة من الدبلوماسيين بهذه النظرية، التي يعرب عنها بعضهم، بصورة علنية، في أوقات متباعدة فقط، في حين أن البعض الآخر لا يفصح عنها أبداً.

لقد اكتشفت هذه الحقيقة، ذات يوم، في نيويورك، في آخر يوم لي، كسفير لاسرائيل لدى الأمم المتحدة، عندما ودعت عدداً من الدبلوماسيين الغربيين: أحدهم، أمريكي، كانت تربطني بعلاقات ودية، دعاني الى حديث وداعي. وبعد ان أفرغ عدة كؤوس من الويسكي، توجه اليّ فجأة قائلاً: "كل شي. كان غلطة". وما انني كنت اعرف آرايك التي تنتقد بعض الاجراءات الاسرائيلية، سألته أي الاجراءات الاسرائيلية التي يقصدها. أجابني بقوله: "لا. ليست سياسة معينة. أقول

لك ان إقامة هذه الدولة الموعودة، كان خطأً من أساسه. كان يجب علينا ان نمنع اقامتها لنوفر على الجميع كل هذه المصائب".

وربما ولكي تكتمل الصورة، روى لي مؤخراً أحد الدبلوماسيين الاسرائيليين في لندن، أن شخصية كبيرة جداً في وزارة الخارجية البريطانية، قال في حالة عدم إنتباه: "أن الغلطة الاساسية التي ارتكبتها بريطانيا، كانت وعد بلفور". حدث هذا عام ١٩٩٣.

فور انتهاء الكارثة، لم يكن باستطاعة حتى اولئك المؤيدين للعرب، منع حدوث ثورة في الرأي العام العالمي، تطالب بانصاف اليهود. وكان الطلب بسيطاً وهو: "بما أن الشعب اليهودي عانى كل هذه المعاناة الفظيعة، حان الوقت لتمكينه من اقامة دولة خاصة به".

صحيح، انه نتيجة للضغوط العربية ومساعدة بريطانيا تقلصت المساحة التي حُصصت لليهود حتى بقي منها جزء ضئيل فقط، لكن ذلك كان أفضل من لا شيء، بالنسبة لشعب عرف المعاناة، وظل يتعلق بخيط الحياة، بما تبقى لديه من قوة.

لم يكن باستطاعة اليهود الانتظار اكثر من ذلك. ففي نهاية الحرب العالمية الثانية، زادت الحركات السرية اليهودية من نضالها في سبيل فتح ابواب البلاد المغلقة في وجه الناجين من الكارثة، وإبعاد الحكم البريطاني من "أرض اسرائيل". تصاعد هذا النضال، وتخلله شن هجمات على الجيش البريطاني في "أرض اسرائيل" بعمليات عسكرية حقيقية. وقد نفذت هذه الهجمات مجموعات من المنظمة العسكرية القومية (إيتسل) بقيادة مناحيم بيغن، ومنظمة مقاتلي حرية اسرائيل (اليحي) التي كان ضابط العمليات فيها، اسحق شامير، ثم انضمت اليهما منظمة (الهجناء) التي كانت تخضع لسلطة دافيد بن غوريون.

وأخيراً، تراجعت رغبة بريطانيا في مواصلة السيطرة على البلاد. وكانت معظم الهجمات موجهة ضد المنشآت التي كانت تخدم الجيش البريطاني والادارة البريطانية - الجسور (البلة الجسور المشهورة في ١٩٤٦، عندما فجرت الهجناء ١٢ جسراً رئيساً)، والسكك الحديدية، مراكز الشرطة، قواعد عسكرية، نوادي ضباط، قيادات عسكرية، ومعتملات كان يُحتجز فيها رجال المنظمات السرية

اليهودية (في هجوم على سجن عكا عام ١٩٤٧، حرّرت الهجناة ٢٥١ معتقلاً يهودياً).

وبعد بضعة أشهر، عندما أعدم البريطانيون ثلاثة من رجال حركة "إيتسل"، ردت عليهم الحركة باعدام جنديين بريطانيين وقعا في اسرها. وأثار هذا الاجراء جدلاً في البلاد، وأصاب بالذهول الجمهور البريطاني .
في أعقاب اعدام الجنديين البريطانيين، تعززت دعوة، تشرشل، الذي كان في المعارضة آنذاك، بشأن ضرورة الانسحاب من "أرض اسرائيل".

كان لتضال الحركات السرية اليهودية، ضد الحكم البريطاني في البلاد، تأثير كبير وحاسم. إذ لم تعد الامبراطورية البريطانية المنهكة من الحرب العالمية الثانية، قادرة على الاحتفاظ بمئة ألف جندي في "أرض اسرائيل"، في حين طالب الرأي العام البريطاني، باعادة الجنود الى بلادهم .

في عام ١٩٤٧، أعلنت بريطانيا عن عزمها الخروج من "أرض اسرائيل"، وأرسلت الى الأمم المتحدة رأياً بشأن ما يجب عمله في هذه البلاد، وهكذا، وُلد مشروع التقسيم في الأمم المتحدة بصور القرار رقم ١٨١ يوم ٢٩ تشرين ثانٍ ١٩٤٧.

ويقضي هذا القرار، بتخصيص حوالي ١٠٪ من مساحة "أرض اسرائيل" الانتدابية، وأعطى الباقي للعرب، في حقيقة الأمر، أكد قرار التقسيم، مرة أخرى، حق اليهود في دولة مستقلة خاصة بهم. ولكن، لم يكن هنالك أحد، يؤمن بأن هذا المولود الحديث، سيعمر طويلاً. إذ ساد الاعتقاد في أوساط مؤيدي اليهود ومعارضيه، في انحاء العالم، بأن هذه الدولة الصغيرة، سيتم احتلالها فوراً من قبل العرب، وأيد الخبراء العسكريون هذا التقدير.

وهكذا، أراح، على أية حال، كثيرون في العالم ضمائرهم، بأن خصصوا لليهود دولة، لا تزيد مساحتها على مساحة جزر الباهاما، من خلال الافتراض بأن القوة المشتركة للجيوش العربية ستنهى هذه القضية تماماً.

على الرغم من هذا، وعلى الرغم من تقليص حقوقه، قبل الشعب اليهودي قرار التقسيم، في حين رفضه العرب ونادوا بالحرب. وفوراً بعد اتخاذ القرار في الأمم المتحدة ، بدأت قوات عربية غير نظامية ، بدخول البلاد، بهدف منع اقامة

الدولة اليهودية. وفي غضون بضعة أشهر، إنضمت الى هذه القوات غير النظامية، الجيوش العربية لكل من مصر وسوريا والاردن والعراق ولبنان.

وعندما تم الإعلان أخيراً عن قيام الدولة اليهودية في ١٤/٥/١٩٤٨، مع خروج آخر الجنود البريطانيين من البلاد، كانت "حرب الاستقلال" ضد "الغزاة" العرب في ذروتها. وكان الرأي السائد، آنذاك، أن المسألة، مسألة وقت فقط، ولن يكون هذا الوقت طويلاً، حتى تُباد دولة اسرائيل.

دخلت اسرائيل "حرب الاستقلال" في أسوأ الظروف، التي خلفتها بريطانيا. في البداية، قلص البريطانيون الى الصفر تقريباً، المنطقة التي حُصصت للاستيطان اليهودي وعدد اليهود الذين شُجع لهم بالقدوم اليها، ثم منعوا اليهود من التسلّح. في حين سمحوا بتدفق كميات كبيرة من الأسلحة الى العرب دون عرقلة، كما لم يمنعوا تعزيز هؤلاء العرب بقوات من الدول المجاورة. وهكذا، دون طائرات، ولا دبابات، ولا مدافع، وقفت القوات الاسرائيلية القليلة، لتواجه قوة تفوقها بعدة أضعاف في العدد والعدة.

عندما هاجمت الجيوش العربية البلاد، كانت حياة اسرائيل متوقفة على قدرتها على الصمد. وفي عشرين شهراً من الحرب المريعة، قُتل (٦٠٠) يهودي معظمهم من الناجين من الكارثة النازية (من ضمن سكان عددهم ٦٠٠ ألف نسمة، وهي نسبة خسائر تعادل ٢,٥ مليون اميركي، في أيامنا هذه).

في شهر حزيران، بلغت قوة اليهود درجة الصفر، لكنهم رغم ذلك، ظلوا يقاتلون بشراسة واصرار. عندئذ وافق العرب على وقف اطلاق النار، ربما لانهم لم يعلموا بضعف اسرائيل، التي استغلت الهدنة لاعادة تسليح نفسها. ولدى تجدد المارك، تمكنت اسرائيل من تجميع قوات نجحت في صد الهجمات التي تعرضت لها، وأرغمت القوات العربية على التراجع الى الوراء في عدة قطاعات مهمة. وتم التوقيع على اتفاقيات الهدنة في عام ١٩٤٩.

وأصبحت الدولة اليهودية، حقيقة قائمة. لقد جاءت الى العالم بعد مخاض مؤلم. كما ان سنوات طفولة هذه الدولة الجديد، لم تكن سعيدة أبداً. إذ كانت تتعرض باستمرار لهجمات المتسللين العرب الذين كانوا يدخلون عبر الحدود، بينما ظلت الدول المجاورة تهددها صباح مساء بالابادة.

والى جانب العداء العربي، حظيت اسرائيل في سنواتها الأولى بنظرة دولية معقولة. ففي العقدين الأولين لحياتها، خفّت حدة الكراهية العربية بسبب التضامن الأخلاقي، من قبل ملايين الناس في العالم، مع الشعب اليهودي، الذي عانى من الكارثة، ومع البطولة التي أبدتها اسرائيل في "حرب الاستقلال".

في تلك الفترة، وبينما كانت الدول العربية لا زالت، تلعق جراحها، ولم تجهزها الدعائية، أثار هذا التعاطف مع اليهود تأييداً حاسماً لاسرائيل في دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.

ففي هولندا، فرنسا، الدنمارك، إيطاليا، بريطانيا، والولايات المتحدة بشكل خاص، أعتبر التأييد لاسرائيل بمثابة التضامن مع الجيد والايجابي. غير أن ذكرى الكارثة، ومعجزة ولادة دولة اسرائيل، ضعفتا مع مرور الوقت، وضعف معهما التعاطف مع اسرائيل.

ثم ظهر هذا التعاطف من جديد، لوقت قصير، اثناء الحصار الذي سبق حرب الأيام الستة، ليخبو من جديد في اعقاب الانتصار المدعش، الذي حققته اسرائيل في تلك الحرب، ثم عاد التعاطف من جديد مع اسرائيل، عندما تعرضت لقصف الصواريخ العراقية في حرب الخليج وذلك عندما أدرك العالم، من جديد، من هو الضحية، ومن هو العدوان.

في النصف الأول من القرن العشرين، كانت الامبريالية البريطانية، التي استعانت بالعرب، هي الرائدة في مقاومة الحركة الصهيونية. وفي النصف الثاني من هذا القرن، انقلبت الأمور، فانتقلت الريادة الى أيدي العرب انفسهم. فقد عرفت الدول العربية، التي نالت استقلالها، كيف تستغل الوسائل الاعلامية المكتوبة والمرئية، والسفارات والخدمات الدبلوماسية، والثراء العظيم الذي مكّنها من استخدام كافة هذه الوسائل، الى درجة كبيرة.

في بادئ الأمر، لم يدرك العرب قوة هذه الوسائل كسلاح سياسي، وتم توجيه الدعاية العربية في البداية نحو الداخل بشكل خاص، بهدف إقناع الشعوب العربية (وليس الشعوب الغربية) بعدالة النضال ضد اسرائيل. لم تكن انظمة الحكم العربية الجديدة قد كسبت الخبرة الضرورية لادارة فن الدعاية الدولية، ولم تعرف كيف تصرغ مرافقها بعبارات معتدلة، وأكثر اتزاناً. وتعتبر أقوال الملك سعود،

ملك العربية السعودية، عام ١٩٥٤، افضل نموذج لتلك التصريحات: كان اسرائيل بالنسبة للعالم العربي كالسرطان في جسم الانسان، وليس لها علاج سوى إقتلاعها مثلما نستأصل السرطان ... اسرائيل، جرح سميت في الجسم العربي، ولن نستطيع أن نتحمل آلامه الى الأبد. ليس لدينا الصبر لرؤية اسرائيل وهي تحتل فلسطين زمناً طويلاً. نحن العرب نعد حوالي ٥٠ مليون نسمة، لماذا لا نضحي بعشرة ملايين، لكي نعيش بشرف واعتزازاً.

كانت الدولة اليهودية كبش فداء، بالنسبة لأنظمة الحكم العربية. لصرف انظار شعوبها عن فشلها وسوء ادارتها، لكن هذا التطرف من جانب العرب لم ينتج في اشارة اللاصهيونية في العالم، وقليلون هم الذين قبلوا مثل هذه التصريحات القاسية، في العالم الغربي.

على اية حال، حظيت اسرائيل لفترة قصيرة بين عامي ١٩٤٨-١٩٦٧ بتعاطف لدى الرأي العام العالمي، كان ينتج من التعاطف الاساسي مع الحركة الصهيونية الذي كان سائداً آنذاك في المجتمعات الغربية، ومن تجاهل الغرب ولا مبالاهم تجاه الرأي العام العربي.

في تلك الاثناء، كان المؤيدون للعرب في الولايات المتحدة يواصلون جهودهم، لدرجة انهم ضغطوا على الرئيس ايزنهاور لمطالبة اسرائيل بالتنازل عن النقب مقابل السلام. وفي نفس الوقت لم يحظ اولئك المؤيدون للعرب، في تلك الفترة، بتعاطف من جانب الحركة الصهيونية.

في اعقاب حرب الايام الستة، انتهى التعاطف الذي كانت تحظى به اسرائيل لدى الشعوب الغربية، فخلالها للحكومات تحول الجمهور في الدول الغربية الى التعاطف مع من بدا في نظرهم الاضعف. واصبحت اسرائيل في نظر قسم من الجمهور الغربي، دولة تستطيع عمل ما تريد.

وعززت هذا الشعور، التصريحات المعجرفة التي تفوه بها الاسرائيليون في اعقاب الحرب، وكأن انتصاراً واحداً، مهما كان كبيراً، يمكن ان يضع نهاية لصراع البقاء. الذي تخوضه الدولة اليهودية الصغيرة ضد العالم العربي الكبير والشري، وسرعان ما عرف العرب كيف يستغلون هذا التحول في الرأي العام الغربي لصالحهم ، وبدأوا يظهرن اسرائيل كدولة عظمى في المنطقة معتمدي على

الدول المجاورة لها والاحضع منها.

وهكذا، تناسى العالم نهائيا، حقيقة ان اسرائيل استولت على الاراضي التي كانت منطلقا للهجوم عليها، وان العرب كانوا هم المبادرين بهذه الحرب، خارقين بذلك اتفاقيات الهدنة مع اسرائيل.

وظلت لدى الرأي العام العالمي حقيقة واحدة قائمة، هي ان اسرائيل تحتفظ بأراض واسعة تسكنها جماهير عربية كبيرة، اي اسرائيل، تحتل اراضي عربية. وكان هذا الاعتقاد كافيا لتخليص العرب من تهمة التسبب باندلاع الحرب والقائها على عاتق اسرائيل. ولكن في نفس الوقت ادرك العرب ان الحرب وضعتهم امام عائق عسكري كبير، اذا ما حاولوا شن حرب ضد اسرائيل، اذ ادى الانتصار الاسرائيلي، الى ابعاد الحدود عن مداخل تل ابيب الى نهر الاردن شرقا، وراء سلسلة جبال عالية وصعبة الاجتياز. واتضح للعرب انهم لن يستطيعوا التخطيط بجدي، لاحاق الهزيمة باسرائيل بضربة عسكرية واحدة. واذا كانوا يريدون القضاء على اسرائيل، يجب عليهم اولاً تقليص حجمها واعادتها الى الخطوط التي بدأت الحرب منها، اي اعادتها الى خطوط ١٩٤٩.

كما ادرك العرب، ان ليس في مقدورهم تحقيق هذا الهدف بالطرق العسكرية، انما سيحققونها، اذا ما استخدموا الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية، في ممارسة ضغوط شديدة على اسرائيل. ولكن لسوء حظهم، برز في الولايات المتحدة بعد الحرب، توجه عكسي تماماً: بدأت تسمع اصوات تنادي بضرورة ابرام حلف عسكري مع اسرائيل التي اصبحت القوة الاكثر اهمية في المنطقة، وتم التعبير عن هذا التوجه، بعد وقت قصير، عندما بدأت الولايات المتحدة تقدم مساعدات عسكرية سخية لاسرائيل، زادت من صعوبة تحقيق الاهداف العربية ضد اسرائيل.

ومع ذلك، ظل بعض العرب يقولون، ان التأييد الامريكي لاسرائيل، ليس بالامر الذي لا يمكن تغييره، لذا يمكن التأثير على الامريكيين، اذا ما استفاد العرب من العناصر الامريكية القديمة المؤيدة لهم، كما ادركوا اهمية الرأي العام، في رسم السياسة الخارجية في الدول الديمقراطية الغربية، لذا، تركزت الجهود العربية بعد حرب ١٩٦٧، على الحاق الهزيمة باسرائيل في المنافسة على الرأي

العام الغربي: في وسائل الاعلام، في الجامعات، ومراكز السلطة.

ولكي يفوز العرب بهذا الصراع، اضطروا لادخال تعديلات اساسية على طريقة عرض النزاع في الشرق الاوسط. اذ لم يعد هنالك احد في العالم الغربي مستعداً لسماع ادعاءات مثل اسرائيل "سرطان يجب استئصاله". لذا، كان من الضروري اعادة كتابة التاريخ، (تاريخ الصراع)، وتضمينه شروحات تكون مقبولة للرأي العام، وابتعاد مبررات مقنعة، تؤثر على الرأي الغربي، وتجعله يتخلل عن تأييد اسرائيل، وتم في "التاريخ المعاد" هذا، ادخال انتقادات للطرف التي اقيمت بها اسرائيل. فاذا اتضح ان انشاء اسرائيل بالذات كان جريمة اخلاقية، لم تنصف اليهود، بل الحق ظلماً شديداً بالعرب، فان العالم الغربي سيبدى تعاطفاً مع الجهود الرامية الى رفع هذا الظلم.

اكتشف العرب ان الارض لهذا الشرع من الدعاية قد مهدت من قبل "المستعربين" البريطانيين، اذ، كما اسلفنا، كريس هؤلاء المؤيدون، سنوات كثيرة لاقتناع الحكومات الغربية، بأن هجرة اليهود الى ارض اسرائيل تعتبر غلطة اخلاقية، كان من شأنها، فقط، دفع العرب وتحريضهم على ممارسة العنف، وان وجود دولة يهودية في قلب الشرق الاوسط، من شأنه توحيد العالم العربي ضد الغرب،

بعد حرب ١٩٦٧، بحث العرب الحياة في هذه التبريرات، واستخدموها، لتبرير عمليات الارهاب العربية، ومهاجمة اسرائيل في الامم المتحدة، وفرض الحظر على النفط.

وهكذا، بدأت الانتظار تتجه منذ مطلع السبعينات الى المتحدين العرب الذين كانوا يكررون هذه الادعاءات "البريطانية القديمة".

وكما هي الحال في اي محكمة، وكما هو الامر في محكمة الرأي العام، هنالك اهمية حاسمة للسؤال: من الذي هاجم اولاً، ومن الذي يبادر بالهجوم، من هو الطرف المهاجم ومن هو الطرف المدافع؟ لذا بدأ العرب بمعركة لا مثيل لها، لاقتناع الرأي العام الغربي، بأنهم لم يبدؤوا الهجوم، انما اسرائيل هي التي هاجمتهم عام ١٩٦٧، وهكذا لم يعد العرب هم المتهمين بل اليهود الذين صدوا الهجوم عنهم.

غير ان مهمة العرب، هذه المرة، كانت اصعب بكثير من مهمة "المستعربين" البريطانيين الذين سبقوهم، حيث كان اولئك يحاولون اقتناع حكوماتهم فقط بمعارضة الصهيونية. ولكن من اجل اثارة الرأي العام الحالي ضد اسرائيل، في الولايات المتحدة، التي اصبح لاسرائيل فيها اصدقاء كثيرون وذوو نفوذ، يتطلب الامر قلب الحقائق والمعلومات الى درجة كبيرة، واكبر بكثير مما احتاجه المستعربون البريطانيون في حينه.

من اجل هذا، كان من الضروري ايجاد حقوق تاريخية عربية لمواجهة الحقوق التاريخية اليهودية، وان يصحوا من الذاكرة قرارات مؤتمر فرساي، وعصبة الأمم، ووعد بلفور، واعادة كتابة تاريخ النزاع، تاريخ الحروب العربية ضد اليهود بعد قيام الدولة.

وفي سبيل انجاح ادخال هذه الاكاذيب الى عقول مواطني العالم الغربي وحكوماته، كان يتوجب على العرب شن هجوم مباشر على الصهيونية بهدف زعزعة مكانتها كحركة اخلاقية تسعى لتحقيق العدالة. وكانت الادعاءات العربية الكاذبة كلها، تتركز على اظهار حقيقة ان خلق "دولة اسرائيل" كان تصرفاً لا اخلاقياً. ولذا كان يتوجب عليهم القضاء تماماً على الشخصية الايجابية للحركة الصهيونية التي سادت بشكل خاص، في اعقاب الكارثة النازية.

ومن اجل تحقيق هذا الهدف الطموح، هاجم العرب اسرائيل في كافة الحلبات، ووسائل الاعلام، والمؤتمرات، وسرعان ما اتضح لهم، ان افضل اداة بأيديهم، التي يمكن ان يصل نفوذها الى كل زاوية في العالم، والتي كانت تتمتع آنذاك بثقة دولية كبيرة، هي منظمة الامم المتحدة.

في الامم المتحدة، وفي حلبات اخرى، استعان العرب بحليف جديد "الامبراطورية السوفياتية" التي حلت محل الامبراطورية البريطانية المتهارة؛ فقد رعى الاتحاد السوفياتي نظام جمال عبد الناصر في مصر، وانظمة دكتاتورية اخرى، وشأنه شأن بريطانيا من قبله، استنتج الاتحاد السوفياتي السابق ان وجود اسرائيل يعتبر عقبة امام طموحاته الامبريالية في الشرق الاوسط، كان السوفيات فناني دعايات: لقد علموا ودربوا كل المنظمات الارهابية المعادية للغرب، لبلورة تعبيرات مثل "داعية سلام"، و "تقرير مصير"، وهكذا اوجدوا الصيغة التي كان

يحتاجها العرب للمس بالمكانة الاخلاقية لاسرائيل، في اوساط الرأي العام الغربي.
في عام ١٩٧٥، سيطر الممثلون السوفييات والعرب على المؤتمر النسائي الذي
رعته الامم المتحدة في مدينة مكسيكو سيتي، وارغموا المؤتمر على تبني قرارات
تندد وتشهر باسرائيل، وشم عرض هذه القرارات على الجمعية العمومية للامم
المتحدة، التي اقرتها هي ايضاً.

لقد حقق العرب هدفهم عن طريق التخويف السياسي والاقتصادي - في تلك
الايام كان الابتزاز النفطي العربي في ذروته، وبدأ انه لا توجد قوة في العالم يمكن
ان تصمد امامه. فكثير من الدول التي كان يجب ان تعلم الحقيقة، وعرفتھا
فعلاً، رضخت رغم ذلك لقبول الاكاذيب.

وهكذا، في تشرين ثان ١٩٧٥، بعد ثماني سنوات فقط على هزيمتهم الكبرى
في حرب الايام الستة، تمكن العرب من تحقيق اكبر نصر دعائهم لهم: قررت
الجمعية العمومية للامم المتحدة بأغلبية ٧٢ صوتاً، مقابل ٣٢ صوتاً، وامتناع
٣٢ صوتاً، ان الصهيونية، الحركة القومية للشعب اليهودي، هي حركة عنصرية.
وهكذا نجح العرب في تحقيق ما لم ينجح به اعنى اللامسيحيين في التاريخ.

بالطبع، ادرك العرب ان قوة اسرائيل لا تكمن في عدد سكانها، او حجمها
الجغرافي، او مواردها الطبيعية، فقد كان اعداؤها يفوقونها في كل هذه المجالات.
لقد ادركوا ان روع اسرائيل الحقيقي، هو قوتها الاخلاقية، وارادوا ان يمزقوا هذا
الدرع بالذات. لذا حاولوا الصاق العيوب بالصهيونية، التي كانت السبب في قيام
دولة اسرائيل. علاوة على ذلك، يعتبر التراث اليهودي من مرتكزات الحضارة
الغربية، ويبرز دوره، بشكل خاص، في تعريف مصطلحات مثل: العدالة، والحرية.

لقد عانى الشعب اليهودي من الاحتقار والاذلال والقمع والعنف، اكثر من
اي شعب آخر، ولم تنشأ الحركة الصهيونية الا لتحقيق الحرية والعدالة لشعبها.
وهكذا، بعد ألفي سنة من العبودية، أصبح الشعب اليهودي حراً مستقلاً. هذا هو
المعنى الحقيقي للصهيونية. في اواخر الحرب العالمية الاولى، وبعد الحرب العالمية
الثانية، كان العالم كله يعترف بهذه الحقيقة. شعوب كثيرة في العالم، ابدت اعجابها
بالاصرار والجرأة اللذين تمتعت بها الحركة الصهيونية، واعجبت بما حققته هذه
الحركة في بناء دولة حديثة على انقاض وطن قديم، وتجميع الشتات اليهودي من

كل انحاء العالم، واحياء لغة قديمة. لقد احترمت هذه الشعوب قنوة اسرائيل على اقامة دولة ديمقراطية وانسانية، خلال تعرضها لحرب مستمرة وكراهية ليس لها مثيل في التاريخ.

حظيت، كل هذه الصفات بالتقدير، ليس في اوربا والولايات المتحدة فقط، انما في افريقيا وفي دول نامية كثيرة اخرى، كانت الحركة الصهيونية واسرائيل بالنسبة لها، نموذجاً يحتذى للاستقلال والتقدم.

هذه الحقائق، لم تغب عن عيون الانظمة العربية والشيوعية ايضاً، ولم تنبع هجماتهم على اسرائيل من منطلق المصالح السياسية فحسب، اذ انهم كانوا يعتقدون، في انفسهم على اسرائيل، اذ لا شيء يمكن ان ينزع القناع عن وجوه هذه الانظمة التي تختفي وراء اقنعة الشعارات مثل: "التحرير القومي" و"تحرير المصير"، مثل وجود حركة تحرير قومية حقيقية. فمجرد وجود الحركة الصهيونية، كان من شأنه تعرية هذه الانظمة الاستبدادية. وبلغت هذه الانظمة ذروة الصفاقة عندما وصفت الحركة الصهيونية "بالعنصرية" - تلك الحركة التي قال مؤسسها تيودور هرتسل ان معاناة الزنوج تفرقه ليس بدرجة اقل من معاناة اليهود انفسهم. وبعد حوالي مائة عام من اقوال هرتسل هذه، انتقلت اسرائيل يهود اثيوبيا وهجرتهم الى اسرائيل. وبهذا اثبتت الحركة الصهيونية، بأنها الحركة الوحيدة في التاريخ، التي تخرج السود من افريقيا، ليس لاستعبادهم، انما لتحريرهم.

في عام ١٩٨٥، وبمناسبة مرور عشر سنوات على قرار الامم المتحدة بتعريف الصهيونية كحركة عنصرية، نظمت ندوة خاصة في مبنى الامم المتحدة لمهاجمة هذا القرار. وثار غضب الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية، كيف نجروا على عقد لقاء سياسي في "منطقتهم"؟ حاولوا منع عقد الندوة، لكنهم لم ينجحوا. ومما اثار غضبهم بشكل خاص، ان كان احد المتحدثين في الندوة، رحاميم اليعازر، مهاجر جديد من اثيوبيا، الذي وصف بكلمات تمس شفاف القلب، الخلاص الشخصي الذي حظي به بهجرته الى اسرائيل. وبعد ذلك اليوم هاجر الى اسرائيل عشرات الالاف من ابناء طائفته.

ان اتهام الصهيونية، الكاذب، بالعنصرية، الذي يؤكد ابناء العالم العربي - هذا العالم الذي لا زال حتى اليوم يحتفظ بالعبيد السود (في دول الخليج)، والذي كان لعدة اجيال الرائد في مجال تجارة العبيد على طول سواحل افريقيا، والسذي

يتحمل وزر اعمال القتل الفظيعة لمئات الالاف من السود في جنوب السودان على ايدي الاغلبية العربية - هذا الاتهام للصهيونية بالمنصرية، يجب ان لا يتعدى كونه نكتة تافهة. لكن العالم لم ينظر اليها هكذا. فالقوة المشتركة للعرب والسوفييات، منحتهم السيطرة الكاملة على الامم المتحدة والاستغلال اللامحدود لوسائل الاعلام التابعة لها. والحقيقة هي انه لولا حملة الاكاذيب ضد اسرائيل، التي شهدها اروقة الامم المتحدة، فان هذه المؤسسة ليست مؤهلة لاصدار حكم في موضوع اخلاقي: لم تفعل الجمعية العمومية للامم المتحدة شيئاً ضد العدوان السوفياتي على افغانستان الذي قتل خلاله ملايين الاشخاص: كما لم تحرك الامم المتحدة ساكنها، طيلة سبع سنوات كاملة لوقف اعمال القتل في الحرب العراقية-اليرانية: كما لم تفعل شيئاً تجاه اعمال القتل في الشعب الكمبودي، والاعمال الفظيعة التي حدثت في اوروبا. ولم تتدخل نهائياً في مقتل مئات الالاف من المواطنين في اوغندا، في ظل نظام حكم عيني امين، وكذلك عجز الامم المتحدة في الصومال، اكبر شاهد عليها.

كل هذه الاعمال، تشكل خرقاً فاضحاً لاعلان مبادئ حقوق الانسان، تلك الوثيقة الاساسية التي من اجلها انشئت منظمة الامم المتحدة. غير ان ايا من قرارات الامم المتحدة واعمالها الفاشلة لم يكن له ذلك التأثير القوي والعميق في الرأي العام الدولي، مثلما كان لقرار وصف الصهيونية بالمنصرية.

هناك من يصف هذا القرار بأنه مجرد هراء لا قيمة له، وبخاصة بعد قرار الغائه عام ١٩٩١، لكن هذا القول خطأ. اذ يجب ان نتذكر انه مضت ١٦ سنة تمكن خلالها العرب من تعميق الوصف بالمنصرية، لدى الرأي العام العالمي، وحتى بعد الغائه رسمياً، لا زال مقبولاً لدى كثيرين من زعماء العالم وشعوبه. اعود واکبر انه لم يسبق في التاريخ ان صادقت مؤسسة دولية على كذبة حقيرة كهذه، ضد شعب بأكمله.

في العهد الذي حدثت فيه الكارثة، يجدر بنا ان لا ننسى ما الصقه النازيون بالشعب اليهودي، عندما وصفوه بأنه شعب ممقوت دنىء وحقير. ولولا غسيل الدماغ الذي قام به النازيون للشعب الالمانى والشعوب الاخرى، لما نجحوا في تجنيد مئات الالاف من المتعاونين معهم لادارة آلة الابداء ضد اليهود ، ولهذا

نجد ان الدول الأوروبية التي لم يتحقق فيها مثل هذا التعاون مع النازيين، نجا معظم اليهود يهود فيها. فهذه قضية انقاذ يهود الدنمارك، معروفة جيداً: اعلن ملك الدنمارك انه اذا اضطر شخص ما من رعاياه لارتداء "الرداء الاصفر" (الذي يرتديه اليهود المتدينون)، فانه سيفعل هو ذلك نفسه. وتم بعد ذلك تهريب يهود الدنمارك بنجاح، الى السويد المحايدة، وكذلك نجا يهود بلغاريا بفضل تقصير الدعاية النازية في الوصول الى الشعب البلغاري، الامر الذي جعله يقف الى جانب اليهود.

بعبارة اخرى نقول، ان الافتراء، او التشهير، مقدمة للقتل، اي بشاشة اذن بالقتل. شهروا به، وعزلوه عن بقية الشعوب، جعلوا حياة ابنائه مهدورة، في حين يحظى قاتلوه وقامعوه بالتأييد.

بعد خمسين سنة، يبدو التشهير بوصف الصهيونية بالعنصرية، هو نفس التشهير الذي اشاعه النازيون ونفس تلك اللاسامية، ولكن برداء جديد. ان اللاسامية لم تختف من العالم بعد الكارثة، بل اصبحت اكثر حذراً في استخدام المصطلحات القديمة التي تثير الارتباك اليوم. لذا، فهم يغيرون المصطلح "اليهودية"، و"يهودي" الان بالقول "صهيونية" و "صهيوني". ربما انه لا توجد في أيامنا هذه اسوأ من كلمة "عنصري"، تستخدم هذه الكلمة بدلاً من كلمات الاساءة القديمة مثل: "قتلة المسيح"، "المرابي"، و"التآمر الدولي".

كل هذه التعبيرات اللاسامية تتستر الان تحت غطاء لغوي جديد، يسمح لكارهي اسرائيل بالقول: "انا لست لا سامياً، انما لا صهيوني". اي وكان شخصاً ما يقول: "انا لست معادياً لأمريكا، انما اعتقد فقط انه ليس للولايات المتحدة حق البقاء".

تمسكت الدعاية العربية بقرار الامم المتحدة المذكورة، طيلة ما يقرب من عشرين سنة، وبواسطته استطاعت ان تحل اكاذيب حول اي موضوع او رأي يتعلق باسرائيل.

وحتى الان، بعد ان الغي قرار الامم المتحدة بشأن الصهيونية، لا زالت الاراء التي تبلورت بفضلها قائمة لدى كثيرين في العالم. فقد نجح العرب في تشويه سمعة اسرائيل، لدرجة تجعل كثيرين في العالم يتجاهلون جرائمهم والصفح عن ممارساتهم

القطيعة، ليقولوا: يجب الاخذ بعين الاعتبار المصائب التي لحقت بالفلسطينيين
والمعاناة الشديدة التي عاشوها".

لقد نجح العرب في ادخال اكاذيبهم التاريخية في وسائل الاعلام، وجعلها
تترسخ عميقاً في الرأي العام العالمي، تماماً مثلما خططوا للقيام به بعد حرب
الايام الستة.

وهكذا، أحدثوا تحولاً مدعشاً- أصبحوا هم انفسهم الجانب المتضرر الذي
يطالب بالانصاف، فيما أصبحت اسرائيل كياناً غريباً عديم الاخلاق والمشاعر، كل
اعماله تتناقض مع العدالة الانسانية، لأن قيام هذا الكيان بالذات، هو ظلم لا
يمكن التكفير عنه.

ما حدث، هو ان الحركة الصهيونية، التي اعتبرت في مطلع القرن العشرين،
في نظر معظم شعوب العالم، حركة قومية اصيلة، اخرجت لدرجة كبيرة الى خارج
المعسكر، في نهاية هذا القرن.

فاسرائيل، هي الامة الوحيدة في العالم، التي تعتبر في نظر الرأي العام،
مذنبة لكونها امة بالذات: انها ليست محقة في مطالباتها بحقها القومي على
وطنها التاريخي، وتستحق العقاب لاستيطانها في قلب هذا الوطن، وهي مخطئة
عندما تحاول حماية نفسها من اعداء يطمحون لخرابها.

تلك هي وجهة النظر التي بلورها الاستعماريون البريطانيون في عهدهم،
لكنها مقبولة اليوم كحقيقة ناصعة في نظر الكثيرين الذين لا يدرون من اين اتت
ولا طبيعة النتائج التي ستؤدي اليها.

يدعي معظم السياسيين في العالم، بالطبع، انهم لم يتراجعوا عن الالتزام
الاساسي الذي اعطي لليهود في مؤتمر فرساي، فهم يقولون، نحن لا نريد اعادة
اسرائيل، انما نريد فقط المحافظة على التوازن المناسب بينها وبين العرب. غير انه
خلف هذا الموقف تجاهلاً مدعشاً لمتطلبات البقاء الاساسية لاسرائيل.

فالولايات المتحدة التي تقيس عمقها الاستراتيجي بالالف كيلومترات، تندد
باسرائيل التي تصر على التمسك بعمق استراتيجي يضم بضع عشرات من
الكيلومترات. ويعلم العالم الغربي، صباح مساء، ان على اسرائيل ان تسعى
لتحقيق السلام ، ونفس الوقت ، يبيع الى العرب اسلحة بكميات تفوق عشرات

الاضعاف لما يبيعه لاسرائيل، كما ان الدول الاوروبية هي التي تزود اشد اعداء اسرائيل، بوسائل لانتاج الاسلحة النووية، ورغم المعرفة بأن هذه الاسلحة مخصصة لاهادة اسرائيل تندد هذه الدول باسرائيل عندما تحاول احباط هذا الخطر، مثلما فعلت في اعقاب الهجوم الاسرائيلي على المفاعل النووي العراقي. وهناك سياسيون كثيرون في العالم الغربي، يعرفون جيداً، انه دون هجرة يهودية، فان مستقبل اسرائيل يتعرض للخطر، ومع ذلك فهم مستعدون لمراقبة هجرة اليهود الى اسرائيل، بغية استرضاء العرب،

لم يعد التنكر الدولي للصهيونية، يعبر عنه في ايامنا هذه، بالدعوة الصريحة للقضاء على دولة اليهود، بل بالرضى النفسي الذي تنطوي عليه مطالبة العالم كله حكومة بأن تتحمل اخطاراً لا تستطيع اية حكومة متزنة عاقلة، ان تتبل بها لنفسها او لبلادها.

كما ان هذا التنكر يظهر المرة تلو الاخرى، كلما حاولت اسرائيل ان تدافع عن نفسها، شأنها شأن اية امة اخرى في العالم، تعتبر هي الدولة المعتدية، والنصيحة التي تسدى اليها هي ان تنتظر، دون حراك، الضربة القادمة التي ستحل بها.

ان هذا الالفاء التدريجي لحق اسرائيل في الدفاع عن النفس، يشكل تآكلاً مستمراً في تمهيدات فرساي، فلو جردنا دولة ما من الوسائل المطلوبة للدفاع عن وجودها، فاننا نضع بذلك، حقها في البقاء، امام علامة استفهام. فالحق الذي لا يمكن حمايته، او الدفاع عنه، لا بد ان يفقد مفعوله، في نهاية المطاف.

رأينا، على اية حال، ان التنكر المتزايد للمتطلبات الجغرافية، والسكانية، والعسكرية، للصهيونية، بلغ درجة كبيرة، نتيجة لحملة منهجية، كانت بدايتها في افعال المعارضين للصهيونية في العالم الغربي، في النصف الاول من القرن الحالي، واستمرت من خلال الدعاية العربية في النصف الثاني من هذا القرن. وكان الهدف من هذه الحملة، هو تقويض الايمان بالموقف الاخلاقي لاسرائيل، وهذا التقويض ألحق ضرراً لا يمكن تقديره باسرائيل، بعدما تفللت شعارات الدعاية اللاصهيونية الى اجزاء من الجمهور الاسرائيلي نفسه، الذين بدأوا يتضامنون مع الادعاءات العربية.

غير ان الحملة السياسية العربية ضد اسرائيل، لم تكن لتحقيق مكاسب بعيدة الاثر الى هذا الحد، لو لم تكن منسجمة منذ البداية مع مصالح الدول الغربية، فالادعاء بأن ابتزاز تنازلات من دولة اسرائيل ينسجم مع المصالح الغربية، وبخاصة لصالح الولايات المتحدة بالذات، لا يختلف عن ادعاءات المستعربين البريطانيين" خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، عندما حاولوا منع قيام الدولة اليهودية. وفي غضون عشرين سنة، تحولت بريطانيا من مؤيدة متحمسة للنهضة القومية اليهودية، الى احد المعارضين الرئيسيين لهذه النهضة. واعتمد هذا التغيير على الافتراض بأن المصلحة البريطانية تستوجب الموافقة على المطالب العربية.

ومثلما ادعى المستعربون البريطانيون بأنه اذا منعت بريطانيا هجرة اليهود الى "ارض اسرائيل" ستحظى بود العرب، يدعي اليوم اتباعهم الامريكويون، بأنه اذا نجحت الولايات المتحدة في حمل اسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية وهضبة الجولان، والعودة الى خطوط عام ١٩٦٧، فلن تحظى بود العرب فحسب، بل ستحل اساس النزاع في الشرق الاوسط، وتحقق سلاماً دائماً وتضمن استمرارية تدفق النفط الى العالم الغربي.

الفصل الثالث

حقيقة القضية الفلسطينية

اول ضحايا حرب الخليج التي اندلعت عام ١٩٩١، لم تكن من البشر، انما كانت ابقاراً - ابقاراً مقدسة. فطيلة سنوات عديدة، رعى اعداء اسرائيل قطعياً من هذه الأبقار، مسلمات سياسية لا تجوز مناقشتها، وينوا على اساسها نظرية مشوهة ومضللة حول طبيعة الشرق الاوسط، وموقع اسرائيل فيه.

ان الواقع المرير، الذي تمثل بالديابات العراقية، وهي تسحق ببشاعة دولة عربية، لا حول لها ولا قوة، استطاع، ولو لفترة ما، ان يقوض عدداً من هذه المسلمات - (البقرات المقدسة).

كانت احدى هذه المسلمات، التي تضررت فوراً مع الغزو العراقي، هي وجهة النظر القائلة، ان كافة المتقلبات التي يشهدها الشرق الاوسط، تنبع، بطريقة، او بأخرى، مما سمي بـ "القضية الفلسطينية".

قبل الغزو العراقي للكويت، كانت هذه الفرضية المقدسة، اساساً لكل الايحاء التي تجرى على مشاكل المنطقة وطرق حلها. اذ لم يمض يوم واحد تقريباً، دون ان نسمع ناطقاً عربياً يقول ان القضية الفلسطينية هي "قلب" النزاع، او "نواته" او "جذره"، او "العنصر الاساسي" له.

كان يتم التطرف الى هذا النزاع دائماً، وكأن الحياة في الشرق الاوسط، ستصبح فجأة، مثالية هادئة، لولا ذلك النزاع الوحيد والمثير للغضب، بين العرب واسرائيل. وهكذا نشأ تدريجياً الانطباع، بأنه اذا تم حل القضية الفلسطينية فقط، سيسود السلام في الشرق الاوسط على الفور.

لم تكن الانظمة العربية، فقط، تتبنى هذه النظرية. انما مجموعة كبيرة من حكومات العالم الثالث، والكتلة السوفياتية، وساعدت الاسم المتحدة على ترويج اهمية القضية الفلسطينية، ولم يمض وقت طويل، حتى انضم الغرب، ايضا، لهذه الحملة.

ففي كل المناصب الدبلوماسية التي اشغلتها، منذ قدومي الى واشنطن، كمضو في السفارة الاسرائيلية ، عام ١٩٨٢، وحتى تسلمي منصب نائب وزير في

وزارة الخارجية، عشية الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، اهتم دبلوماسيون غربيون من كافة الدول، وكافة المستويات، بأن يوضحوا لي، بأن السلام لن يتحقق في الشرق الاوسط، طالما بقيت القضية الفلسطينية دون حل. كلهم كانوا يؤكدون باصرار ان هذه القضية تشكل قلب النزاع في المنطقة.

وعندئذ، هاجم العراقيون الكويت، في آب ١٩٩٠، ومن الصعب تقدير حجم المفاجأة التي أصابت المجتمع الدولي لهذا الحادث، ففجأة تهاجم دولة عربية، دولة عربية اخرى، وتهدد دولة ثالثة دون اي علاقة مع القضية الفلسطينية، وكانت تعرية الوجه الحقيقي لصدام حسين، صدمة شديدة لعدد كبير من زعماء العالم، وبينهم اولئك الذين يعتبرون انفسهم اصدقاء لاسرائيل.

في العقد الذي سبق غزو الكويت، اعتبر صدام حسين عنصراً لا يشكل تهديداً للمنطقة، وصديقاً للغرب ايضاً، الامر الذي جعل الدول الغربية تصنعه مساعدات عسكرية واقتصادية سخية جداً، وخلال الحرب بين العراق وايران، كتبت عدة صحف امريكية، باقلام خبراء في شؤون الشرق الاوسط، تدعو لتفضيل العراق في الحرب، كسياسة مفيدة للمصالح الامريكية، اذاً، ليس من الغريب، ان يفاجأ الزعماء الغربيون الذين خدعوا طيلة سنوات، بهذه الفرضية، بعملية صدام حسين هذه. ورغم ذلك، من الصعب الا نستغرب اندهاشهم هذا، اذ لم تكن بحاجة للانتظار، حتى يحدث غزو الكويت كي ندرك ان الشرق الاوسط مليء بالنزاعات والحروب التي ليس لها اية علاقة بالفلسطينيين، اذ ان العراق نفسها، كانت قد انتهت، قبل سنة واحدة، حرباً طاحنة ضد جارتها ايران، تسببت في مقتل ما يزيد على مليون انسان، والحقت اضراراً جسيمة بالدولتين. كما ان استعراضاً، سطحياً فقط، لتاريخ المنطقة، من شأنه ان يوضح لنا، ان شهية الحرب لم تكن ظاهرة مقتصره على العراق وحدها. فمنذ تأسيسها، في النصف الاول من هذا القرن، كانت جميع الدول العربية، تقريباً، متورطة في حروب، في محاولات انقلاب، في اعتقالات سياسية، ومؤامرات لا تحصى ضد جيرانها العرب وغير العرب. ففي شمال افريقيا، هناك نزاع بين ليبيا وتونس. وهاجمت ليبيا السودان. وفي عام ١٩٧٧، كادت ان تتورط في حرب مع مصر، عندما اجتازت دبابات ليبية الحدود المصرية - كل هذه كانت دولاً حاول القذافي اقتناعها بوحدة اندماجية مع ليبيا- وكجزء من ايمانه بـ "النظرية العالمية الثالثة" اعلن القذافي دعمه لحركات

التحرد المختلفة في العالم، ومول محاولات عدة، للاطاحة بأنظمة حكم عربية - في مصر، والعراق، والمغرب، والسودان، وتونس، والصومال - وقتل زعمائها.

كما ان مصر برزامة جمال عبد الناصر، حاولت في حينه اغتيال زعماء الاردن ولبنان والعراق. وفي عام ١٩٥٨، حاولت فرض حكمها على سوريا، وفي عام ١٩٦٢ شنت حرباً بشعة لاحتلال اليمن، استمرت حوالي خمس سنوات، وكذلك الجزائر والمغرب، ظلتا سنتين طويلة على خلاف حول منطقتي كولومب بشار، وتنديف، ادى في النهاية، الى حرب بينهما، عام ١٩٦٣. ومنذ عام ١٩٧٥، فصاعداً وجهت الجزائر عداها للمغرب، نحو الصحراء الغربية من خلال منظمة "البوليساريو".

كما ان شبه الجزيرة العربية لم تكن هادئة. فحتى وقت ليس بالطويل، ظلت قوات سرية يمنية تدخل الى اقليم ظفار بهدف اقتطاعه من سلطنة عمان. وكذلك شمال اليمن وجنوبه، لم تتوقفا عن التآمر ضد بعضهما البعض، حتى دخلتا في حرب عامي ١٩٧٢، ١٩٧٩. وفي عام ١٩٩١، جرت محاولة لتوحيد اليمن، لكن الطرفين لم يكونا مرتاحين لهذه الوحدة. وفي عام ١٩٩٤، نشب حرب بينهما. وفي نفس الوقت يخشى الجانبان، العربية السعودية التي كانت في عهد ملكها الاول، بن سعود، قد غزت اراضيها، اضافة الى اراضي كل من الاردن والعراق والكويت وبقية دول الخليج.

وفي حرب الخليج طردت العربية السعودية مئات الالاف من الرعايا اليمنيين، الامر الذي جعل من الصعب على الحكومة اليمنية استيعابهم. وعلى الرغم من ان العراق هي التي غزت الكويت، عام ١٩٧٣، كانت الكويت تتعرض للازعاج المستمر من جانب العربية السعودية بالذات، وكان الغزو العراقي الثاني في عام ١٩٩٠، هو فقط، الذي هدا مخاوف الكويتيين من العربية السعودية - على الاقل، مؤقتاً. بالطبع، قامت العراق، قبل غزوها الكويت، بعدة اعمال عدوانية، فقد عملت سراً ضد دول عربية مختلفة، بينها عدوتها التقليدية، سوريا، وصديقتها المؤقتة في حرب الخليج - الاردن.

وفي عام ١٩٩٧، بلغ التوتر بين العراق وسوريا ذروته. اغلقت العراق انبوب النفط المار عبر الاراضي السورية، بينما ردت سوريا باغلاق حدودها مع العراق

لمدة سنتين كاملتين. واستمرت المحاولات العراقية للاطاحة بنظام الحكم السوري طيلة حرب العراق - ايران، بسبب دعم سوريا للمخميني.

وكذلك سوريا، كان لها مكانة محترمة بين الدول العدوانية، اذ هددت الاردن اكثر من مرة، وقتلت دبلوماسيها، وزرعت قتابل في عمان، حتى انها غزت الاراضي الاردنية عام ١٩٧٠. وتعمل سوريا باستمرار، على تشويه سمعة رجال حزب البعث في العراق، وتسعى علانية وبلا هوادة، للاطاحة بنظام الحكم العراقي، خصمها الرئيسي في السيطرة على حوض الفرات، كما ان كل الاراضي اللبنانية تقريباً هي الان تحت السيطرة السورية. وهدف سوريا في لبنان، ليس السيطرة على حكومتها، لانها موالية لها اصلاً، وليس تعديل الحدود بين الدولتين، لان هذه الحدود كلها تحت السيطرة والسيادة السوريتين، انما تهدف الى ابتلاع لبنان كلها. وكانت هذه المؤامرة قد حيكت منذ عام ١٩٤٦، عندما نالت الدولتان استقلالهما حيث اعلنت سوريا، آنذاك، رفضها الاعتراف بوجود دولة منفصلة عنها في لبنان. ولم تعترف بها. ومنذ مطلع السبعينات، بدأت سوريا تعلن ان لبنان هي جزء من "مجال دفاعها الاستراتيجي" وغمرت لبنان بجنودها. وقام الاسد بتصفية كل لبناني ابدى معارضة لوجود النظام السوري في لبنان، ولم يميز ابداً بين مسلم، او مسيحي، او درزي.

ومن اجل تبرير الاحتلال السوري للبنان، ادعى الاسد ان جيشه موجود في لبنان كقوة "حفظ سلام" بتكليف من الجامعة العربية (عندما استدعي في عام ١٩٧٦ من قبل حكومة لبنانية يائسة)، وان امراً من الجامعة العربية فقط، يمكنه انهاء الوجود العسكري السوري في لبنان.

واخيراً، وفي عام ١٩٩١، عندما كانت الانظار كلها متجهة نحو الوضع في الخليج، عملت سوريا بلبنان ما لم تنجح العراق في عمله في الكويت - ابتلعت جارتها كلها، وغطت ذلك بمعاهدة صداقة صورية، بينها وبين لبنان المستسلمة.

ومثلما ادعى النظام السوري دائماً ان لبنان جزء لا يتجزأ من سوريا، كذلك ادعى ايضاً ان "ارض اسرائيل" جزء لا يتجزأ من "سوريا الكبرى". وكل من يشكك في نوعية العلاقات التي ستسود بين سوريا ودولة فلسطينية بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية، يجدر به ان يقرأ ما قاله حافظ الاسد، في احدى

المرات، لياسر عرفات:

أنك لا تمثل فلسطين مثلنا. يجب ان لا ننسى ابداً، حقيقة انه لا يوجد شعب فلسطيني، ولا كيان فلسطيني، توجد سوريا فقط، انت جزء لا يتجزأ من الشعب السوري، فلسطين هي جزء لا يتجزأ من سوريا. لذا، فنحن، السلطات السورية، الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني.

وبالفعل، ضربت سوريا بشدة منظمة التحرير الفلسطينية في معارك عام ١٩٧٦، في لبنان، وفي عام ١٩٨٣ ايدت محاولة عسكرية ناجحة، قام بها فلسطينيون موالون لسوريا، لطرد منظمة التحرير الفلسطينية من طرابلس في شمال لبنان.

وفي ضوء كثرة الاعمال العنائية بين الدول العربية ذاتها، فلا عجب اذا، ان تزجج دول عربية، دولا اخرى، غير عربية، مجاورة لها. فهذه ليبيا، على سبيل المثال، احتلت جزءا كبيرا من اراضي تشاد واقامت فيها حكومة صورية، الى ان طردت من هناك في عام ١٩٨٦، على ايدي قوة فرنسية.

كما درب القذافي وحدات خاصة للاطاحة بانظمة حكم عدة دول افريقية، حتى طالت اعماله دولة السنغال البعيدة.

وتقول الحكومة المصرية، ان تورط القذافي في الارهاب الدولي، بلغ درجة ان استأجر، في حينه، القتلة للمس ليس بنظرائه من الزعماء العرب فحسب، انما لاغتيال زعماء غربيين، مثل مارغريت تاتشر، وفرنسوا ميتران، وهلموت كول. وعلى غرار ليبيا، لم تكتف سوريا ايضاً بالعدوان على العرب فقط، اذ تطالب بالسيطرة على لواء الاسكندرونة التركي. لقد تمت تسوية هذا الموضوع عام ١٩٣٩، غير ان منطقة الاسكندرونة لا زالت تظهر في الخرائط السورية الرسمية، داخل حدود سوريا، واعلنت الحكومات السورية، اكثر من مرة، انها لا تعترف بالتخلي عن المطالبة بهذه المنطقة. ويدرب السوريون جماعات كردية وارسينية مستمرة على تركيا، يمدونها بالمال، حتى انهم ساعدوها على دخول الاراضي التركية.

وفي عام ١٩٩٤، تحدثت الصحافة عن توصل تركيا وسوريا الى اتفاق سري بينهما يقضي بوقف النشاطات السرية السورية ضد تركيا، مقابل تسوية مشكلة

اقتسام مياه نهر الفرات، لكن اياً كان، لا يستطيع تأكيد التوقيع على مثل هذا الاتفاق، او ان سوريا ستلتزم بتنفيذه.

منذ حرب الخليج، تعتبر العراق الدولة العربية الاكثر عدوانية. غير ان صدام حسين، كان قد حاول الاستيلاء على الكويت، قبل ذلك بعشر سنوات، حيث حشد آنذاك، القوات على حدودها، واثار المطالب التاريخية العراقية بالكويت، وبدأ باصطناع الاحداث. على الحدود تمهيداً لغزوها. ولكن سحبت له آنذاك فرصة بدت اكثر اغراءً، تمثلت بايران، التي بدت في نظره، بعد غياب الشاه، كدولة ضعيفة وجاهزة للسيطرة عليها. وقام صدام حسين بالغاء اتفاقية الحدود التي وقعها قبل ذلك بخمس سنوات مع شاه ايران، وسيطر على شط العرب المختلف عليه مع ايران. وهكذا اندلعت الحرب العراقية-الايرانية التي استمرت ثمانى سنوات، أستخدمت خلالها الاسلحة الكيماوية ضد السكان المدنيين، ووقعت خسائر بشرية تقشر لها الابدان.

ان العنف في الشرق الاوسط، لا يُعبر عنه بالاعمال العدائية بين الدول فحسب. فانظمة الحكم العربية خبيرة ايضا في ممارسة العنف ضد مواطنيها، وتعتمد بشكل دائم على القوة، للمحافظة على بقائها. لذا، فليس من الغريب، ان تكون هذه الانظمة، انظمة دكتاتورية عسكرية، بكل معنى الكلمة.

ففي ليبيا، مثلاً، يسك بمقاليد الحكم، عقيد، يعتمد على فئة قليلة من الضباط المخلصين له، وكذلك الوضع في الجزائر، اما العربية السعودية، فلا تكتفي بجيش واحد، بل بجيشين: - لكي يراقب احدهما الآخر، ويحمي العائلة المالكة من مواطنيها. وفي سوريا ايضاً، تسيطر على الحكم مجموعة من الضباط تعتمد على الاقلية العلوية، وتتمتع اية معارضة من جانب السكان، مستخدمة ما لا يقل عن خمسة تنظيمات امنية واستخبارية منفصلة التي تراقب هي الاخرى بعضها البعض . وفي ظل نظام كهذا، لا تعتبر حتى المذابح الجماعية، شئاً باهظاً في سبيل المحافظة على بقاء النظام: في عام ١٩٨٢، طوقت الدبابات والمدافع التابعة للرئيس الاسد مدينة حماة السورية، التي أتهم سكانها بتأييد الاخوان المسلمين"، ودمرت وسط المدينة تدميراً كاملاً وقتلت ما بين ١٠-٢٠ الف مدني. يجب ان لا نخطئ. في فهم مغزى معظم المطالب الديمقراطية في دول مثل

الجزائر والاردن، لان مصدر هذه المطالبات، بشكل عام، الحركات الاسلامية المتطرفة، التي لا تربطها بالديمقراطية اية رابطة. انها لا تسعى لتوزيع القوى السياسية والعسكرية في هذه الدول، على السكان عامة، انما للسيطرة عليها بصورة كاملة.

في ضوء هذه الصورة، يصعب علينا معرفة من يقمع اكثر - الحكام الحاليون لهؤلاء المواطنين ام اولئك الذين يطالبون "بتحريرهم".

ان العنف الداخلي، يمس بالعرب وغير العرب معاً. فالقومية العربية، تعتبر المنطقة الممتدة من المغرب وحتى الخليج العربي، منطقة عربية فقط، رغم انه تعيش في هذه المنطقة، شعوب اخرى، وجماعات عرقية ودينية مختلفة - برابرة، اكرد، اقباط، مسيحيون، دروز، يهود، شركس، واشوريون- يشكلون شريحة لا بأس بها من مجموع سكان المنطقة.

ان وجود هذه الاقليات غير العربية وغير الاسلامية، يمكن تحمله، بشكل عام، لكنهم لن يحصلوا ابداً على المساواة مع العرب المسلمين، وسيظلون دائماً يعتبرون ابناء طبقة ادنى، ومن لم يرضى بهذه المكانة المتدنية يتم قعه بالقوة، وبوحشية احياناً.

في عام ١٩٣٣، قتل العراقيون اعداداً كبيرة من الطائفة الاشورية القديمة، ونهبوا ممتلكات آخرين، مما دفع الآف الاشوريين للفرار من العراق. وفي عام ١٩٤٥، اعلن الاكرد في شمال العراق عن اقامة جمهورية مستقلة، لكن الجيش العراقي قضى عليها فوراً. وحاول الاكرد الاعلان عن استقلالهم مرة ثانية، عام ١٩٦١، وقمعوا مرة اخرى بوحشية، حيث قتل عشرات الالاف، وبقي حوالي ٢٠٠ الف كردي دون مأوى. وفي السبعينات، طرد صدام حسين ٢٠٠ الف كردي الى ايران، وقام بتوطين مئات الالاف من الاكرد رغماً عنهم، في مناطق قاحلة خارج وطنهم، على غرار ما فعل بطله نبوخذ نصر.

لقد تقرّر في مؤتمر فرساي، منح حكم ذاتي للاكرد، لكن البريطانيين الفوا القرار، وضمو منطقة كردستان للعراق، بهدف السيطرة على النفط في منطقة الموصل الكردية، وادى عدم الاهتمام الدولي بتنفيذ قرارات فرساي الخاصة بالاكرد، الى تمكين صدام حسين، من العمل كيفما شاء، ومواصلة جهوده

الرامية الى جعل منطقة كردستان عريية، وقد قمعت آخر محاولة استقلال اعلنها الاكراد، بعد هزيمة العراق في حرب الخليج، على ايدي صدام حسين، بوحشية لا مثيل لها.

ولم يكن مصير الاقليات الاخرى في الدول العربية افضل كثيراً، ففي العشرينات ابيدت في سوريا الاقلية المسيحية التي كانت تعيش هناك، وبعد الحرب العالمية الثانية، طرد عشرات الالاف من الارمن من اراضيها. ويمقتضى الاتفاق الفرنسي - السوري لعام ١٩٣٦، خصص حكم ذاتي للدرز في جبل الدروز في سوريا، حيث يشكلون الاغلبية هناك، لكن كل محاولاتهم لنيل هذا الحكم الذاتي، قمعت بشدة.

وفي عهد الرئيس جمال عبد الناصر، طردت مصر ابناء الطائفة المسيحية - اليونانية، وظلت تشجع اعمال العنف ضد المسيحيين الاقباط، في سنوات الستينات والسبعينات ايضاً، اما مصير المسيحيين السود في جنوب السودان، فقد كان مأساوياً بشكل خاص. فمنذ عام ١٩٥٦ فصاعداً، بادرت الحكومات السودانية بسلسلة عمليات استهدفت تغيير ديانتهم بالقوة، من خلال تجويعهم المتعمد، وتسخيرهم للعبودية. وحسب احصائية حنرة، بلغ عدد القتلى في ذروة المعارك في السودان ٥٠٠ الف قتيل، وهناك من يقول ان العدد تجاوز المليون. وفر مئات الالاف منهم الى الدول المجاورة، رغم جهود العرب لالقاء القبض عليهم داخل حدود السودان.

على اية حال، ان ميول الحكام العرب، لاستخدام العنف، هو السبب الرئيسي لنشوب الحروب المستمرة ضد العرب، وغير العرب خارج حدودهم. وفي ضوء هذه القائمة الطويلة من اعمال العنف، من جانب الحكام العرب، ليس من الغريب ان يحاول الكثيرون الانتقام منهم باغتيالهم.

وفيما يلي قائمة تضم ضحايا العنف في العالم العربي:

١٩٤٩ - الرئيس السوري، حسني الزعيم، حكم عليه بالاعدام وأعدم من قبل محكمة عسكرية بعد انقلاب موالٍ للهاشميين.

١٩٥٨- فيصل، ملك العراق، ورئيس وزرائه نوري السعيد، قتلًا في الانقلاب الذي أنهى الحكم الملكي في العراق.

١٩٦٠- هزاع المجالي، رئيس حكومة الاردن، قتل على ايدي عملاء مصريين عندما حاولوا اغتيال الملك الحسين.

١٩٦٣- الرئيس العراقي، عبد الكريم قاسم، قتل على ايدي جماعة حزب البعث وضباط وطنيين اطاحوا بنظام حكمه.

١٩٦٤- اديب التتشيشكلي، الرئيس السوري، قتل في جبل الدروز، انتقاماً لعمليات القصف التي تعرض لها الجبل في عهده.

١٩٦٧- هوارى بومدين، رئيس الجزائر، نجا من الموت في محاولة انقلاب عسكري.

١٩٧١- وصفي التل، رئيس حكومة الاردن، قتل في القاهرة في شهر تشرين ثان، من قبل رجال منظمة التحرير الفلسطينية.

١٩٧٢- الحسن ملك المغرب، نجا من هجوم جوي على قصره، قام به طيارون متحذرون من سلاح الجو المغربي.

١٩٧٥- فيصل بن سعود، ملك العربية السعودية، قتل بيد ابن شقيقه، الذي ألقى القبض عليه وأعدم.

١٩٧٧- حمدي، رئيس اليمن الشمالي، قتل، على ما يبدو من قبل عناصر موالية للسعودية.

١٩٧٨- جشمي، رئيس اليمن الشمالي، قتل من قبل مبعوث يمني جنوبي حمل معه حقيبة ملفومة.

١٩٨١- انور السادات، رئيس مصر، قتل على ايدي عناصر اسلامية متطرفة، اثناء استعراض عسكري، جرى احتفالاً بالذكرى السنوية لحرب تشرين.

١٩٨٢- بشير جميل، رئيس لبنان، قُتل بانفجار قنبلة وضعت في مبنى مقر قيادة حزب الكتائب اللبناني في بيروت.

١٩٨٤- العقيد القذافي، رئيس ليبيا، هوجم في مقره في طرابلس من قبل رجال "الجبهة الوطنية لاتقاذ ليبيا".

١٩٨٥- جعفر النيميري، رئيس السودان، نجح في الفرار، اثناء محاولة انقلاب أطاحت بنظام حكمه.

١٩٨٧- رشيد كرامي، رئيس حكومة لبنان ، قتل بتفجير طائرة الهليكوبتر التي

كانت ثقله في الجو.

١٩٨٩- رينيه معروض، رئيس لبنان، قتل بتفجير سيارة ملفومة، بعد توليه منصب الرئاسة ببضعة أيام.

١٩٩٢- محمد بو ضياف، رئيس الجزائر. قتل من قبل مسلم متطرف، بعد اربعة اشهر من اعلانه الاحكام العرفية، بهدف منع الاسلاميين المتطرفين، من السيطرة على الدولة.

ومن اجل الاختصار، شطبت من القائمة احداثاً لا تعد ولا تحصى، من اعمال القتل والاغتيال نفذت ضد وزراء، وزعماء معارضة، وصحفيين، ومفكرين، ودبلوماسيين وموظفين، وحتى الاغتيالات التي وقعت في دول اسلامية صغيرة. احد الباحثين اجري دراسة في موضوع الحياة السياسية في الامارات الدكتاتورية التي تشكل دولة اتحادات العربية، في الخليج العربي، نشر نتائج دراسته في عام ١٩٧٧، جاء فيها:

الشيخ زايد، حاكم ابو ظبي، عزل شقيقه الشيخ شخبوط في عام ١٩٦٦، رشيد، حاكم دبي، عزل عمه في عام ١٩٣٢، احمد من ام القوين، اطلق النار على عمه الذي قتل والده؛ صقر، من رأس الخيمة، طرد عمه في عام ١٩٤٨، وفي اطار انقلاب داخلي، عام ١٩٧٢، تولى السلطة الشيخ سلطان مشارجه، بعد ان قتل شقيقه، خليل، على ايدي ابن عمه، الحاكم السابق، صقر بن سلطان. وفي ابو ظبي، الامارة الرئيسية في دولة الاتحاد، قتل ثمانية من ضمن ١٥ اميرا من عائلة ابو فلاح.

صحيح، ان الاغتيالات في العالم العربي، خفت في السنوات العشر الاخيرة، لكن هذا الامر نابع من زيادة فعالية الانظمة الدكتاتورية. ففي سوريا والعراق، على سبيل المثال، نجحت الانظمة الحاكمة في السيطرة على البلاد، وحسنت جداً، من قدرتها على إخماد أية شرارة معارضة داخلية بسرعة فائقة.

ان أحد الجوانب الأكثر ازعاجاً في حوادث سفك الدماء المستمرة في العالم العربي، هو ان هذه الأحداث لا يحكمها أي وازع أخلاقي. ومن هنا يتبع الاستعداد لاستخدام الأسلحة الكيماوية. فهناك ثلاث حالات، على الأقل، من الحالات النادرة ، التي أستخدمت فيها الأسلحة الكيماوية بعد الحرب العالمية

الأولى، وقعت في العالم العربي:

- استخدام عبدالناصر غاز الغردل في اليمن في مطلع الستينات .
- قصف صدام حسين بقنابل كيماوية، الجيش الإيراني خلال الحرب العراقية - الإيرانية.

- قصف صدام حسين بالقنابل الكيماوية مدنيين أكراداً في بلاده، وقُتل ما لا يقل عن ألفي مدني كردي.

وفي الحرب العراقية - الإيرانية هاجم الطرفان باستمرار سفناً تابعة لدول محايدة في الخليج العربي، وأثناء حرب الخليج، لوث صدام حسين مياه الخليج بالنفط الخام، ووضِع عن قصد، قوات عسكرية في مواقع أثرية. وهكذا أثبت صدام، انه حتى الموارد الطبيعية والثروات الأثرية التاريخية، لن تسلم من جرائم الحرب.

وبشكل عام، امتنع الحكام العرب عن استخدام العنف بهذه البشاعة ضد الدول الغربية. فقد ادركوا أن الغرب قوي، وان مهاجمة مصالحه، بصورة مباشرة، تنطوي على خطر جسيم. لذا استنتجوا، بأن الارهاب سيكون أداة أكثر فعالية وضماناً لتحقيق اهدافهم. لقد وقرّ الارهاب للأنظمة العربية امكانية حرب اهدف غربية، وفي نفس الوقت التنصل من كل مسؤولية.

إن دولاً عربية ذات سيادة، مثل سوريا والعراق وليبيا، وفرت عن طريق سفرائها، اسلحة ومعلومات وأموال، للمنظمات الارهابية التي عملت ضد الدول الغربية، وضد أهداف أخرى، حتى انها استخدمت في بعض الأحيان اجهزتها الاستخبارية، لتنفيذ هجمات ارهابية. وهكذا حولوا الارهاب من ظاهرة محلية، تتميز بها السياسة الشرق اوسطية، الى رياء دولي.

لذا يعتبر الارهاب الدولي، سلطة تصدير شرق أوسطية، والاساليب التي يتبعها في أنحاء العالم، هي أساليب أنظمة الحكم والمنظمات العربية التي توجهها: اختطاف طائرات، تفجيرات، وضع متفجرات في السفارات، اغتيالات دبلوماسية، واحتجاز رهائن - كل هذه الأعمال كانت من اختراع الارهاب العربي، الذي تبنته منظمات ارهابية عالمية أخرى بعدهم.

لقد انتشر الارهاب العربي في جميع أنحاء العالم ، باستثناء دول الكتلة

السوفياتية، وكانت ضحاياه معروضة للهجوم في أي مكان - لندن، باريس، بانكوك، كراتشي، روما، أثينا - حتى أدت السياسة المتشددة التي انتهجتها الولايات المتحدة تجاه هذا الموضوع، إلى تقليص هذا اللويا.

في الواقع، ليست كل دولة عربية هي، العراق أو سوريا أو ليبيا. هناك أنظمة حكم عربية يمكن وصفها، "مفترة"، وهناك أنظمة عربية أخرى، "فريسة" لها. هنالك أنظمة عربية تميل إلى الاعتدال، وترغب في الابتعاد عن دكتاتورية الأنظمة الراديكالية. لكن هذه الحقيقة لا تغير الصورة العامة البشعة، التي يجب التعرف عليها وفهمها، لكي نبلور رأياً متزنأ عن السياسة الشرق أوسطية: العنف، ظاهرة دائمة في الحياة السياسية في كل الدول العربية، وهو الأسلوب الرئيسي لتصفية الخصوم الداخليين، عرباً وغير عرب معاً.

حتى الآن، لم أنطرق لذكر النزاع بين اسرائيل والعرب، وذلك لسبب بسيط، هو ان أياً من النزاعات التي ذكرتها ليس له علاقة بالنزاع العربي - الاسرائيلي. ورغم ذلك، تتركز كل المباحثات الجارية في اطار "المسيرة السلمية" في الشرق الأوسط، على اسرائيل والفلسطينيين فقط. وهذه نتيجة مباشرة لحملة دعائية عربية، تستهدف صرف الانتظار عن الاسباب الحقيقية للعنف والنزاعات المستمرة في منطقتنا، وترسيخ نظرية أن مصدر الاضطراب في المنطقة واحد فقط - هو القضية الفلسطينية.

إن الجهد الرئيسي لاختفاء الطابع الحقيقي للشرق الأوسط، بُذل في أروقة الأمم المتحدة. إذ عندما وصلت إلى نيويورك لأول مرة، بصفتي سفير اسرائيل لدى الأمم المتحدة في عام ١٩٨٤ تبين لي، أن الأمم المتحدة خصصت، سنوياً، دورتين كاملتين، للجمعية العمومية، كل دورة مدتها أسبوع، للتأكيد على مركزية القضية الفلسطينية في النزاعات الشرق أوسطية، سُمّيت الدورة الأولى "القضية الفلسطينية"، حيث تحدثت فيها دول عربية وغير عربية، الراحدة تلو الأخرى، منددة باسرائيل وجرائمها البشعة ضد الفلسطينيين، ودعتها لقبول الحل العادل للقضية الفلسطينية، ذلك الحل الذي اشتمل ، بشكل عام، على تفتيت اسرائيل على مراحل، أو تفكيكها فوراً.

أما الدورة الثانية للجمعية العمومية، المتعلقة بمنطقتنا، فقد سُمّيت، "الوضع

في الشرق الأوسط". والغريب انه تبين لي، أن الكلمات التي أُلقيت في الدورة الثانية، كانت مماثلة لتلك التي أُلقيت في الدورة الأولى، حتى أنها تكررت أحياناً كلمة، كلمة.

في عام ١٩٨٥، تساءلت، عن مدى حاجة الأمم المتحدة لعقد دورتين منفصلتين؛ إذا كانت تُلقى في الدورتين نفس الكلمات، فلماذا لا توفر الوقت ونعقد دورة واحدة فقط. وقلت إذا كانت هناك ضرورة لعقد دورة ثانية، فمن الأفضل أن نناقش فيها الموضوع الذي عُقدت من أجله - أي الوضع في الشرق الأوسط".

ولكي أوضح وجهة نظري بالضبط، ورّعت على مندوبي الدول، قائمة مفصلة اشتملت على أعمال العنف التي وقعت في الشرق الأوسط في تلك السنة - ١٩٨٥.

إذا اخننا بنظر الاعتبار كون عام ١٩٨٥، شهد عدداً قليلاً من أعمال العنف في الشرق الأوسط، تبدو القائمة مقبولة. إنها كتالوج من التفجيرات، والاختطاف، والاعتقالات، والاعدامات، والانتقالات، والنزاعات الحدودية - كل هذا، إضافة إلى الحرب الدامية التي كانت دائرة آنذاك بين العراق وإيران. وكانت أهداف أعمال العنف تلك، الدبلوماسيين، الصحفيين، السفارات، ومكاتب الطيران، وقُتل فيها أناس من كافة القوميات - عراقيون، مغربيون، سودانيون، ليبيريون، امريكيون، فرنسيون، بريطانيون، ايطاليون، سويسريون، هولنديون، روس، يابانيون، وكثيرون غيرهم. وفيما يلي قائمة لشهر واحد فقط.

قائمة أعمال العنف في الشرق الأوسط لشهر نيسان ١٩٨٥

- ١ نيسان - اكتشفت مصر مؤامرة ليبية ضد النظام المصري.
منظمة امل اختطفت طائرة لبنانية.
- ٢ نيسان - قُتل قس هولندي في البقاع اللبناني.
اعلن الجيش الشعبي في الصحراء الغربية، عن قتل (١٢٠) مغريباً.
- ٣ نيسان - قُتل ٥٤ شخصا في معارك وقعت في صيدا في لبنان.
العراق، تقصف طهران.

- ٤ نيسان - مهاجمة طائرة ركاب اردنية في اثينا من قبل عناصر منظمة
كيلول الاسود.
العراق تسقط طائرة ايرانية.
عملاء سوريون يهاجمون السفارة الاردنية في روما.
- ٦ نيسان - انقلاب في السودان.
- ١٢ نيسان - مقتل ٢٠ شخصاً بانفجار قنبلة وضعها رجال الجهاد الاسلامي
في مطعم في مدريد.
- ١٣ نيسان - محاولة اغتيال إمام لبناني.
- ١٦ نيسان - نجاة وزير نفط الامارات العربية من محاولة اغتيال.
العراق تسقط طائرة ايرانية.
- ١٧ نيسان - منظمة "أمل" تحاصر مخيمات لاجئين فلسطينيين في لبنان.
- ١٨ نيسان - تدمير مقر قيادة حركة "المرابطون" في طرابلس/ لبنان.
- ٢٣ نيسان - أسقطت العراق ثلاث طائرات ايرانية.
- ٣٠ نيسان - اكتشاف مؤامرة عراقية لمهاجمة سفارتي سوريا وليبيا.
- من الصعب تجميع مثل هذه القائمة، التي تعتبر نموذجاً متميزاً لواقع
مستمر وثابت، في مكان آخر من العالم، لأنه منذ عشرات السنين والشرق
الوسط، هو المنطقة الأكثر عنفاً، على وجه الكرة الأرضية.
- ان معظم الأحداث التي اشتملت عليها القائمة ليست لها علاقة بإسرائيل،
ولكن ليس من الضروري القول أن أيّاً من مراكز العنف هذه، يستحق مناقشته
في الأمم المتحدة. وفي ضوء هذا الملخص الذي وزعته، احتج مندوبو الدول العربية:
"بأي حق يتدخل المندوب الاسرائيلي بالشؤون الداخلية العربية؟ فكل ما أورده
عبارة عن احداث وخصومات داخل "الاسرة العربية" ولا يحق للأمم المتحدة
مناقشتها في اطار - استعراضها للقضايا الدولية".
- وعلى الرغم من أن الوضع في الأمم المتحدة تحسّن بالنسبة لإسرائيل، بعد
انهيار الاتحاد السوفياتي، واستئناف علاقاتها الدبلوماسية مع دول كثيرة بدءاً
من عام ١٩٨٩ فصاعداً، من الصعب ان نحو الاضرار التي ألحقتها هذه
المؤسسة بمكانة إسرائيل الاخلاقية في العالم.
- في الأمم المتحدة، وفي وسائل الاعلام والدبلوماسية العالمية عامة، عمل العرب

على إخفاء العنف الداخلي فيما بينهم "تحت السجادة".

هنالك ما يدعو إلى العجب، بقدرة العالم على التركيز على النزاع العربي - الاسرائيلي الذي أودى بحياة حوالي ٧٠ ألف نسمة خلال خمسين سنة، وتجاهل نزاعات دامية في الشرق الأوسط، أودت بحياة ملايين الأشخاص؛ الغزو المصري لليمن (٢٥٠ ألف قتيل)؛ الحرب الأهلية في الجزائر (مليون قتيل)؛ الحرب الأهلية في لبنان (١٥٠ ألف قتيل)؛ الغزو الليبي لتشاد (١٠٠ ألف قتيل)؛ الحرب الأهلية في السودان (٥٠٠ ألف قتيل)؛ الحرب العراقية - الإيرانية (أكثر من مليون قتيل)؛ وأخيراً حرب الخليج (١٠٠ ألف قتيل).

وفقاً لكل مقياس، القتل والمعاناة، نجد أن أقل نزاع من هذه النزاعات، يفوق عدد القتلى فيه، ما سببه النزاع العربي - الاسرائيلي في خمسين سنة. وعلى هذا الأساس، يصعب على من لديه عقل يفكر، ان يقبل الادعاءات المشوهة للحقيقة، وهي انه يمكن إنهاء كافة هذه النزاعات في الشرق الأوسط، اذا تم حل القضية الفلسطينية. ولكن، إذا لم تكن القضية الفلسطينية، فما هو سبب العنف المستمر في الشرق الأوسط؟

أين يجب ان نبحث عن جذور الظواهر السياسية، والاجتماعية، والنفسية، القوية التي يبدو وكأنها حكمت بحرب دائمة، على أمة يبلغ تعدادها ١٥٠ مليون نسمة، كانت لها حضارة أثرت في الماضي على البشرية كلها؟ ولكي نجيب على هذا السؤال، يجب الانتباه إلى ثلاثة عناصر مركزية يتميز بها العالم العربي:

• أزمة الشرعية؛ • الرغبة في الوحدة؛ • العداء للغرب.

وكل واحد من هذه العناصر الثلاثة يغذي الآخرين في دائرة سحرية من الغليان والعنف، والعناصر الثلاثة، مرتبطة بتصاعد الاسلام المتطرف. منذ إنهيار الامبراطورية العثمانية، في أواخر الحرب العالمية الأولى، لم يتفق على مسألة: من هي الحكومة العربية الشرعية. ونتيجة لذلك، ظل أي هيكل سياسي أقيم في العالم العربي، يركز على أوجل هشة. فنياب الامبراطورية العثمانية التي استبعدت العرب مئات السنين، ترك العالم العربي عبارة عن مستعمرات بريطانية وفرنسية.

كانت المصالح الاستعمارية ، مادية بالدرجة الأولى . وعندما اتضح لبريطانيا

وفرنسا عدم قدرتها على السيطرة بصورة مباشرة على المناطق العربية الواسعة، حاولنا منح الاستقلال "لدول" عربية، حديثة التكوين، شريطة عدم عرقلة نشاطاتها الاقتصادية، وبخاصة كل ما يتعلق بتزويد النفط. وقامت الدول العظمى بتقسيم المنطقة العربية التي كانت تحت سيطرتها الى دول كثيرة (تضم الجامعة العربية ٢١ دولة)، بحيث كانت كل واحدة من هذه الدول اصغر من ان تصبح دولة قوية بقدراتها الذاتية. وتم تسليم السيطرة المطلقة على هذه "الهيئات" الجديدة لعائلات عربية صديقة، على افتراض ان تقيم هذه العائلات علاقات جيدة مع اصحاب الجميل الاوروبيين. وهكذا نشأت في العالم مجموعة من المملكات من الغرب وحتى العراق.

في الشرق الأوسط، لم يكن، بالطبع، تقليد مماثل للنظرية الغربية الخاص "بالدولة القومية" التي توجد المميزات التي تبرر وجود دول منفردة. فالفرنسيون، مثلاً، يعرفون جيداً، الفوارق التي تميزهم عن الاسبان، والبريطانيين والالمانيين، وهم فخرون بهذه الفوارق.

ان الدولة القومية الاوروبية، على غرار "مدن الدولة" اليونانية والاطالية التي سبقتها استحسنتها الشعوب الاوروبية، لان معظم الاوروبيين يعتبرون أنفسهم ملزمين، بشكل طبيعي، بالولاء والانصياع لحكومة دولتهم، مهما كان نوعها. غير ان كثيرين من العرب يعترفون بأن الوضع مختلف في بلدانهم؛ فهم ملزمون بالدرجة الاولى، بالولاء للعائلة والعشيرة، ومن ثم للقومية العربية بشكل عام. لذا فان نظرتهم لوجود الوحدة السياسية داخل المنطقة العربية، تقسيم ظالم، ليس طبيعياً، ولا مرغوباً، للامة العربية الكبيرة. ويمكن الافتراض، بأن هكذا أيضاً، سيشعر الامريكيون فيما لو فرض عنصر اجنبي، على الولايات المتحدة الامريكية، تفكيكها الى دول مستقلة.

على هذا الأساس، نشأ منذ البداية توتر شديد في الدول العربية بين المواطنين والحكام. فالملك الذي توجهت دولة عظمى أوروبية، يطالب رعاياه بالولاء له، في الوقت الذي كانوا يستطيعون منحه هذا الولاء، في أفضل الحالات، في ظل مشاعر متضاربة.

وهكذا ، أصبح الملك ، على اية حال ، ليس زعيماً قومياً يعتبر عن الارادة

العامة لشعبه، إنما سليل عائلة قوية إقطاعية. وأصبحت النظرة العامة اليه، كمن هو معنيّ فقط باستغلال أجهزة الدولة، لتأمين حياة مرفهة له وللمقرّيين منه، وأحياناً بمساعدات سخية من الأجانب، المعنيين ببقاء نظام حكمه. إن هذا التنكّر، من جانب العرب الملوّكهم ولدولهم وللحدود التي تفصل بينها، هو، على أية حال، نتيجة لازمة عامة ناجمة عن اعدام الشرعية السياسية.

وما أن الجمهور العربي سلّم، ظاهرياً، فقط، بوجود الحكومات المفروضة عليه من الأوروبيين، ولما كثرت المطالبات باستبدال أنظمة الحكم الخائنة، بأنظمة "عادلة" أخرى، تستمد شرعيتها من نسب الأجداد أو من الاسلام النقي، اعتقد الحكام العرب، أنه، بالقوة فقط، يمكن قمع هذه الرغبات والمطالبات باستبدال أنظمة حكمهم. وما أن كل طلب من هذا النوع يكمن في طياته خطر التمرد أو الانقلاب على النظام، نشأ في الدول العربية وضع مزمن من عدم الاستقرار.

ومع مرور الوقت أصبحت لدى الانظمة العربية خبرة في مجال قمع الجماهير والسيطرة عليها، في حين يظهرون تجاه الخارج. إن وضمهم مستقر. غير أن المشكلة الأساسية ظلت قائمة — عدم وجود شرعية سياسية في كل ما يتعلق بأنظمة الحكم والحدود التي تفصل بين مختلف الدول العربية.

لهذا السبب، نجد الزعماء العرب مشغولين باستمرار، ليس بحماية أنفسهم من الانقلابات والاحتلالات، فحسب، إنما بكل أنواع محاولات الاندماج مع دول أخرى (لأن هذه المحاولات تنطوي بشكل عام، على محاولة سيطرة حكومة على أخرى، وسلبها شرعيتها).

هكذا، حاول عبدالناصر، في حينه، دمج مصر وسوريا والعراق في كيان سياسي واحد (الجمهورية العربية المتحدة)؛ كما حاولت العراق الاندماج مع الاردن وابتلاع الكويت؛ كما أن القذافي عرض نفسه على تونس، والسودان وحتى المغرب؛ بينما ابتلعت سوريا لبنان كمرحلة انتقالية في الطريق لتأسيس سوريا الكبرى.

كل تلك المحاولات الاندماجية، أصيبت بفشل ذريع، لأن أي حاكم عربي، لم يكن مستعداً للنزاع عن اقل ما يمكن من السلطة، (باستثناء الضم الفعلي السوري للبنان بالقوة، عام ١٩٩١).

ان هذه المحاولات، تثبت صحة نبوءة لورنس العرب الذي قال: "ستضي
أجيال عديدة حتى تتمكن دولتان عرييتان من الاتحاد معاً ببعض ارادتهما".
ان الشعور بالاحباط لدى العرب، بسبب عدم قدرتهم على الاتحاد وتثبيت
وضعهم السياسي، كان السبب وراء صيحة الاكبار التي سادت الشارع العربي من
المحيط الى الخليج، عندما غزا صدام حسين الكويت. إذ أن احتلال صدام حسين
أحيا الأمل لدى الجماهير العربية، بأن ثمة زعيماً قوياً ينهض ليوقد العالم
العربي كله، تحت حكمه، (لم تكن بالطبع، هذه الصيحة صادرة أيضاً عن الحكام
العرب، الذين خشي كل واحد منهم ان يكون الضحية التالية لصدام حسين).

كانت الحدود الجائرة التي رسمها الاوروبيون على خريطة العالم العربي، في
نظر غالبية العرب، اكثر وأشد ظلماً من كل الاعمال الوحشية التي ارتكبتها
صدام ضد الكويتيين. لقد هتفوا، لبسماارك العربي، الذي حاول ان يمحو، بضرية
واحدة، هذه الحدود، ويألفوا في احترامه وتقديره، لأنه استخدم القوة لاعادة توحيد
العالم العربي من جديد.

برز هذا الشعور بشكل رئيسي، في اوساط الفلسطينيين الذين يعيشون في
الضفة الغربية وغزة والاردن، الذين لم تدرك الدول الغربية مغزى حماسهم لدمار
الكويت. كانت الكويت في نظر الفلسطينيين، تمثل رمز التدخل الاستعماري في
الشؤون العربية، في لبنان وإسرائيل أيضاً.

وبدا في نظرهم ان تدمير الكويت الموالية للغرب، خطوة اولى نحو تدمير
إسرائيل. وتبين من استطلاع للرأي العام أجري في آب ١٩٩٠، بعد وقت قصير
من غزو الكويت، أن ٨٠% من الفلسطينيين يؤيدون صدام حسين. وفي وقت
لاحق، هتفت الجماهير الفلسطينية:
"صدام، نحن معك حتى النصر"

ان الاحلام بشأن استعادة الهيبة العربية المفقودة، والاحتجاج الشعبي على
وجود الحدود الاستعمارية المصطنعة، شكلت الأسس التي قامت عليها القومية
العربية الشاملة. والتي أصبحت حركة قوية في العالم العربي بعد الحرب العالمية
الثانية. كانت هذه القومية تطالب بتصحيح الضرر الذي ألحق بالعالم العربي، من
خلال إلغاء الحدود القائمة بين الدول ، وتوحيد العالم العربي في اطار دولة عظمى

قوية من المحيط الى الخليج". كان المعنى العملي لهذه الايديولوجية، هو ضرورة البدء بازالة كافة المملكات التي تشمل، اكثر من غيرها، إستغلال وإذلال العالم العربي، على أيدي الغرب.

وهكذا، اطيح بالأنظمة الملكية، الواحد تلو الآخر بانقلابات عسكرية أتت الى الحكم بزعماء، مثل جمال عبدالناصر، والقذافي، وصادق حسين، الذي عمل كل واحد منهم، من جانبه، الاطاحة بأنظمة ملكية أخرى.

لم تبق في عهدنا هذا سوى عدة أنظمة ملكية، (في العربية السعودية، الأردن، الامارات العربية في الخليج، والمغرب)، يتهدهدها خطر دائم، لأنها تعتبر بقايا أخيرة من عهد يوشك أن ينتهي.

بما أن حجر الأساس لنظرية الوحدة العربية الشاملة، هو الرغبة في إلغاء كل الحدود، نجد أن لدى كل حكومة عربية تحمل هذه النظرية، قناعة بأن الشرق الأوسط، كله، أو على الأقل جزء كبير منه، عائد لها، ولها فقط، كان هذا هو الدافع وراء الغزو المصري لليمن عام ١٩٦٢، (كان عبدالناصر بحاجة الى موطن). قدم في شبه الجزيرة العربية لتحقيق احلامه التوسعية)، ووراء حروب صدام حسين "لتحرير الأراضي العربية" في ايران والكويت. وهذا دائماً، هو التفسير "لمعاهدة الصداقة" التي وقعت بين سوريا ولبنان، في أيار ١٩٩١، والتي أدت الى سيطرة سوريا على كل الأراضي اللبنانية.

في أيلول ١٩٧٠، حاولت سوريا غزو الأردن والاستيلاء على أراضيها، ونجت الأردن من هذا الخطر وحافظت على استقلالها بعد أن هددت اسرائيل بالتدخل. ان نظرية القومية العربية والوحدة العربية الشاملة، ترفض في الواقع، رفضاً باتاً، التقديسات السياسية في العالم العربي، لكنها فشلت حتى الآن في محاولاتها شطب الحدود التي فرضتها الدول الغربية.

يبدو أن نظرية القومية العربية حققت فعلياً نبوءة لورنس العرب التشاؤمية عندما قال: "لم تنجح أبداً في اختيار حاكم للدولة العربية الموحدة، التي تنادي بها".

بالطبع، لم ينقص الوحدة العربية زعماء ، فهذه الخريطة الليبية الرسمية، على

سبيل المثال، يظهر فيها القناني وهو باسط ذراعيه مطوّقاً العالم العربي كله. وكان القوميون العرب في كل من مصر وسوريا والعراق، يريدون دائماً أن تكون، مصر أو سوريا أو العراق، هي الدولة العربية العظمى المستقبلية. وما يدعو للسخرية، أن الخلافات الداخلية بين الحكومات التي تمثل فكرة الوحدة العربية الشاملة، كانت دائماً العائق الرئيسي، في الطريق لتحقيق هذه الوحدة. وهذا هو السبب الذي جعل الخصام بين الأسد، وصادم حسين، من اشد الخصومات في العالم العربي. فالصراع بينهما يدور حول السؤال: من منهما سيتلغ الآخر لكي يتزعم الامبراطورية الجديدة، التي يؤيد الاثنان إقامتها دون تحفظ.

في العقد الأخير، خبت، إلى حد ما، شعلة الوحدة العربية "الكلاسيكية" التي تبتناها جمال عبدالناصر، لتحل محلها طموحات محدودة أكثر، من قبل زعماء عرب أرادوا السيطرة أولاً على جزء واحد محدود من العالم العربي، مثل، شمال افريقيا، الخليج العربي، أو الهلال الخصيب. لقد ضعف الحماس للوحدة العربية الشاملة، نوعاً ما، لأنه بعد غياب عبدالناصر، لم يظهر عربي له نفس القوة، ولأن المطالبين بالزعامة أصبحوا يحدّثون بعضهم البعض.

غير أن الرغبة في الوحدة العربية الشاملة، ستعود للظهور من جديد، في حالة ظهور زعيم عربي قوي بما فيه الكفاية، يستطيع التلويح بضمّان "الوحدة العربية"، كما أثبتت ذلك ردود الفعل الحماسية للجماهير العربية، في أنحاء الشرق الأوسط، في الأيام الأولى التي تلت احتلال صدام للكويت.

إن جذوة الحنين لتحقيق حلم الوحدة العربية، لا زالت متوهجة. إذ عندما تفشل القومية العربية في تحقيق هذا الهدف، تبرز، فوراً، قوة أخرى لتملأ الفراغ، وكلما ضعفت القومية العربية، كلما تعززت قوة الأصولية الاسلامية. وها هي قوتها تزدد في كل مكان.

أحياناً، تعمل الأصولية الاسلامية، يداً بيد، مع القومية العربية، لكنهما، بشكل عام، تتناقضان مع بعضهما البعض (مثلما هي الحال في مصر وسوريا والجزائر). منذ ثورة الخميني في إيران، أصبحت الأصولية الاسلامية معروفة لدى الغرب، أكثر من القومية العربية. ففي أعقاب احتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران عام ١٩٨٠، تلك القضية التي أدخلتها وسائل الاعلام إلى

كل بيت في الولايات المتحدة الاميركية، لمدة سنة أو يزيد، أصبحت الحركة الاسلامية المتطرفة، في نظر العالم الغربي، قوة مجنونة خطيرة ومقوتة.

وفي الولايات المتحدة، والعالم الغربي عامة، ينظرون بجديّة لتهديدات ايران بالقضاء على اسرائيل، والغرب، في حين ينظرون الى التهديدات الصادرة عن القوميين العرب بعدم اكتراث، ويعتبرونها مراعاة، أو "تلميح سيوف". وهذا الفارق، يوضح أيضاً، استعداد الغرب لاعتبار حركة "حماس" خطراً حقيقياً على اسرائيل وعائناً أمام السلام، في حين أعتبرت منظمة التحرير (حتى قبل اتفاق أوسلو) عنصراً معتدلاً، وقليلون فقط، هم الذين ينظرون بجديّة لتهديدات زعمائها (التهديدات التي سُمعت بعد اتفاق اوسلو أيضاً)، بشأن رغبتهم المستمرة بآبادة اسرائيل في يوم من الأيام.

إن هدف الاسلام الأصولي، هو سيطرة الاسلام على العالم كله، والحاق الهزيمة بالكافرين غير المسلمين في حرب مقدسة "الجهاد". والاهداف الفعلية الفورية لهذا الجهاد، ليست هي الدول غير الاسلامية القوية التي يصعب عليهم مهاجمتها بصورة مباشرة، إنما الدول الاسلامية، بالذات. لذا يطمح الأصوليون الى الاطاحة بكل الحكومات "الكافرة" في (٤٠) دولة اسلامية، وشطب هذه الدول نهائياً ودمجها في دولة اسلامية واحدة. لذا فإن الاعداء الفوريين للحركة الاسلامية، هم الحكام العرب، العلمانيون، بمن فيهم العسكريون الذين يسيطرون على أنظمة الحكم القومية التي تنادي بالوحدة العربية. فليس من الغريب إذاً، أن تبدي هذه الأنظمة عدماً شديداً للمتطرفين الاسلاميين - أعتقل عشرات الآلاف من أعضاء هذه الحركة، عُنّبوا وقُتلوا، في دول عديدة في انحاء العالم العربي. السيد قطب، من كبار المنظرين الاسلاميين، قضى مدة عشر سنوات في السجن المصري، في عهد عبدالناصر، قبل أن يُعدم في عام ١٩٦٦، كتب يقول: " ان الغاية من الجهاد هي حماية دين الله وشرائعه، واتقاذ البلاد الاسلامية فقط، وليس أية بلاد أخرى... ان كل بلاد تحارب الايمان، وتمنع المسلمين من القيام بواجباتهم الدينية، أو لا تطبق دين الاسلام، تصبح "ساحة حرب"، يجب محاربتها، حتى لو كان سكانها من ذرية المسلم المؤمن" أو من أبناء قوميته".

فكرة أخرى مماثلة، أعرب عنها عبدالسلام فرج (الذي أُعدم هو أيضاً)، منظر الجماعة الاسلامية التي اغتال رجالها أنور السادات في عام ١٩٨١ : " هنالك

من يقول ان على الجهاد ان يركّز جهوده، في أيامنا هذه، على تحرير القدس. صحيح أن تحرير الأرض المقدسة، هو أمر ملزم لكل مسلم ... لكن علينا ان نؤكد بأن الحرب ضد العدو القريب منك، مقلّمة على الحرب ضد العدو الأبعد. خاصة وأن الأول ليس فاسداً فقط، إنما هو أداة في خدمة الامبريالية ... في كل الدول الاسلامية، يسيطر العدو على مؤسسات الحكم. ان العدو يتمثل في جماعة الحكام الحاليين، لذا من واجبنا محاربة هؤلاء الحكام."

ان دعوة الأصوليين الاسلاميين لاستعباد العالم كله من قبل الاسلام، تبدو هدفاً بعيداً جداً، ولكن إذا أضفنا إليها تسمكهم بالقيم الدينية، وضمان الجنة للمؤمنين، تنشأ أمامنا مؤامرة عظيمة.

ان مطالبة الاسلاميين المتطرفين، المفاجئة بانتهاج الديمقراطية في العالم العربي، تدل على ان لديهم قناعة بقدرتهم على كسب تأييد الجماهير العربية في الانتخابات. وفعلاً، تبينت صحة موقفهم هذا في أكثر من مرة: في عام ١٩٩٢، أخطر الجيش الجزائري لغرض احكام عسكرية على الدولة، بهدف الغاء نتائج الانتخابات، التي حققت في الحركة الاسلامية انتصاراً واضحاً.

بالنسبة للحركة الاسلامية، شأنها شأن حركة القومية العربية، تعتبر الايديولوجية، هي المفتاح لفهم مجريات الأحداث. فالحرب العراقية - الايرانية، التي كانت في بدايتها حرباً دفاعية، تحولت مع مرور الأيام الى صراع حول تحرير الأماكن المقدسة في العربية السعودية وفي اسرائيل، التي يسيطر عليها "كفار" (رغم ان العربية السعودية تطبق احكام الشريعة الاسلامية، تعتبر الجماعة الوهابية، في نظر كثير من المسلمين، جماعة كافرة، لأنها، حسب رأيهم لا تطبق الاسلام في كثير من الأمور الخرى).

كما أن تأمر القذافي المستمر ضد الدول الافريقية له علاقة أيضاً بالايديولوجية الاسلامية، وكذلك الامر بالنسبة للكراهية الشديدة لأمريكا، التي يعتبرها "الشيطان الأكبر" الذي يحاول اغواء العالم الاسلامي، لتحييده عن الطريق المستقيم، طريق الايمان. وكان هذا هو الدافع أيضاً وراء أعمال عنف كثيرة أخرى نفّذها اسلاميون متطرفون في أنحاء العالم.

ويسبب الخوف من ثورة اسلامية في العربية السعودية، قُتل حوالي ٤٠٠ حاج

ايراني في مكة عام ١٩٨٧، ودُمرت مدينة حماة السورية عام ١٩٨٢. لقد أدى الصراع بين الحركة الاسلامية المتطرفة، والقومية العربية، حول السيطرة على الفرد العربي، وتأثيرهما الشديد على السياسة العربية، الى نتائج مأساوية ليس بالنسبة للعرب والمسلمين فقط. إذ أنه بسبب رفض هاتين الحركتين الاعتراف بحقوق الجماعات الأخرى، فقد رُفض أي طلب يتعلق باستقلال سياسي أو بالحريات الدينية، لمن هم ليسوا عرباً أو مسلمين.

صحيح أن العناصر المسيطرة في العالم العربي غير قادرة على حسم مسألة من الذي يجب ان يحكم المنطقة الموحدة، لكنهم يجمعون على ضرورة ان تكون المنطقة كلها عربية واسلامية، دون تحديد.

لقد أقتطعت هذه النظرية من التفسير المتشدد للقرآن الذي يقسم العالم الى منطقتين: "دار الاسلام، ودار الحرب". كما أن القرآن لا يترك مجالاً للشك، بالنسبة لاستعلاء المسلمين على الكافرين في المناطق الغاشقة لسلطة الاسلام، في حين يكلفهم بإدارة حرب مستمرة ضد الكافرين في الديار الأخرى.

وبما أن العرب يعتبرون أنفسهم اوصياء على الاسلام منذ فجر أيامه الأولى، لا يعززون التنازل عن هذه المكانة. لكننا شاهدنا أن في المنطقة الممتدة من المحيط الاطلنطي حتى الخليج العربي، الذي يدعي العرب انها أرضهم هم فقط، شعوباً وديانات أخرى، غير مستعدة للاعتراف بتفوق العرب المسلمين. وهؤلاء يعدون بالملايين، ويشكلون جزءاً هاماً مما اعتاد العرب على تسميته، بالعالم العربي. غير انه، في نظر القوميين العرب، والاسلاميين المتطرفين، لا تشكل هذه الاقليات أية عقبة. أي، أن أبطال العالم العربي الموحدة، سيفرضون عليهم، رغم أنوفهم، السيادة العربية الاسلامية.

وعلى هذه الخلفية فقط، يمكن أن نفهم رفض العالم العربي لوجود اسرائيل. فطيلة مئات السنين، عانى اليهود من الاذلال والمطاردة، على أيدي العرب، وكانوا يقتلون أحياناً، كما كان يحدث لأقليات أخرى تعيش في اطار المجتمع الاسلامي. ولكن الشعب اليهودي، كان هو الوحيد، من بين كل هذه الاقليات في العالم العربي، الذي نجح في التغلب على هذا القمع، وتحقيق استقلاله. علاوة على ذلك، استطاع اليهود تأسيس حضارة "أجنبية" في قلب المنطقة العربية، وفصلوا بين جزأها الشرقي والغربي. والأسوأ من ذلك كله ، هو أن الشعب الذي أحدث

هذا التحدي الكبير، لم يكن عربياً ولا مسلماً. لذا فعدا العرب العالي لإسرائيل،
تعود جذوره لعدا سابق، قديم جداً وأساسي، وأن قيام دولة إسرائيل، عزز هذا
العدا فقط.

إن نوايا التطرف العربي – القومية العربية، والاسلام الأصولي – هما الجذور
الحقيقية للنزاع في الشرق الأوسط. فكراهية الأجانب، التي يغنيها هذان التياران،
ورغبتهما في التوسع وعداؤهما المتوقع للنظام العالمي الحالي – كل هذه الأمور،
لها دور كبير في إشكاء العنف الذي يسود منطقة الشرق الأوسط، وينطلق منها
إلى أنحاء العالم.

هنالك، عدد كبير من العرب والمسلمين في الشرق الأوسط، لا يحبون، في
الواقع، السير في طريق الآلام التي ترسمها لهم هاتان الحركتان، لكن مؤيدي
التعصب الديني والقومية العربية، يربعون من حولهم، ويمنعون، أحياناً، ظهور
زعامات قد تكون لديها الجراءة على العمل ضدهم، بوضوح وإصرار.
كما أن غياب التقليد الديمقراطي عن الساحة الشرق أوسطية، يخلق ويوقف أي
تطوّر لتوجهات من شأنها كبح جماح التطرف العربي – الاسلامي.

لم يكن مصادفة، فشل الافكار السياسية الغربية في العالم العربي. إذ أن رفض
النظام الديمقراطي وقيمه هو جزء من العدا العام للغرب، الذي تمتد جذوره
عميقاً، لدرجة يمكن ان نعتبره عنصراً رئيسياً ثالثاً للنزاع في الشرق الأوسط.

إن هذا العنصر، هو الأقل إدراكاً له، من كافة القوى المؤثرة للتوتر في العالم
العربي، مع أن لهذا العدا وزناً حاسماً في الجانب الدولي، للنزاعات في الشرق
الأوسط.

ولكي نفهم تأثير العدا للغرب، في المجتمع العربي، على السياسة في الشرق
الأوسط في أيامنا هذه، يجب علينا أن نستوضح أولاً جذوره التاريخية.

هنالك شعوب بأكملها، شأنها شأن الأفراد، تمرّ بتجارب مأساوية في ماضيها،
وتظل هذه التجارب تؤثر على سلوكها وتفكيرها مدة طويلة بعد ذهاب تلك
الأحداث المؤثرة.

فالشعب الأمريكي، مثلاً، لا زال تحت تأثير أحداث الحرب الأهلية، والازمة
الاقتصادية الشديدة في الثلاثينات، وحرب فيتنام، رغم أن غالبية الأمريكيين لم

يعيشوا تلك الفترات الصعبة. والشعب اليهودي، مرّةً، بالطبع، بتجارب أشد بكثير. فهو لا ينسى خراب القدس على أيدي الرومان في عام ٧٠م، الذي وضع حداً لسيادته حتى يومنا هذا، ولا الكارثة التي تعرض لها في هذا القرن، التي أُعيد فيها معظم يهود أوروبا.

هاتان المأساتان، تنقلص الى جانبهما كل الكوارث التي لا تحصى، التي عاشها الشعب اليهودي في الألفي سنة الماضية، وتشكلان العنصرين الرئيسيين وراء سعي اليهود لاستئناف السيادة اليهودية، وبخاصة القدرة العسكرية الدفاعية. وباستثناء حالات نادرة جداً، لا يقتل اليهود بعضهم بعضاً، بسبب خلافات سياسية.

أُسرد هذه النماذج، لأن الكثيرين في العالم الغربي يميلون الى التقليل من أهمية وتأثير التجارب التاريخية الشديدة على سلوك الشعوب عامة. ولكن مآسي تاريخية كهذه، هي التي خلقت موقف العرب تجاه الدول الغربية.

اقتحم العرب الحلقة العالمية في القرن السابع، بعد أن أسس النبي محمد دين الاسلام الجديد. وخلال وقت قصير جداً احتلوا كل الشرق الأوسط وشمال افريقيا، ودخلوا الى اعماق أوروبا، وكان العرب مقتنعين بأن انتصاراتهم تعبّر عن إرادة الله، وتلقو العرب والاسلام على الشعوب الأوروبية وعلى النصرانية.

وكانت انتصاراتهم الأولية، بمثابة المقدمة لتحقيق السيطرة على العالم كله، مثلما وعدهم النبي محمد، تماماً.

في كتابه "إنهيارنا وسببه"، كتب الأمير شكيب ارسلان عام ١٩٤٤ مايلي: " جمع الاسلام ووحد القبائل والشعوب العربية المتفرقة ... ففرضوا سيطرتهم على نصف العالم خلال فترة قصيرة، في حوالي نصف قرن، بفضل الحماس النابع من هذه القوة الديناميكية. ولولا الحروب الداخلية ... لما استطاعت قوة على وجه الأرض منعهم من احتلال العالم كله".

لكن الأمور تطوّرت بصورة أخرى. فبعد أن بلغت الانتصارات ذروتها، بدأت تنقلص. ففي عام ٧٣٢م صد شارل مارتن، العرب في (فواتيا)، على بعد ٢٤٠ كم من باريس، ومنذ ذلك الوقت، استطاع المسيحيون خلال بضع مئات من السنين أن يعيدوا لانسهم المناطق التي فقدوها . لقد احتاج المسيحيون الى ٢٥٠ سنة،

حتى استطاعوا العودة الى صقلية، و ٨٠٠ سنة، لاحتلال اسبانيا من جديد.

ان الانتصارات التي حققتها المسيحية الغربية وقدرتها على الصمود في وجه احلام التوسع العربي - الاسلامي، جعلتها العدو الرئيسي للعرب، طيلة أجيال عديدة. كما تلقى العرب إهانة أخرى في عام ١٠٩٩ عندما سقطت القدس بأيدي الصليبيين، الذين كانوا أقل منهم عدداً، لكنهم أكثر منهم تنظيماً. لكن صلاح الدين، استطاع الحاق الهزيمة بالصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧، تلك الهزيمة التي أنهت الوجود الصليبي في "أرض اسرائيل". لكن هذا النصر لم يصتر طويلاً، إذ سرعان ما أحتلت المنطقة كلها من قبل المماليك، ثم خضعت بعد ذلك لحكم العثمانيين مدة ٤٠٠ سنة. كما أن الأتراك المسلمين، حاولوا إخضاع المسيحية، وسيطروا على اجزاء كبيرة من أوروبا. غير أنه وفي عام ١٦٨٣، تلقى العثمانيون ضربة قوية على أبواب فيينا، وبذلك انتهت محاولات سيطرة الاسلام على أوروبا.

كانت المجابهة الثانية، بين الغرب والعالم العربي، غزو نابليون لمصر، عام ١٧٩٨. في تلك الفترة، كان الغرب مختلفاً. فقد تجاوز عهد النهضة، والثورة الثقافية، ونمت فيه حضارة حديثة وتكنولوجية.

اصاب احتلال نابليون لمصر، بجيش يضم بضعة الاف من الجنود، العالم العربي، بصدمة شديدة فما هو عدوهم التاريخي، الذي كانوا ينظرون اليه دائماً بازدراء، يتفوق عليهم. حتى ان انسحاب نابليون من مصر لم يكن نتيجة لضغوط من الشرق، انما من الغرب بالذات، من أوروبا.

ولم يتأخر الأوروبيون كثيراً في العودة. ففي الثلاثينات من القرن التاسع عشر، كانت فرنسا تحتفظ بقواعد دائمة في الجزائر، بينما تواجد البريطانيون على سواحل شبه الجزيرة العربية، ووضعوا الاسس المطلوبة للانتقاض على قلب العالم العربي. وفي عام ١٨٨٢، احتل البريطانيون مصر. وما لم يحتله البريطانيون والفرنسيون والايطاليون قبل الحرب العالمية الاولى، سقط بأيديهم فور انتهاء الحرب، مع سقوط الامبراطورية العثمانية.

وحتى منتصف القرن العشرين، كان العالم العربي كله تقريباً بأيدي غربية. وكان ذلك الوضع في نظير العرب ، يشكل ذروة الازلال ، والنقيض تماماً لمكائنتهم في

العالم؛ ها هي أوروبا نفسها التي كانت بأيديهم قبل فترة ما، تسيطر الآن، بقوة واستعلاء، على كل العالم العربي، ذرية شارل مارتل، تحكم دمشق والجزائر، بينما يرفع احفاد ريتشارد قلب الاسد، راية الصليب فوق ابراج القاهرة وبغداد.

ان الهزيمة الساحقة التي مني بها العرب، على ايدي اكبر اعداء الاسلام، احدثت ازمة ثقة وهوية، لا زالت تترك بصماتها على افكار العرب الى يومنا هذا، وحتى بعد ان حصلت الدول العربية على استقلالها.

ويدأ يلمس لدى العرب الشعور بالاحباط والخوف الدائم من ظهور عجزهم امام الغرب، مرة اخرى، في مواجهة جديده معه.

والاخطر من هذا، ان الغرب تغفل داخل المجتمع العربي والاسلامي، ولوثة بسلكياته وافكاره - في الفلسفة، في العلوم، في النظرية القانونية، والايديولوجية الاجتماعية الغربية. ويدا ان الغرب حقق انتصارا مطلقاً ونهائياً.

لقد عبّر المفكر المصري محمد تويحي، عن هذا الشعور بالخزي والاهانة لدى المجتمع العربي بقوله:

للحقيقة، اقول، ان كل من يتفحص الوضع الحالي للامة الاسلامية، يجد انها تعاني من مشكلة كبيرة. فقد ارغمتها الظروف المتغيرة على تبني قوانين جديدة، مستمدة، بصورة مباشرة، من كتب القوانين الاجنبية... والتخلي عن شريعتها الدينية الاصيله... ان الامة تعاني وتسلم، وتعيش تناقضات داخلية وانقساماً وواقمها يتناقض تماماً مع افكارها، وسلوكها يتناقض مع ايمانها. فما هذا الوضع المخيف الذي تعيشه الامة.

كما ان هذا اليأس، الذي كان ينبع من تفوق الافكار الغربية، عبر عنه بمرارة، صلاح الدين البيطار، احد مؤسسي حزب البعث، قبل اغتياله عام ١٩٨٠، ببضعة اشهر حين قال: لم يأت العالم العربي في القرنين الماضيين، الى العالم ولو بفكرة اصلية واحدة. وفي المقابل ركزوا كل جهودهم لاستنساخ افكار الآخرين.

ان الاستقلال السياسي، لم يخفف كراهية العرب للغرب. صحيح ان الحرية وقرت لهم ادوات اكثر فعالية لتغيير وضعهم - على شكل حكومات قومية وطنية، وانظمة حكم اسلامية متطرفة وعدت باخراج العالم العربي من حالة النذل

التي يعيشها، لتعيد اليه هيئته وكرامته التي سلبها الغرب منه، لكنهم فشلوا حتى اليوم، في تحقيق ذلك، ولم ينسوا اللحظة اتهم الغرب بفشلهم هذا.

كانت مقاومة الغرب، وزيادة قوة العالم العربي، هما الفكرتين الاساسيتين لاشراكية جمال عبد الناصر. اذ كانت تعلق على شوارع المدن المصرية أبان عهد عبد الناصر المنشورات والاعلانات التي تدعو الشعب الى النهوض مثل: ارفعوا رؤوسكم، ايها الاخوة لقد ذهبت ايام الذل.

وفي عام ١٩٥٤ اعلن عبد الناصر: انا اطمئنكم اننا منذ بداية الثورة ونحن مشغولون بالتحضير للمعركة الكبرى ضد الاستعمار والامبريالية، كي تستعيد مصر احترامها الذي تستحقه.

كما ان القومية العربية التي يتبناها حزب البعث، من مدرسة حافظ الاسد، وصادم حسين، لا تختلف في جوهرها، مثلما يستشف من اقوال مؤسس حزب البعث، ميشيل عفلق: الان، كما كان في الماضي، تخشى اوروبيا الاسلام، لكنها تعرف ان قوة الاسلام... نهضت لتحيا بصورة جديدة، هي القومية العربية، لذا فان اوروبيا توجه كل ما لديها من اسلحة ضد هذه القوة الجديدة.

كذلك، الصيغة الاسلامية _ الاصولية للناصرية التي تبناها القذافي في مبدئه "الطريق الثالثة" تعتمد على اساس العدا للفر.

يقول القذافي: كنا فريسة، ولكن الان... وقفت الفريسة على قدميها، وتطمح الى الوقوف لي وجه المفترس. ان العرب، الذين ظلموا على ايدي المستعمرين، بدأوا يشككون في قوتهم. انه لا يصدقون بأن اسس الحضارة الحالية وضماها العرب والمسلمون... وان العرب او المسلمين هم الذين اوجدوا علوم الفلك، والكيمياء، والحساب، والجبر، والطب... لقد حان الوقت لنعلن للجميع حقيقة الاسلام كقوة قادرة على تحريك البشرية، تجلب لها التقدم وتغير مجرى التاريخ، كما فعلنا في الماضي... ان الحقائق التي نتحدث عنها، كانت قائمة، حتى قبل ان يخلق المجتمع الامريكي.

لم يقتصر عدا العرب للفر على الكلمات فقط، بل عبروا عنه بدعم وتأييدهم المستمر للاتحاد السوفياتي حتى انهياره، في دعايته المعادية للفر، في الامم المتحدة، ودول عدم الانحياز، واعمال الارهاب التي كانت موجهة ضد

اهداف غربية. ظهر هذا العداء جليا في تصريحات الزعماء العرب عندما فرضوا حظر النفط، بعدما بدا لهم، انهم استطاعوا خنق الاقتصاد الغربي.

لقد زادت فرحة العرب لدى مشاهدة اعضاء كونغرس امريكيين يذهبون الى عملهم راكبين على دراجات هوائية، ورجال الاعمال الذين يقفون ساعات عديدة على محطات الوقود في نيويورك، ولندن، وباريس. كان حظر النفط، عام ١٩٧٣، في نظر العرب كأصلاح لظلم تاريخي، وكاجراء عادل مثل نهوض الامة العربية ووقوفها على ارجلها، لترد على الغرب بما يستحقه.

ان علاقات الصداقة التي يقيمها عدد من الحكام العرب مع الولايات المتحدة، تضلل الحكومات الغربية، بأن الجمهور العربي شريك في هذه الصداقة ايضا. غير أن هؤلاء الحكام يشلون، بشكل عام، طبقة دقيقة جداً من المجتمع العربي والاسلامي المتقلب، والبرهان على ذلك هو ان العراق وليبيا مثلاً اعتبرتاً معتدلتين وموالتين للغرب في عهد الملك فيصل، والملك ادريس، غيرتا جليليهما بين عشية وضحاها، بعد الاطاحة بنظامي الملك فيصل والملك ادريس، لتصبحا مركزي عدا، وكراهية للعالم الغربي. وهكذا حدث ايضا في ايران الاسلامية بعد سقوط الشاه. لذا، فان اعتماد الغرب على انظمة حكم عربية صديقة، هو في الواقع اعتماد على افراد وليس على شعوب.

وهؤلاء الافراد، قد يختفون عن الساحة فجأة، ليحل محلهم اشخاص او مؤسسات معادية للغرب.

وعلى خلفية هذه الكراهية العميقة تجاه الغرب فقط، يمكننا ان نفهم، بصورة صحيحة، الرفض الشديد الذي يبديه معظم العرب لوجود اسرائيل. فاسرائيل في نظرهم، دولة اسسها يهود اوروبيون، ومبنية على اساس نموذج الدول الليبرالية الغربية، وتمثل سلاحا للدول الغربية واداة يقصد بها الحاق النك والهران بالامة العربية من جديد.

في الثلاثينات، اعلن اميل غوري، مهندس عمليات قتل المتعاونين العرب في ارض اسرائيل، ان المذبحة التي تعرض لها يهود الخليل كانت تشل هجوما على الاحتلال الغربي، وعلى الانتداب البريطاني، وعلى الصهاينة. وهذه النظرية الاساسية، عبر عنها جمال عبد الناصر في الوثيقة الوطنية لمصر، حيث قال: بلغت

المؤامرات الامبريالية درجات سلب ارض عربية في فلسطين، دون اية حق او قانون، واقامة كيان فاشي عسكري يعيش على التهديدات العسكرية، ويكمن خطره في وجود اسرائيل بالذات كأداة للامبريالية.

وعشية اندلاع حرب ١٩٦٧، كرر عبد الناصر هجومه على الغرب اذ قال في ٢٩ ايار ١٩٦٧: نحن نكف امام اسرائيل والعالم الغربي - الغرب الذي خلق اسرائيل، واحتقرنا، نحن العرب، وتجاهلنا قبل عام ١٩٤٨ وبعدة. انهم لم يأخذوا بعين الاعتبار مشاعرنا، او حقوقنا... واذا كانت الدول العظمى الغربية، ترفض الاعتراف بحقوقنا وتسخر منا وتحترقنا، فانه يجب علينا، نحن العرب، ان نعلمها كيف تحترمنا وتتعامل معنا بجدية.

وينفس المعنى تحدث رئيس اركان الجيش السوري عشية حرب ١٩٦٧، عندما حاول تفسير دوافع الحرب بقوله: اعتقد ان اسرائيل ليست دولة، بل قاعدة عسكرية للمعسكر الامبريالي... ان من يحرر فلسطين، يقود الامة العربية الى الامام، الى الوحدة الشاملة... ويستطيع ان يلقي الى البحر بكل الانظمة الرجعية. وبهذه الروح، قال الرئيس العراقي صدام حسين: ان الامبريالية، تستغل الصهيونية كذراع استراتيجية ضد الوحدة العربية ضد تقدم العرب وتطورهم. وهذه الحقيقة معروفة جيدا.

كان جمال عبد الناصر، الروح الحية التي اسست منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة عام ١٩٦٤، وترك لدى هذه المنظمة نظريته، نظرية الوحدة العربية، المتوهجة ولا زالت هذه التركة قائمة نلمسها حتى هذا اليوم في السموم المعادية للغرب التي تفرزها فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المختلفة، والتي تتبنى كل واحدة منها ايدولوجية خاصة بها، ترفض وجود اسرائيل، التي تمثل قاعدة للغرب الامبريالي.

فعلى سبيل المثال، قال جمال الصوراني، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٨٦: لا نتوقع اي شيء اسمه السلام. ربما يكون وفقا لاطلاق النار، وطالما بقيت الامبريالية قائمة، وبقيت اسرائيل قائمة، لن يكون هنالك سلام.

والان، وفي اعقاب اتفاق اوسلو ، بالطبع ، تحصر مختلف فصائل منظمة

التحرير الفلسطينية على اخفاء عداتها للغرب الذي تتلقى منه دعماً سياسياً ومادياً سخياً. غير انه في حالات اخرى، مثل غزو الكويت، لا بد ان تتفجر هذه المشاعر لتظهر كراهية مفرطة.

في عصرنا، عندما تكون هنالك حقائق تاريخية اساسية غير معروفة، احياناً، للجماهير الواسع، يكون من السهل جداً، على الدعايين العرب، اقناع الرأي العام الغربي، بأنه لولا وجود اسرائيل، لاقام العرب علاقات ودية جداً مع العالم الغربي، ولكن، وللحقيقة، اقول، ان كراهية العرب للغرب نشأت قبل انضمام اسرائيل للقائمة اعداء العرب بألف سنة، اذن فالعرب لا يكرهون الغرب بسبب اسرائيل، بل يكرهون اسرائيل بسبب الغرب.

لقد اعتبر الزعماء العرب المهادون للغرب، دائماً وابتداءً، الصهيونية معبراً وممثلاً للثقافة الغربية، وغرسه غريبة تعمل على تقسيم العالم العربي، وما الصهاينة، سوى صليبيين جدد.

وهناك نفمة سائدة في العالم العربي تقول ان توحيد العرب تحت قيادة صلاح الدين جديد وقذف "دولة الصليبيين" الجنيذة الى البحر، هي مسألة وقت فقط.

وحقيقة ان اسرائيل، ترى بعلاقتها الغربية هذه، يمكن ان نلسمها بوضوح بتكرار اسم صلاح الدين على السنة، صدام حسين، والاسد، وعرفات فقد قال عرفات قبل فترة: ان منظمة التحرير الفلسطينية، لا تطرح سلام الضعفاء، بل سلام صلاح الدين".

ان ما لم يقله عرفات هنا بوضوح، ويعرفه الشعب العربي جيداً، هو ان "سلام صلاح الدين" (اي الاتفاق الذي وقعه مع الصليبيين)، لم يكن سوى خدعة، اذ، بعد الاتفاق، استأنف المسلمون هجماتهم على الصليبيين حتى طردوهم نهائياً من الارض المقدسة.

من المحتمل اذن، ان يكون هذا هو السبب الذي جعل الرئيس حافظ الاسد، يعلق في مكتبه صورة كبيرة لصلاح الدين، بطل الانتصارات، الذي طرد آخر الصليبيين.

ان الرغبة في تكرار انجازات صلاح الدين، في الوقت الحالي، كانت دائماً مصدر وحي للهجمات المتكررة على اسرائيل ، والعمل المستمر ضد أنظمة الحكم

المالية للغرب، والمحاولات العديدة لانهاء الوجود الغربي في الشرق الاوسط، على غرار ما حاولت العراق عمله بالكوييت عام ١٩٩١، ومثلما نجحت سوريا في عمله بלבنا، وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، اضطرت انظمة حكم عربية مثل سوريا، لابرام سلام تكتيكي مع الولايات المتحدة (واجراء مفاوضات سياسية مع اسرائيل) لا يمكنها تغطية نظرة الاحتكار والعداء التي يبديها العرب تجاه العالم الغربي. هذه المشاعر موجودة، وقد تتفجر في حالة ظهور اية مؤشرات ضعف من جانب الغرب، او في حالة ظهور قوى جديدة على الساحة العالمية، تقف ضد العالم الغربي.

الآن، نستطيع ان نفهم السبب الذي حال، سنة بعد سنة، دون تسوية النزاع العربي - الاسرائيلي، فكل حروب العرب ضد اسرائيل والاعمال العدائية التي قاموا بها ضدها في فترات ما بين الحروب، تنبع من ثلاث نظريات ترتبط ببعضها البعض، وتشكل معا النواة الحقيقية للنزاعات المتعددة في الشرق الاوسط:

- رفض القومية لوجود اية سيادة غير عربية في الشرق الاوسط.
- سعي الاسلام الاصولي لتطهير المنطقة من اي نفوذ غير اسلامي.
- عداء العالم العربي الشديد والتاريخي للغرب.

عندما تتفحص كل هذه العناصر مجتمعة، نرى بوضوح ان مصدر رفض وجود اسرائيل، ليس خاصا بالدولة اليهودية: عداء العرب لاسرائيل، هو جزء واحد ضئيل فقط، من عداء اوسع بكثير، كان سيظل موجوداً، حتى لو لم تقم دولة اسرائيل.

كما يتضح ان الادعاءات التي يطلقها العرب لتبرير هجماتهم على اسرائيل ليست سوى ذرائع. فقد هاجم العرب اليهود وقتلهم بوحشية، طيلة ثلاثين سنة او يزيد قبل ان توجد دولة اسرائيل، اي قبل ان يكون هنالك لاجيء عربي واحد، خلقت بسببه "القضية الفلسطينية".

وهذه الاسباب الثلاثة، توضح دوافع الهجمات العربية على اليهود خارج ارض اسرائيل" سواء قبل قيام الدولة، او بعده، رغم انه لم يكن لليهود الذين عاشوا في الدول العربية، اية علاقة بالقضية الفلسطينية، وتوضح ايضا، لماذا خرج

العرب لمحاربة اسرائيل، المرة تلو المرة، قبل ان تقام، ولو مستوطنة واحدة، وقبل ان تطأ قدم جندي اسرائيلي واحد، هضبة الجولان او الضفة الغربية.

خلاصة القول ان حربي ١٩٤٨، و ١٩٦٧، شنتا ضد اسرائيل المقلصة، دون المناطق المختلف عليها، وخلال فترة ما بين الحريين، تعرضت اسرائيل لهجمات الارهابيين والجيش العربي، واودت بحياة المئات من المواطنين الاسرائيليين، كانت نيران القناصة عملاً روتينياً على طول الحدود الاسرائيلية، بما في ذلك اطلاق النار على المزارعين اليهود، الذين كانوا يفلحون حقولهم في اسفل منحدرات الجولان. ان جذور العداء العربي لاسرائيل، لا تكمن في هذا الادعاء، او ذاك الذي يمكن مناقشته، انما يعود لرفض اساسي، لوجود دولة يهودية مستقلة بالذات.

ان من يأمل بأن يختفي هذا العداء الاساسي المتجذر من مراكز هامة في العالم العربي، في الوقت الذي لا زالت تتنافس فيه التيارات القومية العربية، والاصولية الاسلامية، على كسب الفرد العربي، فانه يأمل بتحقيق الكثير، وبسرعة اكثر من اللازم، وهذا، لا يعني ان سلاماً بين العرب واسرائيل، او بين العرب انفسهم، لا يمكن تحقيقه، ان السلام ممكن مع العناصر التي استطاعت التحرر من تهديد هذه القوى. ولكن عندما نتحدث عن مثل هذه العناصر يجب ان نفحص الطابع الخاص الذي سيكون لمثل هذا السلام، والشروط الخاصة التي يجب ان تتوفر لكي نضمن عدم خرق هذا السلام في المستقبل.

هناك في الغرب من يريد ان يرى في انتهاء الحرب الباردة "نهاية التاريخ" - اي نهاية خطر الحروب والانتقالات الكبيرة. وهناك من يعتقد ان السلام بين الدول العظمى سيجلب السلام ايضا الى الشرق الاوسط، وان الموضوع هنا، هو مجرد تسويات حل وسط، وضغوط.

لا شك في ان اختفاء الاتحاد السوفياتي احدث تغييراً في خريطة القوى في الشرق الاوسط، لفترة ما، غير انه باستثناء حقيقة ان انتهاء الحرب الباردة سلبت من العرب وصيهم السوفياتي، لم تكن لهذا الانتهاء علاقة بالثقافة السياسية الاساسية الخاصة بهذه المنطقة اذ ان جهاز سفك الدماء الشرق اوسطي، سيظل

يعمل كآلة تدور بقوتها الذاتية، وتهدد السلام والاستقرار في اماكن كثيرة من العالم.

لذا، فبعد ان يصبح الخوف من التوسع السوفياتي ذكرى بعيدة، ستظل اسرائيل والغرب، وكثيرون من العرب، يخوضون مواجهة مع تطرف ديني اسلامي، ومع أنظمة حكم راديكالية متمسكة برغباتها الاحتلالية والعنف.

من السهل على الانسان الغربي، ان يقلل من قيمة الخطر الذي تشكله هذه الدولة العربية او تلك، اذ ان عدد سكان الدول العربية (باستثناء مصر) قليل جداً، وقدرتها العسكرية ضعيفة، وهي بعيدة عن الغرب، لكن هذا التقدير خاطيء من اساسه.

عندما سمح الغرب لدولة صغيرة، مثل ليبيا (٤ ملايين نسمة) باستخدام الوسائل المتوفرة لدولة متقدمة على الصعيد التكنولوجي، لتحقيق الافكار المشوذة لزعيمها، نجح القذافي في رعاية حملة ارهابية عالمية. وعندما بدأت دولة اكبر مثل العراق (١٧ مليون نسمة) تتسلح بصورة حثيثة، نشأ هنالك خطر لا يمكن مقارنته مع خطر الارهاب الليبي، وفعلاً، كانت عراق صدام حسين، وما زالت، تمثل خطراً يمكن ان يكون قصة لكتب الاثارة: دولة ارهابية يتزعمها شخص يريد الانتقال من استخدام السيارات الملقومة الى القاء القنابل النووية.

اذا نجح صدام حسين في اي وقت، بامتلاك السلاح النووي، ستكون تلك اول مرة في التاريخ، يكون استخدام السلاح النووي منوطاً بقرار رجل واحد، دون ان يكون هنالك تأثير كابح لهيئات سياسية، او عسكرية، او علمية، كما هي الحال في دول اخرى. لذا، فان الخطر على سلام العالم سيصبح اشد بكثير. وهكذا سيكون الوضع ايضا اذا ما حصلت سوريا على السلاح النووي، غير ان الخطر الاشد من هذا كله يكمن في تسليح الجمهورية الاسلامية الايرانية بالسلاح النووي، وهذا الموضوع سأتطرق اليه فيما بعد.

وبدلاً من الاصغاء لتحذيرات اسرائيل بأن العراق تشكل خطراً حقيقياً وقريباً، سقطت حكومات الدول الغربية، في سنوات الثمانينات، في مصيدة الدعاية العربية، واقتنعت بأن مصدر عدم الاستقرار في الشرق الاوسط، هو النزاع العربي - الاسرائيلي، والقضية الفلسطينية، وان كل الصعوبات ستنتهي اذا ما قدمت

اسرائيل التنازلات المطلوبة منها.

لقد كانت النظرية بشأن مركزية الفلسطينيين في نزاعات الشرق الاوسط، قوية، لدرجة انه طيلة عشر سنوات كاملة من ١٩٨٠-١٩٩٠، حكمت العراق من اخفاء عملية تزودها الحثيث بالاسلحة، وشكلت غطاءً مريحاً لتجميع الاسلحة. بينما لاقت احتجاجات اسرائيل اذناً مغلقة تماماً.

وفي عام ١٩٨١، عندما دمر سلاح الجو الاسرائيلي المفاعل النووي العراقي، الذي اوشك، آنذاك، على انتاج القنبلة النووية، تعرضت اسرائيل للتنديد من العالم كله، بما فيه الولايات المتحدة، ولم تعتذر آية دولة عن هذا التنديد، او تتراجع عنه، حتى يومنا هذا، ولا ضرورة للقول ان احداً لم يعرب عن شكره للجيش الاسرائيلي الذي انتقذ دولاً عديدة من تهديد القنابل النووية العراقية.

وبعد حرب الخليج ايضاً، لم يدرك العالم بعد ما ادركه في حينه، لودنس العرب عام ١٩٢٨، ان معظم أنظمة الحكم العربية هي "دكتاتورية متعطشة للدماء" وانه لا اهمية للتصريحات الموجهة للغرب، من جانب الحكومات المعتدلة، لان هذه الحكومات تخضع في نهاية المطاف، لمواقف المتطرفين، وان قوات خارجية، فقط، هي القادرة على ضبط الارهابيين والدكتاتوريين في الشرق الاوسط، وانه اذا ما تسلموا السيطرة على موارد الدولة الحديثة فانهم سيستغلونها المرة تلو الاخرى، لتحقيق أحلامهم في الوحدة العربية، او الوحدة الاسلامية.

كل هذه الامور، نجح العالم العربي في اخفائها من خلال الصيغة التي ظل يكردها باستمرار، وهي ان القضية الفلسطينية (التي نشأت بسبب اسرائيل، بالطبع) تشكل قلب العاصفة الشرق اوسطية.

وفي عام ١٩٩٠، اي بعد حوالي ٢٥ سنة من حرب الايام الستة، كانت هذه الصيغة قد اصبحت حقيقية في نظر العالم كله تقريباً، وعندئذ، هاجم صدام حسين الكويت. ومع الغزو العراقي اضطر الزعماء العرب لاجراء حساب سريع. لم يرتاحوا بالطبع لامكانية ان يكتشف الغرب المغزى الحقيقي للصراع العربي - العربي، ويبدأ يسلط الاضواء على ما يسمونه بالنزاعات الداخلية في الاسرة العربية، ولكن، من جهة اخرى، لم يعد باسكانهم تجاهل الاخطار التي تهددهم من عدوانية الرئيس العراقي.

عندما ادرك صدام حسين انه قد يواجه انتلاقاً يشمل كل الدول العربية ضده، حاول تحسين صورته العربية بأن عرض غزوه للكويت وكأنه جزء من النزاع العربي - الاسرائيلي، ولكي يحدث التحول المطلوب في الرأي العام العربي، اثار فجأة القضية الفلسطينية التي لم تكن لها علاقة بغزو الكويت. وادعى ان الغزو يشكل ضربة للغرب ولعملاته العرب، والخطوة الاولى على الطريق لاقامة دولة عربية، تكون قوية بما فيه الكفاية، لتحرير القدس. ومن اجل تعزيز ادعائه هذا، طلب ان تنسحب اسرائيل من الاراضي الفلسطينية، قبل ان تقدم العراق اي تنازل في الكويت.

لكن الدول العربية التي وقفت ضد العراق، رفضت هذا الادعاء، واعلن ناطقون سوريون ومصريون وسعوديون، ان غزو الكويت ليس له اية علاقة بالقضية الفلسطينية.

وقال الرئيس المصري محمد حسني مبارك: اذا اردنا ان نربط بين القضيتين، فمعنى ذلك اننا لا نريد حل شي.. وقال السفير الكويتي في واشنطن: اننا لا نرى اية علاقة بين هاتين الازمتين... ان من يعتقد بأن صدام حسين قلق على مصالح الشعب الفلسطيني او اللبناني، وهو يغزو الكويت، ويقتل اخوانهم الكويتيين، فانه يرتكب خطأ فادحاً.

لقد ادت الاعترافات العربية هذه الى كشف الحقيقة ولو لفترة ما، والحقت ضرراً بالغاً بالنجاح الكبير الذي حققه العرب حتى الان، المتمثل بوضع القضية الفلسطينية في مركز العواصف في الشرق الاوسط، اذ للمرة الاولى، منذ عشرات السنين، تعرض امام انظار الكثيرين في العالم الغربي والشرقي معا، الوضع العربي المعقد، مثلما لم يسبق ان تعرض من قبل، وهكذا اصبح من الصعب، بعد حرب الخليج، تجاهل قوة وتأثير مشاعر العداة السائدة بين العرب والمسلمين وبين انفسهم.

لكن "البقرة المقدسة" المتمثلة بمركزية القضية الفلسطينية، لم تلفظ انفاهاً بعد. ولا زالت تدخل في صيغ ملتوية في محاولات متكررة لاثبات ان الاحتلال الاسرائيلي هو، رغم كل شي، مصدر كل النزاعات في المنطقة. ومع مرور الوقت، نسي موضوع الكويت، لتعود القضية الفلسطينية الى الحلبة من جديد، وتغطي الصورة الحقيقية للشرق الاوسط.

ولكي ندرك نتائج هذه الضبابية التي تغطي الشرق الاوسط، يلزمنا فقط، ان نستذكر الفترة التي سبقت حرب الخليج.

عندما زرت الولايات المتحدة في ايار ١٩٩٠، تعرضت لهجوم شديد من قبل عدد من اليهود الامريكيين، من الحلفاء المخلصين لاسرائيل، على خلفية قضية نزل "سانت جون" في القدس الشرقية؛ احدى الممارس الدينية اليهودية، استأجرت، بمساعدة من الحكومة، بناية مقابلة للدير مسيحي، وحولتها الى مدرسة داخلية لتلاميذها، واعربت الكنيسة عن معارضتها لهذا الاجراء الامر الذي اثار عاصفة، كانت مصدر سرور لاعداء اسرائيل، ومصدر اسف لاصدقائها.

وتعرضت لعدة اسئلة ضاغطة، من قبل عدد من هؤلاء الاصدقاء، اعضاء نادي رؤساء المنظمات اليهودية الكبيرة في الولايات المتحدة مثل: كيف سمحت حكومة اسرائيل (كانت برئاسة الليكود آنذاك) لمثل هذا الاغتصاب ان يحدث؟ قلت لهم: انتم صادقون. هذه مشكلة كبيرة بالنسبة لنا الان، لكنها ستهدأ في غضون اسبوع، ولكن لدينا مشكلة اكبر بكثير، وهذه لن تنتهي من تلقاء نفسها. سألوني: ما هي؟ قلت لهم: "صدام حسين". ان صدام حسين، هو المشكلة الاولى والرئيسة بالنسبة للشرق الاوسط كله، ولنا. قالوا لي: هراء.. مجرد هراء لا قيمة له. انه مجرد حجة لصرف الانتظار، من جانب الليكود.

حدث هذا قبل غزو الكويت بثلاثة اشهر فقط. في تلك الفترة، كان اصدقاء اسرائيل واعدائها على حد سواء، يؤمنون بأن القضية الفلسطينية هي اسم مرادف للنزاع في الشرق الاوسط، وجعل هذا التشويه، حقيقة مقبولة، يعتبر انجازاً مشيراً لألة الدعاية العربية، ولا شك بأنه ألحق بإسرائيل ضرراً بالغاً.

غير ان تأثير هذا الانجاز العربي وصل الى ابعد من هذا بكثير، حيث بسببه تشوشت رؤية العالم الغربي، الامر الذي حال دون قدرته على فهم نوعية الشرق الاوسط الحقيقية، وخطاره التي تهدد امن العالم بأسره.

الفصل الرابع

قلب حقيقة السبب والمسبب

كانت الحملة المخصصة لقلب السبب والمسبب في النزاع العربي - الاسرائيلي لا تقل نجاحاً عن نجاح الحملة العربية بشأن مركزية القضية الفلسطينية في نزاعات الشرق الاوسط.

في بادئ الامر، قال العرب ان كل امراض المنطقة، مصدرها القضية الفلسطينية، وبعد ذلك، شرحوا جوهر القضية: لم تكن هذه القضية من مضاعفات الهجمات العربية على اسرائيل، انما كانت السبب الاول لهذه الهجمات.

وبعد عدة سنوات من الدعاية العربية المتواصلة، طرأ تحول في الرأي العام الغربي، تجاه الحرب العربية - الاسرائيلية بحيث اتخذ صورة واحدة فقط، هي ان اسرائيل ضد العرب الفلسطينيين: جالوت العربي تحول الى داود الفلسطيني، وداود الاسرائيلي تحول الى جالوت الصهيوني.

غير ان الانقلاب لم ينطبق فقط على نظرية الحجم والقوة الخاصة بطرفي النزاع، انما طال ايضاً ترتيب تسلسل الاحداث: لم يهاجم العرب اسرائيل، انما اسرائيل هي التي هاجمت العرب وبدقة اكثر "الفلسطينيين".

وبدت سلسلة الادعاءات العربية الجديدة على النحو التالي: كل المشاكل في الشرق الاوسط، مصدرها القضية الفلسطينية، وهذه سببها احتلال الاراضي الفلسطينية من قبل اسرائيل. ومن هنا، اذا انتهى الاحتلال الاسرائيلي، ستحل كافة المشاكل التي يعاني منها الشرق الاوسط. لقد برز هذا الادعاء البراق في اعقاب انتصار اسرائيل في حرب الايام الستة، وانتشر بسرعة فائقة، وحتى بداية السبعينات، كان هذا الادعاء قد شق طريقه من الدول العربية الى العواصم الغربية. ففي محادثة مع دبلوماسي بريطاني، من وزارة الخارجية البريطانية، قلت، ان اسرائيل لا تعتزم اعادة المناطق التي احتلتها في حرب الايام الستة، خشية ان تتعرض لهجوم اخر من هذه المناطق. وكان رد الدبلوماسي البريطاني قد ادهشني اذ قال باستهزاء: "أوه، حقاً. اعتقد انك لا تتوقع منا أخذ هذا القول على محمل الجد، لانكم اتمم الذين بدأتم الحرب."

ما هي الحقائق؟ بعد ان فشلت الدولة العربية، فشلاً ذريعاً في محاولتها اباداة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، شرعت في حملة مستمرة من الاعمال الارهابية من خارج الحدود، وطيلة سنوات الخمسينات، ظلت اسرائيل هدفاً للهجوم عليها من كل جانب، وبخاصة من قواعد الفدائيين التي اقيمت في قطاع غزة، التي كانت بأيدي المصريين، وكان الهدف الرئيسي لحملة سيناء (عملية قadesh) عام ١٩٥٦، وضع نهاية للغارات التي شنها الفدائيون في قلب اسرائيل. وادت تلك المعركة، الى تصفية قواعد الارهاب في قطاع غزة، واستولت اسرائيل على شبه جزيرة سيناء، ولكن نتيجة لضغوط من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، انسحبت اسرائيل من سيناء خلال بضعة اشهر، رغم ان عبد الناصر، لم يتخل عن عزمه اباداة اسرائيل.

وبعد فترة توقف قصيرة، استؤنفت، في مطلع الستينات اعمال ضد اسرائيل؛ اطلاق نار وهجمات على الاسرائيليين من هضبة الجولان التي كانت بأيدي السوريين، كانت ظاهرة يومية. وفي عام ١٩٦٦ بدأت منظمة التحرير الفلسطينية التي اسست عام ١٩٦٤، بتنفيذ عمليات ارهابية كثيرة من مناطق الضفة الغربية، التي كانت بحوزة الاردن، وفي تشرين ثان ١٩٦٦، هاجم الجيش الاسرائيلي قرية سموع الاردنية، ودمر قواعد الارهابيين هناك. زاد التوتر. وفي نيسان ١٩٦٧ اسقط سلاح الجو الاسرائيلي ست طائرات سورية، حاولت حماية اعمال تحويل مصادر نهر الاردن التي كان يقوم بها السوريون. وفي تلك الاثناء، كان الجيش المصري قد افاق من هزيمته السابقة. واستمدت سوريا ومصر والاردن التشجيع من الاسلحة الحديثة التي حصلت عليها من الاتحاد السوفياتي (ومن بريطانيا، التي زودت الاردن) واستعدت للهجوم على اسرائيل في شهر ايار ١٩٦٧. كما ان دولا عربية بعيدة حضرت هي الاخرى، جيوشها للمعركة، وكان لدى الكثيرين في العالم العربي، قناعة بأن هذه المرة، ستكون الهجوم الذي ينهي دولة اليهود. ولم يخف الزعماء العرب نواياهم.

في ٢٥ ايار، اعلن عبد الناصر: ان المشكلة التي تواجه الدول العربية هي كيف يمكن اباداة اسرائيل نهائياً. في حين اعلن الرئيس العراقي عبد السلام عارف، في ٣١ ايار: "هدفنا واضح: محو اسرائيل عن الخريطة". وكذلك الرئيس الجزائري، هواري بو مدين ، قال لشعبه في الرابع من حزيران، ان النضال العربي

يجب ان يؤدي الى تصفية اسرائيل.

وفي ٥ حزيران، اليوم الذي بدأت فيه الحرب، دعت اذاعة دمشق مستمعيها: ألقوا بهم الى البحر" وقبل ذلك بستة ايام، في ٣٠ ايار، طار الملك الحسين، ملك الاردن، الى القاهرة للتوقيع على معاهدة دفاع مشترك مع مصر، ويمتضى هذه المعاهدة، اقيمت قيادة عسكرية مشتركة لجيوش مصر والاردن وسوريا، وبذلك ضاق الحبل حول عنق اسرائيل.

في تلك الاثناء صعدت مصر الوضع حتى بلغ حالة الحرب الحقيقية، عندما اغلقت الممر البحري الاسرائيلي الجنوبي في خليج ايلات، وامرت قوات الامم المتحدة التي كانت ترابط في قطاع غزة، باخلاء قواعدها.

دعت اسرائيل الاردن الى عدم خوض معركة ضدها، غير انه في الخامس من حزيران، عندما اندلعت المعارك، قصفت المدفعية الاردنية اسرائيل على طول الحدود، بما فيها القدس، وتل ابيب ومطار اللد. وفي ٧ حزيران، دعا الملك الحسين جنوده بقوله: اقتلوا اليهود حيشما وجدتموهم اقتلوهم، بسلاحكم، بأيديكم، باطافركم، وبأسنانكم.

ان تسرع العرب في خوض حرب مع اسرائيل، نجم عن "خطأ" سوفياتي (ابلق السوفيات العرب ان اسرائيل تحشد قوات كبيرة على حدودها مع سوريا)، وعن مباغلة العرب بقوتهم. اذ انه بعد ان افاق العرب من هزائهم السابقة، وجمعوا ترسانة ضخمة من الاسلحة، اعتقدوا انهم قادرون، هذه المرة، ان ينهوا عملهم بسهولة، نظرا لان نسبة القوى كانت تميل بوضوح لصالحهم: (٥:١ بالمدافع، ٢،٤:١ بالطائرات، و ٢،٣:١ بالدبابات).

كان النصر العربي، باديا في متناول اليد، لانه ما كان على العرب سوى بتر اسرائيل الى جزأين، في اضيق نقطة - في منطقة نتانيا، التي كانت المسافة فيها بين الحدود الاردنية والبحر الابيض المتوسط ١٦ كم فقط.

ففي اطار هجوم منسق مع مصر من الجنوب وسوريا من الشمال، كان اي قائد اردني، حتى من المستوى المتوسط، قادرا على اجتياز هذا القطاع الضيق والوصول الى البحر في غضون فترة زمنية قصيرة.

في حقيقة الامر، كان لدى الجيش الاردني، افضل قادة عسكريين في الجيوش

العربية، ولم يكن بمقدور الملك الحسين مقاومة اغراء الانضمام للحرب. علاوة على ذلك، تم التعهد للاردن بتوفير اسناد استراتيجي كامل من جانب العراق. وكما حدث في عام ١٩٤٨، اجتاز هذه المرة ايضا، ثلث الجيش العراقي الاراضي الاردنية، وفي ٥ حزيران كان يقف قرب الحدود الاسرائيلية.

كما ان عبد الناصر، الذي دفع بـ ١٠٠ الف جندي الى شبه جزيرة سيناء (اخارقا بذلك اتفاقية وقف اطلاق النار عام ١٩٥٦)، كان يعتقد انه من خلال حدود مصر القديمة يستطيع ان يضرب بسهولة السهل الساحلي الاسرائيلي اذ ان تل ابيب تبعد ٦٥ كم فقط عن قطاع غزة في حين تبعد اشكولون (عسقلان) عنها مسافة ٧٠ كم فقط.

ومن منطقة هضبة الجولان، التي كانت مصدراً لازعاج المستوطنات الاسرائيلية في غور الاردن، طيلة ١٩ سنة، كان باستطاعة سوريا الانقضاض من مواقعها المسيطرة، والتغلغل في منطقة الجليل والوصول الى السهل الساحلي الشالي.

كثيرون، هم الذين لا يصدقون اليوم، تقدير القادة العسكريين العرب انه في حالة توفر ظروف مناسبة لبدء هجوم على اسرائيل يستطيعون التغلب عليها. وهذا التكنيب، ليس صحيحا، اذ لم يكن اي واحد من هؤلاء القادة قادرا آنذاك على توقع الضربة الوقائية المفاجئة التي قام بها الجيش الاسرائيلي والتي غيرت وجه الحرب، كما ان العرب استمدوا تشجيعا كبيرا من التطورات السياسية ايضا: توجهات اسرائيل الى الولايات المتحدة والدول الاوروبية والامم المتحدة بشأن مساعدتها في فك الحصار الذي فرضته عليها الدول العربية، استقبلت بصمت.

عندما اغلق عبد الناصر مضائق تيران، قبل اندلاع الحرب بثلاثة اسابيع، طلبت اسرائيل من الولايات المتحدة ان تفي بالتزاماتها التي قطعتها على نفسها لاسرائيل، عام ١٩٥٦، مقابل الانسحاب من سيناء - اي ان يبقى الممر البحري الاسرائيلي في الجنوب، مفتوحا.

في تلك الايام، كانت تتولى السلطة في الولايات المتحدة، اكثر الادارات الامريكية تعاطفا مع اسرائيل. فالرئيس الامريكي ليندون جونسون، ونائب وزير الخارجية يوجين روستاو، والسفير الامريكي لدى الامم المتحدة، ارشور جولدبرغ

كلهم كانوا اشد المؤيدين لاسرائيل.

لكن، حتى هذه الادارة الصديقة، اخذت تماطل مدعية انها لم تعثر على نسخة الالتزام الامريكي تجاه اسرائيل. وبدأ الحبل يشد على عنق اسرائيل، صحيح ان الرأي العام الغربي وقف، دون تحفظ، الى جانب اسرائيل، لكن الحكومات لم تحرك ساكناً لصالحها. وبقيت اسرائيل وحيدة في مواجهة العالم العربي.

وفي اسرائيل، سادت حالة نفسية سيئة، كانت اخر تجربة حربية خاضتها اسرائيل، في حملة سيناء، قبل ١١ سنة. وفي تلك الحرب، لم يهاجم العرب المدن الاسرائيلية، ولكن الآن، بعد ١١ سنة، تقترب الحرب مرة اخرى، وكان التهديد حقيقيا اكثر بكثير.

في الخامس من حزيران، افقت من نومي على صوت انفجار هائل قريبا من بيتنا، صعدت راكضا الى السطح، حيث شاهدت، متدهشا، القنابل الاردنية وهي تتساقط على القدس. سقط بعض القنابل على بيوت سكنية، وادت الى مقتل ٢٠ شخصا واصابة منات آخرين، وكان مبنى الكنيسة الاسرائيلية والمتحف من بين اهداف القصف الاردني.

بالنسبة لي، كان ذلك منظرأ جليداً. كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقد امضيت السنوات الثلاث الاخيرة في مدرسة ثانوية في فيلادلفيا في الولايات المتحدة، حيث كان والدي يعمل هناك باحثاً تاريخياً. وفي اواخر شهر ايار ١٩٦٧، عندما اصبحت نوايا الحرب العربية اكثر وضوحا قدمت موعد امتحاناتي، وتوجهت الى اسرائيل، ولم يحاول والدي منعي. وعندما هبطت الطائرة في مطار اللد، مساء يوم الاول من حزيران، كان المطار مظلماً، وبعد قضاء ليلة مظلمة اخرى في القدس ايضا، خرجت ابحت عن اخي، كان يوني، آنذاك، في الحادية والعشرين من عمره، وكان استقال قبل بضعة اشهر من الخدمة الالزامية كضابط مظليين، لكن تم تجنيده مرة اخرى في الاسبوع الاخير من شهر ايار، في نطاق الاحتياط.

بقيت ابحت عنه حتى عثرت عليه في لسوء رقم ٨٠٠ بالقرب من الطريق

المؤدية من الرملة الى الغضيرة، واثناء الحديث معه سألته: ماذا تتوقع ان يحدث؟

اجابني بكل بساطة: سنتصر. ليس امامنا خيار".

ثم رأيت في المرة الثانية، بعد عشرة ايام، في مستشفى صفد. حيث كانت وحدته قد هبطت من طائرات هليكوبتر في ام لتف، خلف الخطوط المصرية، لتفتح الطريق للدبابات اثناء تقدمها في سيناء. ثم نقلوهم من سيناء الى التلال الواقعة على سفوح هضبة الجولان. ومن هناك واصلوا تقدمهم الى اعلى الهضبة، واثناء الهجوم على مرفق سوري في "جليبنا"، قتل زميل يوني وعندما حاول انقاذه، اصيب هو الآخر بطلقة في يده.

عندما زرت في مستشفى صفد، بعد ٢٤ ساعة على نهاية الحرب، كان يوني المصاب الوحيد الذي لم تقطع له يد او رجل من بين المصابين في قسم الجراحة في المستشفى. (٧٧٧) جنديا اسرائيليا قتلوا في حرب الايام الستة، وفي اقل من اسبوع، حقق الجيش الاسرائيلي نصرا رائعا على اولئك الذين ارادوا ابادة اسرائيل.

فقد الاردن كل الاراضي (الضفة الغربية والقدس)؛ وفقدت سوريا هضبة الجولان، وفقدت مصر شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، واصبحت اسرائيل التي كانت قبل الحرب دولة صغيرة، الان دولة واسعة. وثلث حدودها الشرقية التي كانت تبعد ١٦ كم عن البحر، الى نهر الاردن ٦٥ كم شرقا، وشكلت سيناء حاجزا برياً ضخماً بين اسرائيل ومصر. وزودت اسرائيل بمعظم احتياجاتها من النفط، اما في هضبة الجولان، فقد انقلبت الامور: اصبح الجنود الاسرائيليون، لأول مرة، ينظرون الى الجنود السوريين من الاعلى.

بغض النظر عن الاسباب التي جعلت العرب يتخلون عن الحذر في الاقوال والافعال، عشية حرب الايام الستة، كانت تلك هي المرة الاخيرة التي كشفوا فيها امام العالم كله، هدفهم الحقيقي - القضاء على اسرائيل. لم يتوقعوا الضربة الجوية الوقائية في الساعات الثلاث الاولى للحرب، التي دمرت سلاح الجو المصري تماما، الذي كان يشكل العمود الفقري في قوة العرب الجوية. وفي نفس اليوم، دمر الجيش الاسرائيلي سلاحي الجو الاردني والسوري، بعد ان بدما الهجوم. وهكذا حظيت الدروع الاسرائيلية بحرية حركة مطلقة على الارض ،

والطائرات الاسرائيلية بسيطرة كاملة في الجو - دمج لا مثيل له في حرب الصحراء، ولم تطلق اسرائيل، طلقة واحدة، في جبهتي الاردن وسوريا، الى ان تعرضت للهجوم.

في (٥) حزيران قصف السوريون قاعدة سلاح الجو الاسرائيلي بالقرب من مجيدو، واهدافا اخرى في حيفا وطبريا، وبدأوا بقصف مدفعي من الجولان. وكذلك الحرب على الجبهة الاردنية، بدأت بعد ان شرع الاردنيون بقصف شديد على اهداف داخل اسرائيل.

من هناك، نجد ان نظيري البريطاني الذي ادعى ان اسرائيل هي التي بدأت الهجوم في حرب ١٩٦٧، ربما صدق في كل ما يتعلق بمصر، لكن مصر كانت قد اعلنت في الواقع، الحرب عندما اغلقت مضائق تيران.

لذا، عندما وقفت اسرائيل امام خيارين: اما القضاء على الخطر الذي يهدد حياتها، واما قذفها الى البحر، اختارت الحياة: هبت للقيام بعملية غير متوقعة وحاسمة لاقتاذ نفسها من المصير الذي اعد لها العرب. ان المزاج الذي كان سائدا في اوساط جنود الجيش الاسرائيلي آنذاك، وجد تعبيراً له في قصة كان يتداولها الجنود اثناء فترة الانتظار التي سبقت الحرب، وقد روى لي يوني هذه القصة في رسالة بعثها من موقعه في بيارة قرب الرملة، في ٢٧ أيار ١٩٦٧، جاء فيها:

"جالسون، ننتظر. ما الذي ننتظرون؟ الوضع، كما يلي: انجليزي، امريكاني، واسرائيلي، التي القبض عليهم في افريقيا من قبل قبيلة من اكلة لحوم البشر. عندما وضعوهم في القدره، سمحوا لكل واحد منهم بأمنية اخيرة. طلب الانجليزي كأس ويسكي وجليون واعطي ما طلب، ثم طلب الامريكي لحمه ستيك، واعطي ما طلب. اما الاسرائيلي فطلب من زعيم القبيلة ان يرفسه برجله على مؤخرته. في البداية رفض طلبه. ولكن بعد جدال رفسه بقوة على مؤخرته. اخرج الاسرائيلي مسدسا وقتل كل القبيلة. سأل الانجليزي والامريكي: ما دمت تملك مسدسا طيلة الوقت. لماذا لم تقتلهم قبل ذلك؟

اجاب الاسرائيلي: مجانين. ليقرولوا عني في الامم المتحدة انني المعتدي.

غير انه هكذا، تماماً، تصرفت الامم المتحدة ومعها معظم دول العالم. لم يمتد وقت طويل حتى نددت الامم المتحدة باسرائيل لرفضها طبع نفسها في القدر

لأنني أعد لها عبد الناصر والعرب، صحيح ان هذا لم يحدث فوراً. في البداية كانت قرارات مجلس الأمن الدولي موزونة ومتزنة (تحت تهديد الفيتو الأمريكي)، ودعت الى ضبط النفس والتفاوض لتحقيق السلام بين الاطراف. لكن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة لم تكن كذلك. فسرعان ما عبر العرب عن شعورهم بالفشل، بواسطة الهجمات الغاضبة، وايدهم بذلك الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له لاسبابهم الخاصة بهم، وربما ان اسرائيل غزت افريقيا باحتلالها شبه جزيرة سيناء. فقد ندد بها بوصفها ذات نظام استعماري جديد. ولم تعد توصف بأنها اداة بيد الامبريالية، انما كإمبراطورية مستبدة بقوتها الذاتية. وقطع الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل ونددوا، بالمعتدي الجديد، ووصفوا ما قامت به اسرائيل للدفاع عن نفسها بأنه: جريمة بشعة ضد العالم العربي، واستفزاز خطير لشعوب آسيا وافريقيا وبقية العالم.

وحقيقة ان كل ما دار آنذاك، رغم ان اسرائيل دافعت عن نفسها ضد هجوم كان يستهدف وجودها بالذات، كانت بمثابة انتصار لا بأس به للدعاية العربية، لكن العرب، ادركوا انه يجب عدم الاكتفاء بهذه التنديدات من جانب الكتلة السوفياتية والصين والعالم الثالث، اذ بعد ان استعادوا وعيهم، اثر الهزيمة، بدأوا يتفحصون تكتيكهم ضد اسرائيل بصورة جذرية.

فبعد ان فقد العرب اراضي استراتيجية في حريمهم ضد اسرائيل، وفقدوا سلسلة الجبال التي تسيطر على وسط اسرائيل، ادركوا انهم لم يعودوا قادرين على توقيع تحقيق انتصار سهل: أولاً يجب عليهم اعادة اسرائيل الى الحدود الضيقة التي كانت لها قبل ١٩٦٧. لذلك يجب ان تمارس عليها ضغوطاً سياسية شديدة، ومثل هذا الضغط يمكن ان يأتي من جانب الغرب فقط، فاسرائيل هي دولة غربية مرتبطة بمساعدات امريكية، لذا يتوجب على العرب كسب عطف الرأي العام الغربي، من خلال حملة دعائية مستمرة ومحكمة وشاملة. عليهم ان يغيروا المفاهيم الاساسية للنزاع، وتفطية جوهره الحقيقي، وعرضه بصيغة مقبولة، وحتى مقنعة، في نظر الجماهير الغربية.

قبل كل شيء، عليهم التوقف عن الاعلان عن نواياهم صراحة على غرار ما كانوا يفعلون قبل حرب الايام الستة، وتخفيف حدة اقوالهم الى درجة كبيرة، فقد اتضح الان ، ان الحديث عن اللقاء اسرائيل في البحر ليس مفيداً ، اذ لم تعد

الشعوب في معظم دول العالم مستعدة لسماع مثل هذه الاقوال. كما ينبغي لهم صياغة ادعاءات جديدة لتبرير عدائهم، المثير للاستغراب لاسرائيل. ولا يوجد افضل من الدليل على عدوانية اسرائيل، حقيقة كونها خرجت من الحرب الاخيرة اكبر واقرى واوسع اراضي مما كانت عليه قبل الحرب، اي ان كل المناطق التي فقدتها العرب في حرب الايام الستة، والتي كانت منطلقا لاعتدائهم على اسرائيل، حتى عام ١٩٦٧، أصبحت الان تقدم على انها نماذج لتثنية التوسع الاسرائيلية. وهكذا عرضت نتائج العدوان العربي، على انها اسباب لهذا العنوان. الآن، بدأ الزعماء العرب يطالبون باستعادة هذه المناطق، ونجحوا في اقناع الكثيرين بعدالة مطلبهم. وأصبحت امامنا نظرية جديدة في العلاقات الدولية: لم يسبق ابدا ان استطاعت دول فقدت اراضي في حرب عدوانية، بتحويل نفسها الى ضحية بهذه السرعة، بالتأكيد، لم تتصرف ألمانيا هكذا بعد الحرب العالمية الثانية، ولا اليابان او ايطاليا حليفاتها لا توجد سابقة ابداً لمثل هذه الظاهرة التي يطالب فيها معتد مهزوم باستعادة ما فقد في الحرب، ناهيك عن كون العرب يطالبون بنفس الاراضي التي كانت منطلقا للعدوان.

اعتمد التأييد الذي حظيت به مطالب العرب باستعادة مناطق الضفة الغربية وغزة، على المبدأ الوارد في ميثاق الأمم المتحدة والذي يقضي بأن الاستيلاء على اراضي بالقوة، عمل غير مشروع، تماما مثلما ان سرقة ممتلكات شخص ما، مخالفة للقانون، لكن هنالك كثيرا من المراهة في هذا المبدأ، حيث ان الدول التي تنادي بهذا المبدأ، سبقت ان احتلت وضمت بحماس مناطق واسعة في العالم من اجل انشاء الامبراطوريات الضخمة وعندما كان الموضوع يخدم مصالحها، لم تتورع هذه الدول عن استخدام القوة في الماضي، كما انها لم تتردد في اللجوء الى القوة، في الحاضر ايضا، للمحافظة على ما بقي لديها من مناطق محتلة كلما دعت الحاجة.

واكثر من هذا: ان استيلاء اسرائيل على اراضي الضفة الغربية وغزة، كان مختلفا، من حيث الهدف، عن كل النماذج التاريخية لاحتلال الاراضي بما فيها الصراعات التي خاضها الامريكيون ضد الهنود الحمر، وضد المكسيك والتي حددت حدود الولايات المتحدة الامريكية.

لم تخرج اسرائيل ابدا لاحتلال اراض ، انما ارغمت على خوض حروب دفاعية

الواحدة تلو الاخرى ضد انظمة حكم ذات ايدىولوجية تدعو الى اباداة اسرائيل. هنالك اهمية حاسمة لتحقيق كون الاراضي التي يطالب العرب باستعادتها - سلسلة جبال الجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة - كانت مناطق حشد عربية تمهيدا للهجوم على اسرائيل في حرب الايام الستة، وقواعد الارهاب خلال السنوات التي سبقت الحرب، حتى ان سوريا استغلت هزيمة الجولان لتهديد مصادر المياه لاسرائيل، بينما دفعت مصر بقوات عسكرية الى سيناء لهدف واضح، هو الهجوم على اسرائيل.

في مثل هذه الظروف فان استخدام القوة لاحتلال هذه الاراضي، يشبه العمل ضد شخص مسلح بمسدس، اطلق عليك طلقتين، ويجب ان تأخذ المسدس من يده قبل ان يطلق عليك النار في المرة الثالثة، فالدول التي كانت هدفا للعدوان، لها مصلحة عادلة في حماية نفسها من خطر هجوم آخر جديد.

لقد تم الاعتراف بهذا المبدأ في اكثر من حالة عرفتها دول كثيرة، حتى عندما كانت تواجه خطرا اقل بكثير مما تواجهه اسرائيل، فالولايات المتحدة، احتفظت بجزيرة اوكتاوا (حوالي ١٣ الف كيلومتر عن شواطئ كاليفورنيا) لمدة ٣٠ سنة بعد الحرب العالمية الثانية، كضمان لعدم قيام اليابان بهجوم جديد، وهكذا، سيطر الاتحاد السوفياتي ايضا على شرق اوروبا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، ورومانيا (بموافقة الولايات المتحدة)، مدعية ان هذه السيطرة تشكل حاجزا على وجه عدوان الماني جديد، وتجدر الاشارة الى ان اليابان والمانيا كانتا مدمرتين: تم تجريدهما من الاسلحة ووضعتا تحت اشراف عسكري من جانب الدول الغربية، وكان احتمال مبادرتهما بشن عدوان عسكري، ضعيفا جدا، ورغم ذلك، لم تكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على استعداد للمخاطرة ابدا، لان الامر كان يتعلق بأمنهما القومي.

هيا، ننحصر وضع اسرائيل: مناطق الضفة الغربية، قلب وطن الشعب اليهودي، تبعد امتارا معدودة عن القدس العاصمة، ويضعة كيلومترات فقط عن ضواحي تل ابيب، في الوقت الذي تواصل فيه الدول المجاورة لاسرائيل التزود بالسلح، وواحدة منها لا تخفي نواياها بانها ستستخدم الاراضي التي ستعاد اليها، لمهاجمة اسرائيل من جديد.

من الغريب ان الاكاذيب التي يروجها العرب حول غريزة التوسع الاسرائيلية، لا زالت مقبولة رغم ما وافقت عليه اسرائيل عام ١٩٧٩، في إطار اتفاق السلام مع مصر، بشأن اعادة ٩١٪ من الاراضي التي احتلتها في حرب دفاعية، ويعد ان استثمرت في تطوير شبه جزيرة سيناء مليارات الدولارات، بما فيها آبار النفط التي زودت اسرائيل بمعظم حاجتها من الطاقة. وهو العمل الذي لم يسبق ان قام به طرف منتصر في التاريخ. أية أمة أخرى، يمكن ان تتنازل عن مصادر نفطها وتصبح مرتبطة باستيراد الوقود، في سبيل تحقيق السلام، فقط؟

هنالك شيء واحد واضح، هو أن احتلال المناطق في عام ١٩٦٧، لا يمكن ان يكون مصدر النزاع بين اسرائيل والعرب الذي بدأ قبل ذلك بكثير، كما أن اللاجئين الفلسطينيين لا يمكنهم ان يكونوا هم أيضاً مصدر لهذا النزاع. رغم ان العرب قبل ١٩٦٧، كانوا يستخدمون مشكلة اللاجئين لتبرير كراهيتهم لاسرائيل، غير أن هذه المشكلة لم تكن موجودة عام ١٩٤٨، وعندما خرج العرب لاهادة اسرائيل بعد الاعلان عن ولادتها بقليل.

في اليوم الذي هاجمت فيه خمسة جيوش عربية دولة اسرائيل، أعلن عزام باشا، سكرتير عام الجامعة العربية آنذاك: "ستكون هذه حرب إبادة. منبهة عظيمة سيتحدث التاريخ عنها كما تحدث عن مذابح المنغوليين والصليبيين". في عدة أماكن. مثل حيفا وطبريا، توسل اليهود لجيرانهم العرب للبقاء في أماكنهم (وتم توثيق هذه المحاولات من قبل موظفين بريطانيين، وصحفيين غربيين كانوا في المنطقة). وفي أماكن أخرى هرب السكان العرب خوفاً من قوات الجيش الاسرائيلي، ولكن لا يجوز أبداً وصف خروج الأغلبية من العرب، من البلاد، بأنه جاء نتيجة لأعمال طرد.

وفي المقابل، أمرت الحكومات العربية السكان الفلسطينيين بمغادرة قراهم ومدنهم، وفتح الطريق أمام الجيوش العربية المتقدمة. ورغم ذلك، يتكرر الادعاء بان نصف مليون لاجيء عربي طردتهم اسرائيل، حتى أن هذا الادعاء أصبح مقبولاً، مع مرور الوقت، لدى الرأي العام العالمي.

غير أنه بعد "حرب الاستقلال"، كانت هنالك لحظات صراحة: في شباط ١٩٤٩، كتبت صحيفة " فلسطين " الاردنية ان السدول العربية شجعت العرب

الفلسطينيين على مفادرة بيوتهم لوقت ما، لكي لا يعمقوا تقدم الجيوش العربية". كما كتبت صحيفة "الهندي" اللبنانية الصادرة في نيويورك، في حزيران ١٩٥١: "تعهد السكرتير العام للجامعة العربية، عزام باشا، للشعوب العربية بأن احتلال فلسطين وتل اببيب، سيكون بسيطاً، كنزعة عسكرية... وقبل عرب فلسطين نصيحة اخوانهم لترك منازلهم وممتلكاتهم والاقامة لوقت ما في الدول الشقيقة المجاورة، لكي لا تحصدهم نيران مدافع الجيوش العربية".

وفي عام ١٩٥٩، أوردت صحيفة "الدفاع" الاردنية اقوالاً أدلى بها لاجي فلسطيني: "قالت لنا الحكومات العربية، أخرجوا كي نستطيع الدخول". وفي عام ١٩٦٣، كتبت صحيفة "أخبار اليوم" القاهرية ما يلي: "جاء الخامس عشر من أيار... في ذلك اليوم توجه مفتي القدس الى عرب فلسطين، داعياً إياهم لمفادرة البلاد لان الجيوش العربية تستعد للدخول وغوض الحرب عوضاً عنهم".

بالطبع، فضل الزعماء العرب ان ينسوا هذا الفصل من التاريخ، واعادوا صياغته من جديد. وبهذه الطريقة ازالوا عن انفسهم أية مسؤولية عن مشكلة اللاجئين، وحقلوا هذا الوزر كله لاسرائيل فقط. وفي هذا الشأن ايضاً كما هو الحال بالنسبة للمناطق التي فقدوها في حرب الايام الستة، عرض العرب نتائج حرب "الاستقلال" - اللاجئين - كسبب للحرب.

ولكن لكي تنجح هذه المكيدة، كان عليهم أن يضمنوا بقاء اللاجئين، لاجئين، مصاكين، مشردين الى الأبد.

إن العالمين بشؤون الشرق الوسط، يمتعضون لدى سماعهم أن منظمة التحرير الفلسطينية وعدة دول عربية أخرى، منعت بصورة منهجية، خروج اللاجئين من المخيمات. إذ كان اللاجئين، بالنسبة لمنظمة التحرير، كنزاً ثميناً لأغراض الدعاية وتجنيب المقاتلين. وعندما تدعو الضرورة لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية تردّد في استخدام القوة، لضمان عدم حل مشكلة اللاجئين.

إن رفض الزعماء العرب الشديد، حل قضية اللاجئين مأساوي بشكل خاص، لانهم كانوا قادرين على عمل ذلك بسهولة، لو أرادوا. فمنذ الحرب العالمية الثانية أصبح ما يزيد على ٥٠ مليون نسمة، لاجئين في أنحاء العالم، وتم حل مشكلتهم جميعاً تقريباً وبنجاح. حتى ان اسرائيل التي كان عدد سكانها عام ١٩٤٨، ٦٥٠

ألف نسمة فقط، وكان إقتصادها يثن تحت عبء امني لا يحتمل، استطاعت استيعاب ٨٠٠ ألف لاجي. يهودي، من نفس الحرب التي خلقت مشكلة اللاجئين العرب، وحقيقة ان ٥٠ مليون عربي كانوا يعيشون في الدول العربية عام ١٩٤٨، لم يستوعبوا، طيلة ٤٠ سنة، ٦٥٠ ألف لاجي. عربي، رغم الشراء الفاحش الذي نعموا به من تجارة النفط، تدل على مدى الوحشية التي استغل بها العرب معاناة اللاجئين، من أجل توفير الذريعة للتنديد بإسرائيل فقط.

قال الدكتور، ألفن ريس، المستشار لشؤون اللاجئين التابع "لمجلس الكنائس العالمي": "إن مشكلة اللاجئين العرب، هي الأسهل من بين كل مشاكل اللاجئين التي نجمت عن الحروب. فهؤلاء اللاجئين لا يختلفون بشيء عن سكان الدول المقيمين فيها، لا من حيث دينهم، ولا لغتهم، ولا عنصرهم، ولا تنظيمهم الاجتماعي". وأفادت العناصر الأجنبية التي حاولت حل مشكلة اللاجئين العرب بعد عام ١٩٤٨، ان استيعاب هؤلاء اللاجئين في الدول العربية يمكن ان يكون سهلاً وطبيعياً جداً. فقد كتبت لجنة تقصي الحقائق الميثقة عن الكونغرس الأمريكي والتي أرسلت لدراسة أوضاع اللاجئين في عام ١٩٥٣، ما يلي:-

"يجب ان تُلقى، بأسرع ما يمكن، صفة اللاجئين كمجموعة خاصة من الناس ترعاهم الأمم المتحدة. يجب ان يكون الهدف، هو تحويل اللاجئين الى مواطنين في الدول العربية".

كما جاء في دراسة اجراها معهد (Chatham House) البريطاني، عام ١٩٤٩، انه اذا تم رصد الموارد المالية على صعيد دولي، سيتمكن معظم اللاجئين العرب من التوطن في العراق وسوريا؛ توجد لدى هاتين الدولتين مساحات واسعة من الأراضي، خالية وجاهزة للتطوير الزراعي، يمكنها حل مشكلة تشغيل اللاجئين". هنالك دراسة أخرى، اجراها "المجلس الاستشاري للتطوير الدولي"، افادت بأن العراق وحدها قادرة على استيعاب كل اللاجئين العرب.

على الرغم من السياسة العربية الهادفة الى منع حل قضية اللاجئين، اتضح ان الواقع الذي ذكره الدكتور ريس، أقوى من نوايا الحكام العرب. إذ ان كثيرين من اللاجئين العرب اندمجوا في الاقتصاد والمجتمع، في الدول التي يقيمون فيها. معظم العرب الفلسطينيين، يسكنون في بيوت خاصة بهم ، وكثيرون منهم

يعيشون كمواطنين ذوي حقوق في المملكة الاردنية. كما أن معظم العرب في الضفة الغربية ليسوا لاجئين مشردين لا بيوت لهم. انهم يملكون الجنسية الاردنية ويقطنون بيوتهم التي كانوا يعيشون فيها قبل قيام دولة اسرائيل. ان عدد اللاجئين الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي حوالي ٥٠٠ ألف. بعضهم يعيش في الضفة الغربية، لكن غالبيتهم تعيش في قطاع غزة، (معظم سكان القطاع ليسوا لاجئين)، جميع المحاولات الاسرائيلية لتفكيك مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وغزة، وإعادة اسكانهم، أُحبطت، المرة تلو الأخرى، من قبل منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي .

ان الوضع الخطير والحقيقي المتمثل في عدم وجود مأوى للفلسطينيين نشأ بعد حرب الخليج بالذات. بعد أن طردت الكويت الفلسطينيون من اراضيها، كرد على تعاونهم مع المحتلين العراقيين، إذ طُرد حوالي ٣٠٠ ألف من أصل فلسطيني من الكويت (أكبر عملية ترحيل إجبارية في تاريخ العرب الفلسطينيين). ووجد جميعهم، تقريباً، مأوى لهم في الاردن، حيث أُستقبلوا هناك كمواطنين بكل معنى الكلمة. وإذا كان هنالك عدد مماثل من العرب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لم يندمجوا حتى اليرم في المجتمع العربي، فان الأمر ناجم، أولاً وقبل كل شيء، عن الضغوط السياسية التي تمارسها الدول العربية والارهاب من جانب منظمة التحرير الفلسطينية. ورغم ذلك، لا يزال العرب يلصقون باسرائيل تهمة استمرار بقاء مشكلة اللاجئين، التي تستخدم سلاحاً سياسياً ضدها.

ومع مرور الوقت، اتضح للدعائيين العرب، ان أمضى الأسلحة، قد تصبح عديمة الجدوى وغير فعالة، اذا لم تشد من جديد. وربما يحتاج الأمر الى إضافة انواع جديدة من الأسلحة. وهكذا حدث للدعائم العربية، مثل: "الأراضي المسلوقة"، واللاجئين المشردين، حيث تبين أنها لا تصمد دائماً أمام الاختبارات العملية في الرأي العام الغربي. لذا أظطر العرب لتبني تبرير ثالث جديد، يعتمد على مبدأ "تقرير المصير" المتعارف عليه في العالم: لقد سُلِب الشعب العربي الفلسطيني حقوقه المشروعة، وإن أحد هذه الحقوق هو حقه في وطن خاص به". وتجدر الاشارة الى ان شعارات "تقرير المصير للفلسطينيين"، و "الحقوق الشرعية

للشعب الفلسطيني"، أصبحت عملة متداولة، بعد هزيمة العرب في عام ١٩٦٧،
نقط.

طيلة مدة حكم المملكة الاردنية للضفة الغربية، الذي استمر ١٩ سنة، لم
يتفوّذ الحكام العرب، أو اجهزة الدعاية العربية بأي كلمة عن "وطن" للعرب
الفلسطينيين في الضفة الغربية ولا عن "حقوقهم المشروعة". وكذلك الحال بالنسبة
للحكم المصري في قطاع غزة: عندما كان الزعماء العرب يتحدثون عن "حقوق
الفلسطينيين"، كانوا يقصدون دائماً اسرائيل، داخل حدود عام ١٩٦٧، أي حيفا
وربما وعكا، وكان الاستنتاج الطبيعي لهذه الاقوال واضحاً: لكي نحقق هذه
الحقوق المشروعة يجب أولاً تدمير اسرائيل.

أما التناقض فهر أن الذين كانوا يلتقبون انفسهم "فلسطينيين" في عهد
الانتداب البريطاني، هم يهود فلسطين، بالذات: آل _ Palestine Post ،
والموسيقى الفلهرمونية الفلسطينية، كانتا يهوديتين. كما ان الجنود الذين خدموا
في اطار اللواء اليهودي في الجيش البريطاني، كانوا يدعون من قبل البريطانيين
"فلسطينيين"، وكان هذا المصطلح خاصاً، آنذاك، باليهود. صحيح أنه كان آنذاك
إلى جانب اليهود الفلسطينيين "عرب فلسطينيين" أيضاً، بيد أنه في تلك الأيام
لم يكن عرب "أرض اسرائيل" يرفعون شعارات قومية خاصة منفردة، وكانوا
يؤكدون دائماً على "إنتماهم للأمة العربية".

إن انتفاء العرب الفلسطينيين للأمة العربية، لم يضعف مع مرور الوقت أبداً.
فها هو ياسر عرفات، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يقول: أن مسألة الحدود
لا تعنيننا. فلسطين ليست سوى نقطة واحدة في المحيط العربي الواسع... أمتنا،
هي الأمة العربية الكبرى، الممتدة من المحيط الاطلنطي، إلى البحر الاحمر وما
وراءه". وكذلك، زهير محسن، عضو اللجنة التنفيذية التابعة لمنظمة التحرير
الفلسطينية، ادلى باقوال مماثلة: "لا يوجد فرق كبير بين أردنيين، أو فلسطينيين،
أو سوريين ولبنانيين. كلنا شعب واحد".

ولكن بعد حرب الأيام الستة بوقت قصير، بدأ العالم العربي يتحدث عن
الشعب الفلسطيني الذي أحتلت اراضيهِ، وكان امة فلسطينية قد خُلقت فجأة من
العدم.

ان تكون أمة جديدة، هي عملية معقدة دائماً. فتطور هوية قومية مستقلة، يأتي دائماً كنتيجة لمسيرة تاريخية طويلة، تبرز في نهايتها، علامات مشتركة، في الكيان الجديد مثل: اللغة، الثقافة، الدين، والتاريخ، تكون خاصة بهذا الكيان، لتمييزه عن بقية الكيانات الأخرى. ولكن، لو افترضنا، جداراً، أن الفلسطينيين حققوا قفزة مدعشة، وبين عشية وضحاها، اكتسبوا الخاصية القومية، التي تحتاج شعوب أخرى مئات السنين لاكتسابها، ولذا فهم يستحقون وطناً قومياً خاصاً بهم. أين يوجد هذا الوطن القومي. ومن هو الشعب الفلسطيني بالذات، الذي سيسكنه؟

من الأهمية بمكان، ان نستمع الى ما يقوله بهذا الشأن، الزعماء العرب، ومن ضمنهم زعماء الفلسطينيين أنفسهم.

هذه منظمة التحرير الفلسطينية الملتزمة، بتحقيق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، ادعت لدى تأسيسها، عام ١٩٦٤، ان طموحاتها تشمل كل "أرض اسرائيل" الشرقية والغربية معاً، أي اسرائيل والمملكة الاردنية الهاشمية. وقد تم التأكيد على هذه الأقوال، أكثر من مرة، وبوضوح، على غرار ما حدث، مثلاً، في المؤتمر الثامن للمجلس الوطني الفلسطيني الذي عُقد في شباط _ آذار ١٩٧١: "مع الاحترام والثناء، على شعار تحرير فلسطين ... لم يكن قصد الثورة الفلسطينية التفرق بين شرق النهر وغربه، كما أنها لا تؤمن بإمكانية فصل نضال الشعب الفلسطيني عن نضال الجماهير في الاردن".

في ضوء محاولات التقارب، أو على الأقل الهدنة السياسية، بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، يتوخى زعماء المنظمة إلحاحاً في تصريحاتهم العلنية، من التطرق الى هذا المطلب القديم. ولكن الحقيقة تظهر من خلال تصريحاتهم في الماضي.

كان من الممكن توقع قيام الاردنيين باتخاذ موقف متشدد تجاه هذه الأقوال، لكنهم لم يفعلوا شيئاً. في عام ١٩٧٠، قال ولي العهد الاردني، الامير الحسن، في كلمة أمام البرلمان الاردني:

"فلسطين هي الاردن، والاردن هو فلسطين، يوجد هنا شعب واحد وارض واحدة،
لها تاريخ واحد وهدف واحد".
وقال الملك الحسين في حديث مع التلفزيون المصري عام ١٩٧٧: "الشعبان،
هما شعب واحد بالفعل. وهذه حقيقة".

وفي مقابلة مع صحيفة عربية تصدر في باريس قال الحسين عام ١٩٨١:
"الحقيقة هي ان الاردن هي فلسطين، وفلسطين هي الاردن". ثم كرر نفس الأقوال
في مقابلة نشرتها صحيفة الأنباء الكويتية عام ١٩٨٤.
"الاردن هي فلسطين... يجب على الاردنيين والفلسطينيين أن يدركوا أن مصيرهم
واحد". ثم قال ان "الاردن نفسها هي فلسطين".
وفي عام ١٩٨٨، قال أبو اياد، من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية: "إننا
نطالب بكونفدرالية مع الاردن، لأننا نفس الشعب".

وفي السنوات الأخيرة، غيّر الملك الحسين ومنظمة التحرير الفلسطينية
لهجتهما الى حد ما، بهذا الشأن، لتجنب النزاع المحترم بينهما، والذي ينبع من
السؤال: من يحكم فلسطين الشرقية (الاردن).
ولكن، سواء قيلت هذه الأقوال همساً، أم على رؤوس الأشهاد، فإن
التصريحات العربية نفسها تؤكد ما نقوله لنا الحقيقة التاريخية والمنطق الجغرافي،
وهو أن المنطقة التي يعلن الفلسطينيون عنها كوطن لهم تشمل حدود "أرض
اسرائيل" الانتدابية، كما حُددت في حينها من قبل عصبة الأمم، وتشمل مناطق
اسرائيل والاردن معاً.

من المضحك القول، أن عرييين يقيم أحدهما على "أرض اسرائيل" الشرقية،
والثاني يقيم على بُعد عشرة كيلو مترات منه، على "أرض اسرائيل الغربية"،
ولهما لغة واحدة وثقافة ودين مشترك، وهناك حالات كثيرة تتعلق بأبناء عائلة
واحدة، أبناء نفس الأب والأم، وأشقاء حقيقيين، بالمفهوم البيولوجي للكلمة. وكان
زعماء منظمة التحرير الفلسطينية والمسؤولون الاردنيون، أول من اعترفوا بهذا
صراحة.

إن من يقبل بنظرية وجود شعب فلسطيني يجب عليه أن يتساءل: كم هو عدد الشعوب الفلسطينية المقصودة؟ هل يوجد "شعب فلسطيني غربي" في الضفة الغربية لنهر الاردن، و "شعب فلسطيني شرقي" الى الشرق من النهر؟ وكما عدد الدول العربية التي يجب ان تقيمها على "أرض اسرائيل" لتلبية مطلب "تقرير المصير" لهذه الشعوب الفلسطينية؟ لاشك ان هناك في فلسطين الانتدابية جماعتين قوميتين فقط : يهود وعرب. وينفس الدرجة من الواضح أنه توجد في نفس المنطقة دولتان فقط - اسرائيل والاردن. في الدولة العربية، الاردن، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين عربي، لا يوجد فيها يهودي واحد، بعد أن طرد كافة اليهود الذين عاشوا فيها، عام ١٩٤٨. وتمتد الاردن على أربعة اخماس المنطقة التي خصصتها، في حينه، عصبة الأمم، وطناً قومياً لليهود. أما الدولة الثانية، اسرائيل فيبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة، سدسهم عرب، ولا تزيد مساحتها على خمس المنطقة التي حُصصت لليهود حسب الانتداب. وفي المنطقة الواقعة بين الدولتين، والتي هي موضوع الخلاف الفوري، أي، الضفة الغربية وشرق القدس، يعيش (١,١٥٠,٠٠٠) عربي و ٢٥٠ ألف يهودي بالإضافة الى ٢٥٠ ألف عربي يعيشون في قطاع غزة. إن مطالبة العرب الفلسطينيين "بتقرير المصير"، مطالبة كاذبة، فسكان الاردن جميعهم عرب فلسطينيون (إذ ان الملك عبدالله، جد الحسين، أراد في البداية أن يسمى الاردن المملكة الفلسطينية الهاشمية). ويشكل الاردنيون من أصل فلسطيني (من غرب النهر) أغلبية مطلقة من السكان الاردنيين. وحقيقة أن قسماً من عرب فلسطين هاجروا عام ١٩٤٨، الى جزء آخر من فلسطين، لا تسمح لأي كان بالقول ان العرب الفلسطينيين ليست لهم دولة خاصة بهم، وسُلبوا حق تقرير المصير.

إن معظم العرب الفلسطينيين، يعيشون الآن في معظم منطقة فلسطين الانتدابية، وقسم كبير منهم يفضل هذه التسوية بما في ذلك استمرار حكم العائلة الهاشمية في الاردن - الأمر الذي تريده اسرائيل بالتأكيد. لا ادعي لتحويل الاردن الى "دولة فلسطينية". فقد كانت هكذا، منذ يوم ولادتها. وما يدعى بالقضية الفلسطينية، يمكن حلّه في إطار الدولتين المستقلتين، اسرائيل والاردن، دون أن تقام بينهما دولة ثالثة مصطنعة وغير مستقرة. فالمطالبة باقامة دولة عربية - فلسطينية في الضفة الغربية، تكون الدولة العربية الثانية والعشرين، ما هي سوى

محاولة لدفع اسرائيل الى حدودها الهشة، خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، وتجريدها من الجزء اليسير الذي تبقى لها مما تعهدت به لها أمم العالم، وعصبة الأمم، بشأن فرض سيادتها على فلسطين كلها.

إذاً، فمصدر النزاع العربي - الاسرائيلي ليس المناطق التي نشأت بعد الهجوم العربي على اسرائيل، عام ١٩٤٨، ولا حتى عدم تقرير المصير للعرب الفلسطينيين. إن جذور النزاع تكمن في رفض العرب الشديد الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود، مهما كانت حدودها، وبما أن ابواق الدعاية العربية كانت موجهة ضد اسرائيل فقط، فقد حظيت هذه الدعاية بتأييد عدد كبير من الدول. غير أن هذه الدول، ستضطر لمعرفة استمداها للتمادي في تأييد الخدع العربية هذه، وبخاصة التفسير المغلوط الذي يقدمه العرب لبدأ "تقرير المصير". لأن المعركة التي يديرها العرب ضد اسرائيل، خلقت ما أنا مستعد لتسميته ألبداً الفلسطيني".

الأقلية التي ترفض ان تكون أقلية، غير ملزمة بالبقاء أقلية. يجب التاكيد هنا، أن العرب لا يطالبون بمنح حقوق مواطنة للسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية. لو كان هذا مطلبهم، لكان باستطاعة اسرائيل - بعد ضم هذه المناطق - ان تجعل جميع سكانها مواطنين فيها، أو أن تعرض عليهم منحهم حقوقاً فردية كاملة وفقاً للقانون الاسرائيلي كرعايا أجنبي (وهكذا يحتفظ سكان الضفة بجنسيتهم الاردنية).

ان منظمة التحرير الفلسطينية، ومعظم الدول العربية ترفض هذه الامكانيات رفضاً باتاً، وترفض بشدة مجرد النظر في امكانية ان يعيش عرب الضفة الغربية في دولة اسرائيلية، ولو كانوا يتمتعون بالمساواة على صعيد حقوق الفرد. انهم غير معنيين بمثل هذه الحقوق. انهم يطالبون بحقوق وطنية على المناطق، أي إقامة دولة عربية أخرى، ونظام حكم عربي آخر، وجيش عربي آخر. إنهم لا يكتفون بوجود دولة فلسطينية شرق الاردن، التي تُسيطر على معظم اراضي ارض اسرائيل" وفيها اغلبية فلسطينية حاسمة. إنهم لا يوافقون على ان تعيش الأقلية الفلسطينية خارج حدود الاردن في منطقة خاضعة لاسرائيل، ويتمتعون بحقوق فردية كاملة، وفقاً لأية تسوية سياسية يتم الاتفاق عليها. انهم يرفضون كل هذه الامكانية باصرار . فالعرب الفلسطينيون الذين يعيشون في الضفة الغربية ، تلك

المنطقة الصغيرة، التي يبلغ طولها حوالي ٩٠ كم وعرضها ٤٥ كم، يجب ان يحصلوا على دولة خاصة بهم.

ما الذي يحدثه أليبدأ الفلسطيني؟ هنا في العالم الشيوعي؟ لقد وصفت في مدخل هذا الكتاب، كيف ان المجتمع الدولي يعود الآن الى أيام مؤتمر فرساي، ويبحث عن مبادئ سياسية، يستطيع بمقتضاها منح الاستقلال والسيادة لجماعات قومية وعرقية.

في حينه، كان الرئيس ويلسون، يطمح الى ان تضمن اتفاقيات فرساي لكل أمة منفردة، دولة خاصة بها (ذلك الطموح الذي لم يتحقق في أي مكان من العالم بصورة كاملة)، غير أنه، هو أو غيره، من أصحاب فكرة تقرير المصير، لم يفكروا بأن كل أقلية قومية سيكون لها الحق في إقامة دولة مستقلة، إضافة الى الوطن الذي يشكل فيه أبناء نفس الشعب أغلبية قومية .

وهكذا، على سبيل المثال، عند الحديث في فرساي عن تقرير المصير لليهود في "أرض اسرائيل" لم يطلب أي كان ان يكون من حق الاقليات اليهودية الكبيرة في انحاء العالم إقامة دولة خاصة بهم على أراضي الدول التي يعيشون فيها، وهكذا الوضع أيضاً، في النماذج التالية:

لا شك، مثلاً، ان اللتوانيين يحق أن تكون لهم دولة قومية منفصلة عن روسيا. ولكن، هل يحق للأقلية الروسية المقيمة في لتوانيا دولة خاصة بهم، في الوقت الذي توجد فيه دولة مستقلة للروس، هي روسيا؟ إن أياً كان، لا يستطيع قول هذا.

وكذلك، يحق للتشيكيين والسلوفاكيين، العيش في دولتين منفردتين، أو في دولة واحدة، حسب رغبتهم، ولكن هل من العدل القول، أن الأقلية الهنغارية في سلوفاكيا يحق لها المطالبة بدولة خاصة بها، بالإضافة الى وجود الدولة الهنغارية المستقلة؟

وهكذا، أمثلة كثيرة، تعيش فيها أقليات على أوطان شعوب أخرى. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية معرضة لثل هذا الكابوس. فمن المحتمل ان تنشأ في غضون عقد أو اثنين من الزمن، في مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة، أغلبية " هسبانية " من المهاجرين القادمين من المكسيك . وليس من

المستبعد ان يظهر من بين هؤلاء الهسبانيين، من يطالب بتطبيق المبدأ الفلسطيني: "لن يطالبوا منحهم حقوقاً متساوية حسب القانون، بل سيقولون: بما أنهم يشكلون اغلبيّة محلية في المنطقة (التي أحتلت في معظمها من المكسيك عام ١٨٤٨)، يحق لهم إقامة دولة خاصة بهم. وتستطيع الافتراض بأن يكون الرد الأمريكي عليهم كما يلي: "لكن توجد لديكم دولة خاصة بكم، اسمها، المكسيك، أما في الولايات المتحدة، فمن حقكم المطالبة بالحصول على حقوق المواطنة كاملة، لكن غير مسموح لكم المطالبة بإقامة مكسيك ثانية". (تماماً، مثلما ان اسرائيل يجب ان تقول للسكان الفلسطينيين، الذين يطالبون بالسيادة على مناطق تقع داخل حدودها.

ربما يبدو مثل هذا الحديث مع مهاجرين هسبانيين في الولايات المتحدة، بعيداً أو خيالياً، ولكن في المستقبل، ربما لا تبدو الأمور هكذا، وبخاصة، إذا شُح "لمبدأ الفلسطيني" بالانتشار.

ومن سخرية القدر، ان تطبيق "المبدأ الفلسطيني" سيلحق الضرر بحقوق الاقليات في العالم كله. فاذا كانت كل أقلية تشكل خطراً فعلياً على سلامة وجود الدولة التي تعيش فيها. فلا بد أن تبحث الأغلبية في هذه الدول عن طرق لقمع وضغط مثل هذه الاقليات، أو ربما لتصفيتها في النهاية مثلما يحدث في البوسنة والهرسك، حيث يمارس هناك الصرب حملة منهجية للتطهير العرقي، ضد أقلية مسلمة، تُشكل أغلبية محلية. وإذا كان يحق لكل أقلية الانفصال عن الدولة التي تعيش فيها، فليس من الغريب ان يتوصل البعض الى استنتاج، أنه من الأفضل لهم طرد هذه الأقلية من داخل الحدود والتخلص من هذه المشكلة نهائياً.

إن من شأن "المبدأ الفلسطيني"، على أية حال، أن يدخل الى عالمنا أسس انقسام وعدم استقرار، في الوقت الذي يسعى فيه الجميع لبلورة أسس للاستقرار. ان هذه، قنبلة سياسية مؤقتة، قد تفجّر النظام الداخلي في الولايات المتحدة الامريكية، وتقوض السلام بين دول متجاورة، تعيش أقلية من اراضي الدولة المجاورة.

غير أن الخطر لا ينبع من "المبدأ الفلسطيني" نفسه فقط، إنما من الاساليب التي اتبعتها منظمة التحرير الفلسطينية لتطبيقه: ارهاب، ابتزاز سياسي، وعنف لا يعرف القيود ولا الحدود ، في جميع انحاء العالم . فمن أجل تحقيق "تقرير

المصير" للفلسطينيين، يمكن قتل بريطانيين في بريطانيا، وفرنسيين، في فرنسا، وإيطاليين في إيطاليا. أما قتل اليهود في كل مكان، فلا توجد عليه قيود أبداً.

قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، كان باستطاعة دول كثيرة تأييد "المبدأ الفلسطيني" دون قلق. فقد جتذبت الحرب الباردة المطالب القومية داخل المناطق الواسعة، التي كانت خاضعة للسيطرة السوفياتية. حتى أنها فرضت قيوداً على حرية المناوئة، للجانبين المتنازعين، في نزاعات قومية أخرى في أنحاء العالم.

صحيح أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أيدتا في حينه أطراف النزاع في أمريكا اللاتينية، وآسيا، وأفريقيا، لكنهما حاولتا دائماً أن لا تفرج الصراعات المحلية عن دائرة سيطرتها. والآن، بعد أن تقلصت المنافسة بين الدول العظمى في العالم، إلى أدنى حد، لم تنشأ حالة عدم استقرار في النزاعات الإقليمية، فحسب، بل زادت حدتها. إذ قد يظهر "عرفاتيسون" جدد في أماكن لا تتوقع ظهورهم فيها اليوم، ليعلنوا مطالبهم "بالحقوق القومية". وليس من المستبعد أبداً أن يتمكنوا من التزود بأسلحة فتاكة من أجل تحقيق مبدأ "تقرير المصير" الذي ينادون به.

وعلى أية حال، هذا هو الخطر الجديد الذي تنطوي عليه إقامة دولة فلسطينية ثانية في الشرق الأوسط. ليس المقصود هنا التهديد الطبيعي الواضح على الوجود الاسرائيلي من الدولة الفلسطينية في مناطق الضفة الغربية وغزة، ولا من الخطر على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط نفسه، فحسب، إنما التأثير الحتمي لتأسيس مثل هذه الدولة، على ازدياد المطالب بالاستقلال، من جانب أقليات قومية في أنحاء العالم كله.

في الوقت الحالي، يعتبر الاصرار العربي على تطبيق "المبدأ الفلسطيني" أحد العناصر الرئيسة، التي تحول دون التوصل إلى حل متفق عليه ومستقر، لمشكلة النزاع بين العرب واسرائيل. يجب أن نوضح أمراً واحداً هو: في أية تسوية يتم التوصل إليها، بغض النظر عن كيفية رسم الحدود الدائمة على الخريطة، يجب أن يعيش العرب إلى جانب اليهود تحت سيادة اسرائيلية — إذ توجد داخل حدود عام ١٩٦٧ أقلية عربية لا بأس بها، داخل اسرائيل.

وكما قال جيبوتنسكي في حينه، أن وجود أقلية لا يشكل بالضرورة، وضعاً

مأساويًا. فكل الأمم توجد لديها اقليات خاصة بها. لكن المأساة الحقيقية هي أن تكون أقلية في كل مكان، مثلما وضع اليهود قبل إقامة الدولة اليهودية. لكن العداء العربي يستخدم منطقاً معكوساً: ففي نظر العرب، الكارثة هي وجود أقلية عربية في أي مكان في الشرق الأوسط. يصعب عليهم مجرد التفكير بوجود عرب يعيشون كأقلية في دولة إسرائيل، مثلما تعيش شعوب أخرى كأقليات بين العرب ... رغم أن "عرب إسرائيل" يتمتعون بحقوق مدنية كاملة ويساواة أمام القانون، اللتين لا تتمتع بهما الأقليات غير العربية، التي تعيش في الدول العربية.

إن البدء الفلسطيني لا يشكل النموذج الذي تستطيع إسرائيل تطبيقه على الأقلية العربية داخلها. فما هي النهاية؟ إذا كانت كل أقلية تستحق دولة خاصة بها، فهل يحق أيضاً لعرب الجليل والنقب أن تكون لهم دولاً خاص بهم؟ وهذا هو بالضبط، هدف منظمة التحرير الفلسطينية: المطالبة بحق تقرير المصير لعرب إسرائيل من خلال الدولة الفلسطينية التي ستقام في الضفة وغزة، أي إحياء مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧. والموافقة على مثل هذه الفكرة، تعني نهاية دولة إسرائيل.

تجدر الإشارة هنا، إلى أن الشعب اليهودي لم يسبق أن رغب في تطبيق هذا المبدأ على نفسه. فحتى الكارثة في أوروبا، كان اليهود يشكلون أقليات كبيرة في دول عديدة (١٠٪ من سكان بولندا، مثلاً)، لكنهم لم يطالبوا أبداً بدولة خاصة بهم، في أماكن كانوا أغلبية فيها. وعندما نالوا استقلالهم في "أرض إسرائيل"، لم يطلب اليهود لنفسهم دولة ثانية، كما يطلب العرب اليوم. أستاذ "المبدأ الفلسطيني" بحماس بالغ في العالم الإسلامي، لأن المسلمين يعتبرونه توسعاً مرغوباً في مجال الحكم الإسلامي.

قال الكاتب الأمريكي، تشارلز كراوتهايمر، إن الانتفاضة ليست مقصورة على حالة عدم النزاع العربي - الإسرائيلي بالذات: إنها أسلوب عالمي من العنف ضد كل حكومة ليست مسلمة من جانب أقلية مسلمة تريد الانفصال عن هذه الدولة: هكذا، بدأت انتفاضات في أفريجان، وطاجاكستان، قبل أن تنالا استقلالهما من الاتحاد السوفياتي؛ وفي كشمير ضد الحكومة الهندية؛ وفي إقليم كوسو ضد يوغسلافيا سابقاً؛ وفي شين جيان ضد الصين. وغيرها.

وهكذا، إذا كان "المبدأ الفلسطيني" هذا يعرض للخطر سلامة دول كثيرة، فكيف حدث أن رأت معظم دول العالم أن المطالبة العربية بأقامة دولة فلسطينية، ثانية في الضفة والقطاع، لها ما يبررها؟

إن السبب الأول لذلك، هو أن العرب أوجدوا هوية فلسطينية جديدة، وخلقوا، بالاكاذيب، شعباً جديداً مختلفاً هو "الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة".

ليس المقصود هنا أقلية تنتمي لشعب كبير حقق استقلاله في إطار ٢١ دولة، بما فيها شرق الاردن، بل شعب جديد تماماً، يطالب بتيل حقوقه القومية.

لو طلب عرب الضفة الغربية إنضمامهم الى الاردن، لتقلص النزاع واقتصرت على مسألة مكان خط الحدود بين اسرائيل والاردن، ولما كان آثار خيال المجتمع الدولي، أسير فكرة "تقرير المصير".

أما السبب الثاني لانتشار "المبدأ الفلسطيني" فهو قوة النفط العربي. لا يمكننا تجاهل دور الجامعة العربية وكارتل النفط العربي اللذين ظهرا في السبعينات كوسيلتين قويتين للترويج لفكرة "تقرير المصير" لعرب الضفة الغربية وغزة.

ليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ، التي يحاول فيها نظام استبدادي تشويه مفهوم تقرير المصير، لتهديد سلامة دولة ديمقراطية صغيرة. وإبراز سابقة، تتمثل في قضية تشيكوسلوفاكيا عشية الحرب العالمية الثانية. وهذه القضية، تستحق الدراسة من جديد، لأن العرب يعمدون تطبيقها ضد اسرائيل، مستخدمين معظم الاجراءات التي اتخذتها ألمانيا ضد تشيكوسلوفاكيا في الثلاثينات.

تقع تشيكوسلوفاكيا، في مكان استراتيجي هام في قلب أوروبا، وكان احتلالها ضروريا لخدمة مخططات هتلر الرامية الى السيطرة على القارة كلها، وتلك البلاد الصغيرة، كانت قادرة على تجنيد جيش مؤلف من (٨٠٠) ألف جندي، يعتبر من اقوى الجيوش الأوروبية تدعمه صناعة عسكرية متطورة جداً. والأمر الآخر الذي عرقل تحقيق اهداف هتلر، هو حقيقة وجود سلسلة جبال عالية تقع على الحدود التشيكوسلوفاكية - الألمانية تجعل من الصعب عليه الوصول الى قلب الدولة وعاصمتها براغ. وكان التشيكيون قد أنشأوا في هذه الجبال تحصينات ومواقع، وعوائق عسكرية ضخمة ، لدرجة ، بدا فيها من الصعب ، اختراق هذه

الخطوط، ويستشف من الافادات الواردة في محاكمة، نيرنبرغ، ان ضباط هتلر عارضوا بشدة فكرة الهجوم على التحصينات التشيكية، غير ان هتلر لم يكن يراجه عائقاً أرضياً فقط، بل عائقاً آخر، هو الدول الغربية العظمى، تمهدت في مؤتمر فرساي، بضمان الحدود التشيكية من أي هجوم.

كانت فرنسا، آنذاك، قادرة على تجنييد (١٠٠) فرقة، أي ما يعادل ضعفا ونصف ضعف الجيش الألماني، وتمهدت خطياً بحماية تشيكوسلوفاكيا من أي عمل عدواني، كما التزمت بريطانيا وروسيا أيضاً، بالمساعدة على حماية هذه الدولة. وعلى هذا الأساس، بدا ان النصر العسكري لهتلر غير ممكن، لذا شرع في حملة سياسية لم يسبق لها مثيل، تهدف الى ارغام التشيكيين على التنازل عن سلسلة الجبال، وبذلك يكونون قد تنازلوا فعلياً عن أي أمل حقيقي للدفاع عن أرضهم وعاصمتهم. ادعى هتلر ان معظم سكان منطقة الجبال الحدودية، هم من الألمان، وان هؤلاء الثلاثة ملايين الماني، يحق لهم ممارسة حق تقرير المصير، بالطبع. أي يجب ان يحصلوا على دولة منفصلة عن بقية الملايين السبعة، الذين يشكلون سكان تشيكوسلوفاكيا، رغم ان تشيكوسلوفاكيا، كانت ديمقراطية نموذجية، وكان الألمان سكان المنطقة الجبلية يتمتعون بازدهار اقتصادي وحقوق مدنية كاملة. ولكي يرسخ ويقوى ادعاءاته، أقام هتلر زعامة سياسية جديدة في الاقليم، كان هدفها، حسبما جاء على لسان زعيمها، كونرو هتللين، هو المطالبة باستمرار، بشكل يبدو فيه أننا لن نرفض أبداً... وأمر هتلر هتللين بأن ينفي بشدة أنه يتلقى الأوامر من ألمانيا.

وليام شايرر، الذي كان آنذاك مراسلاً صحفياً في أوروبا، كتب في كتابه "ظهور وسقوط الرايخ الثالث"، ما يلي:

"وهكذا، أصبحت مشكلة الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا مجرد ذريعة بأيدي هتلر... للتأمر على البلاد التي راقت له وتقويضها، وتضليل أصدقائها، وإخفاء هدفه الحقيقي، وهو تدمير الدولة التشيكوسلوفاكية والاستيلاء على أراضيها وسكانها لصالح الرايخ الثالث. ورغم ما حدث في النمسا، لم يدرك زعماء فرنسا وبريطانيا نوايا هتلر. ويبدو أنه طيلة فصلي الربيع والصيف، ظل رئيساً حكومتني فرنسا وبريطانيا، وكل العالم تقريباً، يؤمنون بأن كل ما يريد هتلر، هو انصاف أبناء شعبه في تشيكوسلوفاكيا."

بالإضافة لذلك، أقام هتلر حركة تحرير سوديتية (الأقليم الجبلي سوديت)، تحت اسم الطابور السوديتي الحر، حيث بادرت هذه الحركة بتنفيذ عدة ثورات عنيفة مخططة جيداً، بحيث أرغم التشيكيون على استخدام القوة ضدها. حتى أن هتلر، استدعى هنلاين سراً إلى برلين، ووجه كيف يدير حملة دعائية من أجل "استقلال" إقليم سوديت. وظل، جيلس، رئيس أجهزة الدعاية النازية، طيلة الوقت، يدير معركة دعائية بشأن الارهاب التشيكي المزعوم ضد الأقلية الألمانية وكان هتلر يدعي بأن رفض التشيكيين إعادة الإقليم إلى أصحابه الشرعيين، الألمان، يشكل عائقاً أمام السلام، إذ كيف يمكن لألمانيا أن تقف متفرجة وهم يقمعون أبناء شعبها.

رفض هتلر مشروعاً لمنح الأقليم حكماً ذاتياً، وأصر على عدم الاكتفاء بأقل من "تقرير المصير". حتى أن النازيين قلبوا الأمور مدعين أن التشيكيين يحاولون خلق أزمة في أوروبا ليحولوا دون تفكك دولتهم، وأن الخيار بين العرب والسلام، هو بأيدي التشيكيين. لكن هتلر أوضح أن هنالك طريقة سهلة لمنع نشوب الحرب، وتحقيق العدالة في نفس الوقت، وهي أن ترفع بريطانيا وفرنسا، تشيكسلافاكيا على عمل ما هو ضروري من أجل السلام، أي التنازل عن المناطق المحتلة. ونجحت مؤامرة هتلر بأكثر مما توقعه. فقد تقبلت حكومات الدول الغربية، ومزجه الرأي العام، نظريته بسرعة غريبة، وفي عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ مارس البريطانيون والفرنسيون ضغوطاً شديدة على تشيكسلافاكيا للاستجابة لمطالب الألمان.

اتهم الرئيس التشيكي، إدوارد بناش، بالتطرف، ونشرت الصحف الغربية شعارات تحدثت عن قصر نظر التشيكيين وتجاهلهم متطلبات السلام في أوروبا، والظلم الذي يمكن في رفضهم إعادة إقليم سوديت لألمانيا.

وتحت انذار الماني كان من المقرر أن ينتهي في ١٩٣٨/٩/٢٨ عقد في ١٨ أيلول، اجتماع للحكومة البريطانية شارك فيه رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها، حيث تقرر أن تستجيب تشيكسلافاكيا الديمقراطية لمطالب هتلر.

رغم أن الغرب، التزم خطياً، في فرساي، بالخروج للحرب من أجل حماية حدود تشيكسلافاكيا، تم الاتفاق الآن بأن على التشيكيين التخلي عن إقليم سوديت من أجل المحافظة على السلام وعلى المصالح الحيوية لتشيكسلافاكيا.

ومقابل ذلك، يحصل التشيكيون من بريطانيا وفرنسا على ضمانات دولية للحدود الجديدة... من كل عنوان يُشن بدون استفزاز. وأعلن زعماء العالم الحر أنه إذا لم يوافق التشيكيون على هذه الخطة ولم يتخذوا السلام في أوروبا، سيتكون لمحاربة هتلر وحدهم. أصبح كل شيء الآن منوطاً بالتشيكيين أنفسهم، هكذا قال تشامبرلين، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك. لكنه، في الواقع، لم يكن منوطاً بهم أي شيء. فقد أدرك تشامبرلين، أنه إذا نشبت الحرب بين تشيكوسلوفاكيا والمانيا، ربما تضطر بريطانيا وفرنسا للتدخل. وعندما بدأ التشيكيون والألمان تعبئة قواتهم، زاد خوف تشامبرلين، وقرر شراء السلام مقابل تسليم درع الوقاية التشيكي. فقد سافر المرة تلو الأخرى إلى برلين، في محاولة لإنهاء الصفقة مع الألمان، وأخيراً، قبل دقائق معدودة من انتهاء الإنذار الألماني، وافق هتلر على عقد مؤتمر سلام دولي في ميونخ، من أجل جلب السلام إلى أوروبا. وخلال إحدى عشر ساعة متواصلة، ظل رئيسا حكومتنا بريطانيا وفرنسا، يتوسلان إلى هتلر حتى استجاب أخيراً، ووافق على "حل وسط" يقضي باستلام إقليم سوديت بطرق سلمية.

وعندما أدرك رئيس حكومة تشيكوسلوفاكيا، بناش، أن حلفائه الديمقراطيين، أصبحوا أداة في خدمة المستبد النازي، أعلن عن رضوخ بلاده للاملاءات الطالمة. قائلاً: لقد غدروا بنا بصورة مهينة.

في ٣٠ أيلول شرع الجيش التشيكي بالانسحاب من إقليم سوديت، من الممرات الاستراتيجية والمواقع الحصينة على الجبال، ومن المزارع الصناعية الكبيرة التي كانت تشكل العمود الفقاري في معركة الدفاع عن الدولة. غير أن هتلر لم يكتف بإقليم سوديت، فبعد أن حتمه إلى المانيا، قدم للتشيكيين قائمة جديدة من المطالبات. ومرة ثانية دثرت المانيا أحداثاً عنيفة بدت وكأن تشيكوسلوفاكيا هي المسؤولة عنها، وعن قمع الأقلية الألمانية التي بقيت داخل تشيكوسلوفاكيا المقلصة. وبعد أقل من ستة أشهر من ضم إقليم سوديت إلى المانيا، في ١٥ آذار ١٩٣٩. سحقت آلة الحرب الألمانية النازية، ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا. ويفقدانهم السلسلة الجبلية والمواقع الدفاعية، لم يستطع التشيكيون الصمود في وجه الهجوم الألماني. وأعلن هتلر: كان واضحاً لي منذ البداية، بأنني لن استطيع الاكتفاء بمنطقة سوديت الألمانية. ذلك كان مجرد حل جزئي. ولم

تحرك الدول الغربية ساكناً في هذه المرة أيضاً. وثبت مرة ثانية، ان تمهيداتها كانت لا قيمة لها.

لن نحتاج الى جهد كبير، كي ندرك المقارنة بين قضية تشيكوسلوفاكيا، وبين الجهود المبذولة لاقتطاع مناطق الضفة الغربية من جسم اسرائيل. فاسرائيل، مثل تشيكوسلوفاكيا تماماً، دولة صغيرة ديمقراطية، أقامت جيشاً كبيراً وقوياً يستعين في الدفاع عن الدولة، بمنطقة جبلية تشبه اقليم سوديت - جبال الضفة الغربية التي تعتبر عائقاً عسكرياً قوياً يحمي عاصمة اسرائيل والسهل الساحلي.

وكما فعل الألمان في حينه، أدرك العرب الآن، انه طالما ظلت هذه الجبال بأيدي اسرائيل لن يهزموها بسهولة. كما أدركوا أن حرباً ضد اسرائيل، وهي ترابط على هذه السلسلة الجبلية، ليست واردة في الحسبان، ويمكن اخراج اسرائيل من هذه الجبال عن طريق ممارسة ضغوط سياسية، من جانب الدول العظمى الغربية.

هكذا، بدأت الأنظمة العربية بشن معركة هدفها اقناع الرأي العام في الغرب، وفي اسرائيل أيضاً، بأن سكان هذه الجبال (الذين يشكلون شأنهم شأن الألمان السودتيين، أكثر من ربع سكان اسرائيل) هم شعب منفصل يحق له تقرير مصيره، وإذا لم يُحترم هذا الحق، فستضطّر الدول العربية، الى شن حرب لتحلّقه. وهنا أيضاً، يُعرض رفض اسرائيل الانسحاب من مناطق استراتيجية حيوية للدفاع عنها، وكأنه عائق في طريق السلام. وعلى غرار مؤتمر ميونيخ، طلب العرب طيلة سنوات عديدة عقد مؤتمر دولي، وتدخل فقال من جانب الولايات المتحدة وأوروبا في المفاوضات، على أمل أن يوجد تشامبرلن أمريكي، يُرغم الطرف الرافض على الرضوخ.

ويجب ألا نستغرب، إذا رأينا ان العرب اليوم يطبقون اجزاء مهمة جداً من استراتيجية النازية. لكن المدعش، هو أن أوساطاً رفيعة في العالم الغربي، سارعت الى "ابتلاع" هذا الطعم وهضمه. إذ لم يمر يوم تقريباً دون أن تنشر فيه الصحافة الغربية مقالاً او تحليلاً لكبار الصحفيين الغربيين في اوربوا والولايات المتحدة، يحث اسرائيل على الاستجابة لحل كالذي فُرض على التشيكيين في حينه. يقولون لاسرائيل ، ان من الأفضل لها أن تتخلص من الأقلية العربية الكبيرة

داخلها وتحلق بذلك ميزات ديموغرافية قومية. وهذا الادعاء أيضاً ليس جديداً. ففي عام ١٩٣٨، كتبت صحيفة التايمز اللندنية، التي كانت أهم صحيفة غربية في ذلك الوقت، مقالاً افتتاحياً لخصت فيه قضية تشيكسلوفاكيا على النحو التالي:

"من الأنسب ان تدرس حكومة تشيكسلوفاكيا، ان كانت ترى أنه من مصلحتها ان تصبح دولة قومية أكثر عن طريق تنازلها عن مناطق هامشية، تضم مواطنين غرباء يجاورون شعباً يتحدون، معه من حيث العرق... يمكن ان تكون المميزات والمكتسبات التي ستحققها تشيكسلوفاكيا عن طريق تحويلها الى دولة قومية، اكبر بكثير من الخسارة التي قد تلحق بها نتيجة التنازل عن اقليم سوديت الألاني".

أكتب كلمة اسرائيل بدلاً من تشيكسلوفاكيا، عرب فلسطين بدلاً من المان سوديتيين، ويكون باستطاعتك عندئذ ان تنسخ نفس المقال، في أية صحيفة غربية تصدر في عصرنا هذا.

لقد أصبحت اسرائيل المهددة بالابادة على ايدي العرب في نظر الكثيرين من موجهي الرأي العام الغربي، هي الطرف المتطرف، الرافض، الذي يشكل عائقاً أمام تحقيق السلام. في حين ان العرب الذين يسمعون لتدمير اسرائيل، ويحترقون بذلك علاقتهم، داخل العالم العربي، يعتبرون الآن معتدلين ومنطقيين.

المواطنون في العالم الغربي، الذين لديهم سيرة طويلة من احترام حقوق الانسان، والتعاطف مع الحرية القومية يميلون للتضامن بسهولة مع الطموحات القومية للشعب الفلسطيني، الذي اكتشف حديثاً، والذي آلتهم معاناته، تماماً كما شعروا في حينه مع السوديتيين" في عهد هتلر.

لذا، فان الادعاء بشأن حق الفلسطينيين في تقرير المصير، قد ينجح أكثر من الادعاءات السابقة التي أقيمت فشلها، مثل عرض النزاع على أنه مشكلة لاجئين، أو توسع اقليمي اسرائيلي. وفود ان اكتشف العرب نقطة الضعف في الرأي العام الغربي، تجاه شعار "شعب مقهور، يناضل من اجل حريته" بدأت آلة الدعاية العربية، انتاج مبررات مشتقة من هذا الادعاء. وفجأة أدرك الدعايون العرب ان باستطاعتهم اقناع الرأي العام الغربي ، بصدق ادعائهم ، منذ عام

١٩٦٧: ان وجود اسرائيل في المناطق التي احتلتها بالذات، أمر غير اخلاقي من أساسه، وكل اجراء من شأنه زيادة قوة الدولة اليهودية، تصرف سيء، طالما ظلت اسرائيل متمسكة بهذه المناطق.

هناك أمران، ساعدا الى درجة كبيرة، في إدخال هذه الأفكار الى الغرب: الانتفاضة الفلسطينية، والهجمات المستمرة على المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ففي السنوات الأخيرة، ركّز هذان الموضوعان كل النشاطات المعادية لاسرائيل، في العلبة الدولية بحيث وجهت كلها، لاصلاح الظلم الذي الحقته اسرائيل بالعرب الفلسطينيين. جاءت الانتفاضة، لمنظمة التحرير الفلسطينية، كهدية من السماء، عندما كانت في أسوأ أوضاعها في العالم العربي، وعلى الصعيد الدولي. في عام ١٩٨٢، دخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان، ودمر القواعد التي بنتها المنظمة هناك طيلة عشر سنوات. واستولى على المناطق التي كانت المنظمة تستخدمها لمهاجمة اسرائيل. وتم اجلاء قيادات المنظمة من بيروت الى تونس، وبدأت مكانة المنظمة تتدهور بسرعة.

ونستطيع ادراك مدى هذا التدهور، في قضية تفجير باص اسرائيلي في القدس عام ١٩٨٧ على أيدي "مخربين" من منظمة التحرير الفلسطينية؛ إذ بعد التفجير ندد زعماء فلسطينيون في الضفة الغربية وغزة، لأول مرة، وبصورة علنية بالارهاب. كانت المنظمة طيلة سنوات كثيرة، تخشى، وهي محقة في هذا، من معارضة علنية كهذه، لافعال ذلك الذي تبجح بكونه المثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني.

كان السكان العرب في الضفة وغزة، بعيدين عن العيش في جنة على الأرض، ولكنهم تحت الحكم الاسرائيلي، شهدوا تحسناً كبيراً في مستوى حياتهم. إذ عندما دخلت اسرائيل الى هذه المناطق في عام ١٩٦٧، وجدت أن القرن العشرين لم يصلهم بعد. لم تكن فيها صناعات تقريباً، وكان الجهاز الصحي في بدايته، ولم تكن فيها مؤسسات للتعليم العالي، ومعظم النساء لا يقرأن ولا يكتبن.

بعد حرب الأيام الستة، انتهجت اسرائيل سياسة ليبرالية، هدفها تحسين ظروف حياة العرب. أقيمت جامعات، ومستشفيات وشقت طرق جديد. وحتى عام

١٩٨٥، كان عدد مشتركى الهاتف قد تضاعف اربع مرات، وتضاعف عدد مالكي السيارات خمسة أضعاف، وزاد حجم البناء في الضفة الغربية عشرة أضعاف. وفي عام ١٩٨٦، كان التيار الكهربائي يصل ٩١٪ من البيوت في الضفة الغربية مقابل ٢٣٪ عام ١٩٦٧. وفي عام ١٩٨٧، أصبح الفلسطينيون، سكان الضفة والقطاع أكثر المثقفين في العالم العربي. كما حظي الفلسطينيون تحت حكم اسرائيل بما لم يحظ به من حقوق معظم العرب في الشرق الأوسط - صحافة ناطقة بلسان احزاب وتيارات عديدة (منها من أبدت تأييداً لنظمية التحرير)، وحق الاستئناف أمام جهاز القضاء الاسرائيلي ضد أي قرار حكومي. كان جسر الملك حسين على نهر الأردن مفتوحاً، وكان باستطاعة كل عربي فلسطيني، زيارة الدول العربية.

وفي اطار هذه الزيارات مُنحوا فرصة المقارنة بين حياتهم تحت الاحتلال الاسرائيلي القمعي، وبين ظروف حياة المواطنين في الدول العربية. وعلى هذا قررت الغالبية العظمى من سكان الضفة الغربية، أن وضعهم أفضل بكثير.

هذا، لا يعني أن العرب في الضفة الغربية، أصبحوا صهيانية، أو انهم سَلِموا بوجود الحكم الاسرائيلي - لم يسبق أن تعاطف سكان محليّون تحت حكم عسكري مع الادارة، وبخاصة اذا ما اضطرت الادارة الى مواجهة إرهاب مستمر. فبسبب الارهاب، شوّشت حياة العرب وشهدت إزعاجات مثل حواجز التفتيش، وتدقيق الوثائق والهويات، منع التجول، اغلاق محلات ومدارس، وتفتيش في البيوت - ولم يبد في الأفق أي حل.

في السنوات العشرين، التي تلت حرب الأيام الستة، ظل الوضع السياسي للمناطق المحتلة معلقاً، أولاً لأن الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة، رفضت ضمها لاسرائيل، وبنفس الوقت لم توافق على التخلي عنها، ومن ثم، بعد اتفاقيات كامب ديفيد في ١٩٧٨، بسبب رفض العرب الاشتراك في مفاوضات لتحديد مستقبل المناطق.

وهكذا، حدث ان عاش العرب الفلسطينيون في الضفة والقطاع مدة عشرين سنة تحت حكم عسكري، دون ان يعرفوا كيف سيكون مستقبلهم السياسي. وحالة الغموض وعدم التاكّد من المستقبل، يؤديان الى توترات يمكن أن تتلاشى مع

وجود حل نهائي.

عرب الجليل، على سبيل المثال، عاشوا هم أيضاً تحت حكم عسكري في الخمسينات، ولم يكونوا مرتاحين، ولكن عندما ألغى الحكم العسكري، أصبحوا مواطنين متساوين في الحقوق، ويشاركون منذ ثلاثين عاماً بصورة فعلية في حياة الدولة ولهم تعبير سياسي وممثلون في الكنيست. ومع الوقت نشأ تعايش سلمي هادي. جداً مع اليهود في الدولة، وسيظل هذا الوضع قائماً طالما بقيت اسرائيل مضمونة المستقبل.

باستثناء مصر، رفض العالم العربي اتفاقيات كامب ديفيد، والتراجع عن المطالبة باقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع. وفي مثل هذه الظروف، لم يكن ممكناً اجراء مفاوضات مع اسرائيل حسبما ورد في اتفاقيات كامب ديفيد.

في ١٩٨٧، بعد حوالي عشرين سنة من حرب الأيام الستة، كان قد نشأ في الضفة الغربية وغزة، جيل جديد من العرب، عاش كل حياته في وضع سياسي غامض، وكان معرضاً للتحريض السام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، التي ملأت الفراغ السياسي. وكان واحداً أن هذا الجيل الشاب سيتجه نحو التطرف. كما أن منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها، لم تكن قادرة على الإشارة الى أية مكاسب حققتها، الأمر الذي جعل هذا الجيل الشاب، يوجه غضبه، ليس باتجاه اسرائيل فحسب، بل باتجاه منظمة التحرير أيضاً. وهكذا، تصوّر هؤلاء الشباب أن زعماء منظمة التحرير يعيشون في قلل هادئة على شواطئ تونس، وعلى الريفييرا الفرنسية. ومثلما أغري الكثيرون بالشعارات الدينية، زاد عدد الشباب الفاضبين المتوجهين الى حركة حماس الاسلامية المتطرفة، محاولين التنفيس، في إطارها، عن غضبهم. وكما هي الحال في بقية أنحاء الشرق الوسط، سرعان ما انتشر الاسلام المتطرف في الأوساط الشعبية الفقيرة، تلك كانت الخلفية لاندلاع الانتفاضة، التي تم في إطارها التعبير عن كل الاحباطات والغضب، بأعمال عنف جماهيرية.

بدأت الانتفاضة في ٩ كانون أول ١٩٨٧، بعد أن دهست شاحنة اسرائيلية في حادث طرق اربعة من العرب الفلسطينيين بالقرب من غزة. وانتشرت الاشاعة بأن الحادث كان متعمداً، كانتشار النار في الهشيم. وفوراً، اندلعت اضطرابات جماهيرية عنيفة استمرت عدة اسابيع . وانتهزت منظمة التحرير الفلسطينية هذه

الفرصة لتحسين مكائنتها، وبدأت تصب الزيت على النار. ففدأة الحادث كتبت صحيفة الفجر المقدسية الموالية للمنظمة بأن الحادث كان عملاً مذبذباً. وفي بغداد، استغل عرفات حماس الجماهير، ليؤكد ثانية أن اسرائيل على وشك الابداء حيث قال: يا أبناء غزة الأبطال، يا أبناء الضفة الأمجاد، يا أبناء الجليل الأبطال، يا أبناء النقب الأشداء: ان نيران الثورة ضد الصهيينة الغزاة، لن تخبر ... حتى تتحرر أرضنا - كل أرضنا - من أيدي هؤلاء الغزاة".

في حالات الإثارة، ينسى عرفات، أحياناً، مبادئ الحذر. وهكذا، دعا في تلك المناسبة، العرب، لتحرير كل أرضنا" ولم يخف أبداً نوابه في السيطرة ليس على الضفة الغربية فقط، بل على الجليل والنقب، أي على مناطق اسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧. وعندما اقترح الياس فريج، رئيس بلدية بيت لحم، المعتدل، وفقاً لأعمال العنف، رد عليه عرفات بقوله: كل من يفكر في وقف الانتفاضة، قبل أن تحقق اهدافها، سيحصل مني على عشر طلقات في صدره". وفي غضون بضعة اسابيع، كانت أعمال الشعب العنيفة منظمة وممولة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، حيث تم تنظيم شبان عرب في إطار "اللجان الضاربة"، وآمنوا بها وعدهم به عرفات أن النصر قريب.

هاجم هؤلاء الشباب السيارات الاسرائيلية المدنية، بالحجارة والزجاجات الحارقة، وفرضوا اضرابات عامة على السكان العرب، ومنعوا بالقوة العمال من التوجه الى عملهم.

وقام أعضاء اللجان باشعال النيران بحوانيت العرب الذين خرقوا الاضراب، وهددوا التجار الذين ارادوا فتح حوانيتهم. كما اقتحموا المدارس أثناء الدراسة وارغموا التلاميذ على الخروج الى الشوارع، وبذلك ارتفع عدد الاولاد الذين دفعوا حياتهم في اضطرابات الانتفاضة.

أما حركة حماس الاسلامية المتطرفة، فلم ترد أن تتأخر خلف منظمة التحرير، وأقامت لجان منافسة خاصة بها؛ خلال السنوات الأربع التي تلت اندلاع الانتفاضة، تنافست "المنظمتان الارهابيتان" على دفع الجمهور الفلسطيني لسفك الدماء.

في تلك الظروف ، تصرف الجيش الاسرائيلي وفق ما هو مطلوب منه ،

بمقتضى معاهدة جنيف الرابعة. حاول الجيش حماية السكان العرب واليهود بواسطة تسيير دوريات على الطرق والشوارع، واعتقال المحرضين على اعمال العنف.

ورد اعضاء اللجان الضاربة بمهاجمة الجنود بالفؤوس والحجارة والزجاجات الحارقة، وحطوا بالشهرة والتقدير الدوليين. ومن اجل المحافظة على صفة الضعف، وعدم منح الجيش الاسرائيلي ذريعة لاستخدام وسائل خطيرة، أمرت منظمة التحرير الفلسطينية رجالها عدم استخدام الاسلحة النارية.

إعتقد الكثيرون في الغرب، وفي اسرائيل أيضاً، ان الشبان الفلسطينيين الغاضبين في نابلس والخليل، يسعون الى تحرير الضفة الغربية من نير اسرائيل، وهذا كل ما في الأمر. لكن لجان الانتفاضة، كانت ترى غير ذلك. لقد فرض عليهم الهدف من قبل عرفات وحماس: "طرد اليهود من كل شبر من ارض فلسطين". فقد فسر نشاط الانتفاضة هدفهم هذا لمؤيديهم بواسطة منشورات كتبت على الجدران او وزعت على المؤيدين باللغة العربية.

فقد جاء في منشور صادر عن فتح في ٢١ كانون ثان ١٩٩١، أن اليهود هم "آبناء القردة والخنازير"، ومفهوم كيف يجب ان نتصرف معهم". في حين أعلنت حركة حماس في منشور خاص بها: "كن تكون هنالك أية مفاوضات مع اليهود. ولن يكون هنالك تنازل عن ستمتر واحد من ارض فلسطين. ان الطريق للتحرير هي طريق الجهاد".

أما بالنسبة لجيرانهم اليهود في الضفة الغربية، فقد دعا زعماء الانتفاضة العرب الى "حرق الارض تحت أقدامهم". وفي مناسبات قليلة، قام بعض العاملين في الصحافة الغربية، بأجراء مقابلات مع زعماء الانتفاضة، للوقوف على طموحاتهم الحقيقية. كان من بين هؤلاء، يوب سيمون، مراسل شبكة (سي. بي. إس)، حيث أجرى مقابلة مع زعيم خلية مؤلفة من سبعة ملثمين، حيث اجابه بصراحة مطلقة قائلاً: "أنا أريد كل فلسطين... فلسطين غير قابلة للتجزئة. حيفا، يافا، عكا، الجليل، الناصرة ... كل هذه هي اجزاء من فلسطين".

إن أيّاً من هؤلاء الأجزاء، لا يوجد في الضفة الغربية، كلها اجزاء من اسرائيل ما قبل ١٩٦٧، مناطق مزدهمة بالسكان اليهود، وزعماء الانتفاضة

مؤمنون أنها ستقع بأيديهم في نهاية المطاف.

ولكن بعد مضي بضعة أشهر، بدأ الجميع، باستثناء المتطرفين جداً، يشعرون بالتعب والاعياء، من ركضهم وراء الاحلام، وبدأ فريق الانتفاضة يضعف. فالاضرابات المتكررة، أوقفت الازدهار الاقتصادي، وتسلمت عصابات الفوضويين المحليين تمولها فصائل متناحرة داخل منظمة التحرير الفلسطينية، مهمة فرض القانون والنظام. وبدأ هؤلاء يمتنون بكل من اعتبروه متعاوناً مع اسرائيل، - أثرياً، مثقفين، خصوم سياسيين، وما شابه ذلك، وفي نهاية الأمر، وجه الجهد الرئيسي من عنف الانتفاضة نحو الداخل - ضد فصائل معادية، وضد كل من أُعتبر نموذجاً غير مرغوب فيه.

وبعد خمس سنوات من الانتفاضة، بلغ عدد القتلى الفلسطينيين الذين قتلوا على أيدي اخوانهم (٧٥٠) شخصاً، أي ما يقارب عدد الفلسطينيين الذين قتلهم قوات الأمن الاسرائيلية. وهكذا بدأت الانتفاضة تأكل أبناءها.

لم ينشر الكثير عن طابع الانتفاضة المعادي للمسيحية: معركة من العنف واشعال النيران والابتزاز، كانت موجهة ضد المسيحيين في الضفة الغربية، بقصد إرغامهم على بيع مستلكاتهم الى المسلمين، وترك "الارض المقدسة". إذ توجد اليوم في مكان مسيحي بارز، مثل بيت لحم، مثلاً، أغلبية مسلمة نتيجة لهجرة المسيحيين. فقد كتب القس جورج ابو حزان، في الصحيفة الكاثوليكية "تراسنطة"، أن الدول العربية، دفعت باموال كثيرة الى الضفة الغربية، بهدف "أسلمة" البلاد، واعرب عن خشيته من إنقراض الوجود المسيحي في الارض المقدسة.

وقال ابو حزان أن المسيحيين خافوا على ارواحهم ولم يجرؤوا على الكلام. لكن هذه الحقائق لم تصل الى البرامج التي يشتها شبكات التلفزيون الاجنبية عن الانتفاضة. مثلما حدث أثناء عمليات الطرد الجماعي للفلسطينيين من الكويت، إذ لم يكن أحد معنياً بهذا، كون المهجرين عرباً، على أيدي عرب. وكان الأمر سيمتعيهم، لو حدث هذا على أيدي الاسرائيليين، (لقد برز المبدأ بقوة في اعقاب المذبحة التي نفذها احد الاسرائيليين ضد الفلسطينيين في الحرم الابراهيمي في الخليل، وقتل خلالها ٢٨ فلسطينياً). كانت التغطية الاعلامية لهذه المذبحة ضخمة في جميع انحاء العالم، كما كان متوقعاً، في الوقت الذي لم نسمع ولو كلمة

واحدة عن مقتل ٣٣ اسراييليا على أيدي العرب خلال الأشهر الخمسة التي سبقت المذبحة.

ان الشعوب الديمقراطية تكره العنف، لذا فهي لا تحب الجنود وخاص أولئك الجنود الذين يضررون المدنيين، أو يلقون نظرات تخيف الاطفال. وبما أنه قيل للمشاهدين ان هذا الجيش الاسراييلي، هو جيش احتلال، أي أنه جيش لا ضرورة لوجوده هناك أصلاً، فقد استطاعت وسائل الاعلام ان تعرض العمليات الضرورية التي كان يقوم بها الجيش الاسراييلي لفرض النظام والقانون، بصفتها جرائم لا تفتقر.

ان الشيء الذي لم يظهر مطلقاً على شاشات وسائل الاعلام العالمية، هو الطابع التنظيمي للانتفاضة، وحياة الخوف والرعب التي عاشها العرب تحت ظل الانتفاضة، كما لم تظهر تعليمات اطلاق النار التي عُممت على الجنود الاسراييليين، ولا محاكمات ٢٠٨ جنود اسراييليين خرقوا هذه التعليمات.

ان الضربات التي الحقها وسائل الاعلام، باسرائيل، تعتبر مثيرة، في ضوء حقيقة انه، حتى هذا اليوم، لم تنطق هذه الوسائل بما فيه الكفاية، عما حدث في مصر والاردن من عمليات قمع "لانتفاضات" التي حدثت داخلهما، في نفس المناطق قبل عام ١٩٦٧.

حقاً ومن المعقول: يجب ان نحكم على دولة ديمقراطية، حسب المعايير الديمقراطية. ولكن شهدنا خلال سنوات الانتفاضة اندلاع عدة اضطرابات عنيفة وقعت في دول ديمقراطية، كان أشدها تلك التي وقعت في فنزويلا والهند. فبعد يومين من الاضطرابات في فنزويلا عام ١٩٨٧، أعادت الحكومة النظام الى نصابه بشمن ١١٩ قتيلاً و ٨٠٠ جريح. في حين أنه في الهند، وخلال عشرة أيام من حصار "معبد الذهب"، قُتل ١١٣ شخصاً في اشتباكات حدثت بين الهندوس وقوات الشرطة. في هاتين الحالتين، كان عدد القتلى أكثر من عدد القتلى خلال سنة كاملة من الانتفاضة في المناطق.

عندما تتدلع أحداث تتخللها أعمال نهب، وعنف، ورجم السيارات بالعجارة، واشعال النيران بالعرائيت في دولة ديمقراطية، يجب على الحكومة اتخاذ الوسائل اللازمة المتشددة لاعادة النظام والقانون الى نصابهما، لان واجب الحكومة _ أية

حكومة - هو إعادة النظام والقانون.

عندما اندلعت اضطرابات عنيفة في أمريكا، في الستينات، قُتل خلال بضعة أيام، ٣٤ شخصاً في لوس أنجلوس، و ٢٠ في نيويورك، و ٤٣ في ديترويت ، وعشرات آخرين في أماكن أخرى، وبلغ عدد المعتقلين عشرات الآلاف. وعندما اندلعت الاضطرابات من جديد في ١٢٥ مدينة أمريكية، اضطرت الإدارة الأمريكية إلى استخدام (٥٥) ألف شرطي وجندي لقمع الاضطرابات. وقُتل آنذاك ٤٦ شخصاً وأُعتقل ما يزيد على (٢١) ألف شخص.

كما أن القذف بالحجارة، له مثيل في الولايات المتحدة وغيرها؛ ففي عام ١٩٩١، أُلقي القبض في ولاية ميرلاند الأمريكية على شابين ألقيا بحجارة على سيارة ركاب. وأصاب أحد الحجارة فتاة في الخامسة عشرة، حيث أصيبت بجروح بالغة. (في الضفة الغربية وغزة، مات اسراييليون كثيرون نتيجة تعرض سياراتهم للرمح بالحجارة). وأدين الشبان في ميرلاند بارتكاب عدة تهم وجهت إليهما: "هجوم متعمد للقتل، هجوم يهدف إحداث عاهة، تدمير متعمد للممتلكات، وغير ذلك"، وحكم عليهما بالسجن لمدة (٥٠٠) عام. وهكذا، ضُمن أن يقضي الاثنان بقية حياتهما وراء قضبان السجن.

أليس من الطبيعي، إذاً، أن تفرض الإدارة الاسرائيلية في الضفة الغربية احكاماً وعقوبات مماثلة على راجمي الحجارة؟ ولكن رغم ذلك، فإن راجمي الحجارة الذين لا يسببون ضرراً بالفا، يُحكم عليهم بغرامات مالية فقط.

ان اسرائيل لاتحاكم وفقاً لمعايير دولية مألوفة: هذه معايير ليست ثنائية الوجه، بل ثلاثية الوجه: هنالك معيار للاتظمة الاستبدادية العربية، ومعيار آخر، للدول الديمقراطية، ومعيار ثالث خاص باسرائيل . ان المعيار الذي يحكم تصرفات اسرائيل يتطلب الكثير منها. ذلك لانه ينبع من الادعاء، بأن وجود اسرائيل بالذات في المناطق، يعتبر ظلماً وغير أخلاقي. لذا، يعتبر الجيش الاسرائيلي معتدياً في أية حالة يستخدم فيها القوة، بغض النظر عن مدى ضبط النفس الذي يبيديه، أو ضرورة استخدام القوة.

وقد استغل العرب، بالطبع، هذا الوضع بكفاءة عالية، وسارعوا لمرض اسرائيل كقوة شيطانية، الى درجة جعلت الجميع ينسون تاريخ النزاع وأسبابه.

في غضون وقت قصير، أصبحت الانتفاضة منصة لتشرف منها، منظمة التحرير الفلسطينية، على حريها الدعائية ضد اسرائيل. فبعد بضعة أسابيع من الاضطرابات بدأ نشاط منظمة التحرير بترتيب أحداث معينة هدفها إقناع الرأي العام؛ جماعات تلاميذ واولاد صغار، يتم ارسالهم الى الشوارع للاصطدام بجنود الجيش الاسرائيلي، بهدف تصويرهم للمصاحفة ووسائل الاعلام، ثم اختاروا من يتحدث الانجليزية ليدعو الى "عصيان منفي"، كل هذا هدفه إقناع الرأي العام الغربي، بضرورة تأييد "الجديدين" ضد "الأشرا".

وفي نفس الوقت أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية أن أياً كان، ليس بمقدوره وقف الانتفاضة، وأن الطريق الوحيدة لوقفها هي اقامة دولة فلسطينية (تحت زعامة المنظمة، بالطبع) ملتبئين بذلك مطلب الفلسطينيين في حق تقرير المصير.

وهكذا، أصبح معظم الرأي العام الغربي يرى باسرائيل، أنها هي المذنبة وعلى عاتقها تقع مسؤولية الأحداث كلها: الاسرائيليين، هم الذين طردوا الشعب الفلسطيني من أرضه وهم الذين يقمعونه الآن". خلاصة القول أن المواطنين في الدول الغربية، يشاهدون هذا الوضع بأم أعينهم، على شاشات التلفاز.

وعلى الرغم من القوة الدعائية التي انطوت عليها الانتفاضة، إلا أنه لم يكن في مقدورها ان تكون منصة لشن هجمات سياسية ضد اسرائيل، وفي نهاية الأمر، بدأت تخف حدتها. لذا، انتقل ميدان المعركة بين اسرائيل والعرب حول تقرير المصير للفلسطينيين، الى منصة أخرى – المستوطنات. فهذه المستوطنات يمكن استغلالها للاثبات بأن اسرائيل تحاول سلب الاراضي من اصحابها الشرعيين، أي الفلسطينيين. وهناك ميزة أخرى لميدان المعركة هذا، تتمثل في وجود قسم لا بأس به من الجمهور الاسرائيلي يعارض الاستيطان في مناطق الضفة الغربية وغزة، وينادي بتقليص هذا الاستيطان أو حتى ازالته نهائياً.

ان حق اليهود بالسكن في الغليل ونابلس وشرق القدس، معترف به من قبل العالم، تماماً كحقهم بالسكن في حيفا ويافا وقل اييب، وغرب القدس – بمقتضى وعد بلفور، وقرارات مؤتمر فرساي، وقرار الانتداب الصادر عن عصبة الأمم.

في تلك الأيام لم يكن هنالك مصطلح "الضفة الغربية"، وأن أحداً لم يقترح الفصل بين الضفة الغربية وبقية اجزاء البلاد. مع العلم أن الضفة الغربية تعتبر

قلب البلاد، التي شهدت أهم الأحداث في تاريخ الشعب الاسرائيلي قبل الشتات: ألون موريه، التي تلقى فيها ابراهيم وعداً بالأرض؛ والخليل، التي دفن فيها أجداد الأمة؛ وبيت إيل، التي رأى فيها يعقوب نفسه على سَلَم ورأسه في السماء؛ وبيت لحم مكان قبر راحيل؛ وأربعاء التي دخل عن طريقها يهوشع الى البلاد؛ ونابلس التي تلا فيها التوراة على مسمع الشعب، وفي تربتها دُفن يوسف؛ وشيلا، مقرّ الشعب في عهد القضاة طيلة مئات السنين، قبل أن تأخذ القدس هذا الدور؛ وبيت حورون، التي هزم فيها مكابي، السلوقيين؛ وبيتار، الحصن الأخير لباركوخفا؛ والأهم من هذا كله، المدينة القديمة في القدس، قلعة اليهود، ومركز الطموحات الروحانية والسياسية للشعب الاسرائيلي. عندما طالب الصهاينة، في مؤتمر فرساي، "بأرض اسرائيل" واعترف لويد جورج، وويلسون وكليمنصو، بعدالة مطلبهم هذا، تركّز تفكير هؤلاء الزعماء، على هذه الأماكن أكثر من غيرها.

إذا، ليس من الغريب ان يختار مهاجرون يهود الاستيطان في هذه المناطق بالذات، خلال فترة الانتداب البريطاني. وفي القدس والخليل، انضم المهاجرون الجدد الى الطائفة اليهودية التي كانت تعيش هناك منذ مدة طويلة، وأنشأوا مستوطنات جديدة: كاليا، وبيت هعرياه، في غور الاردن، عطرط ونفيه يعقوب، في "السامرة"، رمات رحيل ومستوطنات غوش عتصيون في "يهودا"، وكفار دروم، بالقرب من غزة.

كل هذه المستوطنات أقيمت قبل ايجاد مصطلح "الضفة الغربية"، حتى أن أحداً لم يكن يرى أي فرق بينها وبين بقية المستوطنات التي نشأت حديثاً في مختلف أنحاء "أرض اسرائيل". كما أن أحداً لم يشكك في حق اليهود بالاستيطان في أي مكان من هذه الأماكن – باستثناء أولئك الذين رفضوا حق اليهود بالوجود في هذه الارض نهائياً.

إذا كانت قرارات فرساي، اعترفت بحق اليهود بالعيش في مناطق "يهودا والسامرة" وغزة، وإذا لم يكن هذا الحق موضع خلاف عندما أقيمت في هذه المناطق مستوطنات يهودية قبل قيام الدولة، فانه يحق لنا طرح السؤال التالي: متى فقد اليهود حقهم بالعيش في هذه المناطق؟ من أجل الحقيقة أقول، ان اليهود لم يسبق ان فقدوا حقهم بالعيش في مناطق الضفة الغربية وغزة. إنما فقدوا القدرة على تطبيق هذا الحق فعلياً. لقد تم تجريد هذا الحق مؤقتاً، عام ١٩٤٨،

بعد "حرب الاستقلال". إذ احتل الجيش المصري قطاع غزة، بينما اجتاز الجيش الاردني نهر الاردن، دون أي استفزاز أو مبرر، واحتل "يهودا والسامرة" والقدس الشرقية.

وفي كل مكان وصل اليه الاردنيون، شطبوا أي علامات تدل على وجود يهود: في شرق القدس، دُمِّروا نهائياً الحي اليهودي القديم، والكنس، ودُنِّسوا المقابر اليهودية، وطردوا آلاف اليهود من بيوتهم. اما بالنسبة لمستوطني غوش عتصيون، فلم يكتفِ الاردنيون بطردهم، إذ تجاهل الجيش الاردني الاعلام البيضاء التي رفعوها وظل يطلق النار عليهم حتى قتل منهم ٢٤٠ شخصاً. ودُمِّرت المستوطنات تماماً.

في عام ١٩٥٨، بعد تولي الملك الحسين العرش، أقرت السلطات الاردنية قانوناً يحظر على اليهود العيش داخل حدود المملكة. ورغم ان اتفاقيات الهدنة لعام ١٩٤٩، نصت على انه يسمح لليهود الدخول الى القدس الشرقية لزيارة الأماكن المقدسة اليهودية، الا ان الاردنيين خرقوا هذه الاتفاقيات ومنعوا اليهود من الدخول الى هذه الأماكن.

عندما دخلت الاردن "يهودا والسامرة" عام ١٩٤٨، كانت المنطقة قليلة السكان. لما عدا المراكز البلدية مثل نابلس، الخليل، رام الله، وبيت لحم، كانت هناك عدة قرى منتشرة على طول طرق سيئة، ومضارب للبدو، هنا وهناك.

في عام ١٩٦٧، عادت الاردن لمهاجمة اسرائيل، وفقدت هذه المرة، كل المناطق التي احتلتها، عام ١٩٤٨. وعندما قُتِع الجيش الاسرائيلي الطريق، عاد اليهود لدخول القدس القديمة والخليل ونابلس وأريحا، وأصبحوا قادرين مرة ثانية على تجسيد حقهم في الاستيطان بهذه المناطق. وأُعيد بناء الأحياء اليهودية المدمرة في القدس والخليل، وغُرس عتصيون. وكان معظم الذين أُعادوا بناء مستوطنات غُوش عتصيون، هم من أبناء أولئك المستوطنين الذين طُردوا من بيوتهم عام ١٩٤٨.

ومع مرور الوقت، قرر حوالي ٣٢٥ ألف اسرائيلي العودة لممارسة حقهم في الاستيطان في شرق القدس والضفة الغربية وقطاع غزة. ويشمل هذا الرقم ١٤٠ ألف مستوطن في الضفة الغربية، و١٨٠ ألفاً في القدس القديمة والشرقية وضواحيها، و٥٠٠٠ في قطاع غزة.

يتضح من الحقائق التاريخية والسياسية ان هذه المستوطنات لا تمثل مطالبة يهودية جديدة أو تجاوزاً من جانب اليهود في هذه المناطق.

ولكن على الرغم من أن دولهم وقعت على اتفاقيات فرساي، وكانت مشاركة في قرار الانتداب البريطاني الذي تضمن اعترافاً بحق اليهود بالاستيطان في "أرض اسرائيل" كلها، انضم كثيرون من زعماء الدول الغربية، فيما بعد، للتنديد بالاستيطان اليهودي. وأخذوا يقولون، أنه رغم كل شيء، لا يحق لكم الاستيطان في هذه المناطق وطرد العرب من أراضيهم.

يمكننا، أن نجد سبباً لهذا الادعاء، لو كان اليهود قد سلبوا، فعلاً، من العرب، أراضيهم. لقد نجح العرب مرة أخرى في تضليل الرأي العام، حتى أن كثيرين في العالم الغربي بدأوا يتخيلون جماهير عربية تُطرد من أكوأخها من قلب الضفة الغربية المزدهمة بالسكان، لتبني مكانها أحياء يهودية. لا يوجد شيء. أبعد عن الحقيقة، من هذا القول.

• أولاً؛ زاد عدد سكان الضفة الغربية بنسبة ٥٠٪ منذ عام ١٩٦٧، من ضمنهم ٨٥ ألف مهاجر فلسطيني، سُمح لهم بالعودة في اطار مشروع جمع شمل العائلات.

• ثانياً؛ ان مناطق الضفة الغربية ليست مأهولة بالسكان بصورة مكثفة أبداً. إذ ان نسبة السكان فيها قليلة عملياً لا تتجاوز ١٥٠ نسمة للكيلو متر المربع الواحد، أي ما يعادل نسبة ٢,٥٪ أقل مما هو في تل أبيب. ان معظم السكان العرب يتجمعون في شرقي القدس، وفي أربع مدن أخرى تقع على سلسلة الجبال، ولا تشغل مساحات واسعة من الأرض، في حين أن بقية المساحات خالية.

إن المشاهد العادي، لما تبشه شبكات التلفزيون في العالم، الذي تعرض لمشاهدة برامج عديدة، طيلة عدة سنوات، عن اوضاع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، يجد نفسه مرغماً على الاستنتاج بأن الضفة الغربية هي منطقة واسعة ، فقيرة،

مكتظة، مليئة بالاكواخ والبراكيتات المزدهمة والمضغوطة بكثافة، وتمتد من تل اييب حتى اريحا.

ان جولة مدتها ساعة من الزمن، تكفي لتفتيد هذه الكذبة: ان من يسافر بسيارة من تل اييب الى الشرق على طريق "قاطع السامرة" الى غور الاردن، يمر في طريقه على سلسلة جبلية، وتلال لا يوجد أحد عليها — لا عرب ولا يهود، لا أشجار، ولا بيوت. إنما يستطيع المسافر أن يشاهد، هنا وهناك، قرية عربية او اثنتين، وما يلبث ان يجد نفسه في مناطق خالية من الناس. وأن من ينظر بعين بريئة، يدرك فوراً، ان بالامكان إنشاء مدن كاملة في هذه المناطق، دون سلب ولو ذرة رمل واحدة، من أرض أي انسان.

هذه ليست حقيقة جغرافية فحسب، إنما حقيقة قانونية أيضاً. ففي عام ١٩٦٧، أصبحت اسرائيل صاحبة الاراضي العامة، التي كانت من قبل تحت سيطرة الحكومة الاردنية (حوالي ٥٠% من مجموع الاراضي). ومعظم هذه الاراضي لم تكن مأهولة، ولم تكن هنالك قضايا قانونية تطالب بهذه الاراضي من جانب العرب. كما أن المحاكم الاسرائيلية تعترف بقانون الاراضي الاردني، كمتمصر حاسم في تحديد الملكية القانونية لاراضي الضفة الغربية (باستثناء البنود التي تحظر على اليهود امتلاك أراضٍ).

في بعض الحالات، حدث ان طالب عرب من الضفة الغربية الحكومة بملكيتهم لاراض، وكسبوا قضاياهم فعلاً، لكن الحقيقة هي أن معظم الاراضي لم تصدر من أي شخص — كانت منذ البداية أراضٍ دولة وخالية. في هذه الاراضي القاحلة، التي لا زالت على حالها، مثلما وصفها مارك توين، وارثور ستنلي، قبل ما يزيد على مائة عام، تبعث اسرائيل فيها الحياة الآن .

يعيش في المدينة اليهودية، أريئيل، في "السامرة"، الآن ١٣ ألف نسمة، وفيها مركز تجاري، وفندق، وكلية، وفرقة موسيقية أيضاً. والمدينة مصممة لاستيعاب اكثر من ١٠٠ ألف نسمة، حتى أنه من خلال نافذة السيارة المارة على الطريق، يمكن ان يدرك المرء بسهولة، أنه لا يوجد أي مانع يحول دون نمو هذه المدينة وفقاً لما هو مخطط لها: بُنيت أريئيل على تلة خالية، ولا نرى حولها سوى تلال مكشوفة عارية. وهذه هي الحال بالنسبة لمدن معاليه أوديم ، عمنونيل، الكنا،

أورنيت، جفعات زئيف، إفرات، بيتار، ومستوطنات أخرى كثيرة.

ليس من الغريب، على أية حال، ان يبدأ العرب وعلى رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية بالصراخ والاحتجاج، منذ اليوم الأول الذي بدأ به اليهود ممارسة حقهم في بناء بيوتهم والعيش في شرق القدس والضفة الغربية، بعد غياب دام ١٩ سنة عن هذه الأماكن.

إن قرار منح اليهود الإقامة في هذه الأماكن (التي لم يكلف الفلسطينيين أنفسهم عناء تأهيلها إبان الحكم الاردني)، هو الذي أثار حملة التنديد الدولية بالنشاطات الاستيطانية الاسرائيلية في المناطق. وفي هذه المعركة، بلغ تكتيك قلب السبب والسبب، ذروة بشاعته، فالغرب الذي ندد بشدة بالتمييز العنصري في جنوب افريقيا، أصبح يساعد العرب على انشاء نظام حكم عنصري ضد اليهود، على غرار الانظمة المألوفة في العالم العربي نفسه. إ ان كل الدول العربية (باستثناء المغرب) تفضل عدم وجود يهود (أو حتى مسيحيين) داخل حدودها. وأكثر الدول العربية تعصباً في هذا المجال، هي بعض الملكات التي تعتبر معتدلة مثل العربية السعودية التي تحترم جوازات السفر المختومة بالخاتم الاسرائيلي، والاردن التي تنزل عقوبة الاعدام بحق كل من يبيع ارضاً لليهود. لكن الولايات المتحدة والدول الغربية، لم يسبق أبداً ان نددت بهذه القوانين اللاسامية، ولم تطلب من حكومتى الاردن والعربية السعودية تغييرها.

وفي المقابل، تصدر، المرة تلو المرة، بيانات تؤيد إقامة نظام عنصري مضاد لليهود في الضفة الغربية. ان هذه الدول تطالب الإسرائيليين بالتسليم بالقانون اللايهودية والبقاء خارج حدود المناطق التي يريد العرب إغلاتها في وجوههم. حتى أن الغرب يطالب اسرائيل، باستمرار، باقتلاع يهود ومنهم من الاستيطان، في أماكن من المقرر ان يسكنها عرب فقط. وتبرز هذه الحقيقة، بشكل خاص، في حالة قيام يهودي بشراء أو استئجار بيت في سلوان، ذلك الحي القريب من مركز القدس.

لقد عاش اليهود في سلوان حتى عام ١٩٤٨، أي حتى تم احتلالها من قبل الاردنيين، وطُرد سكانها اليهود منها. لكن اليهود الذين يشترون اليوم اراضي ويبنون في سلوان يتعرضون لعاصفة دولية ، ويواجهون الادعاء الذي يمنع اليهود

من الإقامة هناك، حتى لو لم يكن هنالك أي خطأ في حقوق الشراء الفردية. سلوان، هي "شيلوج" المكرائية، وإن النبع والبركة التي تقع في أسفلها، هما اللذان كانا يزودان القدس بالمياه في عهد الهيكل الأول. وحول هذا الموقع المائي الوارد ذكره في التناخ، والذي لا زال قائماً حتى هذا اليوم، بنى الملك داوود عاصمته وحصنتها. كتيّف هشلوج" هي بالذات مدينة داوود. وهنا، على بعد ٢٠٠ م من حائط المبكى، يريدون منع دخول مستوطنين يهود.

هنالك طلب آخر مسائل، يتعلق بالاستيطان اليهودي في الخليل. الخليل، هي أقدم مستوطنة يهودية في "أرض اسرائيل" وتاريخ الشعب اليهودي عامة، حيث إختارها أبونا ابراهيم للإقامة فيها، وفيها اشترى قطعة الارض المخصصة لمقبرة لزوجته وأسرته. وكل آباء وأمهات الشعب اليهودي، باستثناء أمنا راحيل، مدفونون في قلب هذه المدينة. وفي الخليل أقام الملك داوود مملكته، وحكم فيها سبع سنوات، قبل ان ينتقل الى القدس. ومنذ خراب الهيكل الثاني، تقيم جالية يهودية في الخليل باستمرار، حتى وقعت مذبحة (١٩٢٩) حيث قتل فيها عشرات اليهود، وطُرد الباقون من المدينة.

بعد حرب الايام الستة، استؤنف الاستيطان اليهودي في الخليل وضواحيها ... في كريات اربع وغوش عصيون. هل هنالك تناقض اكثر مما تنطوي عليه محاولات العرب وصف اليهود في الخليل بأنهم غزاة غريباء في مكان ليس لهم؟! والأكثر ادهاشاً، هو انضمام يهود يمن فيهم اوساط حكومية، للمطالبة باجتثاث الاستيطان اليهودي من المدينة التي وصفها دافيد بن غوريون "الشقيقة الكبرى للقدس" ودعا الى توطينها بأعداد كبيرة من اليهود.

إن المطالبة بعدم الاستيطان في الخليل وفي ١٤٠ مستوطنة يهودية أخرى في الضفة الغربية، لا تبرز دائماً بالمطالبة بتفكيك المستوطنات القائمة، إنما بالمطالبة بتجميد البناء فيها (وبالطبع، لا يوجد أحد يتحدث عن تجميد أعمال البناء العربية). وأصبح هذا المصطلح سائداً بصورة أوسع بعد أن تسلمت حكومة العمل السلطة في اسرائيل، عام ١٩٩٢، وتحدثت بتجميد جزء من المستوطنات. غير أن تجميد أعمال البناء في المستوطنات يعني الحيلولة دون تقويتها ونموها الطبيعي والحكم عليها بالموت البطيء، والمؤكد. فالتجميد من شأنه منع إنشاء المستشفيات

والمدارس، والبقالات، والمكبات، والخدمات العامة من كل الانواع. ويعني ايضاً أن الابناء لن يستطيعوا بناء بيوتهم بالقرب من بيوت آبائهم، والمستوطنات الصغيرة، التي تصارع من أجل البقاء الاقتصادي، لن تستطيع التطور وتثبيت دعائمها.

من الذي يريد الاتامة في مستوطنات مجتمعة ليس لها مستقبل؟ واضح ان اي إنسان لا يرغب بالاقامة فيها. لذلك فان مصطلح "تجميد" هو الكلمة السريّة السهلة لكل من يقصد "التصفية" بالذات. لكن سياسة التجميد لم تفسر بالاستيطان اليهودي في الضفة الغربية فقط. فمعظم المستوطنين يسكنون في الاماكن التي اعتدنا على اعتبارها ضواحي: مناطق تطوير واسعة مخصصة للسكن والصناعة حول المدن الكبيرة المكتظة بالسكان. وهذه الضواحي تغدو التطور الطبيعي لكل مدينة، وجاءت بشكل عام لاغراض بلدية، وليست سياسة بالذات. ومعظم اليهود الذين يسمون "مستوطنين" (بما في ذلك الاحياء الجديدة في القدس) ليسوا سوى سكان ضواحي، على غرار سكان نيرجرسي، ولونغ آيلند، حول نيويورك: إنهم يسافرون يومياً مدة ٢٠ - ٣٠ دقيقة من قلب الضفة الغربية الى الاحياء التجارية في القدس أو تل ابيب ثم يعودون. ويدون ضواحي، سيكون محكوماً على كل مدينة كبيرة بالاختناق والاكظاظ، ولارتفاع حاد في اسعار الاراضي.

تبعد تل ابيب عن "السامرة" بضعة كيلو مترات فقط، في حين أن القدس محاطة بالضفة الغربية من ثلاثة اتجاهات (شرق المدينة، يُعتبر بنظر العرب وشركائهم من اليسار الاسرائيلي، جزءاً من الضفة).

ولكي ندرك مدى تأثير عدم السماح بالاستيطان حول هذه المدن، على نموها، يكفينا ان نتخيل الوضع الذي ستؤول اليه نيويورك، اذا ما منعوا سكانها من السكن في نيوجرسي، أو كونتيكات، أو لونج آيلند. من الطبيعي ان تتعرض نيويورك للاختناق والذبول.

ان المعركة حول انكار حق اليهود في العيش في قلب "أرض اسرائيل" وعاصمتها، تنبع من فكرة أن الضفة الغربية وشرق القدس هي أرض ليست يهودية، غزاها اليهود وسلبوها من اصحابها القدامى، وهذا تشويه مطلق للحقيقة التاريخية. إذ أن العرب لم يعترفوا الارض بعد أن احتلوها ، علاوة على بقاء يهود

لمدة الاف السنين في أماكن مثل الخليل والقدس. وقبل حرب "الاستقلال" مبشرات السنين، كان يعيش يهود في قرى عديدة في الضفة الغربية.

بعد أن انهارت فجأة الاسوار التي كانت تفصل بين جزأي القدس، حتى حرب الايام الستة، بدأ الاف الاسرائيليين بالتدفق عبر المدينة القديمة الى حائط المبكى، والى بيت لحم، والخليل ونابلس وأريحا، وبيت ايل، والى كل مكان شهد بلورة الهوية اليهودية. ربما لم يكن هنالك يهودي واحد، لم يملكه شعور بالفخر والاعتزاز في تلك الايام، وكل واحد منهم عبّر عن هذا الشعور بطريقته الخاصة، وها هو أخي، يوني، شأنه شأن الكثيرين من ابناء الشعب الاسرائيلي، يكرّس اجازاته من الجيش، للقيام بجولات تعرّف على قلب الوطن التاريخي. وأنا نفسي، لا زلت أذكر مناسبات ماثلة، خاصة خلال التدريبات والرحلات التي كنت أقوم بها كجندي في وحدة استطلاع. لقد تجولنا كثيراً. صعدنا فوق التلال ونزلنا الى الاودية، وسلكنا طرقاً وعرة. لا زلت أذكر الليالي التي توقفت فيها أمام منحدر بيت حورون، حيث تغلب هناك المكابيون على اليونانيون، في صراعهم اليائس من اجل الاستقلال، أو تطلّعنا بنظراتنا نحو قلعة بيتار، التي قُمع فيها تمرد باركاخوفا، على أيدي الجيوش الرومانية. وقفنا هناك مجموعة من الشباب، في التاسعة عشرة من أعمارهم، نستشف نسيم الجبال، ها نحن عدنا من أجل كل أجيال الشعب اليهودي، الذين كانت لديهم الجرأة على ان يحملوا، وهم في أغوار النذل والمهانة والقمع، بالعودة الى هذه الأرض.

وبعد بضعة اسابيع من حرب الايام الستة، عبّر موشه دايان، عن هذه المشاعر بالكلمة التي ألقاها على جبل الزيتون، خلال حفل نقل رفات قتلى المعركة على القدس، عام ١٩٤٨، حيث قال:

"أخواننا، الذين سقطتم في حرب التحرير: لم تتخل عن حلمكم، ولم ننس دوركم. عدنا الى الجبل، الى مهد تاريخ شعبنا، الى تركة آبائنا، أرض القضاة، ومعقل مملكات آل داوود. عدنا الى الخليل ونابلس وبيت لحم، وعنتوت، وأريحا ونهر الاردن".

لم يكن موشه دايان يصطنع الكلمات، إنما كان يعبّر عن مشاعر غير عادية. وفي نفس الوقت لم يعبّر كثيرون من الاسرائيليين عن شعورهم الحقيقي لدى عودتهم الى قلب وطنهم . إن مسن عبّر بصراحة عن مشاعرهم تلك هم الاعضاء.

المتدينون في حركات الاستيطان التابعة لغوش إيمونيم، الذين كانوا رأس الحرية في الحملة لاعادة بناء المستوطنات اليهودية القديمة، وبناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية.

على الرغم من أن اعداداً كثيرة من الاسرائيليين تضامنوا معهم (حتى لو لم يستوطنوا في المناطق)، فقد ساد في العالم الرأي القائل أن من يطالب بهذه المناطق هم جماعة هامشية متطرفة فقط في الجمهور الاسرائيلي. وتعمز هذا الرأي المزيف بصورة أكثر مع ظهور حركة يسارية غورغائية، ظلت تدعي باستمرار ان على اسرائيل الانسحاب من المناطق المحتلة. في الوقت نفسه، لم تكلف الحكومات الاسرائيلية نفسها بأن تشرح للعالم العلاقة الشعورية العميقة التي تربط بين الاسرائيليين والارض، واكتفت هذه الحكومات بعرض الاعتبارات الأمنية، لكي تشرح سبب استمرارها في الاحتفاظ بمناطق الضفة الغربية وغزة.

وفي المقابل، لم يتردد العرب في المطالبة بحقوقهم على هذه الارض عارضين مبررات تاريخية مزيفة. وهكذا، بدأت تترسخ فكرة ان اليهود احتلوا بالقوة وطناً غريباً، ليس لهم فيه حق أخلاقي، ولا تربطهم به علاقات تاريخية.

وسرعان ما نسي العالم حقيقة ان العرب هم الذين طردوا اليهود من المناطق التي سكنوها حتى حرب ١٩٤٨، وان العرب هم الذين هاجموا اسرائيل من نفس هذه المناطق في عام ١٩٦٧.

إن الاستعراض المستمر بلا انقطاع للمتحدثين الفلسطينيين امام كمرات التلفزيون العالمية، وهم ينددون بالاحتلين الاسرائيليين، نجح في شطب كل الحقائق التاريخية الواضحة من وعي الجمهور؛ اسرائيل، احتلت أرضاً أجنبية، يجب عليها إعادتها إلى اصحابها الشرعيين، وإلاّ - ستعرض نفسها لحظر الحرب.

لم تكن هذه، المرة الأولى في تاريخ اسرائيل، التي يعود فيها يهود الى اجزاء من وطنهم، طُردوا منها بالقوة. إذ قبل ٢١٠٠ سنة، فعل هكذا المكابيون بعد حرب تحرير دامت حوالي ٣٠ سنة. ويجدر بنا أن نقرأ اليوم نص الرسائل التي تبودلت في حينه بين الملك أنطيوخوس السابع، وبين شمعون الحشمونائي، وهو الأخير من ضمن خمسة ابناء، متتياهو الذي سقط في النضال من أجل الحرية. إدعى انطيوخوس أن "أرض اسرائيل" هي جزء لا يتجزأ من الامبراطورية

الهيلانية التابعة له، تماماً مثلما يدعى العرب اليوم بأنها جزء لا يتجزأ من مجال سلطتهم.

وهكذا قال الملك: "إنكم تسيطرون على يافا، وجيزر، وحكرا، التي في القدس، مدن مملكتي. وجعلتم حدودها مهجورة. لقد ارتكبتم خطأ فادحاً في البلاد، واستوليتم على أماكن عديدة في مملكتي. والآن عليكم إعادة المدن التي احتلتموها... وإلا، سنأتي لمحاربتكم".

وكان رد شعرون عليه، والذي يجب ان نكره اليوم، على النحو التالي: "لم نأخذ أرضاً أجنبية، ولم نسيطر على أجنبي، بل على تركة آبائنا التي احتلها أعداؤنا ظلماً في أحد الأوقات. وعندما أصبحت لدينا قوة، أعدنا لأنفسنا تركة آبائنا".

هذه الأرض، التي تخرج مع كل ضربة فأس في أرضها بقايا من الماضي اليهودي. والتي لا زال الاسم العبري القديم يُلمس في أسماء قرأها؛ هذه الأرض التي أصبح فيها أبناء إسرائيل شعباً، والتي من أجلها ذُفروا بحراً من الدموع عبر التاريخ؛ هذه الأرض التي مع فقدانها، حلت باليهود المصائب والكوارث والمماناة والشتات والقتل الجماعي، لم تجزئها أية أمة من قبل؛ هذه الأرض التي من أجلها حارب اليهود ببطولة واصرار لا مثيل لهما في تاريخ الشعوب – هذه الأرض، هي الأرض الأجنبية، التي يريد زعماء العالم اليوم إغلاقها في وجه الاستيطان اليهودي، والتي يُطلب من إسرائيل التنازل عنها من جانب واحد.

ان نضال العرب، اليوم، لإبعاد اليهود من "يهودا والسامرة" مثل نضالهم في الثلاثينات لإبعاد اليهود من "أرض إسرائيل" كلها، لا يرتكز الى الحق حتى لو حظي بتأييد دولي.

دولة اليهود، التي ضغطت نتيجة لخرق الالتزامات الدولية والاحتلال العربي، الى السهل الساحلي الضيق وصعب الدفاع عنه، والتي رأت اليهود يُطردون من المدن القديمة التي أرادوا بنائها من جديد، والتي هاجمتها الجيوش العربية من الجبال المحيطة بها – هذه الدولة، يُطلب منها الآن، من قبل العالم كله تقريباً، التسليم بتحويلها من جديد الى جيتو ضيق وخائق، على طول خط الساحل، تسيطر عليه دولة فلسطينية معادية، نظيفة من اليهود، تقام على المرتفعات

الجبيلة التي تشكل قلب الوطن القومي اليهودي. وإذا كان في مطلع القرن العشرين، قد تم التعبير عن موافقة دولية على اعلان اللورد سسيل: "عرب للعرب، ويهودا، لليهود"، ها هو العالم يطلب الآن ونحن على ابواب عام ٢٠٠٠: "عرب للعرب - ويهودا، أيضاً". وهكذا يكتمل قلب السبب والمسبب.

الفصل الخامس

حصان طروادة

تمثلت الخطة الرئيسة التي استخدمها العرب في حريهم الدعائية ضد اسرائيل في تقليص وحصر مشاكل الشرق الأوسط باسرائيل: في بادئ الأمر، قَلَّصوا كل النزاعات الشرق أوسطية، لتقتصر على الصراع العربي - الاسرائيلي، ثم قَلَّصوا هذا الصراع، الى صراع بين الفلسطينيين وبين اسرائيل، ومن ثم قَلَّصوا كل الفلسطينيين الى "حركة تحرير" واحدة، هي منظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا أَسْتَكْمَلَت قلوب الأدوار في الرأي العام العالمي، وأصبحت اسرائيل ذلك العملاق المتوحش، الذي تقف في مواجهته مجموعة صغيرة من الشوريين المخلصين المثاليين، وحتى الرومانسيين - مثل جورج واشنطن وحفنة المقاتلين المخلصين، الذين كانوا معه، مثلما اعتاد عرفات الادعاء، أمام الأميركيين.

بهذه الطريقة أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية المثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. في الواقع لم تُنتخب المنظمة من قبل أحد، والتأييد "الطلق" الذي ادعى عرفات بأنها تتمتع به في الشارع الفلسطيني، اعتمد على اغتيال معارضيتها، وتجاهل خصومها، لكن كل هذا لم يكن واقعياً؛ وافق العالم العربي بالاجماع على أنه في كل مرة يُبحث فيها موضوع اسرائيل، يجب دفع منظمة التحرير الى خط الجبهة الدعائية. وهكذا، ستركز اهتمام الرأي العام الغربي على الجرائم التي ترتكبها الصهيونية ضد الفلسطينيين، ولا يتحول الى مواضيع "هامشية" مثل التسلح العربي الحثيث ضد اسرائيل. وكانت هذه الاستراتيجية فتالة، لدرجة جعلت حتى أشد أعداء منظمة التحرير الفلسطينية من بين العرب، يدعمون مطالبتها بأن تكون الناطق الوحيد باسم الجانب الوحيد (أو الرئيس على الأقل) الذي تضرر في النزاع بين العرب واسرائيل.

كيف نشأت هذه المنظمة؟ وهل تبنت الارهاب نتيجة لاحتباط سياسي مؤقت، أم لأسباب أخرى؟ وهل الكفاح المسلح ضد اسرائيل، جاء رداً على احتلال اراضي فلسطين من قبل اسرائيل في حرب الايام الستة، مثلما تدعي منظمة التحرير باستمرار، أم أنه بدأ قبل ذلك بكثير؟

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة عام ١٩٦٤، أي قبل اندلاع حرب الأيام الستة، بثلاث سنوات. لقد أقام الرئيس المصري، جمال عبدالناصر، هذه المنظمة كأداة لمواصلة حربه الفاشلة ضد اسرائيل، وكوسيلة لزعزعة الاستقرار في الأردن. وبما أن هاتين الدولتين تحتفظان بكامل "أرض اسرائيل" الانتدابية، فإن مبدأ "تحرير كل أرض فلسطين" الوارد في ميثاق المنظمة، يعني تحريرها من كلتا الدولتين معاً. تجدر الإشارة الى أنه في عام ١٩٦٤، لم تكن اسرائيل تحتل ولو سنتمراً واحداً من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. وعندما أُقيمت منظمة التحرير الفلسطينية بهدف تحرير "أرض فلسطين كلها" كان هدفها المعلن هو احتلال أراضي دولة اسرائيل، وبخاصة السهل الساحلي، الذي يعيش فيه ثلاثة أرباع سكان اسرائيل، وأصل معظم زعماء منظمة التحرير الفلسطينية من منطقة السهل الساحلي، من عكا، حيفا، ويافا، وتأمل منظمة التحرير العودة الى هذه الأماكن في يوم ما.

وقد تبنى المجلس الوطني الفلسطيني في أول مؤتمر له، دستور المنظمة المعروف باسم "الميثاق الوطني الفلسطيني" حيث تضمنت الوثيقة تفصيلاً لاهداف المنظمة الأساسية ومنها:

• البند رقم ١٥/ : "تحرير فلسطين .. واجب وطني .. من أجل طرد الغزو الصهيوني والامبريالي من الوطن العربي الكبير، وتطهير فلسطين من الوجود الصهيوني ..."

• البند رقم/١٩ : "قرارات تقسيم فلسطين من قبل الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، وإقامة اسرائيل، باطلة من أساسها..."

• البند رقم/٢٠ : "أن الادعاءات المتعلقة بوجود علاقة تاريخية أو روحانية بين اليهود وفلسطين لا تتسجم مع الحقائق التاريخية، أو مع عناصر الدولة بمعناها الحقيقي"

• البند رقم/٢١ : "الشعب العربي الفلسطيني الذي يعتبر عن نفسه بواسطة الثورة الفلسطينية المسلحة، يرفض كافة الحلول التي تأتي بديلاً لتحرير فلسطين كاملة ..."

لقد صودق على هذا الميثاق أكثر من مرة منذ عام ١٩٦٤، ويستشف منه أن الخلاف بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل لا يتعلق بالأرض ، إنما

بوجود اسرائيل كدولة بالذات.

أولاً، وقبل كل شيء، تعتبر اسرائيل في نظر الميثاق الفلسطيني، كياناً غير شرعي وجرم. وبناء على مبدأ أن (قيام اسرائيل باطل) يعني إلغاء وجود الدولة اليهودية. دون أية علاقات لحدودها وجنبتها. وهكذا ألغت المنظمة بمسحة يد، تعلق الشعب الاسرائيلي بأرض اسرائيل طيلة ٣٥٠٠ سنة، منذ عهد التناخ وحتى "وثيقة الاستقلال". وخلاصة القول، ان الهدف الأساسي لميثاق المنظمة، هو القضاء على وجود اسرائيل.

ان الطموح للقضاء على دولة بكاملها، أمر نادر لدرجة ان الكثيرين يصعب عليهم التصديق، بأن مثل هذا الطموح قد يصلح لأن يكون دافعاً لنشاط سياسي منظم.

تتحارب الأمم مع بعضها البعض نتيجة لخلافات على الحدود، أو الموارد الطبيعية، أو حتى على أنظمة حكم، غير أنه لا توجد تقريباً سابقة في التاريخ الحديث، تتمثل في السعي للقضاء على وجود أمة بأكملها. حتى أن الحرب العالمية الثانية، التي تعتبر أسوأ ما في الحروب، لم تؤد الى هكذا نتيجة: ان هزيمة المانيا واليابان، لم تكن أبداً ذريعة للقضاء عليهما كدولتين، وها هو، هذا الهدف الشاذ، المتمثل بشطب دولة مع شعبها بالكامل من على وجه الأرض، الذي اختارته منظمة التحرير الفلسطينية وتسعى لتحقيقه.

ولكن نقف على نوعية الحركة، التي تتبنى لنفسها مثل هذا الهدف، يجب علينا أن ندرس الخلفية التاريخية لظهورها وتطورها.

بدأت حرب العرب ضد اليهود، في مطلع القرن الحالي. وتدعى منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها، أن تبلور الوعي الفلسطيني ومقاومة الاستيطان اليهودي بدأ في العشرينات والثلاثينات، وهي الفترة الحاسمة التي سبقت قيام دولة اسرائيل .

طيلة تلك السنوات، شنت عصابات عربية هجمات دامية على المستوطنين اليهود، وقتلت معارضيهما المعتدلين في الوسط العربي، ورفضت كل التنازلات ومحاولات السلام من جانب اليهود.

ورغم أنه قُتل في تلك الحرب الوحشية والطويلة مئات اليهود، فإن أحداً لم يذكر أياً من الذرائع التي تسمع اليوم لشرح أسباب العداء العربي لاسرائيل : في تلك

الفترة، لم يكن هنالك "لاجئون"، ولا "مناطق محتلة"، أو "حدود". زد على ذلك، انه لم يكن مطروحاً نهائياً مبدأ "تقرير المصير" الفلسطيني أو العربي، اذ في تلك الأيام، لم يقتل العرب ان هذا هدفهم، حتى انهم رفضوا الاستقلال الذي عُرض عليهم، بمقتضى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة من عام ١٩٤٧. وفعلًا، لم يكن النزاع يتغلّى من هذه العناصر، بل من الرفض العربي لأي وجود يهودي، مهما كان، في "إسرائيل".

لقد دمرت عصابات القتلة، كل من حاول الوقوف في طريقها، وبخاصة أولئك العرب الذين نادوا بالحلول الوسط والتعايش السلمي، وكان من أبرز اعداء الحركة الصهيونية قبل قيام الدولة، الحاج أمين الحسيني، المفتي الأكبر للقدس. إنه يمثل "الأب الشرعي" لمنظمة التحرير الفلسطينية. اذا لم تكن هنالك شخصية فلسطينية تأثرت بها زعامة المنظمة أكثر من الحسيني. ومع مرور الوقت، حظي كثيرون أيضاً من مساعدي ومؤيدي المفتي، أمثال، أميل خوري، وعبدالقادر الحسيني، بمكانة ميثولوجية في تراث منظمة التحرير الفلسطينية.

منذ البداية، استعان عرفات بقرابته الأسرية من المفتي، بصفته سليل عائلة "القدوة" إحدى فروع الحسينيين، بهدف تعزيز مكانته بين الفلسطينيين. كان المفتي في نظر عرفات مرتباً ومرشداً.

في عام ١٩٨٥، قال عرفات بمناسبة مرور ثلاثين سنة على مؤتمر باندونغ (للدول الثورية وغير المتحازة) أنه فخور الى أبعد الحدود، بالسير على آثار المفتي، وأكد ان منظمة التحرير الفلسطينية، تسير في الطريق التي شقّها المفتي.

ما هذا الطريق ، ومن هو المفتي؟

لكي ندرك أهداف المنظمة واساليبها، يجب دراسة الفترة التي نشأت فيها القومية العربية في "أرض إسرائيل". في تلك الفترة تحدد اتجاه التطور المستقبلي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ووسّمت سيرة حياة مؤسسيها الذين نشأ كثيرون منهم في حركة المفتي.

ويتضح هنا أيضاً، ان الفترة ما بين الحريين العالميتين، كانت حاسمة في بلورة نظريات القوميين العرب تجاه يهود "أرض إسرائيل".

وكما أسفنا ، عُيّن الحاج أمين الحسيني ، بمنصب المفتي الأكبر "لأرض

اسرائيل" من قبل البريطانيين عام ١٩٢١، أي بعد أن أدانوه بالتحريض على اليهود في القدس القديمة، بأقل من سنة.

كانت حملة التحريض التي شنها المفتي والعصابات التي شكّلها، العناصر الرئيسية للاضطرابات المعادية لليهود، التي وقعت في البلاد عامي ١٩٢١، ١٩٢٩. ولكن في حقيقة الأمر، كان العرب أنفسهم أهدافاً للهجمات الرئيسية التي شنها المفتي. بمساعدة صنيعة، أميل الخوري، ويتمويل من النازيين والفاشييين الايطاليين، عذّب المفتي وقتل زعماء عرباً معتدلين، وأصحاب أراض كانوا على استعداد لبيعها لليهود، وكل من بدا في نظره خائناً. كانت هنالك عائلات عربية كاملة، عارضت سياسة الحسيني، مثل عائلة النشاشيبي المقدسية، تمت تصفيتها نهائياً أو هجرت المنطقة. قُتل آلاف الفلسطينيين، وأرغم حوالي ٤٠ ألفاً على الفرار من البلاد. وفي اواخر الثلاثينات كانت سلطة الارهاب المتواصل، قد أدت الى إسكات صوت العرب المعتدلين في البلاد، نهائياً.

في مؤتمر المائدة المستديرة" لزعماء الشرق الأوسط، الذي عقده البريطانيون، عام ١٩٣٩، لبحث مستقبل "أرض اسرائيل" ادعى زعماء عائلة الحسيني أنهم كممثل الوحيد للعرب الفلسطينيين".

كانت تلك الأعمال، في نظر الحسيني، لا تساوي شيئاً. لقد أراد الاستعانة بقوة عالمية في حربه ضد الاستيطان اليهودي، واقامة امبراطورية عربية تحت حكمه، والقضاء نهائياً على الوباء اليهودي.

وفي الثلاثينات، عندما تعززت قوة الفاشيين والنازيين في أوروبا، وجد الحسيني فيهم القوة التي يبحث عنها.

عندما تسلم هتلر السلطة عام ١٩٣٣، توجه المفتي لأول مرة الى القنصل الألماني في القدس. وسرعان ما اكتشف التشابه الكبير بين نظريتي القومية النازية والعربية. كان التشابه بين هاتين الحركتين القوميتين، يبدو أمراً طبيعياً ومفهوماً لدى كثيرين من الشعب العربي.

فعلى غرار العالم العربي، كان عالم الناطقين بالألمانية أيضاً محطماً طيلة سنوات كثيرة، ومقسماً لأمارات وطوائف متناحرة، كان بعضها يخضع لسلطة أجنبية (حتى تم توحيدها تحت السيادة البروسية). وكما هي الحال بالنسبة للعرب، كان الألمان يبحثون عن هويتهم ، وكان شأنهم شأن العرب أيضاً، يكرهون

الدول الغربية العظمى التي فككت الامبراطورية الألمانية في فرنسا، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

لقد بلور الألمان أخيراً هويتهم على النحو التالي: ألماني، يعني أنه ليس يهودياً، ولا بلشياً، ولا ملوثاً بالوباء الغربي. وقد أسرت هذه الصيغة كثيرين من العرب، عبروا عنها بتأسيس حركات واحزاب ومنظمات شبيبة عربية عالمية - اشتراكية في الثلاثينات، ويتوزع واسع للادب النازي المعادي للسامية في العالم العربي، ويتأييد واسع لهتلر في الوسط العربي.

كان ضم النمسا واقليم سوديت الى ألمانيا، على أيدي النازيين، قد لاقى ترحيباً وصدى إيجابياً لدى العرب، الذين اعتبروه اجراءً نموذجياً يجسد قوة الشعوب المقهورة.

في "أرض اسرائيل" أسست عائلة المفتي، "الحزب الفلسطيني العربي". وأعلن زعيمه، جمال الحسيني، علانية أن الحزب أسس وفقاً للنموذج النازي. حتى أن حركة الشبيبة التابعة للحزب، أطلق عليها اسم "الكشافة النازيين" لفترة ما.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان المفتي يقيم في العراق، أجرى من هناك اتصالات مع قوات المحور، وحاول جمع التأييد لثورة موالية للنازيين في العراق وسوريا، (استعان بصلاح الدين البيطار، وميشيل عفلق، من مؤسسي حرب البعث).

في عام ١٩٤١، أطاح النظام العربي الجديد، الذي كان حليفاً للمفتي، بالنظام الملكي الهاشمي في العراق، وأعلن الحرب على دول الحلفاء. وأخيراً أعاد الجيش البريطاني الملك الى عرشه، في العراق. ولكن حتى تمكن الجيش البريطاني من العودة الى بغداد، كان قد قُتل حوالي ٦٠٠ يهودي .

خرج المفتي من بغداد الى روما وبرلين، وعرض خدماته لمساعدة المجهود الحربي لكل من إيطاليا وألمانيا، شريطة ان تعترفا، إعترافاً مبدئياً بوحدة واستقلال وسيادة أمة عربية ذات طابع فاشي، تشمل العراق وسوريا وفلسطين، وشرق الأردن.

في تشرين أول ١٩٤١، أصدرت الحكومة الألمانية بياناً رسمياً في برلين، تعهدت فيه بالعمل على تصفية الوطن القومي اليهودي في فلسطين . طار المفتي

الى برلين، وقابل هتلر، لأول مرة، في ٢٨ تشرين ثان ١٩٤١. وأعرب المفتي عن استعداده للتعاون مع ألمانيا يشترط الطرق، بما فيها تجنيد لواء عربي يقاتل الى جانب الألمان النازيين. وقال هتلر للمفتي ان الاثنين لهما هدف واحد مشترك هو إبادة يهود "أرض فلسطين".

من الان فصاعداً، واصل المفتي العمل بنشاط لصالح النازيين. وتحدث اكثر من مرة عبر الاذاعة الألمانية، داعياً المسلمين أينما وجدوا، للثورة ضد الحلفاء. حتى أنه نظم عمليات تخريب وتجنس داخل الدول العربية. وفيما يلي نموذج مما أذاعه الحسيني في عام ١٩٤٢، ومنه نستطيع معرفة العلاقة الواضحة بين المجهود العربي الألماني النازي، وبين الطلوحات العربية: إذا انتصرت بريطانيا، لا سمح الله، سيمسيطر اليهود على العالم كله. وستسلب بريطانيا وحلفاؤها من العرب الحرية والاستقلال. وسيوجهون طعنة الى قلب الوطن العربي، ويقتطعون منه اجزاء لاقامة دولة يهودية، التي لن تقتصر أطماعها على فلسطين، إنما ستتوسع لتشمل بلاداً عربية أخرى... ولكن إذا هُزمت بريطانيا وحلفاؤها، سيتم حل المسألة اليهودية حلاً نهائياً، التي تعتبر بالنسبة لنا الخطر الأكبر".

كما أن المفتي جند مسلمين من الاتحاد السوفياتي ودول البلقان لوحداث عربية خاصة، أقيمت في اطار الجيش الألماني، من قبل فلسطيني آخر، هو فوزي القراقجي. فبعد أن قام بجولة في يوغسلافيا، تم تجنيد حوالي ٦٠٠٠ مسلم تم دمجهم في وحدة جبليّة تابعة لـ "قائبن - إس . إس" التي اشتركت فيما بعد، بقتل يهود يوغسلافيا.

وأعلن المفتي: "أقتلوا اليهود حيثما وجدتموهم".
"الله يريد ذلك، والتاريخ يريد ذلك، والدين يريد ذلك أيضاً".

خلال الفترة من ١٩٤٢ - ١٩٤٤، عمل المفتي من قاعدته في برلين، وحاول منع انقاذ يهود من هنغاريا ورومانيا، وبلغاريا، وكرواتيا، التي رغم استعبادها من قبل هتلر، سمحت لليهود بالهروب الى "أرض اسرائيل" وأماكن أخرى. واحتج المفتي على ان الألمان لم يتخذوا الاجراءات الكافية لمنع هروب لاجئين يهود من البلقان.

في ١٣ أيار ١٩٤٣، على سبيل المثال، قدم المفتي كتاباً الى وزير الخارجية الألماني روبن تروب، احتج فيه على خطة تسمح بهجرة حوالي ٤٠٠٠ ولد يهودي من بلغاريا، ورغم كل هذا، لم يكن المفتي راضياً، كان هدفه أبعد من منع هروب اليهود من أوروبا، كان يرغب في ان يرى إبادةهم جميعاً. قال، ديتير فيلييتسكاني، نائب، أدولف آيخمان، ان الحسيني، كان له دور في اتخاذ قرار إبادة يهود أوروبا. ويجب عدم تجاهل دوره هذا... فقد اقترح المفتي، أكثر من مرة، على السلطات الألمانية التي كان على اتصال بها، وعلى رأسها، هتلر، وتروب، وهملر، إبادة يهود أوروبا. كان يرى في ذلك حلاً مناسباً للقضية الفلسطينية.

كيف نجا هذا المجرم المقيت من العقاب؟ في اعقاب الحرب، اكتشف مجرمو حرب نازيون، وقدموا للمحاكمة في جميع أنحاء أوروبا - لكن هذا لم يحدث في العالم العربي، حيث أستقبل هناك النازيون والمتعاونون معهم كأبطال. لقد حظي مئات من الضباط النازيين بملاجئ في العواصم العربية، وتم تشغيلهم هناك كمستشارين في أعمال القتل. وبخاصة، مصر، حيث حاولت اجتذاب نازيين لخدمتها، من خلال التنافس مع الانظمة الدكتاتورية في أمريكا الجنوبية، التي ارادت هي كذلك، الاستفادة من التجربة الألمانية في قمع الشعوب.

وفعلًا، كان باستطاعة مصر التفاخر بما حصلت عليه من مجرمي الحرب أمثال، جنرال ال (إس . إس) أوسكار ديرلونفر، الذي قتل آلاف اليهود في أوكرانيا، ثم أصبح الحارس الشخصي لجمال عبدالناصر، والدكتور هنريخ فلامان، الذي أجرى تجارب على الانسان.

كما أن رجل إس . إس" القاتل المشهور، الويس برونر، عاش سنوات طويلة في دمشق كضيف على السوريين، وكمستشار للنظام الحاكم في المجال الامني. وكذلك منظمة التحرير التي واصلت طريق المفتي، وتعاونت منذ اليوم الأول لتأسيسها مع "النازيين الجدد".

لقد هزمت النازية في أوروبا، غير أنها سرعان ما وجدت لنفسها مجالاً مريحاً لتبنيها في الشرق الاوسط.

بعد الحرب أُستقبل الجنود والعلماء الذين حاربوا من أجل هتلر بحماس بالغ في أنحاء العالم العربي. وأصبح المفتي نفسه ضيفاً على الحكومة المصرية، واستأنف "عمله كالمعتاد"، أي نشر نظريته السامة في العالم العربي كله. وبالتعاون مع ابن عمه، زعيم العصابات، عبدالقادر الحسيني، أقام المفتي في عاصمي ١٩٤٧، و ١٩٤٨، وحدات لتصفية اليهود. وترأس هذه الوحدات محاربون قدامى، حاربوا الى جانب النازيين أمثال، فوزي القاوقجي، وحمود رفاعي. كان الرفاعي، سورياً حارب في صفوف المظليين الألمان. وكان يستمد إيجاه من دعوة الحسيني المشهورة: "إنني أعلن الجهاد، أقتلوا اليهود، أقتلوهم جميعاً".

في أيلول ١٩٤٨، أقام المفتي حكومة "عموم فلسطين" التي كان من المقرر ان تكون غزوة مقرأ لها. وعُيّن شقيق ياسر عرفات، جمال، الذي خدم مع قوات عبدالقادر الحسيني، سكرتيراً لحكومة المفتي. (يدعي عرفات أنه قاتل الى جانب الحسيني، ويسكن ايجاه الدليل على ذلك في التقرير الذي يفيد انه، أي عرفات، كان مساعداً شخصياً له).

أيدت مصر الحكومة الفلسطينية، لكي تكون وزناً مضاداً للملك عبدالله في شرق الأردن، الذي كان يطالب هو الآخر، بأرض اسرائيل كلها. في عام ١٩٥١، بعد هزيمة العرب في حرب "الاستقلال" أبدى الملك عبدالله مؤشرات واضحة بشأن رغبته في التوصل الى سلام مع اسرائيل، واغتيل فوراً على أيدي عملاء المفتي. ان الارهاب السياسي الذي طوّره المفتي وتلامذته، لا يزال يلقي بظله وتهديده على دول كاملة في الشرق الأوسط، حتى يومنا هذا.

لذا، ليس من الغريب، أن يحاول الملك فاروق، ملك مصر، تقليص تحركات المفتي المتطرفة وتحديد مجال مناورته. عندما حاول المفتي الخروج الى غزوة لترؤس "حكومته" أمر فاروق باعادته الى مصر فوراً. وأخيراً هرب المفتي الى بيروت. حيث مات هناك. وقبل موته، حظي المفتي برؤية سقوط أعدائه. ففي ١٩٥٢، أُطيح بالملك فاروق، ليحل مكانه نظام استبدادي بزعامة جمال عبدالناصر. استغل عبدالناصر الجهاز الحكومي المتوفر لديه، لاثارة الكراهية للغرب، وتنمية حلم الثار من مثلي الغرب، اليهود الذين اغتصبوا فلسطين.

وأدرك عبدالناصر، أن من يقود الحركة ضد اسرائيل ، يضمن لنفسه زعامة

العالم العربي. لذا لم يأل جهداً في التأكيد على ضرورة القضاء على دولة اسرائيل. وبشت وسائل الدعاية المصرية، ما خلفه المفتي من كراهية، في أوساط المتطرفين في العالم العربي، وبخاصة الفلسطينيين الشباب، الذين إنصهروا في الفرن السياسي للقاهرة الثورية في الخمسينات. وكان مثل هؤلاء الشباب، الذين هجرت عائلاتهم اسرائيل، قبل حرب "الاستقلال" أو خلالها، يتواجدون بكثرة في القاهرة، وسرعان ما انضموا الى عجلة القومية العربية. ومن بين هؤلاء، نشأت فيما بعد، زعامة منظمة التحرير الفلسطينية - عرفات، أبو اياد، أبو جهاد، وغيرهم. وتلقى هؤلاء تدريباتهم العسكرية الأولية في إطار الوحدات الفلسطينية التي شكلها عبدالناصر، لمحاربة اسرائيل.

في عام ١٩٦٤، دعا عبدالناصر، زعماء العالم العربي، لعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، لمناقشة موضوع واحد، كان الوحيد الذي يمكن ان يتفقوا بشأنه، وهو كيف يمكن القضاء على اسرائيل. "في ذلك المؤتمر، اقترح عبدالناصر تشكيل منظمة من العرب الفلسطينيين، تعمل في جميع أنحاء العالم، ومن أجل القضاء على الدولة اليهودية. ووافقت الدول العربية بحماس، واتفق الجميع على تمريل نشاطات المنظمة، التي تزعمها "بوق عبدالناصر"، أحمد الشقيري.

منذ البداية، أراد عبدالناصر ان تكون منظمة التحرير الفلسطينية أداة لخدمة القومية العربية تحت زعامته. كان من المقرر ان ترفع منظمة التحرير شعارات فلسطينية وتنفيذ عمليات محدودة ضد اسرائيل، بيد أنه كان واضحاً، أن على المنظمة ان تعمل بإشراف وثيق من قبل الحكومة المصرية. للحيلولة دون وقوع ردود فعل غير مرغوبة من جانب اسرائيل.

وبعد فشله الفريع في اليمن عام ١٩٦٢، كان عبدالناصر بحاجة الى فترة زمنية لاعادة بناء قوة جيشه. وبدا في نظره، أن القيام بشيء ما بشأن القضية الفلسطينية، (ضجة معينة)، يمكن ان يحسن من صورته، دون ان يبالغ في المغامرة. وكان الشقيري مناسباً جداً لهذه المهمة: عندما كان الشقيري سفيراً للعربية السعودية في الأمم المتحدة، وصفه الدبلوماسي الايرلندي، كونيرو كروز، بأنه "صفر مصفر". غير انه سرعان ما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تطور أفكاراً

خاصة بها. فقد وقعت المنظمة على قدميها، بفضل النشاطات الارهابية التي نفذتها حركة "فتح" عرفات.

في تلك الفترة، حظيت "فتح" برعاية نظام البعث السوري، وكانت متورطة بعشرات الغارات على اسرائيل عبر الحدود مع الاردن. صحيح أن معظم الغارات كانت فاشلة، إلا أن السعة التي نالتها "فتح" بفضلها، أرغمت عبدالناصر على التخفيف شيئاً ما على قطاع غزة. في البداية سمح للشقيري بالقيام بعدة عمليات، وأخيراً وضع حركة "فتح" في مركز منظمة التحرير الفلسطينية وعين عرفات رئيساً للمنظمة.

وشيناً فشيناً، نجحت منظمة التحرير الفلسطينية بالتحرر من رعاية عبدالناصر كلها، وتبنت استراتيجية مستقلة خاصة بها. وقررت منظمة التحرير بزعامة عرفات، أن لا تكون رأس حربة لحرب عربية ضد اسرائيل، فحسب، بل العنصر المثير للحروب المأسولة. اعتقد زعماء منظمة التحرير أنهم اذا شنوا هجمات على اسرائيل واستطاعوا جرّها الى عمليات انتقامية ضد الدولة العربية، ستتصاعد وتتسع دائرة العنف، حتى تبلغ الذروة، في حرب شاملة يدمر العرب فيها اسرائيل. وطيلة العشرين سنة التي تلت ذلك، ظل عرفات يؤمن أنه على الرغم من مخاوف الدول العربية من احتمال تعرضها لهزيمة أخرى في حرب مع اسرائيل، سينجح في إرغامها على الحرب. واصبح عرفات، بذلك، أكبر مثير للحروب في العالم العربي، حيث قال: "أن حرب الاستنزاف ضد العدو الصهيوني، لن تتوقف أبداً... ان مصلحتي تستوجب حرباً جديدة في المنطقة، لأنني أعتقد أن العلاج الوحيد لعدا الأمة العربية هو حرب حقيقية ضد العدو الصهيوني".

على اية حال، كان هدف حملة الارهاب التي شنتها منظمة التحرير الفلسطينية هو الدخول الى اسرائيل واشعال نيران حرب جديدة بين العرب واسرائيل. واعتمدت غارات عناصر المنظمة على الخبرة المكتسبة في الخمسينات من عمليات الفدائيين الذين رعاهم عبد الناصر. كان الفدائيون يدخلون الى الاراضي الاسرائيلية، يقتلون مدنيين ويفجرون سيارات، ثم يعودون الى قواعدهم في قطاع غزة، الذي كان آنذاك، تحت الحكم المصري، وفي الضفة الغربية التي كانت تحت الحكم الاردني. وودت اسرائيل بعمليات جريئة ضد قواعد الارهاب. وادت عمليات الفدائيين ، واغلاق مضائق تيران ، في نهاية الامر الى خروج اسرائيل في

"حملة قادش" (حملة سيناء) ضد مصر عام ١٩٥٦، التي دمرت خلالها قواعد الفدائيين في قطاع غزة.

وعبد الناصر، الذي كان لا زال يذكر هزيمة جيشه امام الجيش الاسرائيلي وهو يظهر قواعد الفدائيين في سيناء عام ١٩٥٦، لم يعد مستعداً الآن لتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من مواصلة عملياتها، من الاراضي المصرية. لذا، نقلت المنظمة جبهة عملها الى الاردن، التي كانت تعتبرها جزءاً من فلسطين، ولم يكن الاردن قوياً بما فيه الكفاية لمنع منظمة التحرير من العمل انطلاقاً من اراضيها. كان يخشى رد الانظمة العربية في العراق وسوريا ومصر، التي كانت كلها تؤيد، بالطبع، انتشار جيش التحرير الفلسطيني في الاردن.

في تلك الاثناء كانت عناصر المنظمة تهاجم اهدافاً داخل اسرائيل انطلاقاً من قواعدها في الضفة الغربية. ورد الجيش الاسرائيلي على هذه الهجمات بشن غارات شديدة، كانت ذروتها الهجوم على بلدة سموع في نهاية عام ١٩٦٦. وبذلك يكون ارباب المنظمة قد ساهم بدوره في تصعيد التوتر الذي ادى، في النهاية، الى اندلاع "حرب الابادة" الماسولة ضد اسرائيل، حرب الايام الستة، رغم ان هذا الارهاب لم يكن العنصر الوحيد او الحاكم لاندلاعها.

ولكن، كما هو معلوم، لم تجر الحرب كما توقعتها منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية. فاسرائيل التي تنبأ الشقيري بكل ثقة، قبل ايام من الحرب، بابطائها، الحقت بالجيوش العربية هزيمة نكراء، وحررت المناطق التي كانت تنطلق منها المنظمة لمهاجمة اسرائيل - الضفة الغربية وغزة. عندئذ أُرغمت منظمة التحرير الفلسطينية على نقل قواعدها الى الضفة الشرقية للاردن، ودخلت في مواجهة مباشرة مع نظام الحكم الاردني. كان الحسين لا زال يخشى العمل ضد دخول المنظمات الى اراضيها، لذا كان يفضي الطرف عن افعالها. ولكن كان كلما ابدى الحسين مزيداً من ضبط النفس، كلما زادت منظمة التحرير من قوتها. وبلغت صفاقة وجرأة المنظمة درجة انها بدأت تستعد "لتحرير" الضفة الشرقية أولاً، لتكون نقطة انطلاق لتحرير الضفة الغربية.

في عام ١٩٦٨، ابرمت منظمة التحرير الفلسطينية حلفاً علنياً مع ثلاث منظمات كانت غير مشروعة في الاردن - الحركة القومية العربية الموالية لعبد

الناصر؟ وحزب البعث والشيوعيون بهدف الاستيلاء على الدولة. لكن هذه الخطة كانت ينقصها شيء واحد هو: انها لم تأخذ بالحسبان ان الملك الحسين لن يوافق على تسليم مملكته.

في تلك الاثناء كانت المنظمة قد اقامت دولة داخل دولة، وزادت حالات الاصطدام مع قوات الامن الاردنية، وارتدى رجال المنظمة ملابسهم العسكرية، وجبوا الضرائب من السكان، وجندوا مواطنين لقواتهم، وبدأوا يتدخلون في كل شيء..

وفي عام ١٩٧٠، تجاوزت تصرفات رجال عرفات الحدود، ردا على اعتقال عدد من الارهابيين، قام رجال المنظمة بالسيطرة على فنادق، واحتجزوا رهائن، وقتلوا الملحق العسكري الامريكي في عمان.

بعد فشلها في الاستيلاء على الاردن، توجهت منظمة التحرير الفلسطينية الى مهمة اسهل - الاستيلاء على لبنان. بدا آنذاك ان لبنان تعتبر جبهة مثالية لاستئناف الهجمات على اسرائيل، وبخاصة بعد ان حظرت بقية الدولة العربية، على منظمة التحرير العمل من داخل حدودها، في حين لم تكن في لبنان حكومة قوية قادرة على منع المنظمة من ذلك.

وخلافا للوضع الحدودي بين الاردن واسرائيل التي يفصل بينهما حاجز طبيعي هو نهر الاردن، تعتبر لبنان امتدادا جغرافيا لمنطقة الجليل الاعلى. وهذه المنطقة جبلية تكسوها الاشجار والشجيرات، الامر الذي يوفر امكانية التستر والهروب لعناصر المنظمة.

في عام ١٩٦٩، كانت قد وقعت عدة اشتباكات بين الجيش اللبناني، ورجال منظمة التحرير الفلسطينية الذين حاولوا احتلال مناطق في جنوب لبنان، مقابل الحدود الاسرائيلية ، والتي عرفت باسم " فتح لاند " وسرعان ما انتشر

النزاع في بيروت.

اللى السوريون بكامل تقلمهم الى جانب "المخربين" بهدف زعزعة نظام الحكم اللبناني. في الواقع اعلن عرفات انه لا يعتزم ابداً التدخل في الشؤون الداخلية لاية دولة عربية (نكتة مضحكة للغاية، في ضوء ما قامت به المنظمة في الاردن ولبنان، والكويت). ولكن حتى عام ١٩٧٥، كانت المنظمة قد استطاعت انشاء دولة "بحكم الواقع" في لبنان امتدت من غرب بيروت حتى الحدود الاسرائيلية. حيث انطلق من هناك رجال المنظمة في هجمات متكررة على اهداف داخل اسرائيل، كانت كلها اهدافاً مدنية تقريباً.

في عام ١٩٧٤، قتل ١٨ مدنياً في كريات شمونة، و ٢٦ آخرون في معلوت. وفي ١٩٧٤، ١٩٧٩، قتل مدنيين اسرائيليين في نهاريا (احد رجال المنظمة حطم رأس طفلة في الخامسة من عمرها امام والدها، ثم قتله). وكذلك عملية طريق الساحل، في ١٩٧٨، نفذها رجال المنظمة الذين قدموا من لبنان، وقتلوا فيها ٣٥ رهينة. كما استخدمت المنطقة اللبنانية التي سيطرت عليها للقصف مدن ومستوطنات اسرائيلية. وحتى عام ١٩٨٢، كان عدد سكان المستوطنات الشمالية في تناقص مستمر، وكان يتم اغلاق مدارس ومصانع، ومناطق استجمام، للتقليل من عدد المصابين نتيجة عمليات القصف تلك، وبدأت المنطقة الشمالية بأسرها، مهددة بخطر الانهيار الاقتصادي، وتفرغها من السكان.

وعلى غرار ما حدث في الاردن، ادى تعاظم قوة المنظمة في لبنان الى ردود فعل اسرائيلية، وحرب اهلية في لبنان. حيث اندلعت معارك بين الشيعة والمسيحيين وبين منظمة التحرير الفلسطينية التي فرضت عليهم ارادتها بالقوة.

يعتبر سكان لبنان، خير شاهد على نوعية دولة منظمة التحرير الفلسطينية، في حالة قيامها، لانهم عاشوا في الواقع تحت نير دولة كهذه: لقد عانوا من مصادرة ممتلكات، وقتل جماعي، واعمال غيرها لا تحصى ولا تعد، ومن تجنيد اجباري لاولاد في الثانية عشرة من اعمارهم، في صفوف المنظمة. والاكثر من هذا، وذلك، تميزت دولة المنظمة بالفساد وجمع الاموال، وبخاصة من قبل زعمائها، بدءاً بعرفات نفسه (تلك الظاهرة التي تكررت بصورة مدعشة، بعد انشاء السلطة الفلسطينية في غزة). وهنا، انصح اولئك الذين يزينون اقامة دولة منظمة التحرير

الفلسطينية بمطالعة الكتاب الذي ألفه رفائيل يسرائيل بعنوان "منظمة التحرير الفلسطينية، في لبنان" (The P.L.O in Lebanon).

لقد أدت أعمال المنظمة في لبنان والحرب الأهلية التي اشتعلت نيرانها هناك إلى قتل ما يزيد عن (١٠٠) ألف شخص. وهنا أيضاً، كما هي الحال بالنسبة للحدود مع مصر والأردن، قامت إسرائيل برد عسكري على الهجمات ضدها. وبغية حماية مستوطنات الشمال، اجتاز الجيش الإسرائيلي الحدود وهاجم تجمعات "المخربين"، بداية، في "عملية الليطاني" عام ١٩٧٨، ومن ثم في عملية "سلامة الجليل" عام ١٩٨٢. تلك العملية، التي أثارت في حينها انتقادات شديدة في العالم وفي إسرائيل ذاتها، استحدثت في نهاية الأمر الاسم الذي أطلق عليها. إذ منذ اقضاء المنظمة عن بيروت، وإنشاء المنطقة الأمنية في جنوب لبنان لم ينبجج "المخربين"، تقريباً، في الدخول إلى الأراضي الإسرائيلية من لبنان.

لقد أدت عملية "سلامة الجليل" في الواقع، إلى اشتباكات عسكرية بين إسرائيل وسوريا، لكن تلك كانت حرباً محدودة اقتصرت على الأراضي اللبنانية، وأجوائها وليست حرباً شاملة، كما أرادتها منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت إسرائيل تعتزم اجتثاث قواعد المنظمة فقط، غير أنه، وخلال العملية، اصطدمت القوات الإسرائيلية بمقاومة من جانب القوات السورية، التي تحتل (ولا زالت) مناطق واسعة من الأراضي اللبنانية. دمر الجيش الإسرائيلي بطاريات صواريخ سورية، واسقط سلاح الجو الإسرائيلي حوالي ١٠٠ طائرة مقاتلة سورية، وققد طائرة مقاتلة واحدة. وبما أن رأس التينين في المنظمة، كان يقيم في غرب بيروت، اضطر الجيش الإسرائيلي لدخول المدينة، وتطوير المنطقة الغربية منها. وبعد حصار طويل، تم اخراج قيادات المنظمة من بيروت.

وتبين أن التهديد الذي تردد أكثر من مرة، بأن الجيوش العربية ستذهب، هبة رجل واحد، ضد إسرائيل، فيما لو تجرأت على دخول عاصمة عربية، كان مجرد كلام فارغ: إن أي دولة عربية لم تفعل شيئاً، لانتقاد منظمة التحرير الفلسطينية. لقد بدا آنذاك أن استراتيجية منظمة التحرير منيت بفشل ذريع على كافة الجبهات.

غير أن هذا التقدير، لم يكن هو ما حدث فعلاً، فبالإضافة للحرب الفاشلة

التي خاضتها المنظمة على طول الحدود الاسرائيلية، اداوت المنظمة حرباً اخرى ايضاً، خلقت لها نجاحاً لا بأس به. واقصد هناك "الارهاب الدولي" الذي بادرت به منظمة التحرير في اواخر الستينات، وشمل العالم كله خلال السنوات العشرين التالية.

كانت حرب الارهاب التي شنتها المنظمة موجهة، لاحتجاز رهائن والمطالبة مقابل الافراج عنهم، بالافراج عن "مخربين" مسجونين. لكن اسرائيل لم تستسلم: لم يسبق ان استجابت اسرائيل لمطالب المنظمة، وكان يتم القضاء على "المخربين". لذا ازدهادت الميل لدى منظمة التحرير بشأن نقل حلبة الارهاب الى خارج اسرائيل، او بدقة اكثر: ضرب الخطوط الجوية التي تربط اسرائيل بالعالم. اعتقدت منظمة التحرير انه عن طريق مهاجمة المسافرين والطائرات، تتوفر لديها فرص افضل للمس بأسرائيل، دون ان تكون لديها القدرة على الدفاع.

بدأت المعركة في الجو باختطاف طائرة آل عال" الى الجزائر عام ١٩٦٨، ثم طائرة اخرى كانت في طريقها الى لندن، وثالثة هوجمت على ارض المطار في زيوريخ. كما هاجم مخربون يابانيون يعملون في خدمة منظمة التحرير الفلسطينية، مطار الدد في اسرائيل، وقتلوا عشرات السياح الذين جاؤوا لزيارة اسرائيل. وعندما بدأت اسرائيل تطور وسائل واساليب لحماية طائراتها، انتقلت المنظمة لمهاجمة شركات طيران غير اسرائيلية، حيث نسفت طائرات امريكية في الاردن، واختطفت طائرة بلجيكية كانت في طريقها الى اسرائيل عام ١٩٧٢. وعندما اختطفت طائرة شركة "ساينا" البلجيكية، كنت انا احد افراد الوحدة الاسرائيلية التي هاجمت الطائرة، واطلقت سراح الرهائن، باستخدام اساليب جديدة. ثم بلور الجيش الاسرائيلي نظرية وقاية ضد مثل هذه العمليات، الامر الذي جعل المطار الدولي الاسرائيلي وشركة الطيران الاسرائيلية، غير قابلين للاختراق. في هذه الحالة اضطرت منظمة التحرير الفلسطينية الى الابتعاد في عملياتها اكثر فاكثراً. وفي عام ١٩٧٦، نجح "المخربون" بتنفيذ خطة اختطاف طموحة جداً، حيث اختطفوا طائرة تابعة لشركة الطيران الفرنسية "ايرفرانس" كانت تحلق في اجواء اوروبا، وارغموها على التوجه الى مطار عنيتية في اوغندا. وقدم حاكم اوغندا "عبيدي امين" للمخاطفين ملجأ، وقام جنوده بحراستهم. وهناك تم الافراج عن الركاب من غير المهرود، وبقي في الطائرة ١٠٦ من الركاب اليهود، حيث احتجزوا كرهائن. وهدد

الخاطفون العرب والالمان بقتل الرهائن، اذا لم تفرج اسرائيل عن اعضاء المنظمة
السجونين لديها، بتهمة الاشتراك في اعمال ارهابية.

وفي اطار عملية لا مثيل لها في التاريخ العسكري، اقلعت جوا قوة عسكرية
اسرائيلية لمسافة ٣٠٠ كم، الى دولة معادية، وقضت على "المغربين" وعلى الجنود
الاوغنديين الذين ساعدوهم، وحررت الرهائن واعادتهم الى اسرائيل، وقتل في
عملية "عنتيبة" ثلاثة من الرهائن، كما قتل خلالها، اخي، يوني، الذي قاد القوة
المهاجمة. كانت "عملية يورتان"، كما اسميت رسمياً من قبل الحكومة، المعركة
الحاسمة في الحرب ضد الارهاب الدولي. حيث بدأت في اعتقالها اجهزة الامن
الاوروبية، بشن هجمات معاكسة جريئة ضد الارهاب، الامر الذي ازمع منظمة
التحرير الفلسطينية على البحث عن اشكال جديدة للارهاب.

منذ بداية عملها، تعاونت منظمة التحرير الفلسطينية مع منظمات اخرى في
تخطيط وتنفيذ عمليات ارهابية. غير ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن
مجرد واحدة من منظمات الارهاب العالمية، انما كانت المنظمة التي جعلت
الارهاب مصطلحاً عالمياً في العهد الجديد، وكانت هي التي اوجدت فن تخويف
بني البشر في العالم كله، وكانت اول من اختطف الطائرات ونسفها في الجو،
 واحتجاز الرهائن، واغتيال دبلوماسيين، وطلاب مدارس، ورياضيين، وسياح،
 واعمال وحشية اخرى. لقد حاكت منظمات عديدة اخرى في العالم، اساليب منظمة
التحرير الفلسطينية، لان نجاح ارهاب في مكان ما، يخلق ارهاباً مماثلاً في
اماكن اخرى.

غير ان علاقات منظمة التحرير الفلسطينية مع المنظمات الارهابية الاخرى، لم
تقتصر على مجال تقليدها من قبل هذه المنظمات، انما منذ مطلع السبعينات،
 وحتى حزيران ١٩٨٢، عندما طردت المنظمة من لبنان، كانت "دولة منظمة
التحرير" في لبنان معهداً وملجأً للارهاب الدولي. حيث وجدت منظمات ارهابية
من كافة ارجاء العالم، في هذه "الدولة" ملاذاً، وقاعدة تدريب، وقاعدة انطلاق
 لتنفيذ هجمات ارهابية خارج لبنان. وجميع المخربين في العالم، مروا عبر
 معسكرات التدريب التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في صور وصيدا: كالألوية
 الحمراء، الايطالية، عصابات "بادرمانيهوف"، من المانيا، الجيش الجمهوري
 الايرلندي، الجيش الاحمر الياباني، العمل المباشر في فرنسا، جيش التحرير

التركي، جماعة "أصالة" الارمنية، "حراس الثورة" الايرانيون، اراهييون من امريكا اللاتينية، ونازيون جدد من المانيا - جميعهم كانوا هناك.

من "عش الدبوس" هذا، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، انتشر "فيروس" الارهاب الى جميع انحاء العالم الغربي، وبمساعدة حكومات عربية في كثير من الاحيان، وبمساعدة دول من الكتلة الشيوعية. ولكن ما مدى الضرر الذي اصاب اسرائيل نتيجة لهذه الاعمال؟

في اعقاب كل عملية ارهابية، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تدعي، بالطبع، انها الحققت ضرراً بالغاً باسرائيل. مثلاً: اعلن ابو العباس، مساعد عرفات ورئيس احد الفصائل التابعة للمنظمة، بعد الهجوم الذي نفذه رجاله على شاطئ، نتسانيم، عام ١٩٨٩، انه قتل وجرح في الهجوم حوالي (٥٠٠) اسرائيلي والحققت خسائر بفرع السياحة الاسرائيلي تقدر بحوالي ٥ مليارات دولار. ولكن في الواقع، لم يقتل اي انسان، ولم تحدث اية اضرار.

في حقيقة الامر، كان حجم الاضرار التي الحقها الارهاب باسرائيل هامشية. كما ان الخسائر في الارواح نتيجة لهذه العمليات كانت اقل بكثير منها في حروب اسرائيل؛ خلال ثلاثين سنة من الارهاب الذي مارسته المنظمة ضد اسرائيل، قتل بضع مئات من الاسرائيليين، مقابل ١٩ الفاً قتلوا في حروب اسرائيل. ومع ذلك، يمكننا القول، بالتأكيد، ان الارهاب الدولي الذي مارسته منظمة التحرير الفلسطينية نجح في المكان الذي فشلت فيه كافة الحروب العربية؛ لقد نجح في الحاق ضرر سياسي بالغ باسرائيل.

لقد ساهم الارهاب في صعود المنظمة على المنصة العالمية، ومنح مصداقية لادعاءات المنظمة بشأن اليأس والمعاناة اللذين يعيشهما الشعب الفلسطيني الذي تمثله.

ففي بادئ الامر، لم يدرك العالم ان العمليات الارهابية تنفذها هيئة غنية تتمتع بدعم حوالي اثنتي عشرة دولة، انما كمجموعة من الاشخاص اليائسين، اللذين ليس لديهم ما يخسرونه.

كانت منظمة التحرير، تسارع بعد كل انفجار يقع في عاصمة عربية، الى الاعلان بأن هذا العنف، هو نتيجة لعدم حل القضية الفلسطينية، وان هذا العنف

لن يتوقف، حتى ينتهي الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية.

بعد وصولي الى الولايات المتحدة، عام ١٩٧٢، للالتحاق بالجامعة قتل رجال منظمة التحرير الفلسطينية (١١) رياضياً اسرائيلياً في اولمبياد ميونخ. وكانت المنظمة قد نفذت قبل ذلك عمليات اختطاف طائرات، وقتلت السفير الامريكي في السودان، غير ان اسم هذه المنظمة لم يكن مشهوراً بعد. لقد استمعت الى الانباء من ميونخ، في منزل بروفيسور اسرائيلي، كان يحاضر في جامعة برنليس.

قال احد الجلوس: على الاقل، سيعلم الجميع الان، من هم هؤلاء الاشخاص، ورد عليه البروفيسور: نعم، تماماً، خلال وقت قصير سيعرف العالم كله، طبيعة هؤلاء الناس.

لقد كان محققاً فعلاً. اذ سرعان ما دخل اسم منظمة التحرير الى وعي وبيت كل انسان في العالم الغربي (والشرقي) وكلما ذاع صيتها، كلما زاد عدد المقتنعين بأن فلسطين، يجب ان يتم تحريرها.

واصبحت الدول الواحدة تلو الاخرى، تنجرف وراء ادعاءات المنظمة بأنها تناهض من اجل حقوق الانسان، او ان هذه الدول كانت ترضخ لابتزازات المنظمة. وكانت حملة القتل والتخريب والاختطاف المستمرة، مفيدة وفعالة، لدرجة جعلت كثيرين في العالم الغربي، يرون في معاناة الفلسطينيين، اقصى ظلم شهد عالمنا المعاصر، الذي يتطلب "بالطبع" معالجة فورية.

نستطيع ان نحكم على مدى نجاح المنظمة، في هذا المجال، من خلال ما قاله الرئيس الامريكي جيمي كارتر، عام ١٩٧٦. حيث توصل الى استنتاج مفاده، انه رغم العنف والوحشية التي تتصف بها اعمال الارهاب الفلسطينية، فان هنالك درجة لا بأس بها من العدالة في ادعائهم بأن ظلماً فظيماً ألحق بهم، وان هذا الظلم يمكن معالجته عن طريق منحهم حق تقرير المصير فقط، تماماً مثلما حل وضع اليهود باقامة دولتهم، حيث قال: لا توجد طريقة للتهرب من الاعتراف بمدى تشابك وتقارب تاريخ وطموحات ومصير هذين الشعبين، العربي الفلسطيني، واليهودي... الفلسطينيون يعانون... من ظروف التشرد بين شعوب كثيرة، وان حقهم في منحهم حق تقرير المصير ووطن قومي خاص بهم، يحظى الان بتأييد قوي في كل العالم.

ادى "ارهاب" منظمة التحرير الى جعل العالم الغربي يعترف بضرورة حل القضية الفلسطينية، وذلك بقيام دولة فلسطينية، لكن زعامة المنظمة عرفت انه لكي تجني اكبر قدر من المكاسب السياسية، نتيجة لهذا الاعتراف، يجب عليها التهرب من المسؤولية المباشرة عن الاعمال الفظيعة التي نفذتها. صحيح ان اعمال الارهاب لفتت الانتباه للمنظمة، لكنها لم تجعل الارهابيين الذين يتزعمونها، اشخاصاً يمكن لسياسي العالم التفاوض معهم. لذا بدأت المنظمة حملة نفي وتكذيب هدفها ابعاد عرفات وزعامة المنظمة عن مسؤولية الاعمال الارهابية الكثيرة التي نفذها رجالهم.

حتى في خضم الاعمال الارهابية، كانت المنظمة تدير معركة واسعة النطاق لعكس المعلومات المتعلقة باعمال ارهابية حيث نسبتها الى "متطرفين" يعملون خارج سلطة المنظمة، وان المنظمة نفسها هي هيئة متزنة ومعتدلة. في منتصف السبعينات، اعلن رجال منظمة التحرير الفلسطينية ان المنظمة تسعى لتحقيق السلام، تشجب العنف والارهاب، وتتبع خطاً جديداً، عملياً وواقعياً.

كانت المنظمة، آنذاك، تملك طائلاً من الاموال التي ابتزتها من الانظمة العربية الغنية. مثل العربية السعودية والكويت. حيث مكنت هذه الاموال، المنظمة، من اقامة شبكة واسعة من المكاتب والممثلات في العالم كله، ومنها بثت المنظمة بشرى اعتدالها الى الرأي العام الغربي، الذي كان متعطشاً لكل شيء ينطوي على امكانية حل النزاع الشرق اوسطي (يجب ان لا ننسى ان الغرب كان في تلك الفترة يعيش تحت نير حظر النفط الذي فرضه العرب).

وقام ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية، في اورويبا، وامريكا الشمالية والجنوبية، وآسيا، واستراليا، بصفة دبلوماسيين معتدلين انيقين في لباسهم، بعرض بضاعتهم المعتدلة عبر شاشات التلفزيون، ومن على صفحات الجرائد، وفي نوادي روتاري والكنائس، وحتى في الكنيس اليهودية.

بدأت منظمة التحرير الفلسطينية، استخدام خطة "النفي" منذ عام ١٩٧٠، لدى اقامة منظمة "ايلول الاسود" التي كانت اول منظمة في سلسلة عدد كبير من المنظمات الارهابية "المستقلة" ظاهرياً. وقام رجال "ايلول الاسود" باغتيال رئيس حكومة الاردن ، وصفي التل ، والسفير الاميركي في الخرطوم كليا ونونيل ،

ومساعدته كرتيس مور، والرياضيين الاسرائيليين في ميونخ، وغيرها. وادعى عرفات ان ليست له اية علاقة بتنظمة "لايول الاسود"، حتى جاء عام ١٩٧٣، ليعلن احد كبار منظمة التحرير ان، ابو اياد، نائب عرفات، هو القائد المباشر "لايول الاسود".

ولكن رغم هذا الاكتشاف، نجح عرفات في الادعاء بأن المنظمة تخلت، منذ فترة، عن ممارسة الاساليب المتطرفة، واصبحت منظمة معتدلة. وعلاوة على محاولات اخفاء دور المنظمة في العمليات الارهابية، وجدت المنظمة طريقة اخرى لكسب الريح السياسي من الهجمات الارهابية التي كانت تشنها. فبين الحين والآخر كانت المنظمة تتطوع للتفاوض، بصفتها طرفاً "موضوعياً" بشأن الافراج عن الرهائن الذين يحتجزهم رجالها. وكانت مثل هذه المناورات تنجح احياناً. ففي عام ١٩٧٩، على سبيل المثال، تطرعت المنظمة للتوسط في اطار مفاوضات استهدفت اطلاق سراح الرهائن الذين احتجزوا في مقر السفارة المصرية في تركيا، من قبل منظمة سرية، عرفت باسم "سور الثورة الفلسطينية".

واعترفت حكومة تركيا بالجميل لمنظمة التحرير الفلسطينية التي نجحت بانهاء الازمة، وكافاتها بأن اعترفت بها دبلوماسياً. واتضح فيما بعد، ان مندوب المنظمة في المفاوضات كان هو نفس الشخص الذي خطط لعملية الاختطاف كلها.

لكن جهود منظمة التحرير للتوصل من مسؤولية الارهاب لم تفد، وواجهت ازمات متلاحقة، وخاصة وان الارهاب نفسه، تمرض لازمات ومشاكل. فبعد دخول الجيش الاسرائيلي الى لبنان عام ١٩٨٢، دمرت "مملكة الارهاب" التي اقامتها منظمة التحرير الفلسطينية طيلة عشرات السنين. وانتقلت قيادة المنظمة الى تونس، حيث فقدت هناك قدراً كبيراً من قدرتها على زرع الدمار.

في منتصف الثمانينات، بدأت الدول الغربية هجوماً واسع النطاق على الارهاب. وكان هذا الهجوم سياسياً، قبل كل شيء.. كان هدف الهجوم توعية الدول التي تقف وراء الارهاب، ورفض الارهاب بصورة مطلقة بغض النظر عن هوية الارهابيين ودوافعهم الملتنة. وقد سبق هذا الاجراء جهد كبير، استغرق سنوات عدة، لحمل الغرب على تغيير موقفه من الارهاب.

في اطار الجهود المبذولة لتحقيق مثل هذا التغيير في موقف الغرب، اسس "معهد يوتنان"، تيمناً باسم اخي يوني وكان هدفه اطلاق جماهير الدول الغربية على نوعية الارهاب وطرق محاربتة.

في المؤتمر الدولي الاول ضد الارهاب، الذي نظمه "معهد يوتنان" والذي عقد في القدس عام ١٩٧٩، طرح الادعاء بأن الارهاب اصبح نوعاً من الحرب السياسية، التي تديرها أنظمة حكم دكتاتورية، ضد الدول الديمقراطية الغربية. وقدم المشتركون في المؤتمر، وكان بينهم السناتور، هنري جاكسون، وجورج بوش، الذي كان آنذاك مرشحاً للرئاسة الامريكية، تفاصيل حول التورط المباشر لانتظمة حكم عربية، والاتحاد السوفياتي والدول التي تدور في فلكه، بالارهاب الدولي.

وقالت مراسلة صحيفة "وول ستريت جورنال" التي حضرت المؤتمر ان هذه التفاصيل، واجهت معارضة شديدة واثارت غضب عدد كبير من الصحفيين الذين غطوا المؤتمر ان الاعتقاد بأن الارهاب ليس عملاً يائساً يقوم به افراد يائسون، انما هو اداة حرب تستخدمها دول ومنظمات قتلة، كان مرفوضاً في ذلك الوقت نظراً لعدم مصداقيته. بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، تحدثت مع عدد من موظفي دول الكتلة الشرقية سابقاً، حيث استغفروا اصامي، مدعى سذاجة الصحفيين الغربيين وجهلهم في هذا الموضوع. وفي المؤتمر الثاني الذي نظمه "معهد يوتنان" والذي عقد في واشنطن عام ١٩٨٤، دعا المشتركون، الذين كان بينهم شخصيات من كبار السياسيين الامريكيين الى فرض عقوبات عسكرية وسياسية واقتصادية على الدول التي ترعى الارهاب.

لقد جمعت المحاضرات والمناقشات التي دارت في هذا المؤتمر في كتاب بعنوان: الارهاب: كيف يستطيع الغرب التغلب عليه"، واضفت اليه مقالا مطولا، اكدت فيه على ضرورة توجيه ضربات عسكرية لدول الارهاب. وبعد وقت قصير من قيام الولايات المتحدة بضرب ليبيا، خصصت مجلة "التايم" صفحات كاملة لهذا المقال (الذي قرأه الرئيس ريغان) وربما كان هذا هو السبب الذي جعل عددا من المعلقين في الصحف العربية يتهمونني بأنني السبب وراء السياسة الامريكية المتشددة.

منذ بداية عملي في "معهد يوتنان" ومن ثم في اطار وظائفني الدبلوماسية، آمنت دائماً، بأن المفتاح للقضاء على الارهاب الدولي، يكمن في تجنيد الولايات

المتحدة الامريكية لهذه الحرب. اذ انه منذ اللحظة التي تسلك فيها الولايات المتحدة الطريق الصحيح، ستجر وراها بقية الدول الغربية. لكن لم يكن من السهل اقتناع الادارة الامريكية بتغيير وجهة نظرها في هذا المجال. بناء على النظرية التي كانت سائدة في الولايات المتحدة، في اواخر السبعينات ومطلع الثمانينات، فان سبب الارهاب، يكمن في اعمال القمع السياسي والاجتماعي، وان انتهاء هذا القمع، فقط، هو الذي سيؤدي الى وقف اعمال الارهاب.

لقد رفضت هذه النظرية منذ البداية. فالارهاب، بطبيعته هو اداة قمع، يستخدمها، عادة، الذين يتبجحون في الحديث عن "حقوق الانسان"، وحرية الانسان"، وعندما يصلون الى السلطة، يدوسون بأقدامهم كل الحريات الانسانية. عملت بالتعاون مع زملائي في "معهد يونتان" على اساس فرضية ان الموقف الامريكي ليس مبدأ غير قابل للتحويل عنه، انما هو واقع يمكن تغييره، ببذل جهده اقتناع تكون موجهة بشكل رئيسي الى الرأي العام الامريكي، واعتمدت جهود الاقتناع تلك، على كشف الحقائق التي كانت مخفية عن نظر الجمهور. ثم جمع الادلة وبعد فحصها وتدقيقها بحرص شديد، نشرناها على نطاق واسع، حيث اتضح من هذه الادلة، بصورة لا تقبل التأويل، ان الارهاب الدولي، بعيد عن كونه عملاً يقوم به اشخاص متفرون ياتسون، وما هو الا شرعة تحالف بغيض بين انظمة حكم استبدادية ومنظمات ارهابية - تحالف، يجب محاربه والحاق الهزيمة به.

كان لدولة اسرائيل دور رئيس في تجنيد الولايات المتحدة لهذا الهدف، فعلى الصعيد العسكري، كانت اسرائيل تمثل النموذج للصراع الشديد ضد الارهاب. وفي رفضها الرضوخ لاملاءات الارهابيين، وهجماتها المستمرة على "المخربين" الذين احتجزوا رهائن من معلوت وحتى عنتيبة، واصرارها على ضرب قواعد الارهاب العربي حيثما كانت اثبتت اسرائيل بأنه يمكن محاربة الارهاب.

وعلى الصعيد السياسي، بذل الدبلوماسيون الاسرائيليون جهداً كبيراً لاقتناع حكومات الولايات المتحدة والدول الغربية، بأنه يجب على هذه الدول ان تتصرف كما تتصرف اسرائيل.

بلغ هذا الجهد ذروته، اثناء فترة تولي موشيه ارنس، منصب السفير الاسرائيلي في واشنطن عام ١٩٨٢ وصل ارنس ، الى الولايات المتحدة، قبل عملية

"سلامة الجليل" بوقت قصير. وكما هو معلوم، اتخذت الولايات المتحدة، في تلك العملية، موقفاً معادياً لإسرائيل، ومارست عليها ضغوطاً شديدة، بما في ذلك تجميد تزويدها بطائرات حربية، وبفل ارنس الكثير من الجهد لكي يغير موقف الولايات المتحدة بصورة كاملة، معتمداً بشكل خاص على العلاقات المميزة التي نشأت بينه وبين الرئيس الأمريكي ريفان، ووزير خارجيته، شولتس.

وفي تموز ١٩٨٢، عندما انضمت الى السفارة الاسرائيلية في واشنطن كملحق سياسي، كرست جهودي ايضاً، لتغيير السياسة الامريكية. وكذلك اسحق شمير الذي كان وزيراً للخارجية في حكومة مناحم بيغن كان يدعم هذه الجهود دون تحفظ. ويعد ان اصبح رئيساً للحكومة، أكد شمير اهمية تنمية علاقات وثيقة مع الادارة الامريكية، بهدف القضاء على الارهاب.

ولدى عودة ارنس الى اسرائيل عام ١٩٨٣، ليعمل وزيراً للدفاع، عملت طيلة نصف سنة كقائم بأعمال السفير في واشنطن، الى حين قدوم السفير الجديد، مثير روزين.

في تلك الفترة، واصلت الاتصال الذي كان ارنس قد بدأه مع شولتس قبل ذلك. وكنت في مناسبات مختلفة، واجتماعات دبلوماسية، ومقابلات مع وسائل الاعلام الامريكية، اهاجم بشدة الارهاب الدولي وناظمة الحكم والمنظمات العربية، التي تقف وراء الارهاب كنت اقول، انه يمكن الحاق الهزيمة بالارهاب، شريطة ان تتبنى الدول الغربية مبدئين اساسيين لمحاربتهم: الاول: رفض الرضوخ لمطالب الارهابيين. الثاني: ابداء الاستعداد لمحاربة الدول الداعمة للارهاب.

لقد دعوت مراراً وتكراراً لتبني سياسة متشددة تشمل فرض عقوبات سياسية واقتصادية، وحتى عسكرية، ضد هذه الدول.

وفي احد الايام، دعاني شولتس الى مكتبه ليقول لي، انه قلق من انتشار موجة الارهاب. و اضاف، ان هؤلاء الارهابيين هم "حيوانات في صورة انسان"، وليس "من بني البشر" وانه قرر تغيير السياسة الامريكية تجاه الارهاب من سياسة الامتناع السلبي، الى سياسة المقاومة الفعالة، رغم وجود من يعارض مثل هذا التغيير. (كان يقصد بذلك بشكل خاص، وزير الدفاع، واينبرغر، الذي كان يعارض استخدام القوة العسكرية ضد الارهابيين) . واقترح شولتس ان تجري

سلسلة من الاتصالات بهذا الشأن، لكي نعد معاً، ما الذي يجب على الولايات المتحدة عمله بالتعاون مع دول العالم الحر، لمحاربة الارهاب.

تحدثت له عن نية "معهد يوتتان" عقد مؤتمر دولي في واشنطن حول موضوع الارهاب، واقترحت عليه ان يلقي كلمة في المؤتمر، تتضمن موقفه هذا ويشرح السياسة الامريكية الجديدة.

في ٤ تموز ١٩٨٤، بعد مضي سبع سنوات على عملية الانقاذ في عنتيبة، عقد المؤتمر الثاني الذي نظمه "معهد يوتتان" في واشنطن، حيث قال فيه جورج شولتس ما يلي: "بفضل الجهود الكبيرة التي بذلتها حكومات قلقة ومنظمات خاصة، مثل "معهد يوتتان"، بدأت أخيراً، شعوب العالم الحر تواجه مشكلة الارهاب... ان ما عرفناه عن الارهاب، هو قبل كل شيء، انه ليس عنفاً جاء بالصدفة، وغير موجه، وليس هدف. انه لا يشبه الهزة الارضية او العاصفة الهوجاء، من اعمال الطبيعة التي نقف عاجزين امامها. ان للارهابيين ومؤيديهم، اهدافاً محددة، والعنف الارهابي هو الوسيلة لتحقيق هذه الاهداف. وردنا يجب ان يكون مزدوجاً: يجب علينا حرمانهم من الوسائل. ولكن يجب علينا، بشكل خاص، منعهم من تحقيق اهدافهم. سيحاول الارهابيون اكتشاف نقاط ضعف لدينا، او مؤشرات انقسام. علينا ان نجعلهم يلفون درجة اليأس من تحقيق اهدافهم... اعتقد انه، من الناحية العملية، لا يعتبر الدفاع السلبي وحده، رادعاً كافياً ضد الارهاب، وضد الدول التي تمنحه رعايتها. حان الوقت للتفكير ملياً، وبصورة جدية وعميقة، بالوسائل الدفاعية الفعالة اكثر - دفاع بواسطة عمليات وقائية ضد جماعات الارهاب قبل تمكنها من توجيه ضرباتها.

في ضوء السياسة التي تبنتها حكومة اسرائيل التي اقيمت في عام ١٩٩٢ - تلك السياسة التي تمكن الارهاب من تحقيق اهدافه - تبدو اقوال شولتس تلك، ضرورية جداً الان.

يكرر اليساريون الاسرائيليون وممثلوهم في الكنيست الاسرائيلية، الادعاء بأنه لا يمكن وقف الارهاب او حتى تقليص حجمه، الا من خلال المسيرة السلمية التي تعتبر رضوخاً لاملاءات الارهاب السياسية بالذات. لكن شولتس وريغان اتبعا سياسة مغايرة تماماً، وفي اعقاب سياستهما المتشددة تلك، توقفت الهجمات الارهابية كلياً، تقريباً في الثمانينات.

لقد قادت الولايات المتحدة الصراع. فرحت عقوبات سياسية واقتصادية ضد دولة إرهابية مثل ليبيا، سوريا، إيران . وعملت بأصرار من أجل اعتقال قتلة منظمة التحرير الفلسطينية في قضية اختطاف سفينة أكيلي لورو. وفوق هذا كله، بعثت برسالة قوية للإرهابيين في العالم كله، عندما قصفت، بالتعاون مع بريطانيا، ليبيا عام ١٩٨٦، (ذلك الهجوم الذي كاد يؤدي بحياة القذافي نفسه).

وخلال تلك السنوات، التي شهدت التحول الكبير في السياسة الأمريكية تجاه الإرهاب، كانت بداية تحول معاكس في السياسة الإسرائيلية، تمثل أبرزها في صفقة تحرير الإرهابيين من منظمة أحمد جبريل، عام ١٩٨٦. إذ أنه بعد سنة من تشكيل حكومة الوحدة بين حزبي الليكود والعمل، وافقت حكومة إسرائيل برئاسة شمعون بيرس على الإفراج عما يزيد على ألف "مغرب" مقابل إعادة ثلاثة من جنود الجيش الإسرائيلي كانوا محتجزين في لبنان.

في الواقع، سبق هذه الصفقة، صفقات أصغر حجماً مثل الإفراج عن ٧٦ "مغرباً" عربياً، مقابل إعادة مواطن إسرائيلي مختطف، في عهد حكومة مناحيم بيغن عام ١٩٧٩، لكن تلك الصفقات كانت لا تذكر قياساً بحجم الصفقة الثانية. منذ البداية، إعتبرت صفقة جبريل، ضربة قوية لكل الجهود الإسرائيلية لبلورة جبهة دولية ضد الإرهاب. فكيف تستطيع إسرائيل أن تنصح الدول الغربية والولايات المتحدة بتبني سياسة عدم الرضوخ لمطالب الإرهابيين، عندما تكون، هي نفسها، قد رضخت بهذه الصورة المخزية للإرهاب؟ وعلاوة على ذلك، كانت لدى قناعة بأن الإفراج عن ألف "مغرب" ودخولهم إلى مناطق الضفة الغربية وغزة، لا يـأـ و أن يؤدي إلى تصعيد العنف، لأن هؤلاء المخربين سيستقبلون كأبطال، وكنموذج يحتذى للشباب الفلسطيني وكزعماء لجماعات إرهابية.

وبعد بضعة أيام من قرار الحكومة بهذا الشأن، كتبت إلى أحد الوزراء، من مقرّي في الأمم المتحدة، حيث كنت سفيراً لإسرائيل هناك، "أن صفقة جبريل هي اجراء قد يشير موجة جديدة من أعمال القتل وسفك الدماء على نطاق واسع". وفعلاً، أصبح اليوم واضحاً، أن إطلاق سراح الألف مغرب، كان أحد العناصر الرئيسية، التي عززت المحرضين والزعماء الذين اشعلوا نار الانتفاضة. ولكن رغم رضوخ حكومة إسرائيل المهين للمخربين ، إلا أن الرئيس الأمريكي

ريغان ووزير خارجيته شولتس، قررا الامتناع نهائياً عن الرضوخ لمطالب الارهابيين، واتخاذ سلسلة اجراءات متشددة ضدهم.

وعندما التقيت بجورج شولتس، في واشنطن بعد حوالي سنة من اطلاق سراح "قتلة أحمد جبريل" في ١١ تموز ١٩٨٦، وصف شولتس، هذه الاجراء من قبل الحكومة الاسرائيلية، بأنه كان "خطأ فادحاً". لكن هذا الخطأ، كان لا يذكر، قياساً بما فعلته حكومة حزب العمل بعد توليها السلطة في عام ١٩٩٢. فبعد أن وصف شمير "صفقة" الافراج عن المخربين بأنها عملية "فريدة ووحيدة". جعلت حكومة رابين هذه العملية أمراً روتينياً. أضف الى ذلك، أنها كانت تفعل هكذا، حتى دون مقابل، ما عدا الاعتقاد بأن الافراج عن القتلة، قد يرضي منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين، ويغير هدفهم الاساسي وهو القضاء على اسرائيل في يوم ما.

ولكن، كما أسلفنا، لم يكن الوهن الذي أصاب الفكر الاسرائيلي، في منتصف الثمانينات، قد أثر على السياسة الأمريكية بعد، وعلى العكس، بذلت الادارة الأمريكية جهوداً كبيرة لتغيير موقف الدول الغربية تجاه الارهاب. ففي أعقاب القصف الأمريكي للبيبا عام ١٩٨٦، دعت الولايات المتحدة الى عقد مؤتمر قمة للدول الغربية الرئيسة في طوكيو، حيث اتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة بشأن تبني سياسة غربية متشددة ضد الارهاب.

وفي عام ١٩٨٧، أقر الكونغرس الأمريكي تشريعاً ضد الارهاب، ثم بمقتضاه إغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في الولايات المتحدة. وجاء في القانون أن منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر منظمة ارهابية تعرض للخطر مصالح الولايات المتحدة والدول الحليفة لها.

وبعد عشرين سنة، تمتع خلالها الارهاب الدولي، وعلى رأسه إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية، بحرية عمل مطلقة في العالم، تقرر أخيراً، مبدأ معاقبة الارهابيين والدول التي ترعاهم.

في مطلع عام ١٩٨٨، انحدرت منظمة التحرير الفلسطينية الى اسفل نقطة وصلت اليها منذ تأسيسها. إذ لم تستطع من موقعها النائي في تونس، أن تطبق دعوتها لمواصلة الكفاح المسلح ضد اسرائيل ، وبدأت تتدفع بسرعة نحو مكانة

سياسة عديمة التأثير والأهمية.

وفي مؤتمر القمة العربية الذي عقد في عمان في تشرين ثان ١٩٨٧، لم تعد القضية الفلسطينية، تمثل المركز الأول على جدول أعمال المؤتمر (كان الموضوع الرئيس في المؤتمر، الحرب الإيرانية - العراقية التي كانت قد دخلت آنذاك عامها الثامن).

وعلى أية حال، قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن عليها أن تغير بسرعة وبصورة جذرية، صورتها الارهابية لدى الغرب، وإيجاد طرق أخرى، تثبت فيها، أنها لا تزال قادرة على تحرير فلسطين. واتضح للمنظمة انه لكي تكون مقبولة لدى الدول الغربية، لا يكفي ان تنفي تورطها في الاعمال الارهابية، إنما يجب عليها ان تثبت للولايات المتحدة أنه طرأ تغير أساسي أيضاً، في نظرتها تجاه اسرائيل. لذا، بدأ الناطقون بلسان المنظمة يستخدمون صيغاً، تعتبر عن هذا التوجه، لدى مخاطبتهم العالم الغربي، في حين كان كل ناطق عربي يستطيع تفسير هذه الصيغ بصورة مختلفة، من حيث الغاية.

فالاصطلاح الدارج "مناطق محتلة"، على سبيل المثال، يشير الى المناطق التي تسعى منظمة التحرير لتحريرها، تستخدم المنظمة هذا الاصطلاح، للإشارة الى اسرائيل كلها، (المناطق التي احتلت عام ١٩٤٨، لكن العالم الغربي يفسر على أن المنظمة تقصد بذلك الضفة الغربية وغزة) (أي المناطق التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧).

وأحياناً، كانت تصدر بعض الهفوات عن قادة المنظمة، عندما ينسى أحدهم الجمهور الذي يخاطبه. فمثلاً، تعزق قناع المنظمة، عندما قال أبو إياد، رئيس الجناح العسكري لحركة فتح، خلال مقابلة مع شبكة (بي. بي. سي)، عام ١٩٨٥: "عندما نقول فلسطين المحتلة... نعتبر أن كل فلسطين محتلة ... ان مقاومتنا ستشمل كل مكان في المنطقة، وهذا لا يقتصر على الضفة الغربية وغزة فقط".

كما أطلق فاروق القدومي أقوال مماثلة في مقابلة مع الصحيفة الفرنسية (Quotidien de Paris)، في نفس السنة: "عندما نتحدث عن الكفاح المسلح، الذي اعترفت بمشروعيته، الأمم المتحدة، فاننا نقصد بذلك كافة المناطق

المحتلة من فلسطين .. من حقنا محاربة العدو الذي احتل ارضنا، سواء تلك التي أُحتلت عام ١٩٦٧، أو عام ١٩٤٧.

غير أن مثل هذه الصراحة، كانت نادرة للغاية، في الصحافة الغربية، إذ حرصت المنظمة بشكل عام، على اخفاء نواياها. ومن بين الخطط الناجحة التي استخدمتها المنظمة لإثارة الانتطباع بأنها أصبحت معتدلة، كانت خطة "إعلان وانف": إذ يدلي زعماء المنظمة بتصريحات ذات أكثر من معنى، بحيث يمكن تفسيرها لأول وهلة، أنها "تنازل سياسي" مثل الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود، وفوراً يتفون هذه التصريحات.

وأبرز نموذج على هذه الخطة يتمثل في الوثيقة التي وقّعها عرفات في قيادته المحاصرة في بيروت عام ١٩٨٢، بحضور عضو الكونغرس الأمريكي، بول مكلوسكي. حيث قال مكلوسكي، ان عرفات أعلن أنه على استعداد للاعتراف بإسرائيل وفقاً لكل قرارات الأمم المتحدة - ذلك التصريح الذي سبق ان ادلى به عرفات قبل ذلك، وكان مشكوكاً فيه للغاية.

لكن، مكلوسكي، وقع في الفخ، إذ سارع بإبلاغ الصحف عن حدوث انطلاقة سياسية، تركت صدى في العالم بشأن الانفتاح الجديد من جانب عرفات، ولكن بعد بضع ساعات فقط، نفت منظمة التحرير الفلسطينية هذا الموضوع برمته. وكما هي الحال في كل واحدة من الاستراتيجيات السابقة لمنظمة التحرير الفلسطينية، كان الهدف الرئيس للمنظمة من لعبة "الاعتراف بإسرائيل" هو كسب ود واشنطن. إذ قبل انهيار الاتحاد السوفياتي بوقت طويل، كان قد أدرك كثيرون من زعماء المنظمة، أن الطريق لممارسة الضغط الحقيقي على إسرائيل، لا تمر عبر الكرمليين، إنما عبر البيت الأبيض، والرأي العام الأمريكي. وبدأ هذا الاعتراف يدخل شيئاً فشيئاً الى العالم العربي كله، (وبعد انتصار الولايات المتحدة في حرب الخليج عام ١٩٩١، دخل الى دمشق أيضاً).

اعتمدت الاستراتيجية الفلسطينية، على مبادئ التقليل والتشويه التي تبنتها الدعاية العربية، والتي أثبتت فعاليتها دون أدنى شك: بعد أن تم تقليل النزاعات في الشرق الأوسط لتقتصر على الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وبعد أن اتضح أن المنظمة تحظى بتأييد الشعب الفلسطيني المطلق، طُلب من

الأمريكيين الآن قبول الحلقة الأخيرة في السلسلة: "تشمل المنظمة حلول الوسط والسلام، في النزاع، في حين تمثل إسرائيل العقبة أمام تحقيق السلام".

ويعد ان تنتهي هذه المرحلة من الاقتناع بصورة ناجحة، ستشرع الولايات المتحدة بإجراء اتصالات مع منظمة التحرير "المعتدلة"، وتمارس الضغط على إسرائيل "الرافضة". ولكن كي تنطلق هذه الحملة، يتوجب على منظمة التحرير تجاوز حاجز مرتفع: في عام ١٩٧٥، وقع وزير الخارجية الأمريكي، آنذاك، هنري كيسنجر، على مذكرة مع إسرائيل، تلزم الولايات المتحدة بالامتناع عن إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية طالما لم تعترف هذه المنظمة بحق إسرائيل بالوجود، وقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢. وفي وقت لاحق، التزمت الولايات المتحدة أيضاً، بعدم إجراء اتصالات مع المنظمة، إلا في حالة توقفها عن ممارسة أعمال الارهاب.

لذا، فمن أجل تجاوز هذه العقبة، ولكي تكون مقبولة كطرف في الحوار مع واشنطن، كان يجب على المنظمة أن تخفي هدفها (القضاء على إسرائيل) وسياسة الارهاب التي ظلت تنادي بها. الأمر الذي جعل المنظمة تقرر "الاعتدال" وتختار تكتيك اللغة المزدوجة، والتصريحات التي تستطيع نفيها بسهولة أمام الجماهير العربية.

في عام ١٩٨٨، تم التحول أخيراً، الى صيغة الخلاص التي جعلت منظمة التحرير تحظى بالأمل المنشود من الولايات المتحدة. لقد تجادل عرفات حتى اللحظة الأخيرة، حول كل نقطة في ورقة التفاهم مع الولايات المتحدة، حتى تم الاتفاق أخيراً على صيغة ترضي الطرفين، وكان من المقرر أن يدلي عرفات أمام مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الذي سيعقد في الجزائر في شهر تشرين ثان من نفس العام، بتصريح يكون مقبولاً لدى الولايات المتحدة، ثم بعد ذلك ببضعة أيام، يكرر تصريحه مع بعض التعديلات المتفق عليها مع الأمريكيين، خلال مؤتمر صحفي في جنيف. وفي المقابل، كان من المقرر أن تشرع الولايات المتحدة بإجراء حوار مع المنظمة.

هنالك، شيء ما، غريب في هذه النظرية، التي ترى أن مجرد الادلاء بكلام فقط، يجيز قبول ارهابيين والتحاور معهم ، ذلك لأن القرن الحالي شهد أكثر من

ارهابي كذب بصورة دائمة، في سبيل تحقيق اهدافه. ناهيك عن أن الكلمات التي انتزعها الأمريكيون من فم عرفات، كما تُنتزع السن المريضة، لا تعني الكثير.

وفينا يلي التصريحات التي أدلى بها عرفات في جنيف حول موضوع الارهاب:

أن المجلس الوطني الفلسطيني، يؤكد من جديد رفضه للارهاب بكافة أشكاله، بما في ذلك إرهاب الدول... وهذا الموقف واضح وثقي من أي شواذب. وعلى الرغم من ذلك، انني انبذ الارهاب بكل صوره وأشكاله، وفي نفس الوقت، أحيي الجالسين أمامي في هذه القاعة، الذين اتهمهم مستعبدوهم بالارهاب، عندما كانوا يناضلون في سبيل تحرير بلادهم من نير الاستعمار... كما أحيي باجلال وإكبار الشهداء والمعتبين الذين سقطوا على أيدي الارهاب والارهابيين وعلى رأسهم صديقي أيام حياتي، وثائبي الشهيد الرمز، خليل الوزير (أبو جهاد) والشهداء الذين سقطوا في المذابح التي نُفذت ضد رجالنا في المدن والقرى ومخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وجنوب لبنان".

صحيح، أن عرفات ندد بالارهاب، لكنه في الجملة التي تلت التنديد، سحب البساط من تحت أقدام التنديد: فالارهاب، حسب تعبير عرفات، هو ما فعلته اسرائيل بالفلسطينيين، وهذا ما هو على استمداد ومطلوب منه التنديد به. أما بالنسبة لما قامت به المنظمة نفسها، فعرفات "يعتني" أولئك الذين "أُتهموا" بالارهاب، وعلى رأسهم أبو جهاد، الرجل الذي خطط لعملية القتل في نهاري عام ١٩٧٤، ومذبحة طريق الساحل عام ١٩٧٨، وقتل البحارة الاسرائيليين الثلاثة في برشلونة عام ١٩٨٥، وعدة أعمال إجرامية" أخرى.

كما أن الاعتراف، ظاهرياً، بحق اسرائيل في الوجود لم يكن أكثر من مجرد كلام سحر"، حيث قال:

"قبل ما يزيد عن أربعين سنة، اتخذت الأمم المتحدة القرار رقم ١٨١ (قرار التقسيم عام ١٩٤٧)، القاضي بإنشاء دولتين في فلسطين. أحدهما عربية فلسطينية، والآخرى يهودية. وعلى الرغم من الظلم التاريخي الذي ألحق بشعبنا، فإن نظريتنا اليوم تقضي بأن ذلك القرار، لا يزال يلبي المطالب الشرعية الدولية التي تضمن للشعب العربي الفلسطيني سيادة واستقلالاً وطنياً... إن المنظمة، تسعى لتحقيق تسوية شاملة بين اطراف النزاع العربي - الاسرائيلي، بما في ذلك

دولة فلسطين، واسرائيل، ودول مجاورة أخرى، في إطار المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط، على أساس القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨، من أجل ضمان المساواة والتوازن لكافة المصالح، وبخاصة حق شعبنا في الحرية والاستقلال الوطني، واحترام حق جميع الاطراف بالعيش بسلام وأمن".

في كل هذا "اللف والدوران" لم تكن هنالك كلمة واحدة، تعني ان المنظمة تعترف باسرائيل أو انها مستعدة لابرام معاهدة سلام معها. والأشد من ذلك ، هو أن المكانة البارزة التي مُنحت لقرار ١٨١ - قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ - تظهر فراغ التمثيلية من مضمونها، حيث بمقتضى هذا القرار يحق للفلسطينيين استعادة، ليس الضفة الغربية وغزة فقط، إنما اجزاء كبيرة أيضاً من اسرائيل في حدود عام ١٩٦٧، وبضمنها مراكز سكانية يهودية كبيرة مثل: يافا، اللد، الرملة، بئر السبع، عكا، نهاريا، كريات جات، اشدود، اشكلون، ومساحات في الجليل والنقب. وتجدر الاشارة أيضاً الى انه بموجب قرار التقسيم لا تعتبر القدس جزءاً من دولة اسرائيل، إنما يجب أن تكون تحت رعاية دولية . كل هذا، ينسجم جيداً مع طريقة منظمة التحرير الفلسطينية في الحديث عن السلام مع اسرائيل بناء على "كافة قرارات الأمم المتحدة".

لقد كانت هذه الصيغة، مرغوبة دأماً، لدى العرب، لأنه من بين قرارات الأمم المتحدة "الموضعية" تلك التي تقطع من اسرائيل هضبة الجولان والقدس، وتغمر السهل الساحلي باللاجئين العرب، وتفرض حظراً على الأسلحة، وعقوبات اقتصادية على اسرائيل، وباختصار، تفكك الدولة عملياً.

وعندما إفتרכת منظمة التحرير الفلسطينية التوصل الى سلام على أساس "كافة قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالنزاع"، أو "وفقاً لقرار ١٨١"، فإنها كمن يبلفك انه مستعد لأن يكون صديقاً لك، إذا سمحت له فقط، ببئر رجليك".

لقد طُحمت، وأبرزت التصريحات التي أدلى بها عرفات في الجزائر ومن ثم في جنيف، في وسائل الاعلام التحمسة، وكأنها حدث تاريخي بارز جداً. واستغلت الولايات المتحدة وبريطانيا تلك التصريحات فوراً، كذريعة للشروع في مفاوضات مع المنظمة، واستخدمها الرئيس الفرنسي، ميتران، كمبرر لاستقبال عرفات في باريس. واعتبرت أكبر الصحف في العالم، خطاب عرفات، معجزة، أو كحدث يطول

في أهميته إتفاقيات كامب ديفيد. حيث كتبت صحيفة نيويورك تايمز، مثلاً؛ أن النظرية الأمريكية المتعلّقة بالعلاقات بين العرب وإسرائيل، تمر الآن في عملية تغيير... الشهر الماضي، ندد عرفات بالارهاب، واعترف، تقريباً، بحق إسرائيل في الوجود، وبذلك يكون قد حرق كل الأوراق.

يجدر بمن يرغب في تحليل التصريحات الصادرة عن منظمة التحرير الفلسطينية، أن يذكر أن الشيء المهم لدى المنظمة، شأنها شأن أي نظام استبدادي، ليس ما تقوله للاستهلاك الخارجي، بل ما تقوله لرجالها في الداخل. عندما كنت أعمل في الأمم المتحدة، كان المندوب السوفياتي يكثر من الحديث عن رغبة الاتحاد السوفياتي في تحقيق السلام في أفغانستان. وكان الجميع يعرفون أن تلك الأقوال لا معنى لها، وأن السوفيات يواصلون قتل المتحاربين الأفغان بصورة روتينية. ولكن، بعد أن بدأت الصحف السوفياتية تورد أقوال الجنود السوفيات من الجبهة الأفغانية في سهل فنجشير، الذين يناشون حكومة الاتحاد السوفياتي بإنهاء الحرب، وبعد أن بدأت هذه الأقوال تُقرأ في الشوارع في موسكو وكيف، أصبح واضحاً أن تغييراً حقيقياً يوشك أن يحدث. وكذلك الأمر، بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، لا توجد أية أهمية لما يقوله مندوبو المنظمة في الأمم المتحدة في نيويورك، أو لما يهيمونه بالملغتين الانجليزية والفرنسية، في آذان الدبلوماسيين في جنيف، ولما يقوله مندوبو المنظمة لوسائل الاعلام الاسرائيلية والدولية بغية خداع وتضليل الرأي العام في إسرائيل والغرب. ان الأكثر أهمية، هو ما تقوله المنظمة لرجالها – باللغة العربية. إذ هنا تكشف المنظمة عن نواياها الحقيقية.

وفعلاً، بعد بضعة أيام على رفض عرفات للارهاب وتنديده به. والاعتراف الطاهر بإسرائيل، بدأ الناطقون باسم المنظمة يشرحون للمصحف العربية، أن تصريح عرفات يأتي في إطار سياسة المنظمة بعيدة المدى، وأنه لم يحدث أي تغيير فعلي.

أولاً، اختفى التصريح بشأن تخلي المنظمة عن الارهاب؛ فبعد مضي خمسة أيام على تصريحه في جنيف، قال عرفات في مقابلة مع التلفزيون النمساوي أنه لم يقصد "رفض الكفاح المسلح" (أي، الارهاب)، وأنه هو وعدد آخر من زعماء المنظمة، أوضحوا بأن الكفاح المسلح لن يتوقف.

وسرعان ما توقفت وسائل الاعلام العربية عن محاولة الدفاع عن النوايا الثورية، ظاهرياً، التي تضمنتها تصريح جنيف. بعد اسبوع من التصريح، قال سليم الزعنون، نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، وعضو اللجنة المركزية التابعة لحركة فتح: "الكفاح المسلح، يجب ان يستمر في كل مكان، ضد العدو الصهيوني وحلفائه... لا يوجد أمامنا خيار سوى مواصلة كفاحنا المسلح، من أجل إلحاق الهزيمة بالعدو وإقامة دولتنا".

كما أعلن نائب عرفات، أبو اياد: "ان منظمة التحرير، لم يسبق أبداً ان التزمت بوقف الكفاح المسلح، ولن تندد به". وها هو، نايف حواتمة، زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين يقول: "ان الثورة الشعبية في فلسطين، متمسكة بقرارها مواصلة النضال حتى القضاء على الاحتلال الصهيوني، وتحرير فلسطين من البحر وحتى النهر، ومن الجنوب حتى الشمال".

ومرة أخرى يقول أبو اياد: "لم يسبق أبداً ان عتينا برفض الارهاب، تجميد النشاطات العسكرية". وعندما طُلب من فاروق قدومي، التعقيب على تصريحات عرفات الراضة للارهاب، أجاب: "هذا تشويه لتصريحات الرئيس عرفات... نحن نندد بالارهاب، وبخاصة الارهاب الرسمي الاسرائيلي". وعندما سأله الصحفي الذي أجرى المقابلة معه، عما إذا كانت هذه الأقوال تفرغ الالتزام الذي اعتمد على اساسه وزير الخارجية الأمريكي، جورج شولتنس، في اجراء محادثات مع المنظمة، من مضمونه، قال القدومي: "فليذهب شولتنس الى الجحيم. واعتقد، أنه ذاهب الى هناك لا محالة".

وهكذا، أيضاً، كان مصير "الاعتراف" الذي أعلنته المنظمة باسرائيل. فقد نفاه أبو اياد، نفياً باتاً أمام كل من ينطق باللغة العربية. ففي ١١ شباط ١٩٨٩، قال أبو اياد: "لم يكن هنالك أي اعتراف من المنظمة باسرائيل، سواء في اطار قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، ولا في مضمون خطاب عرفات في الأمم المتحدة في جنيف".

وأكد أقواله هذه، جورج حبش، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حيث قال: "ان قرارات المجلس الوطني الفلسطيني لم تتضمن أية إشارة الى الاعتراف باسرائيل، ولا يحق اسرائيل في الوجود. لم نعترف باسرائيل".

في ٨ آب ١٩٨٩، تبنت حركة "فتح" القرار الداعي لتسعيد العمل المسلح، ومختلف أشكال النضال، بغية إنهاء الاحتلال الصهيوني لفلسطين". وقد أقرت اللجنة التنفيذية التابعة لمنظمة التحرير هذا القرار في ٣١ كانون ثان ١٩٩٠. وكان هذا القرار مقدمة للبيان المشترك الذي أصدره في نفس الشهر، عرفات والقذافي، وجاء فيه: "إن دولة إسرائيل، هي إحدى نتائج الحرب العالمية الثانية، ويجب أن تختفي وتزول كما زال جدار برلين، وبقيّة نتائج تلك الحرب".

لقد تكرّر هذا المشهد من جديد، عندما تراجع عرفات ظاهرياً عن الميثاق الفلسطيني وبخاصة البند الذي يستوجب القضاء على إسرائيل.

قبل تصريحات الجزائر وجنيف، وعندما كان يتعرض عرفات إلى ضغط شديد من قبل الصحفيين الغربيين بشأن الميثاق الفلسطيني، كان يغيّر الموضوع، بشكل عام. ولكن عندما حوِّس في الزاوية، أثناء زيارته للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، في باريس، بعد مرور أقل من ستة أشهر على تصريحات الجزائر وجنيف، لم يكن باستطاعة عرفات التهرب من الإجابة على السؤال: "كيف تعترف بإسرائيل مخالفاً بذلك نص الميثاق الوطني الفلسطيني".

وأجاب عرفات بقوله: "بالنسبة للميثاق، يبدو لي أن هناك تعبيراً فرنسياً: *C'est Caduc*، تعبيراً يعني أنه لا يتعلق بالموضوع، أو بحكم الملغى". وعلى الفور، بدأت وسائل الإعلام العالمية بعرض مشهد "سيرك" عادي، إذ بدأت تغطي العالم بتقارير، تفيد بأن عرفات تراجع عن الميثاق الوطني الفلسطيني. ومرة أخرى، كالمعادة، أوضح عرفات والمنظمة أن كلمة (Cadue) لها معان كثيرة، وإن أقوال عرفات فُهمت خطأ، لأن عرفات، أصلاً، لا يتمتع بصلاحيات إلغاء الميثاق.

كما أعلن أبو إياد: "لا عرفات، ولا صلاح خلف (أبو إياد) ولا أي زعيم آخر، يملك حق إلغاء الميثاق، لأن الميثاق هو من صلاحية المجلس الوطني الفلسطيني. ولكي يتم الغاؤه أو تعديله، يتطلب الأمر موافقة ثلثي المجلس. وحول الاقتراح الداعي إلى أن تشطب المنظمة البند التاسع عشر من الميثاق، الذي يتحدث عن القضاء على إسرائيل، قال أبو إياد: "نحن في منظمة التحرير الفلسطينية لا نقبل إلغاء البند ١٩ من ميثاقنا".

وبالفعل، أعطت المنظمة مفعولاً لتصريحاتها باستئناف النشاطات الارهابية: ففي الأشهر التي تلت تصريح عرفات في كانون أول ١٩٨٨، جرت عشرات محاولات تسلل الى داخل اسرائيل من قبل خلايا إرهابية تنتمي لمنظمات تنضوي تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، التي شاركت في مناقشات المجلس الوطني الفلسطيني، والتي تظاهرت بالموافقة على قرار وقف الارهاب ضد اسرائيل.

ومن خلال التحقيق مع "المخربين" الذين أُلقي القبض عليهم. وخرائط الكمبيوترات والمستوطنات المدنية، التي كانت بحوزتهم، عرفت اسرائيل، أن معظم العمليات كانت تهدف الى ضرب السكان المدنيين مباشرة. وقد نُفذت بعض تلك العمليات من قبل خلايا الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، التي كان ياسر عبدربه أحد كبار قادتها، وعضو اللجنة التنفيذية التابعة للمنظمة، والرجل الذي ترأس المفاوضات مع الولايات المتحدة عام ١٩٨٨، بشأن استئناف الحوار بينها وبين منظمة التحرير الفلسطينية. وقد احتجت اسرائيل لدى الولايات المتحدة، غير أن الادارة الامريكية فضّلت تجاهل الأمر.

كان في داخل منظمة التحرير الفلسطينية، التي استمدت "وقاحتها"، التشجيع، من سكوت الامريكيين (مثلاً أدى سكوت الاردنيين الى تعزيز قوتها عام ١٩٧٠)، من قرر تصعيد الهجمات. ففي أيار ١٩٩٠، حاولت منظمة ابو العباس، قتل عدد كبير من الاسرائيليين في عيد شفعوت (نزول التوراة)، ومهاجمة شواطئ تل ابيب من البحر. أرسلت المنظمة عدة زوارق سباق، كانت تطلق "مخربين" مدججين بالسلاح. وكان هدف الهجوم، المستجبتين، والسياح في الفنادق الواقعة على طول شاطئ تل ابيب، بالقرب من موقع السفارة الامريكية، في شارع اليركون. ولحسن الحظ، أحبط الجيش الاسرائيلي العملية في اللحظة الأخيرة (وصلت الزوارق بطريق الخطأ الى شواطئ نيتسانيم)، ولسوء حظ منظمة التحرير الفلسطينية، كانت تلك العملية بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، اذ قررت الادارة الامريكية بأنها لن تستطيع تمكينهم من الاستمرار في تضليلها. وفي الكونغرس أقرّ قانون "مالك - لبرمان" الذي صدرت بموجبه التعليمات لوزارة الخارجية الامريكية، بشأن ضرورة إبلاغ الكونغرس، بتقرير كل ثلاثة أشهر، حول مدى تأييد المنظمة بالالتزامات التي قطعتها على نفسها أمام الولايات المتحدة. وأرغمت عملية نيتسانيم، وموقف الكونغرس، وتركيز وسائل الاعلام عليها،

الإدارة الأمريكية، على وقف الحوار مع منظمة التحرير، بعد مضي أقل من سنة على بدايته.

لكن منظمة التحرير الفلسطينية لم تعقد مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، ولم تمض أياً طويلاً في صياغة وتبني قرارات معقدة هدفها تضليل الرأي العام الغربي فقط.

لقد اهتمت المنظمة بأن تشرح من على الصحف العربية، أن مؤتمر الجزائر، كان حقيقياً، أخذ فيه قرار حقيقي.

بعد أيام معدودة من تصريح جنيف، في ٨ كانون ثان ١٩٨٩، قال، رفيق النشّة، عضو اللجنة المركزية التابعة لحركة فتح، ومندوب المنظمة لدى العربية السعودية ما يلي: "إن أسلوبينا السياسي الحالي، ينسجم مع مشروع المراحل". وكانت هذه الأقوال تنطوي على ما يشبه الصدى، لتصريح أبو اياد، نائب عرفات، الذي قال قبل اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في تشرين ثان ١٩٨٨: "يجب علينا طرح مبادرة سياسية، لا تنطوي على جديد بالنسبة لمشروع المراحل... مبادرة توفر أداة جديدة لتحريك مشروع المراحل".

وبعد بضعة أيام من صدور بيان الجزائر أكد أبو اياد، أن هذا ما حدث فعلاً، حيث قال: "إن قرارات المجلس الوطني الفلسطيني... تعتبر تطويراً لمشروع المراحل الذي تمّ تبنيه في القاهرة قبل ١٤ سنة. إن المشروع لم يتم تطويره طيلة هذه السنوات، ولا يوجد جهاز لتنفيذه. لذا خصص مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، لبعث الحياة من جديد، في مشروع المراحل، والعمل على تطبيقه".

ما هو مشروع المراحل، الذي يكثر رجال منظمة التحرير الفلسطينية الحديث عنه؟

خلال السنوات الأولى، التي تلت تأسيس المنظمة في عام ١٩٦٤، آمن زعمائها بإمكانية القضاء على إسرائيل بضربة واحدة، إذا تمكنوا، فقط، من التسبب في اندلاع حرب شاملة بينها وبين الدول العربية. حتى أن هزيمة العرب في عام ١٩٦٧، على فداحتها، لم تقنع المنظمة بضرورة التحول عن هذه السياسة. لقد كانت المنظمة متأكدة واثقة، من أن الدول العربية ستعيد تسليم نفسها

وتستأنف الهجوم على اسرائيل - وهكذا فعلت مصر وسوريا في حرب "يوم الغفران" عام ١٩٧٣، فعلاً. غير أن نتائج هذه الحرب، كانت بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية مخيبة للآمال، أكثر من حرب ١٩٦٧. فالملك الحسين، فضل عدم الانضمام لحرب ١٩٧٣، واسرائيل، كانت تتمتع بعق استراتيجي في الجولان وسيناء، مكّنها من امتصاص الهجوم العربي المفاجئ. وعلى الرغم من ظروف بدء الحرب القاسية جداً، وفي غضون ثلاثة أسابيع كان الجيش الاسرائيلي يقف على ابواب دمشق والقاهرة. وهنا بدأ لمنظمة التحرير، أن أحلامها بشأن تحرير حيفا وعكا، أصبحت صعبة التحقيق أكثر من أي وقت مضى.

بعد هزيمة العرب في حرب "يوم الغفران" ببضعة أشهر، اجتمع المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة، لاعادة تقييم الوضع. وفي ضوء نتائج الحرب، توصل المجلس الى استنتاج يقضي بأنه لا يمكن الحاق الهزيمة باسرائيل من خلال هجوم عسكري جهوي، على حدود ما بعد ١٩٦٧. لذا فان هنالك ضرورة لمرحلة إنتقالية، تعود فيها اسرائيل الى حدود ما قبل ١٩٦٧، التي من خلالها فقط، يصبح بالامكان توجيه ضربة مميتة لها.

وهكذا، وُكِّد مشروع المراحل الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في ذلك المؤتمر بتاريخ ٨ حزيران ١٩٧٤.

وكان لمشروع المراحل، مبدآن أساسيان هما:

أولاً؛ تقام دولة فلسطينية في اي منطقة تنسحب اسرائيل منها (بند/٢).

ثانياً؛ الدولة التي ستقام، تستخدم قاعدة لهجوم عسكري شامل على اسرائيل المقزّمة (بند/٨).

وعلى الرغم من ان المجلس الوطني الفلسطيني صادق على مشروع المراحل، الا انه حدثت بين الحين والآخر، خلافات في الرأي، حول هذا الموضوع، داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية.

فقد قال جودج حبش، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ان المرحلة الانتقالية تشكل عبئاً زائداً، لان معركة اريابية متزايدة داخل اسرائيل والعالم، ستجبع في نهاية المطاف في تحقيق اهداف المنظمة. لكن عرقات، وابو اياد، اصرأ على ان الدمج بين الارهاب والسياسة ، سيكون اكثر جدوى من الارهاب لوحده،

وتعززت نظريتهما بعد ان زاد اصرار الغرب، بقيادة ادارة ريغان على العمل بشدة تجاه الارهاب.

وكان القصف الجوي الامريكى للبيبا، عام ١٩٨٦، بمثابة رسالة واضحة، بأنه من الآن فصاعداً ستتحمّل الحكومات والمنظمات مسؤولية الارهاب الذي زرعت، وقد استوعبت هذه الرسالة جيداً في دمشق، وطهران، وعواصم اخرى اراهبية في الشرق الاوسط. وفهم هذا الموضوع بصورة خاصة من قبل قيادة منظمة التحرير في تونس، حيث سارعت الى تقليص حجم الاعمال الarahبية.

في عام ١٩٨٧، بلغت المنظمة مرحلة متقدمة من "التعفن"، الامر الذي تطلب منها العمل بسرعة على ايجاد دمج جديد بين العنف والدبلوماسية بغية انقاذ مكانتها. عندئذ اندلعت الانتفاضة. لم تبادر المنظمة اليها، لكنها اثارت المنظمة وبعثت فيها حياة جديدة، وهدفاً جديداً.

وقد نجم عن الانتقادات اليومية التي تعرضت لها اسرائيل، ضغط شديد لارغام اسرائيل على اخلاء الضفة الغربية وقطاع غزة، الامر الذي جعل مؤيدي مشروع المراحل في المنظمة يتفوقون على المشككين فيه.

كان واحداً، بالنسبة لمؤيدي مشروع المراحل، ان الضغط الدعائي الذي نشأ في اعقاب الانتفاضة قد يساعد على تجنيد الولايات المتحدة في سبيل تنفيذ المرحلة الاولى من المشروع - إقامة دولة بزعامة المنظمة في الضفة والقطاع. وهكذا حسم الخلاف نهائياً في مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في الجزائر عام ١٩٨٨ حيث اتحدت كافة الفصائل الرئيسية في المنظمة وراء عرفات وابو اياد، وتبنت نظرية القضاء على اسرائيل على مراحل. كانت نتائج مؤتمر الجزائر نصراً شخصياً لابو اياد. الذي كان اكبر مؤيد، لهذه الاستراتيجية، فقد قال ابو اياد، عام ١٩٨٧: "وفقاً لمشروع المراحل، تقيم دولة فلسطينية في اي جزء من فلسطين ينسحب العدو منه. وستكون الدولة الفلسطينية، مرحلة، في نضالنا المستمر لتحرير كل ارض فلسطين، ولن نستطيع تحقيق الهدف الاستراتيجي المتمثل باقامة دولة فلسطينية، في كل فلسطين، دون ان نقيم أولاً دولة فلسطينية على جزء من الارض.

وبعد بضعة ايام فقط من "اعتراف" المنظمة باسرائيل، في جنيف، اوضح ابو

اياد النوايا الحقيقية للمنظمة بقوله: "في البداية، دولة صغيرة، ويعون الله، ستكون وتتسع شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً... انني اريد تحرير فلسطين خطوة، خطوة". وفي مناسبة اخرى قال ابو اياد باختصار: "ستكون الدولة الفلسطينية نقطة انطلاق لتحرير يافا وعكا، وفلسطين كلها".

ابو اياد، المنظر الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ظل يوضح دائما ان مشروع المراحل، لا يتناقض مع الميثاق الوطني الفلسطيني، الذي يسعى الى اعادة اسرائيل، انما هو رد تكتيكي على الظروف الجغرافية - السياسية المتغيرة، ومن شأنه توفير الوسائل لتطبيق الميثاق.

في ٦ كانون/١٩٨٨، قال ابو اياد: اقسمنا على ان نحرر فلسطين ما قبل ١٩٦٧ ايضاً. سنحرر فلسطين مرحلة بعد مرحلة... ان حدود دولتنا التي أعلننا عنها، تمثل جزءاً فقط من طموحاتنا الوطنية. وسنعمل من اجل توسيع هذه الحدود، انطلاقاً من هدفنا لتجسيد طموحاتنا على ارض فلسطين كلها.

لم تكن هذه النظرية حكراً على ابو اياد فقط، انما شاركه فيها العديد من زعماء المنظمة، واذا كان هنالك من نسي الهدف الاساسي فقد عمل عرفات على تذكيره مثلما فعل جام ١٩٩٠: "كان نضال الشعب الفلسطيني سيتواصل حتى التحرير الكامل للارض الفلسطينية... يجب تقديم العون لنضال الشعب الفلسطيني حتى تحرير فلسطين الكامل من النهر وحتى البحر.

ومرة اخرى، يمكننا ان ندرك ان عرفات، لم يحدد في تصريحاته باللفة العربية، هدف الفلسطينيين بتحرير مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة فقط، انما وسعه ليشمل فلسطين كلها. من نهر الاردن وحتى البحر المتوسط. وهكذا، قال ايضاً، فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة: "اذا اعيد الينا جزء من ارضنا، فلن نتنازل بسببه عن ارضنا... سنقيم خيامنا في المواقع التي تصل اليها حرابنا... وستكون الخيمة نقطة انطلاق لتحقيق المرحلة القادمة.

وكذلك، الشيخ عبد الحميد السائح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني قال: "حتى لو نجحت منظمة التحرير الفلسطينية في اقامة دولة بالضفة الغربية وقطاع غزة، فان ذلك لن يمنع استمرار النضال من اجل تحرير فلسطين كلها... إذا نجحنا في الحصول على جزء من فلسطين، نقيم عليه دولة، نستطيع بعد ذلك،

ونحن على أرض فلسطين مطالبة العالم بالعمل من أجل نيل حقوقنا كاملة وكشعب... نحن نسعى لتحقيق ما هو ممكن في المرحلة الحالية... ومن ثم سنطالب بالمزيد".

لقد أيدت كافة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، بما فيها المتطرفة والرافضة، هذه السياسة "المعتدلة" الرامية إلى القضاء على إسرائيل على مراحل. ها هو بيان منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي سبق أن عارضت بشدة مشروع المراحل، يقول:

"إن إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، سيكون بداية سقوط المشروع الصهيوني. نستطيع الاعتماد على هذه الهزيمة، من أجل استكمال النضال وتحقيق هدفنا الكامل، ألا وهو تحرير أرض الوطن الفلسطيني بكاملها". كما أدلى نايف حواتمة زعيم الجبهة الديمقراطية، بأقوال مماثلة: "يجب أن يوجه النضال الفلسطيني حالياً نحو إقامة دولة في الضفة الغربية وغزة. وهذا لن يمنعنا من تحقيق هدفنا النهائي - تحرير فلسطين كلها".

وعلى أية حال، لدى تبني "مشروع المراحل"، تلاشت جميع الخلافات في الرأي حول الاستراتيجية، بين المتطرفين والمعتدلين داخل المنظمة. والان، ومن خلال إنسجام لم يسبقه مثيل بين كافة فصائل المنظمة، إنتقل الخلاف الأيديولوجي حول مسألة "مشروع المراحل" من صراع داخلي، داخل المنظمة نفسها، إلى صراع خارجي بينها وبين الحركة الإسلامية المتعصبة "حماس".

لقد ارتفعت قوة "حماس" في أوساط العرب الفلسطينيين بسرعة، الأمر الذي جعل الكثيرين في العالم الغربي يحثون إسرائيل على الإسراع في إبرام "صفقة" مع المعتدلين في المنظمة قبل أن تجد نفسها مرغمة على التفاوض مع المتدينين المتطرفين. ولكن يجدر باؤلئك الذين يريدون مصلحة إسرائيل، أن يصفوا لما يقوله، رفيف النتشة، أحد النشطاء الرئيسيين في حركة فتح في سياق تلخيصه للخلافات القائمة بين منظمة التحرير وحركة حماس.

"تقول حماس: فلسطين كلها لنا. نريد تحريرها من البحر وحتى النهر في ضربه واحدة. لكن "فتح" تعتقد بأنه يجب العمل وفقاً لمشروع المراحل. ان الطرفين متفقان بشأن ما يتعلق بالهدف النهائي . لكن الخلافات تتركز فقط حول الطريق

المؤدية لتحقيق هذا الهدف.

هنالك من ادعى، أنه في ضوء التطرف السائد، سيتمثل الاعتدال، بالأشخاص الذين ستعينهم منظمة التحرير الفلسطينية من بين سكان الضفة الغربية وغزة، كمنوبين عنها في المحادثات السلمية التي كانت جارية آنذاك بين العرب وإسرائيل. ولكن مع مزيد الأسف، لم ينحرف الناطقون الذين عينتهم المنظمة من بين سكان الضفة والقطاع عن خط المنظمة الرسمي. فما هو، أبرز هؤلاء الناطقين، فيصل الحسيني، يقول في مقابلة مع صحيفة أردنية مفصلاً نظريته السياسية، قبل بضعة أسابيع من توجهه لمقابلة الرئيس بوش في البيت الأبيض في كانون أول ١٩٩٢، ما يلي: "أن المرحلة التي نعيشها حالياً - فلسطينيين وإردنيين وكعرب - تمثل فرصة تاريخية لن تعود لفترة طويلة قادمة. إنها تذكرنا بالوضع الذي كان سائداً في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية - تلك الفترات التي شهدت شطب شعوب ودول من على وجه خريطة العالم. لذا يجب علينا... العمل بحرص شديد، في ضوء هذه الظروف التاريخية الجديدة، أن نضع أنفسنا في موقع ... نستطيع من خلاله إبرام أحلاف جديدة تقرتنا من تحقيق استراتيجيتنا العليا.. يجب علينا أن نذكر أن شعار المرحلة الحالية ليس هو "من البحر إلى النهر"، ولكننا لم ولن نتنازل عن أي من التزاماتنا التي لا تزال قائمة منذ أكثر من ٧٠ عاماً. لذلك يجب علينا التذكير، بأن المجتمع الفلسطيني والعربي الموحد، قادر على منافسة المجتمع الاسرائيلي الذي لم يكتمل بعد... وعاجلاً أم آجلاً، سنرغم المجتمع الاسرائيلي على التعاون مع مجتمع أكبر منه، مجتمعنا العربي، وبعد ذلك سنعمل على تفكيك الكيان الصهيوني تدريجياً".

إن ما يقصده الحسيني، هو أنه يجب على العرب ان لا يُخدعوا بالمعنى الحقيقي لشعار المطالبة "فقط" بدولة فلسطينية في الضفة والقطاع. إذ ان الهدف الاساسي المتعلق بإسرائيل لا زال قائماً كما كان: "أن الشعب الفلسطيني لم يتخل عن التزامه منذ ٧٠ عاماً بشأن القضاء على الكيان الصهيوني".

يستشف من هذا، ان لدى منظمة التحرير الفلسطينية وثيقتين توجهاً عملها للمدى البعيد . وقد صودق على الوثيقتين في مؤتمرين هاميين للمجلس

الوطني الفلسطيني في القاهرة - الاول لدى تأسيس المنظمة عام ١٩٦٤، والثاني بعد ذلك بعشر سنوات.

الوثيقة الأولى، هي الميثاق الوطني الفلسطيني، الذي يتضمن الهدف السياسي المتمثل بالقضاء على اسرائيل. والوثيقة الثانية، هي مشروع المراحل ويتضمن تفصيلاً للأسلوب الذي يؤدي الى تحقيق الهدف الاساسي.

لم تفكر منظمة التحرير الفلسطينية إطلاقاً بغير الكراهية السامة التي تبناها المفتي في حينه، وانها. رحلة الارهاب التي عمرها عشرات السنين، والتوقف عن الاعلام بشأن حرب اباداة ضد اسرائيل، بل فعلت عكس ذلك تماماً.

لقد وعد مشروع المراحل المعسكرات المتنازعة داخل منظمة التحرير، بصورة لم يسبق لها مثيل، وجعل أشدها تطرفاً يؤيد تحقيق مكاسب جزئية كخطوة تمهيدية في الطريق الى الحرب الشاملة، التي ينوون شتتها من داخل الدولة الفلسطينية المستقلة التي سيحصلون عليها من اسرائيل، حتى ولو كانت هذه الدولة محدودة في حجمها بداية.

إن الحرب المستقبلية، التي تعتزم منظمة التحرير الفلسطينية المبادرة اليها من داخل الدولة الفلسطينية التي ستقام في الضفة والقطاع، ليست السهم السام الوحيد في جعبة أسهم المنظمة. فقد وضعت المنظمة على رأس قائمة مطالبها، مطلباً آخر، هو "حق العودة" - عودة لاجئي عام ١٩٤٨، الى القرى والمدن التي هجروها.

إن تنمية هذا الحلم الخيالي، لدى أجيال متعددة من الأولاد المحاصرين في مخيمات اللاجئين، يعتبر من أبشع المؤامرات التي قامت بها المنظمة منذ نشأتها. ففي هذه المخيمات، تحتل المنظمة اسرائيل مسؤولية التعاسة الانسانية التي تسببت بها الدولة العبرية عندما رفضت استيعاب اللاجئين. ان استمرار وجود المخيمات يضمن عدم التثام جرح عام ١٩٤٨، صحيح ان كثيرين من اللاجئين تركوا المخيمات واندمجوا في المجتمعات العربية المحيطة بهم، لكن الكثيرين أيضاً أرغموا على البقاء في هذه المخيمات، نتيجة لضغوط من جانب منظمة التحرير والدول العربية.

في تلك المخيمات ، علّمت المنظمة أبناء اللاجئين ان الطريق الوحيد للخروج،

هو العودة الى حيفا ويافا ... وهكذا ضمنت المنظمة لنفسها جيلاً جديداً من المجندين لصفوف منظمات "القتلة".

وإذا كان قد جرى عمل شيء ما لتخفيف مشكلة اللاجئين منذ عام ١٩٦٧، فإن اسرائيل هي التي قامت به، وليس الدول العربية.

فقد حاولت اسرائيل، في إطار خطة متعددة السنوات، تفكيك عدة مخيمات آيلة للسقوط في غزة، وصوّلت بناء وحدات سكنية جديدة لـ (١١) ألف عائلة. وكما هو معروف، فإن اللاجئين الذين يملكون بيتاً، لم يعودوا مشردين، وليسوا لاجئين، ويصعب تجنيدهم للقيام بعمليات إرهابية.

أما منظمة التحرير فعارضت بشدة المشروع الاسرائيلي، الأمر الذي أرغم قوات الأمن الاسرائيلية على توفير الحماية للاجئين الذين ينتقلون للسكن في الوحدات السكنية الجديدة.

بعد مضي حوالي سنة على اندلاع الانتفاضة، قمت بزيارة الى مخيم جباليا للاجئين في غزة. وهناك عرفت من المصدر الأول، منطق استراتيجية منظمة التحرير في إبقاء اللاجئين في مخيماتهم. في تلك الأيام كان هدوء نسبي يسود المنطقة. لذا انفردت عن معظم الجنود الذين رافقوني، وتجولت برفقة مترجم، في أزقة المخيم. وبالقرب من أحد المباني الاسمنتية، التقيت عربياً طاعناً في السن واجريت مع الحديث التالي:

س : من أين أنت؟

ج : من المجلد (مجلد)، هو الاسم العربي لمستوطنة أشكلون).

س : ومن أين اولادك؟

ج : من المجلد، (توقعت أن يكون أولاده من أبناء جبلي، لذلك من المحتمل ان يكونوا من مواليد المجلد حقاً. لكن شيئاً ما دفعني للسؤال ثانية).

س : ومن أين أحفادك؟

ج : من المجلد.

س : هل ستعود الى المجلد؟

ج : إن شاء الله. (يحل السلام ونعود الى المجلد).

وقلت أنا أيضاً إن شاء الله، أنت تزور المجلد، ونحن نزور جباليا. لكن إبتسامته، تلاشت دفعة واحدة وقال: "نحن نعود الى المجلد، وأنتم تعودون الى بولندا".

عشرات الآلاف من اللاجئين، مستمدون لتكرار حلم العودة الفلسطينية، على مسامح أي صحفي أو دبلوماسي يطرح عليهم اسئلة من هذا النوع.

وهكذا، أصبحت مخيمات اللاجئين سلاحاً سياسياً، هدفه إذكاء الطموح لتحقيق "حق العودة"، وإثارة معارضة الدول الغربية لهجرة يهود إلى إسرائيل. خلاصة القول، يكرر العرب باستمرار القول، كيف أن العربي الذي وُلد في يافا، لا يستطيع العودة إلى أرضه، في حين أن يهودياً من أوديسا، الذي لم يسبق أن رطأت قدمه إسرائيل، يستقبل هنا بالترحاب؟

لقد أوضح، هاني الحسن، أحد مساعدي عرفات لفترة طويلة، أن عودة العرب، هي التي يجب أن تكون في المرتبة الأولى على سَلَمِ أفضليات العالم. وقال الحسن: "إن المشكلة التي تحتاج إلى حل، ليست هجرة يهود العالم إلى فلسطين، إنما إعادة لاجئين فلسطينيين إلى فلسطين... إن الدول العربية لن تقبل بتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها... لذا يجب السماح لكل لإجئ من عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ بالعودة إلى فلسطين".

إن هدف "حق العودة"، على أية حال، تقليد حلم اليهود، وإن يكون وزنًا مضاداً لهذا الحلم والغائه من خلال خلق تجانس كاذب: اليهود، عادوا إلى أرضهم - والآن يجب أن يعود العرب الفلسطينيون إليها أيضاً.

ولكن، لا يمكننا معالجة مسألة اللاجئين العرب في عام ١٩٤٨، دون أن نأخذ بالحسبان عدداً مائتاً من اللاجئين اليهود الذين طُردوا في ذلك الوقت، من الدول العربية. فقد أنفقت الدولة اليهودية التي كانت آنذاك في مهدها، مبلغ ١.٣ مليار دولار لاستيعاب مئات الآلاف اللاجئين اليهود الذين قدموا من الدول العربية، ووفرت لهم المساكن والتعليم والعمل، ولا يوجد حالياً أي فرق بينهم وبين بقية مواطني إسرائيل.

في حقيقة الأمر، جرت هنا، عملية تبادل سكاني بين الدول العربية، ودولة إسرائيل - العرب، هربوا خوفاً من الحرب، بينما طُرد اليهود من الدول العربية في أعقاب تلك الحرب. لقد حدث تبادل سكاني مرات عديدة خلال القرن الحالي: تم تبادل ملايين الناس بين بلغاريا وتركيا، عام ١٩١٩، وبين اليونان وتركيا عام ١٩٢٣، وبين الهند والباكستان عام ١٩٤٧، وهكذا.

في كل هذه الحالات، لم يفكر أي طرف بإعادة العجلة إلى الوراء، وبالتأكيد، في إعادة اللاجئين التابعين لطرف واحد فقط. إن حقيقة مضي حوالي ٥٠ سنة على تلك الحرب، وما زالت الدول العربية ترفض القيام بما هو مطلوب منها بموجب هذه المعادلة، التي خلقتها هي نفسها، تحمل دلالات كثيرة، فالزعماء العرب، يعرفون جيداً أنه لو وافقت إسرائيل على حق العودة للفلسطينيين، فأنها ستلقى ضربة سكانية ساحقة وسيقتضى عليها في واقع الأمر.

لذا، فشعار "حق العودة" ما هو سوى خدعة هدفها القضاء على الدولة اليهودية، تماماً كما أعلن القذافي بصراحة: "عندئذ (أي بعد عودة اللاجئين) لن تكون هنالك إسرائيل ... إذا وافقوا على ذلك، ستكون نهاية إسرائيل". لم يسبق أن تخلت منظمة التحرير الفلسطينية عن مطالبتها بحق العودة، ولا يزال هذا الطلب على رأس شروط السلام التي تضعها المنظمة.

لقد أوضح عرفات هذه المسألة جيداً بقوله: "كن تنتهي الثورة الفلسطينية، إلّا بعد الحصول على الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني، بما في ذلك حق العودة". كما أن موافقة المنظمة على حق إسرائيل في الوجود (وفقاً لقرار ٢٤٢) مشروطة بحق العودة للفلسطينيين، التي قال عنها القذافي أنها ستؤدي إلى نهاية إسرائيل. وينفس المعنى، تحدث عرفات عام ١٩٩١، مؤكداً أن حق العودة، هو شرط مسبق لتحقيق السلام في الشرق الأوسط كله: "كن يحل السلام والاستقرار في المنطقة، طالما ظلوا يتجاهلون الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والتي لا يمكن التخلي عنها، ويضمنها، حق العودة، وحق تقرير المصير، وإنشاء دولة مستقلة، عاصمتها القدس".

إن هذا التصريح، في حد ذاته، يعلمنا الكثير. فإذا كان كل ما تريده المنظمة هو دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، فما الداعي لاضافة مصطلحات مثل "تقرير المصير"، وحق العودة، فها هي، فلسطين المستقلة في الضفة الغربية وغزة، كافية لتلبية رغبة الفلسطينيين في تقرير المصير، وقادرة أيضاً على استيعاب كل ما تبقى من اللاجئين. ولكن عن طريق الفصل بين هذه المصطلحات، تلتج المنظمة، كمادتها، إلى الجمهور العربي، بلغة مفهومة جيداً، أن الدولة في الضفة الغربية وغزة، ما هي سوى مرحلة واحدة من خطتها للقضاء على إسرائيل.

ان مصطلح "تقرير المصير"، موجه الى الجمهور العربي في اسرائيل، الذي سيطالب هو ايضا، بعد إقامة الدولة الفلسطينية، بحق تقرير المصير (أي الاستقلال)، في المناطق التي توجد فيها أغلبية عربية، مثل الجليل والنقب. وإذا كان اقتطاع هذه "الأعضاء" لن يؤدي الى نهاية دولة اسرائيل، فإن "حق العودة" سيضمن اغراق ما تبقى من اليهود في فيضانات اللاجئين العرب.

ان الثلاثي، غير المقدس، هذا، والمتمثل بالاهداف العليا للمنظمة - دولة مستقلة، وتقرير مصير، وحق العودة - وإلى جانبها أدوات التنفيذ الثلاثية - الميثاق الوطني الفلسطيني، ومشروع المراحل، والكفاح المسلح - تشكل معاً عقيدة منظمة التحرير الفلسطينية. منها يستمد تلاميذها وأعوانها، توجهاتهم، وإيماءاتهم، وأهدافهم أيضاً المتمثلة بالجهاد (حرب مقدسة) هدفها تدمير دولة اسرائيل بصورة نهائية. وحتى بعد بدء مفاوضات السلام بين اسرائيل والعرب في مدريد عام ١٩٩١، ظل عرفات يمتدح "الجهاد"، حلمه المنشود منذ تأسيس منظمة التحرير عام ١٩٦٤.

في ١٥ آذار ١٩٩٢، قال عرفات: "من خلال الاتصالات من أجل السلام... خلق الفكر الفلسطيني المبدع، الضلع الثالث للمثلث، والضلعان الآخران هما النضال الفلسطيني والجهاد الذي يؤدي الى النصر الأكيد. إننا نعيش الآن في ذروة معركة سياسية ودبلوماسية... الجهاد، هو طريقنا، وفلسطين هي وجهتنا".

كما أدلى عرفات بخطاب مسائل تضمن مناقشة واضحة لكل العالم الاسلامي كي يهب للجهاد من أجل تحرير القدس، عاصمة فلسطين، في أحد مساجد جوهانسبرغ في ٣٢/٥/١٩٩٤، أي بعد توقيع اتفاقية اوسلو والقاهرة. حيث قال عرفات: "إنني أعتبر هذا الاتفاق كالاتفاق الذي وقعه نبيينا محمد مع قبيلة قريش في مكة (وخلال وقت قصير ألغى الاتفاق وقضى على القبيلة المذكورة)... إننا نقبل اليوم اتفاق السلام، كي نواصل الطريق الى القدس. ان الجهاد سيستمر. فالقدس ليست للشعب الفلسطيني فقط، إنما لكل الأمة الاسلامية".

وكما دته، حاول عرفات بعد الخطاب، إخفاء المعنى الحقيقي لكلماته التي كانت واضحة تماماً، وأوضح أنه قصد "الجهاد من أجل السلام". وقد اعتبرت حكومة اسرائيل الموضوع منتهياً، بعد أن قدم عرفات هذا التفسير الكاذب.

ليس للسوريين خيار حقيقي للحرب مع اسرائيل، أو لحرب تنطوي على فرصة لانتصار سوري.

لهذا، فإن استمرار سيطرة اسرائيل على الجولان، يعتبر عنصراً حيوياً للمحافظة على السلام، أو على الأقل لضمان بقاء حالة اللاحرب مع سوريا. وإذا تم استبدال هذا العنصر، بسلام تعاقدى، فلن نستطيع ضمان صمود هذا السلام، في غياب الكايح الأرضي لهجوم سوري جديد.

رغم كل هذا، يقول الكثيرون رغم المتطلبات الأمنية والمائية، فإن اسرائيل ملزمة - حسب القرارات الدولية التي قبلت بها - باعادة هضبة الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة الى العرب. وتعتمد هذه المطالبات على أساس قرار رقم ٢٤٢ الذي اتخذته مجلس الأمن الدولي في اعقاب حرب الأيام الستة، والذي تبنته اسرائيل أيضاً. واليوم نسي الجميع الصيغة الأصلية لهذا القرار، والهدف من صياغتها. وفي حالات عديدة نجد أن صيغة القرار التي تُعرض في وسائل الاعلام، كثيراً ما تكون أقرب الى نوايا اعداء اسرائيل، منها الى الحقائق.

يتحدث قرار ٢٤٢ عن السلام. انه يدعو الى وقف كافة اشكال التصريحات المتعلقة بالحرب أو حالات الحرب، والاعتراف بالسيادة والسلامة الإقليمية والاستقلال السياسي لكافة دول المنطقة. والاعتراف بحق جميع هذه الدول في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومُعترف بها، وعدم تعرضها للتهديدات أو أعمال عنف.

ان أهم ما ورد في هذا القرار، على أية حال، هو مطالبة دول العالم، الدول العربية، بصنع سلام مع اسرائيل: على الدول العربية ان توقف حالة الحرب، والاعتراف بوجود اسرائيل، وضمان سلامة وأمن حدودها. فقد أكد السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة آنذاك، آرثور جولدمبرغ، الذي كان أحد واضعي صيغة القرار ان هذه هي المواضيع الرئيسية التي تحدث عنها القرار قائلاً: "دعا قرار رقم ٢٤٢ الى الاعتراف واحترام سيادة كافة دول المنطقة. وبما أن اسرائيل لم يسبق أن أنكرت سيادة الدول العربية المجاورة لها، فمن الواضح أن هذه الصيغة، تطالب هذه الدول، بالاعتراف بسيادة اسرائيل". لكن المسؤولين عن الدعاية العربية، ادعوا دائماً، ان اسرائيل هي المسؤولة عن عدم تطبيق قرار ٢٤٢، معتمدين على بند واحد في القرار ، وهو الداعي الى "إنسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من أرض

أحتلت في النزاع الأخير". ويدعى العرب ان اسرائيل لم تنصع لدعوة الانسحاب من هذه المناطق، فما السبب الذي يلزمهم بإبرام سلام معها وهي ما تزال تحتل الضفة الغربية وهضبة الجولان؟

إن الدول العربية، تتجاهل، عن قصد، حقيقة أن انسحاب اسرائيل من أية منطقة، يجب ان يتم بعد التوقيع على اتفاقية سلام، وليس قبلها، تلك الاتفاقية التي تصر هذه الدول نفسها على عدم، التوقيع عليها. وفعلًا، اذا تفحصنا الأمور من خلال عدسة الدعاية العربية المشوهة للحقائق، فمن السهل الاقتناع، بأن قرار الأمم المتحدة ٢٤٢، دعا بوضوح، الى اخراج اسرائيل من "الأراضي" - أي من كل الأراضي، وان الصيغة "أراضي" (بدون ال التعريف) لم تكن سوى زلة قلم. غير أنه في حقيقة الأمر، ويشهد على ذلك واضعوا صيغة القرار أنفسهم، لم يكن إخلاء الجيش الاسرائيلي من "الأراضي" هو الموضوع المركزي نهائياً، وانه تم شطب "ال تعريف" بصورة متعمدة، كي تستطيع اسرائيل التفاوض حول عمق الانسحاب وان تظل تحتفظ بجزء من هذه الأراضي لاغراضها الأمنية. فقد قال ارتور جولبيرغ: "الكلمات المشطوبة والمتعلقة بالانسحاب الاسرائيلي، سواء ال التعريف، أو كلمة "كل" ... يتحدث القرار عن انسحاب من اراضي محتلة، ولا يحدد حجم الانسحاب".

وفيما يلي أيضاً، شهادة اللورد كروون، السفير البريطاني لدى الأمم المتحدة، الذي اشترك مع جولبيرغ في صياغة القرار: "لم نقل أنه يجب الانسحاب الى خطوط ما قبل عام ١٩٦٧. لم نضف، ال التعريف. لقد قصدنا عدم قول كلمة كل الأراضي... كنا نعرف جميعنا ان خط الحدود الذي كان قائماً قبل ١٩٦٧، لم يُرسم كخط حدود ثابتة، بل كان خطأ لوقف إطلاق النار تم تحديده قبل ذلك بعشرين سنة... لم نقل إن خطوط ما قبل ١٩٦٧، يجب أن تدوم الى الأبد".

كما أن، يوجين روستاو، الذي كان نائباً لوزير الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية، عندما بادرت الادارة الأمريكية بالقرار، يؤكد أيضاً، أقوال واضعي صيغة القرار، حيث يقول: "قرارا مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ و ٣٣٨ ... يعتمدان على مبدئين. أولاً؛ يحق لاسرائيل سيطرة على المنطقة الى حين إبرام معاهدة سلام مع جاراتها الدول العربية. ثانياً؛ عند صنع السلام، تنسحب اسرائيل الى حدود آمنة ومعترف بها، وليس الى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، بالذات".

هل انسحبت اسرائيل من أراضي أحتلت في النزاع؟ وهل يوجد شك في هذا؟

ان شبه جزيرة سيناء، التي أُعيدت الى مصر في إطار اتفاقية السلام مع اسرائيل، تعتبر ثروة أرضية هائلة وفقاً للمعايير الاسرائيلية: حوالي (٦٥) ألف كيلو متر مربع، أنشأت اسرائيل فيها مطارات كبيرة، وفنادق فخمة، واكتشفت فيها مصادر نفطية. ان سيناء أكبر بعشرات الاضعاف من الضفة الغربية، وتشكل أكثر من ٩١٪ من مساحة الاراضي التي احتلتها اسرائيل في عام ١٩٦٧.

ان قرار مجلس الأمن ٢٤٢، لم يحدد ولا في أي بند من بنوده، ان اسرائيل ملزمة بالانسحاب من كافة الجهات (سيناء، غزة، الجولان، الضفة الغربية) لقد ترك واضعوا صيغة القرار، هذه المسألة، بصورة متعمدة، للتفاوض عليها بين اسرائيل وجاراتها الدول العربية. غير أن كل هذه الأقوال، تتعد عن الرسالة الرئيسية الكامنة في الصيغة الدبلوماسية للقرار ٢٤٢: ان العرب، هم الذين يجب عليهم التنازل من أجل السلام. فإذا كان القرار يعترف بحق اسرائيل في حدود آمنة، ولم يتوقع منها العودة الى الحدود التي بدأت الحرب منها، فان المنطق يقول انه يجب على العرب ان يضخّوا جزء من مطالبهم الاقلية من أجل السلام المضمّن.

ولم لا؟ أية تسوية هذه التي يتنازل في اطرافها أحد الاطراف عن مطالبه كاملة، في حين لا يتنازل الطرف الآخر عن ١٪ من مطالبه؟ أي موقف اخلاقي هذا، الذي يقول ان المعتدي الخاسر، يحق له إستعادة المنطقة التي شن عدوانه منها؟

ان قرار ٢٤٢، اذا أزلنا عنه غبار الدعاية العربية الذي تراكم عليه منذ عشرات السنين، نجد أنه يقرر ما يقبله كل ذي منطق وهو: السلام الحقيقي، يجب ان يكون لمصلحة الطرفين، لذا يتوجب على الطرفين، دفع ثمنه. ان الحدود الامنة لاسرائيل، هي شرط ضروري لاحلال السلام في الشرق الأوسط. لقد أثبت العرب أكثر من مرة، عن طريق تكرار هجماتهم على اسرائيل ان قطاعاً أرضياً بعرض ١٦ كم، الذي كانت اسرائيل مضغوطة في داخله قبل ١٩٦٧، لا يمكن اعتباره حدوداً آمنة. لذا يجب على العرب تقديم شيء ما من أجل السلام.

ان الاستراتيجية العسكرية العربية بسيطة وواضحة، وهي ضغط اسرائيل داخل خطوط الهدنة التي سبقت حرب الأيام الستة ، ووضعها ، مرة ثانية، في حالة لا

يمكن تحتلها.

كما ان الاستراتيجية السياسية العربية، هي أيضاً بسيطة وواضحة وهي: ممارسة الضغط على الدول الغربية بغية إرغام اسرائيل على الانسحاب الى هذه الخطوط.

منذ تولي الحكومة اليسارية السلطة في اسرائيل عام ١٩٩٢، تقلصت هذه الضرورة، في ضوء استعداد اسرائيل للانسحاب دون ممارسة أية ضغوط عليها.

ولن تجدر الاشارة الى الاقوال التي أدلى بها الرئيس الأمريكي، ليندون جونسون، بعد وقت قصير من حرب الأيام الستة، حيث قال: "نحن لا نقول لدول أخرى كيف ترسم بينها الحدود التي توفر لكل واحدة منها أكبر قدر من الأمن". ومع ذلك، اشار جونسون: "من الواضح أن العودة الى الوضع الذي كان سائداً في الرابع من حزيران ١٩٦٧، لن تؤدي الى السلام".

بغض النظر عن الخلافات في الرأي داخل اسرائيل، سواء بين مؤيدي حزب العمل، أو الليكود، أو بين المعارضة، والحكومة - فإن معظم الجمهور الاسرائيلي يؤمن بأن اسرائيل لا تستطيع العودة الى حدود حزيران ١٩٦٧، دون ان تعرض وجودها للخطر، وانه لا يحق لها التفریط بالسيطرة الاستراتيجية على الجولان، ومناطق الضفة الغربية.

تبدو مسائل مثل الحدود، والمناطق والعمق الاستراتيجي، أموراً هامشية في نظر سكان الدول التي يكون فيها السلام ظاهرة روتينية. لكن هذه المسائل ذات أهمية مصيرية، في الشرق الأوسط، فاذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لمناطق الضفة الغربية وهضبة الجولان، فلا بد ان نستنتج ان شعار "أراض مقابل السلام" غير صحيح من أساسه.

ان سيطرة اسرائيل على هذه المناطق ليست "عائقاً أمام السلام" إنما هي عائق أمام الحرب. ولكي نحقق سلاماً دائماً، يتوجب على اسرائيل المحافظة على قدرة ردع قوية طويلة فترة طويلة، أي الى حين حدوث تحول حقيقي في نظرة العرب تجاهها. ان وجود اسرائيل، بالذات، في هذه المناطق، هو الذي ردع العرب عن شن حرب شاملة عليها، وهو الذي زاد احتمالات تحقيق سلام حقيقي في المستقبل.

الفصل الثامن

المشكلة السكانية

يجب على اسرائيل مواجهة حقيقتين اساسيتين مرتبطتين الواحدة بالآخرى. فمن جهة اولى، هنالك اهمية حاسمة للجدار الواقي المتمثل بمناطق الضفة الغربية، في مجال الدفاع عن الدولة، ومن جهة اخرى، يعيش على ظهر هذا الجدار حوالي مليون عربي، وهذه خلاصة المشكلة التي تثار دائما في النقاش السياسي داخل اسرائيل؛ اذا تنازلت اسرائيل عن مناطق الضفة الغربية، ستواجه كابوسا امنيا. ولكن اذا واصلت التمسك بهذه المناطق بما فيها من سكان عرب، الا تواجه بذلك كابوسا ديمغرافيا؟ لا شك ان المسألة الديمغرافية حقيقية وصعبة بالنسبة لاسرائيل. ويجب دراسة هذا الموضوع بجدية والتعرف على حجمه وخطورته، بغية اتباع سياسة معقولة تجاهه، ولكننا لا نستطيع ان نجد طريقة مثلى لمعالجة المشكلة السكانية.

خلال السنوات الاخيرة، يتحدثون في اسرائيل عن المشكلة السكانية على انها "مدمرة"، من خلال الافتراض بأنه اذا واصلت اسرائيل سيطرتها على الضفة الغربية، فلن تستطيع المحافظة على الطابع الديمقراطي للدولة اليهودية.

لقد حذر اصحاب هذا الرأي الاسود، بعد حرب الايام الستة، من ان معدل التكاثر الطبيعي لدى العرب، سيؤدي الى خلق اغلبيّة عربية في اسرائيل، في غضون ثلاثين سنة. يقترح اليساريون ان تنسحب اسرائيل من الضفة الغربية من جانب واحد، وليكن ما يكون. في حين يقترح اليمينيون "ترحيل" السكان العرب من الضفة الى الاردن.

لا يقتصر هذا الجدل على اسرائيل وحدها، فقد شهدنا في السنوات الاخيرة وافراً من المقترحات والنصائح الصادرة عن دول اخرى، كان معظمها على صيغة النصيحة التي اسدها صحيفة "التايمز" اللندنية للتشيكين في عام ١٩٣٨؛ ان المكاسب التي ستجنيها تشيكوسلوفاكيا في حالة كونها دولة قومية، ستكون اكبر بكثير مما ستخسر من فقدانها لاقليم سوديت.

قبل قيام الدولة ، تحدث ديمغرافيون يهود عن نهاية سوداء للدولة اليهودية،

وتعزز هذا الاعتقاد بصورة اعمق بعد حرب الايام الستة. بعد اسبوعين من استيلاء اسرائيل على مناطق الضفة الغربية وغزة، في حزيران ١٩٦٧، نشرت صحيفة هآرتس تنبؤات الدكتور يهودا دون القائلة: ان المناطق المحتلة والمحرة، جلبت لاسرائيل حوالي ١٠٤ مليون عربي... وهذا يشكل شحنة ثقيلة جداً من المشاكل والالتزامات، وبخاصة في ضوء حقيقة ان نسبة التكاثر الطبيعي المتوقع، ستجعل عدد الشعبين متساوياً هنا في غضون ١٤ سنة. لقد اخطأ "دون" بالطبع، اذ بعد مضي ١٤ سنة لم تتغير تقريباً، النسبة العددية بين اليهود والعرب.

كما ان صحيفة "جيرولم بوست" وصفت كلاً من دوف فريدلندر، وكلافين جولشتايندر، بأنهما من اكبر الديمغرافيين في اسرائيل، واوردت على لسانهما في عام ١٩٧٤: انه مع الحد الاقصى من الاستيطان اليهودي (الاحتفاظ بكل المناطق المحتلة) قد يصبح السكان اليهود اقلية عددية واضحة، عام ٢٠٠٠. وقد اخطأ الاثنان ايضا. صحيح انه كان هنالك انخفاض بسيط في نسبة اليهود نسبة الى المجموع السكاني العام، غير انه من الواضح اليوم، انه لا يوجد احتمال لان يصبح العرب اغلبية في عام ٢٠٠٠.

البروفسور ارنون سوفر، الذي وصفته صحيفة "شيكاغو تريبيون" بأنه اهم خبير اسرائيلي في مجال الديمغرافيا، قال عام ١٩٧٨، انه حتى عام ٢٠٠٠، ستصل نسبة السكان العرب في "ارض اسرائيل" الى ٤٦٪. واطاف: ان هذه الاحصائية، لا تكذب... واذا استمر الوضع على ما هو عليه الان، فستختفي اسرائيل بصورتها الحالية.

ها هي اسرائيل، لا يوجد فيها اية مؤشرات للاختفاء. ان الكثيرين من هؤلاء الديمغرافيين هم ذوو مواقف سياسية يسارية، وجميعهم يعرفون كيف يشرحون ان الخلاص يأتي عن طريق التنازل عن المناطق المحتلة.

وفي اوساط اليمين المتطرف ايضاً، هنالك جماعة متزايدة تقبل بتنبؤاتهم، مع انها لا تقبل حلولهم، فاليمينيون المتطرفون في اسرائيل يقترحون اخلاء السكان العرب من الضفة الغربية، للحيلولة دون حصول هذه النتيجة الحتمية.

ان مؤيدي فكرة وجود مشكلة سكانية، من التيارين السياسيين في اسرائيل،

يعلمون، بكل ثقة، ان العرب سيصبحون اغلبية في البلاد، اذا لم نعمل وفقاً لمصلحتهم، غير ان القليلين فقط، هم الذين فحصوا امكانية تحقيق تنبؤات هؤلاء الخبراء السكانية السوداء، التي بنوا على اساسها سياستهم.

ان الديمغرافيا، ليست بالعلم الدقيق، وتوقعاتها، ليست حقائق. اذ عندما يقول لنا عالم فيزيائي ان الكرة الساقطة من علو ٢٠ متراً، ستصلدم بالارض بعد مضي ثانيتين، نستطيع الافتراض بأن هذا ما سيحدث فعلاً: لقد اجريت مثل هذه التجربة آلاف المرات، واذا اردنا التأكد من صحتها، نستطيع اعادة التجربة او اجرائها. ان الكرة، شيء جامد. ولا يوجد اي احتمال ان تقرر من تلقاء نفسها تغيير مسار سقوطها، وتوجه فجأة الى اتجاه آخر. ان سقوط الكرة خلال ثانيتين - حقيقة ثابتة. لكن الامر مختلف، عندما نتحدث عن انسان. فالمراقب يستطيع ان يتنبأ بأن شخصاً معيناً سيذهب الى العمل يوم الجمعة في تمام الساعة ٨:٣٠ صباحاً لانه اعتاد هذا، في بقية ايام الاسبوع - لكن هذه ليست حقيقة علمية. اذ من المحتمل جداً ان يغير هذا الشخص عاداته، ويذهب الى الشاطئ. بدلا من مكان عمله. اي ان النتيجة النهائية، تتوقف الى درجة كبيرة، على الشخص نفسه.

في حالات كثيرة، يتعامل الديمغرافيون مع بني البشر، كما يتعاملون مع الكرة المطاطية في التجارب العلمية. فالديمغرافي يحدد رأيه على اساس تطور الاشياء حتى اليوم الذي يحدد فيه رأيه هذا - النسبة العددية بين العرب واليهود، نسبة الولادة، العمر، وهكذا - ويتنبأ بما سيحدث، فيما لو تصرف الجميع على نفس النحو. غير ان الحركة الصهيونية اعتمدت، منذ البداية، على نظرية عكسية تماماً. لقد تفحص هرتسل الامور، كما تطورت حتى ذلك اليوم، وقال انه ليس من الضروري ان تستمر على نفس النحو، وكتب: ان اردتم، لن تكون هذه خرافة".

لقد كان عدد السكان العرب في البلاد، آنذاك، يزيد بعشرة اضعاف عن عدد اليهود. لكن الشعب اليهودي اختار آنذاك ان يتجاهل الحقائق السكانية: هاجر الصهاينة الى البلاد وينوها، اقاموا المدن والمستوطنات لاستيعاب المزيد من اليهود، وخلقوا واقعاً ديمغرافياً جديداً: دولة يهودية ذات اغلبية يهودية.

لقد هاجر جد امي الى "ارض اسرائيل" عام ١٨٩٦. وفي تلك السنة، كان عدد العرب يصادلون عشرة اضعاف عدد اليهود. وظل اليهود متمسكين بالارض من خلال الايمان بأنهم سيصبحون اغلبية في نهاية الامر. وعندما هاجر الى البلاد جدي لوالدي عام ١٩٢٠ كانت النسبة (١:٦) وفي عام ١٩٤٧، عندما اقر مشروع التقسيم في الامم المتحدة، كانت النسبة (١:٢). وبعد حرب الاستقلال بدأت هجرة يهودية واسعة النطاق من الدول العربية وغيرها، وخلال ١٥ سنة انقلبت الامور: اصبح عدد اليهود ضعف عدد العرب تقريباً. ولقد تغيرت هذه النسبة قليلاً في غير صالح اليهود في العقد الاخير، غير ان هذا التوجه العام يمكننا استخلاص الاستنتاج العكسي، بالنسبة لمستقبل الدولة اليهودية: سيحافظ اليهود على اغليبيتهم الحالية، بل سترتفع نسبتها اذا ما استمروا في تنمية هجرة يهودية على نطاق واسع.

لقد اثبتت خلال نقاش جرى داخل حزب العمل، عام ١٩٦٨، التوقعات السوداء بشأن الاختناق الديمغرافي المتوقع لاسرائيل في غضون ثلاثين سنة، اذا لم تتنازل عن المناطق المحتلة. آنذاك، رد شمعون بيرس بقوله: لدي شك بالنسبة للحكم سلفاً، وحسب احصائيات ١٩٦٧، على ما سيحدث خلال الثلاثين سنة القادمة، وانه لن يحدث خلال الثلاثين سنة القادمة سوى زيادة عدد العرب بنسبة ٢٠.٥٪ سنوياً، وتكون نسبة تكاثر اليهود اقل من ٢٪. هل نحن متأكدون من انه حتى عام ١٩٩٨، لن يهاجر اي عربي من اسرائيل، وان اليهود لن يزيّدوا نسبة التكاثر الطبيعي لديهم؟... وهل ستبقى روسيا، على ما هي عليه اليوم؟ وهل سيظل اليهود الامريكيون كما هم اليوم؟ يهود فرنسا وبريطانيا وامريكا الجنوبية- كلهم سيظلون على حالهم، دون تغيير؟ هل هذا هو الحلم الصهيوني؟...

ستتاح لنا الفرص خلال السنوات الثلاثين القادمة، لاتخاذ قرارات بشأن تغيير مسارنا، حتى لو تحققت اسوأ التنبؤات. لكن من هو المستعد للتنازل اليوم... وهناك من هم مستعدون للتنازل، حتى دون سلام- لا يتنازل عن المناطق المحتلة فحسب، انما يتنازل عن مستقبل البلاد وفعلاً، لا تزال هذه الاقوال صالحة للتكرار اليوم ايضاً. هيا نفحص الحقائق التي كان من المقرر ان ترجع الكفة لصالح "ترانسفير" يهودي او عربي من الضفة الغربية وغزة، فور انتهاء حرب الايام الستة.

بعد الحرب، بدأت تتردد التنبؤات السوداء، التي توقعت ان يصبح العرب في غضون ٢٥ سنة اقلية سكانية في منطقة غرب نهر الاردن. وبما انه قد مضت الان اكثر من ٢٥ سنة، يمكننا التعرف على مدى تحقيق هذه التوقعات. فيما يلي المعطيات العددية لسكان "ارض اسرائيل" في ٢٥ سنة:

١٩٩٣		١٩٦٧	
يهود	غير يهود	يهود	غير يهود
- اسرائيل ضمن حدود			
٤,٥١٠,٠٠٠	٨١٧,٠٠٠	٢,٣٤٨,٠٠٠	٣٢٨,٠٠٠
ما قبل عام ١٩٦٧			
٢٦٦,٠٠٠	١,٢٤٤,٠٠٠	-	٥٦١,٠٠٠ (٢)
- الضفة الغربية			
٥,٠٠٠	٧٤٩,٠٠٠	-	٣٨١,٠٠٠
- غزة			
١٣,٠٠٠	١٦,٠٠٠	-	٨,٠٠٠
- حصة الجولان			
<hr/>			
٤,٣٣٥,٠٠٠	٢,٨٦٢,٠٠٠	٢,٣٨٤,٠٠٠	١,٣٦٨,٠٠٠
المجموع			
المجموع بالنسبة المؤوية من			
%٦٠,٥	%٣٩,٥	%٦٣,٥	%٣٦,٥
مجمل السكان			
<hr/>			
كما هو مذكور اعلاه			
%٦٧,٦	%٣٢,٤	%٧٠,٧	%٢٩,٣
بدون غزة			
<hr/>			

ملاحظات:

- ١- علاوة على العرب المسلمين والمسيحيين المشمولين بمصطلح "غير اليهود" هنالك الدروز والشركس، واقليات اخرى بلغ عددهم، عام ١٩٩٢، (٨٥) الف نسمة، اي نسبة ١,٣% من مجموع السكان.
 - ٢- تشمل المعطيات المتعلقة بالضفة الغربية، القدس الشرقية ايضاً، حسب احصاء حجم السكان في شرق المدينة: ٦٥,٠٠٠ غير يهود، عام ١٩٦٧، ١٥٥,٠٠٠ غير يهود و (١٥٠) الف يهودي في عام ١٩٩٢.
- المصدر: مكتب الاحصاء المركزي في اسرائيل.

في عام ١٩٩٢، لم تكن العلاقة العددية بين اليهود والعرب مختلفة كثيراً عما كانت عليه في عام ١٩٦٧ : كانت نسبة اليهود آنذاك %٦٣,٥ ، وفي عام

١٩٩٢ وقفت عند ٦٠,٦٪ بعبارة أخرى، تقول انه بعد مضي ربع قرن، لم يحدث بعد الانهيار الديمغرافي الذي كثرت التحذيرات بشأنه (ولو لم تسمح اسرائيل بجمع شمل العائلات العربية في الضفة والقطاع، لكانت نسبة اليهود اليوم ٦٢,٤٪، أي اعلى قليلاً مما هي عليه اليوم- او ٦٧,٦٪ بدون عرب غزة).

لماذا لم تتحقق التنبؤات الديمغرافية السوداء؟

ان خوف اليهود من المشكلة السكانية ينبع اساساً من مصدر واحد هو: نسبة الولادة العالية في اوساط العرب في اسرائيل، التي تصل الى خمسة اولاد للأسرة الواحدة، أي حوالي ضعف حجم الأسرة اليهودية. وعندما نعتد على هذه الحقيقة فقط، نصل الى استنتاج واحد تقريباً، هو ان نهاية اسرائيل كدولة يهودية، ليست بعيدة.

هنالك معلومة احصائية اخرى يكثرون من ترديدها، تفيد بأن السكان العرب، هم اكثر شباباً من اليهود، الامر الذي سيجعل تكاثرهم الطبيعي في المستقبل اعلى. كما ان معلقين اسرائيليين اضافوا الى هذه المعلومة عنصراً درامياً هو: ان المعركة الآن تدور حول "الرحم"، هكذا بكل بساطة. وهذه المعركة لا بد ان يخسرها اليهود. غير ان الواقع اكثر تعقيداً. ان مستقبل اسرائيل السكاني لن تحسمه "معركة على الرحم" فقط. فالعناصر التي تكون المستقبل الديمغرافي للدولة كثيرة، والصورة العامة ليست بهذه البساطة من الوضوح. اذ ان الحجم السكاني لا يكثر او يقل لسبب واحد فقط، انما يأتي نتيجة لتأثير اربعة عناصر: الولادة، الموت، الهجرة، والهجرة العاكسة. فالولادة، والهجرة، تزيدان عدد السكان، بينما الموت، والهجرة العاكسة، يقللان عدد السكان.

وبما اننا نتحدث هنا عن نوعين من السكان، اليهود والعرب، فاننا نتعامل مع شائنة عناصر، وليس اربعة فقط. ويجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار، كل هذه العناصر مجتمعة، في كل مرة تجري فيها دراسة جدية لمستقبل اسرائيل الديمغرافي. كما ان كل واحد من العناصر الثمانية هذه، يتأثر بمجموعة كبيرة من القوى والظروف. فالهجرة اليهودية، على سبيل المثال، تتأثر بالتقلبات السياسية في روسيا، وفي مجموعة الدول المستقلة، ومن زيادة قوة اللاسامية في اوربا، وفي اماكين اخرى، ومن وضع العمالة في اسرائيل والعالم، ومن حجم نشاط الحركة الصهيونية، وغيرها. اذا، ليس من الغريب ان يخطئ كثيرون من

الديمغرافيين في توقعاتهم.

لذا، فإن بناء التوقعات بالنسبة للزيادة السكانية في الضفة الغربية وغزة، على أساس نسبة التكاثر الطبيعي السنوي لدى العرب هناك، ليس له أهمية كبيرة.

إن الطرف العربي في المعادلة الديمغرافية، كما يعرض في وسائل الاعلام، ينقصه دائماً عنصران: الانخفاض السريع في نسبة الولادة في الوسط العربي، وهجرة العرب الواسعة الى خارج مناطق الضفة وغزة.

قبل حرب الايام الستة، كان متوسط عدد افراد الاسرة العربية في اسرائيل ٩,٢ فرد وانخفض هذا العدد في عام ١٩٨٧ الى معدل ٤,٦ فرد. في حين انخفضت نسبة الولادة في اوساط العرب المسيحيين اكثر من هذا، واصبحت اقل من نسبة الولادة في الوسط اليهودي. وكانت تلك نتيجة مباشرة لارتفاع مستوى المعيشة والمستوى الثقافي في الوسط العربي، وبخاصة بين النساء: الغالبية العظمى من النساء العربيات، يعرفن اليوم القراءة والكتابة، واذا استمر التطور الاقتصادي والثقافي، فمن غير المتوقع ان تنخفض ايضاً نسبة الولادة في الوسط العربي، غربي نهر الاردن، وان تصل الى مستوى نسبة الولادة في الوسط اليهودي.

اما بالنسبة للعنصر الثاني، الهجرة العربية للخارج: فمنذ سنوات الخمسينات، يهاجر عرب الضفة الغربية وغزة بمحض ارادتهم، بمعدل هجرة ثابت تقريباً، وذلك لدواع اقتصادية في معظم الحالات، حيث بلغ معدل الهجرة السنوية في تلك الفترة حوالي ٢٠ الف شخص.

وعندما انتقلت هذه المناطق الى الحكم الاسرائيلي، تحسن الوضع الاقتصادي بصورة جوهرية، ووجد حوالي (٧٠) الف عربي من هذه المناطق مصادر عمل لهم، داخل الخط الاخضر، وادى ذلك، الى تقليص حجم الهجرة من الضفة الغربية الى الخارج الى درجة معينة. رغم ذلك، هاجر من هذه المناطق آلاف العرب سنوياً، بسبب الرواتب والاجور المرتفعة التي يمكن الحصول عليها في دول الخليج ودول عربية اخرى وظهور جاليات عربية فلسطينية في اوربا وامريكا تجعل من السهل على المهاجرين البعد العشر على ملجأ لهم.

في منتصف الثمانينات تباطأ معدل الهجرة العربية، لكن التدهور الاقتصادي

الذي نجم عن الانتفاضة، وبخاصة الخوف من الارهاب العربي، زاد من معدل الخروج من هذه المناطق. وقد برزت هذه الظاهرة بصورة جلية، امام مبنى القنصلية الامريكية في القدس الشرقية، حيث كانت تتدف طوابير طويلة من المراجعين العرب، الذين يريدون الحصول على تأشيرات دخول الى الولايات المتحدة. (من ان احدهم قال معلقاً على هذه الظاهرة انه لو كانت الولايات المتحدة تسمح بدخول عرب الضفة الغربية اليها، كما تسمح ليهود الاتحاد السوفياتي، لحلت مشكلة اسرائيل السكانية في يوم واحد). لقد كانت هجرة العرب من المناطق الخاضعة للسلطة الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧، عنصراً مهماً في الميزان السكاني. ولكن، اذا كانت الاحصائيات السكانية، تشير الى وجود "خطر" سكاني حقيقي، فان هذا الخطر ليس مصدره عرب الضفة الغربية وغزة، بل "عرب اسرائيل" بالذات.

ففي الفترة من ١٩٦٧-١٩٩٢، انخفضت نسبة عرب الضفة الغربية وغزة من ٢٥,٨% الى ٢٤,٨% من مجمل السكان غرب نهر الاردن. وفي المقابل، زادت نسبة "عرب اسرائيل" من ١٠,٥% الى ١٣,٤% ولعل اي خبير سكاني لا يقول صراحة، كم يحتاج "عرب اسرائيل" من الوقت، حتى يشكلوا اغلبية في اسرائيل، اذا تخلت عن الضفة الغربية وغزة. فاذا كانت تنبؤات هؤلاء الخبراء، خالية من اية ميل سياسي، فان عليهم القول صراحة، ان اسرائيل يجب ان تتخلل ايضاً عن مناطق الجليل والنقب التي توجد فيها نسبة كبيرة من "عرب اسرائيل".

عندما نأخذ بالحسبان هذه المعطيات، يتضح لنا ان التوقعات الخيالية بشأن انفجار سكاني مؤكد" بعيدة جداً عن كونها توقعات مؤكدة. ويزيد التأكيد على هذا الاستنتاج ايضاً، عندما نتفحص الطرف اليهودي في المعادلة: يبلغ متوسط عمر الشخص اليهودي ٧٨ سنة لدى النساء، و ٧٥ سنة لدى الرجال. ويمكن الافتراض بأن هذا المعدل سيزداد مع التقدم الطبي. كما ان نسبة الولادة في الوسط اليهودي ثابتة منذ سنوات عديدة، عند الرقم ٢,٧ ولد في الاسرة، وهي اعلى معدل ولادة في العالم الغربي، ويبدو ان هذا هو رد الجمهور اليهودي نتيجة تجاربه في الحروب المتكررة، وخوفه من حرب جديدة، وكتعبير عن رغبته في ضمان بقاء الشعب اليهودي.

لا شك ان هناك مصلحة لدولة اسرائيل ، بصفتها دولة يهودية في تشجيع

زيادة حجم الاسرة اليهودية. وتجدر الاشارة، في هذا المجال، الى ان دولاً مثل فرنسا وهنغاريا، وبلغاريا، والجمهوريات السوفياتية سابقاً، اكتسبت خبرة ناجحة للغاية في تطبيق برامج وطنية لتشجيع الولادة. وقد وردت في احدى الدراسات الحكومية مقترحات مختلفة لتحقيق هذا الهدف: منح قروض لانشاء اسر جديدة؛ مساعدة النساء اللواتي يعانين من صعوبات في الاخصاب، تقديم المشورة او المساعدة للنساء اللواتي حملن بصورة غير متوقعة، تقديم المساعدة في مجال اسكان العائلات التي ترغب في زيادة عدد اولادها، لكنها لا تستطيع بسبب النقص في المسكن، تعديل قوانين الشؤون الاجتماعية في مواضيع تتعلق بالاولاد، والامهات العاملات وغير ذلك.

لا يوجد، بالطبع، اي ضمان بأنه حتى لو اتخذت هذه الاجراءات، ستؤدي الى تحقيق النتائج المرجوة، غير ان توقعات "مؤكدة" بشأن نسبة ولادة منخفضة في الوسط اليهودي، في الوقت الذي تستطيع فيه اسرائيل تنفيذ برامج لتشجيع الولادة، تشبه التوقعات التي تؤكد بصورة مطلقة "عدم نزول مطر" ان معدل الولادة في الوسط اليهودي، لا يمكن التنبؤ به بصورة قاطعة، كون جزء من هذه المسألة، على الاقل، يتعلق بتصرفات اسرائيل نفسها..

ان العنصر الثاني الذي يؤثر على حجم السكان اليهود، فهو الهجرة المعاكسة، وهذا ينطوي على مشاعر فورية بشكل خاص. ان الهدف الرئيسي للحركة الصهيونية هو تجميع الشعب اليهودي في دولة اسرائيل، ولهذا السبب ينظر معظم الجمهور في البلاد الى الهجرة المعاكسة باعتبارها تصرفاً سلبياً جداً. اذ ان كل شخص يهاجر من اسرائيل، يعتبر خسارة حقيقية، مثلما يعتبر وصول اي مهاجر جديداً مكسباً حقيقياً.

في الثمانينات، عندما بلغ معدل الهجرة المعاكسة من اسرائيل حوالي ٣٠ الف شخص سنوياً، اعتبر الكثيرون في اسرائيل، هذا الامر، خطراً حقيقياً على مستقبل الدولة. لكن وفي اعقاب تحسين الوضع الاقتصادي والتشجيع النفساني في اعقاب الهجرة من الاتحاد السوفياتي، توقف هذا التوجه.

يقدر عدد الاسرائيليين الذين هاجروا من اسرائيل منذ قيامها بحوالي ٤٠٠ الف نسمة - حوالي ١٠% من مجموع السكان اليهود حالياً. ويعتبر هذا الرقم

كبيراً جداً بالنسبة لدولة لا تزال تيزل الكثير من اجل زيادة عدد سكانها، من غير الممكن ان تتوقع ما اذا كانت الهجرة المعاكسة من اسرائيل ستتألف على نطاق واسع، ان الامر متوقف، اولاً وقبل كل شيء، على ما سيحدث داخل اسرائيل نفسها. اذ ان نسبة الهجرة المعاكسة، تتأثر بشكل عام، بالصعوبات الاقتصادية، وليس بالتطورات السياسية او العسكرية بالذات، وان معظم الاسرائيليين المقيمين في الولايات المتحدة وفي اماكن اخرى، تربطهم باسرائيل علاقات قوية، وكثيرون منهم يعربون عن رغبتهم في العودة اليها. وفعلاً، زاد في السنوات الاخيرة، عدد الاسرائيليين الذين قرروا العودة الى اسرائيل، فالمهاجرون من اسرائيل يتأثرون جداً بأية مشاريع تشجعهم على العودة الى اسرائيل. ومن الخطأ الفاحش، عدم اخذهم بنظر الاعتبار لدى الحديث عن التوازن السكاني. فاذا طرأ على الاقتصاد الاسرائيلي تحسن حقيقي، فمن المتوقع ان ينخفض معدل الهجرة المعاكسة من اسرائيل، وزيادة في عدد العائدين اليها، وبينهم رجال اعمال ناجحون، يستطيعون المساهمة، بدرجة كبيرة، في تطوير الاقتصاد الاسرائيلي.

ان اكثر العناصر اثراً على الهجرة الى اسرائيل، هو الوضع الاقتصادي فيها. وتعتبر الهجرة، كما اسلفنا، اهم عنصر في الطرف اليهودي من المعادلة السكانية. فمنذ بداية الحركة الصهيونية كانت الهجرة اليهودية، مصدراً للحل السكاني الوحيد الذي كان قابلاً للتنفيذ آنذاك. لقد حولت الهجرة اليهودية ارضاً قاحلة، سكانها العرب قليلون، لكنهم يبلغون عشرة اضعاف الجالية اليهودية الصغيرة التي كانت فيها، الى دولة اسرائيل الحالية، التي يزيد فيها عدد السكان اليهود على العرب بنسبة ملموسة، حتى بعد الاخذ بالاعتبار سكان المناطق التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧.

واليوم ايضاً لا تزال الهجرة اليهودية تنطوي على امكانيات ضخمة لتقوية الدولة في المستقبل، اذ يوجد في جمهوريات الاتحاد السوفياتي المستقلة، حوالي ٣-٢ ملايين يهودي، اي اكثر من عدد العرب في كل ارض اسرائيل الغريبة. وربما يزيد عدد اليهود في هذه الدول، عن هذا الرقم بكثير نظراً لأن معطيات التعداد السكاني في الاتحاد السوفياتي، لم تكن دقيقة، ولان كثيرين من اليهود السوفيات، لم يرغبوا في اظهار يهوديتهم.

لقد اصبح شبه مؤكد الان ، ان جميع يهود روسيا ، واورانيا ، وجمهوريات

اخرى، سيهاجرون الى اسرائيل فيما لو زادت خطورة الوضع الاقتصادي والسياسي هناك، واذا استطاعت اسرائيل توفير فرص عمل مناسبة لهم. هناك ما يزيد على مليون يهودي في روسيا، قدموا، حتى الان، طلبات هجرة الى اسرائيل، وقد يحنو كثيرون آخرون حذوهم، وهذا عنصر اخر مهم يتوقف استغلاله على اسرائيل نفسها.

ليس بالضرورة، ان تكون الهجرة الكبرى من مجموعة الدول المستقلة التي بدأت في مطلع التسعينات، اكبر هجرة في تاريخ الحركة الصهيونية. ففي فرنسا، يقترب عدد اليهود من مليون نسمة، ويعيش حوالي ١٠٠ الف يهودي في جنوب افريقيا، وحوالي ٣٠٠ الف يهودي آخرون يعيشون في الارجننتين. وتشهد فرنسا في السنوات الاخيرة، موجة لاسامية آخذة في الازدياد، مع ظهور القومية المتشددة لليمين المتطرف، كما ان مستقبل الجالية اليهودية في جنوب افريقيا يلفه الغموض، مع التغييرات الدراماتيكية التي تمر بها هذه الدولة.

ومن شأن مثل هذه التطورات الاجتماعية والسياسية التي تشهدها هذه الدول، احداث تيار جديد للهجرة الى اسرائيل، وبخاصة اذا تحسن الوضع الاقتصادي في البلاد. وتنطبق هذه الامور ايضا على دول اخرى عديدة، توجد فيها تجمعات يهودية، من ضمنها الولايات المتحدة وكندا اللتان تنتظر فيهما اكبر قوة يهودية، اليوم الذي تبدي فيه اسرائيل استعدادها لتهجيرهم اليها.

ان تاريخ الصهيونية، هو تاريخ هجرة اليهود الى "ارض اسرائيل" وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني. لذا فان المفتاح لمستقبل الدولة والحل لكافة مشاكلها السكانية، يكمنان في استمرار هجرة اليهود الى اسرائيل حتى تصبح مأوى للجماهير اليهودية التي شاهدها مؤسس الحركة الصهيونية في احلامهم. ولهذا فان النضال من اجل الهجرة اليهودية، هو نضال من اجل استمرار بقاء اسرائيل. فاذا ما انتهجت اسرائيل سياسة صحيحة بالنسبة للهجرة والتكاثر الطبيعي، سيكون بمقدورها مضاعفة عدد السكان اليهود في غضون عشرين سنة. ومن المحتمل ان يرى كثيرون من اليهود بذلك هدفاً صعب المنال، لكن العرب يعتقدون غير هذا.

صحيح انهم يتحدثون الى الخارج عن انتصار الام العربية في المعركة على

الرحم" لكنهم يعرفون في قرارة انفسهم مدى قوة الهجرة اليهودية. لقد كان العرب دائماً يتأثرون بحجم الزيادة السكانية التي تحدثها الهجرة اليهودية، أكثر من تأثرهم بالتوقعات السكانية المتكررة. وهذا هو السبب الذي دفع العرب لحاربة الهجرة اليهودية بلا هوادة، لانهم يرون فيها العنصر الحاسم في المنافسة الديمغرافية مع اليهود. كما ان هذا هو السبب وراء حقيقة كون العرب يديرون صراعهم ضد اسرائيل، على محورين متوازيين: محاولة تقويض اسرائيل من الناحية الجغرافية عن طريق اضعاف احتفاظها بالارض وتقليص حدودها، ومحاولة اضعافها من الناحية الديمغرافية، عن طريق وقف تيار الهجرة اليها.

وفعلًا، كانت الزيادة في عدد اليهود في اسرائيل مشيرة جداً من ٦٠٠ الف نسمة من قبل اربعين سنة الى اربعة ملايين نسمة حالياً. لكن، حتى هذه الزيادة، ليست كافية بالنسبة لاسرائيل كقاعدة ديمغرافية مناسبة لحياتها، ولانتمائها، ولوجوده اخرى من حياتها القومية.

ان اربعة ملايين نسمة، ليس بالرقم الكبير وفقاً للمفاهيم المتعلقة بالشعوب. ويدفع المواطنون الاسرائيليون ثمنًا باهظًا بسبب قلة عددهم- سنوات كثيرة في الخدمة العسكرية النظامية والاحتياط، الضرائب، نوعية الحياة في مجالات عديدة. اذ ان معظم واردات الدولة مخصصة لضمان بقائها، كما ان كثيرين من الاسرائيليين الذين كان باستطاعتهم ان يصبحوا، علماء، فنانيين، رجال صناعة، او شعراء، وجدوا انفسهم مضطرين لتكريس حياتهم للدفاع عن الدولة، ويقتل احياناً افضلهم، في ميدان المعركة. لذا فالدولة تدفع ثمنًا باهظًا جداً في كافة هذه المجالات. فلر كان حجم السكان اكبر، لكان بالامكان توزيع عبء الدفاع عن الدولة بين شرائح اكبر من السكان، وتحرير قوى خلاقة اكثر، للعمل في مجالات الحياة الاخرى. ولهذا السبب، يجب ان نرى في كل مهاجر جديد الى اسرائيل، مساهمة خاصة لاثراء التجمع البشري في البلاد. وفي المقابل، فان فرض قيود على الهجرة، وبخاصة قبل ان يبلغ حجم السكان اليهود المستوى المطلوب لضمان مستقبل الدولة، سيؤدي بالتأكيد الى تفكك اسرائيل (كما حدث للكيان المسيحي في لبنان) ولدمارها النهائي.

هنالك، توافق كامل بهذا الشأن بين العرب وبين عدد كبير من الاسرائيليين. وقد اجاد ، محمود عباس ، التعبير عن رأي منظمة التحرير

الفلسطينية حول هذا الموضوع بقوله: "لكي ندرك الخطر الذي تنطوي عليه الهجرة اليهودية، علينا ان نتذكر بأن عدد سكان اسرائيل لدى اقامتها كان ٦٠٠ ألف نسمة... وأنا واثق من انه لو بقي عدد سكان اسرائيل على ما هو عليه، لما استطاعت البقاء حتى الان، ان الهجرة بالنسبة لاسرائيل، تشبه الوريد المتصل بقلب الانسان، فهي تغذي الاقتصاد الاسرائيلي بالجنود، والعمال، والفلاحين، لذا فاننا نعتبر الهجرة اليهودية اكبر واهم تحد يواجه الامة العربية.

ان الاعتراف بالعلاقة المباشرة بين الهجرة وبين استمرار بقاء كيان يهودي في ارض اسرائيل... كان هو السبب الذي ادى الى معارضة الزعماء العرب ومقاومتهم لاية هجرة يهودية الى البلاد. لكن، اكبر خطأ ارتكبته الحكومات العربية، كان مطاردة وطرد اليهود الذين كانوا يعيشون في الدول العربية بعد اندلاع حرب الاستقلال" عام ١٩٤٨. اذ اصبح كل يهود البلاد العربية تقريباً، لاجئين بعد مصادرة ممتلكاتهم وتعرضهم لازعاج مستمر، مما اضطر معظمهم للهجرة الى اسرائيل، وهكذا زاد عدد سكان اسرائيل بضعفين او اكثر خلال السنوات الاولى التي تلت قيام الدولة. وعندما ادرك الحكام العرب فداحة خطتهم، استأنفوا جهودهم الرامية الى منع الهجرة اليهودية من خلال عقد الاحلاف مع الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشيوعية. وكان آنذاك ملايين اليهود في دول الكتلة الشيوعية معرضين للملاحقة والاضطهاد شأنهم شأن يهود الدول العربية. فقد حظر عليهم تعلم اللغة العبرية، وحتى اقامة شعائرهم الدينية، من خلال تطبيق سياسة اعتقالات لا سامية رسمية.

في اعقاب انتصار اسرائيل في حرب ١٩٦٧، نشأت في اوساط يهود الاتحاد السوفياتي، حركة طالبت بحق هجرة اليهود الى اسرائيل ونتيجة لضغوط مارسها اسرائيل وجاليات يهودية في الدول الغربية، طرح موضوع هجرة يهود الاتحاد السوفياتي للبحث بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، مع بداية تحسن العلاقات بينهما وتبني سياسة المصالحة.

واوضح الكونغرس الامريكي، برئاسة السناتور هنري جاكسون للسوفيات انهم لن يحصلوا على حنطة وقروض من الولايات المتحدة، اذا لم يخفصوا شروط الهجرة على اليهود. ونتيجة لهذا الضغط الامريكي، فتح باب السجن السوفياتي لفترة ما حيث نجح في مطلع السبعينات، حوالي ٢٠٠ ألف يهودي سوفياتي، في الهجرة الى

اسرائيل، وبدأ العرب يمارسون ضغطاً شديداً على بريجنيف. بغية وقف الهجرة اليهودية، لكنه رفض طلبهم. وبعد الغزو السوفياتي لافغانستان عام ١٩٧٩، علقت الولايات المتحدة محادثات التقارب مع الاتحاد السوفياتي، وعلقت التسهيلات التي منحتها له، وهكذا لم يبق لدى الاتحاد السوفياتي أي سبب لابقاء الابواب مفتوحة امام المهاجرين اليهود من بلاده، حيث اوقف الهجرة، وزج بنشاط. الهجرة اليهودية في السجون. غير ان الابواب التي اغلقها بريجنيف، فتحت على مصارعها من جديد على ايدي غورباتشوف، فور تطبيقه لسياسة البروسترويكا. ومنذ عام ١٩٨٩، اصبح يسمح لليهود الاتحاد السوفياتي سابقا، بمغادرة البلاد دون اية قيود. وهكذا غادر عدد كبير من اليهود، روسيا، في الفترة من ١٩٩٠-١٩٩٢ في طريقهم الى اسرائيل، بمعدل حوالي ٢٠٠ الف نسمة سنوياً (أي ما يساوي حوالي ٥% من مجموع السكان في اسرائيل).

وفي عام ١٩٩٠، هجرت اسرائيل حوالي ١٥ الف يهودي من اثيوبيا، كما زاد حجم الهجرة من رومانيا ودول أخرى في اوربا الشرقية. وهكذا، اصبحت هنالك امكانيات هائلة لاستمرار الهجرة اليهودية الى اسرائيل، في اواخر هذا القرن.

بطبيعة الحال، لم تخف هذه الامكانية على امين العرب، وفي عام ١٩٩٠ استأنفوا، بنشاط ملحوظ، ضغوطهم على الدول الغربية بشأن وقف تدفق المهاجرين اليهود على اسرائيل. وادعى العرب، ان اسرائيل تعتزم توطين المهاجرين الجدد في اراضي الضفة الغربية، وطرد المواطنين العرب من اراضيهم. الامر الذي دفع بعض زعماء الدول الغربية لارسال مبعوثين للاطلاع على حقيقة الوضع، ووجد هؤلاء المبعوثون انه لا اساس للادعاءات العربية - اقل من ١% من المهاجرين، استوطنوا في الضفة الغربية وغزة، دون تشجيع من الحكومة، وسرعان ما اتضح ان المعركة ضد الهجرة التي ادارها العرب لم تكن موجهة لمنع استيطان المهاجرين في الضفة الغربية وغزة فقط، انما في اي جزء من ارض اسرائيل. بناء على طلب من صدام حسين، وياسر عرفات، قبل الغزو العراقي للكويت ببضعة اسابيع، الى اتخاذ وسائل متشددة ضد كافة الاطراف، والهيئات، والمنظمات التي تساعد، بأية طريقة كانت، هجرة اليهود الى فلسطين، وبخاصة في مجالي النقل والتحويل. ولم يتردد عرفات مرة أخرى في اللجوء الى سلاح الارهاب، (بعد اربعة اشهر فقط من

تظاهرة بالتدنيد بالارهاب في جنيف) حيث قال: اود القول بوضوح: اطلقوا النار على المهاجرين اليهود الجدد، وليكونوا سوفياتيين او اثيوبيين، او من اي اصل اخر. سيكون من العار علينا ان نرى قطعان المهاجرين يحتلون بلادنا ويستوطنون ارضنا، ونحن لا نحرك ساكناً. اريد منكم ان تطلقوا النار على الارض او في الجو (في الطريق الى اسرائيل) على كل مهاجر، يتخيل ان بلادنا واحدة جنان، وان الهجرة اليها، لعبة اولاد... ولا يهم ما اذا استوطن هؤلاء في يافا، ام في اريحا. انني امرم بكلمات واضحة وصريحة باطلاق النار. افعلوا كل شيء في سبيل وقف تيار الهجرة اليهودية".

ولاقت هذه الدعوة آذاناً صاغية. ففي كانون اول ١٩٩١، انفجرت سيارة مفخخة بجانب سيارة باص كانت تقل مهاجرين في طريقهم الى اسرائيل، في بودابست. غير ان المهاجرين نجوا بأعجوبة، وقتل في الانفجار شرطي هنغاري كان يرافقهم.

غير ان المعركة ضد المهاجرين اليهود، سرعان ما انحرفت لتسلك مسارات اخرى، بعدما تحولت انظار العالم الى معركة عربية اخرى. ففي اعقاب الغزو العراقي للكويت، ادرك العرب فجأة انهم يواجهون خطراً اشد بكثير، وتوقفت آلة الدعاية العربية ضد الهجرة اليهودية، دفعة واحدة. صحيح ان حرب الخليج حملت الشعب الاسرائيلي اعباءً مالية ونفسانية ثقيلة، لكن اسرائيل حظيت من خلالها بفترة هدنة استغرقت بضعة اشهر ثعينة في المعركة العربية ضد الهجرة. فعلى الرغم من ان عدد المهاجرين القادمين من روسيا، انخفض قليلاً، الا ان المهاجرين واصلوا القدوم الى اسرائيل، حتى في اصعب الاوقات، عندما كانت الصواريخ العراقية تتساقط على المدن الاسرائيلية.

كان المهاجرون القادمون، يحصلون فور وصولهم مطار اللد، على بطاقة الهوية، وكمام الغاز، وهكذا تبين انه، حتى خطر استخدام الاسلحة الكيماوية ضد اسرائيل، لم يكن ليردع المهاجرين عن القدوم.

بعد انتهاء حرب الخليج، استأنف العرب المعركة، وبدأوا بالضغط على الادارة الامريكية كي لا تمنع اسرائيل ضمانات القروض، التي كانت بحاجة ماسة اليها، لاستيعاب المهاجرين الجدد. فقد بدأت انظمة الحكم العربية، التي كانت قد نجت

لثورها من مغالب صدام حسين، بفضل جهود الولايات المتحدة، تطالب الامريكيين، بكل صفاقة، ان يكافئوا هذه الانظمة مقابل موافقتهم على الانضمام الى الائتلاف، ضد العراق، والغريب في الامر، ان الادارة الامريكية رضخت لهذه الطلبات، وبدأت باعاقبة منح الضمانات لاسرائيل. ولم تكن مبررات الادارة الامريكية لهذه الاعاقبة، اقتصادية بل سياسية: قال الامريكيون انهم يخشون من ان تستغل الاموال التي ستحصل اسرائيل عليها، من هذه القروض، لاقامة مستوطنات جديدة في الاراضي المحتلة. وان اسرائيل تستطيع الحصول على هذه الضمانات في حالة تمهدها بتجميد البناء في كافة المستوطنات، باستثناء المباني التي يجري العمل في انشائها.

لقد كانت الادارة الامريكية تعرف جيداً ان المهاجرين القادمين من روسيا، لم يستوطنوا في الضفة الغربية وغزة تقريباً. ومع ذلك، ربطت الادارة الامريكية، هذا الموضوع الانساني المتعلق بالمهاجرين، بمواقف العرب السياسية. الامر الذي شجع العرب على زيادة التطرف في مواقفهم.

ما الذي سيجعل العرب يتنازلون لاسرائيل، ما دامت الولايات المتحدة، تبتز منها تنازلات، دون ان تطلب من الجانب العربي اية مقابل؟

لو أن الولايات المتحدة، رفضت منح الضمانات لاسرائيل لاسباب اقتصادية، لكانت على الأقل، ثابتة في موقفها. لكنها اعترفت ان المبرر الاقتصادي ليس مهماً في نظرها، وربطت الضمانات بتوجيه انذار سياسي شديد، طلب من اسرائيل، في إطاره، الاختيار بين "الهجرة أو الاحتلال". ومن الواضح للجميع ان المغزى الحقيقي "لتجميد الاستيطان" ينطوي على شيء ما من الموافقة الاسرائيلية، على إنهاء وجود اليهود في المناطق "المجتمدة".

ولهذا، عندما طلبت الولايات المتحدة تجميداً مطلقاً للاستيطان اليهودي في الضفة الغربية وغزة، وضعت اسرائيل أمام الاختيار بين استيعاب المهاجرين دون اموال الضمانات، وبين الشروع في العودة الى الحدود الخطيرة، حدود عام ١٩٦٧. بعبارة أخرى الاختيار بين حنق ديمغرافي، وخنق جغرافي. وفي هذه الحالة، لم يكن أمام اسرائيل خيار حقيقي، إذ ليس بمقدورها الحياة ضمن حدود ضيقة الى هذه الدرجة. مثلما ليس بمقدورها التنازل عن استيعاب اعداد جديدة من المهاجرين.

وبالطبع، رفضت اسرائيل هذا الاختيار.

وفي إطار الحل الوسط، الذي تحقق أخيراً، أعلنت الحكومة الاسرائيلية التي تشكلت بعد الانتخابات عام ١٩٩٢، عن عدم ألبد، باقامة مستوطنات جديدة أو بناء جديد في مستوطنات قائمة، وأوضحت ان المباني العامة التي هي قيد الانشاء في مناطق الضفة الغربية وغزة، سيستمر البناء فيها. ومكّن هذا الحل الوسط، الادارة الأمريكية من عدم الدخول في مواجهة مباشرة وشديدة مع اسرائيل، وفي نفس الوقت منحها الضمانات للقروض، في ذروة معركة الانتخابات القادمة للرئاسة الأمريكية، كما وقرّ الحل الوسط، امكانية السماح لليهود بممارسة حقهم في القنوم والعيش في مناطق الضفة الغربية وغزة.

وهكذا، لأول مرة، تنجح الولايات المتحدة، نتيجة للضغوط العربية، في أن تحدد لاسرائيل ماهية الضرورات الحيوية لأمنها. كان ذلك مؤشراً أولياً لنجاح العرب في ضم واشنطن الى معركتهم ضد الهجرة اليهودية. ومن وجهة نظرهم، كان ذلك تطوراً مثيراً للأمال - انتصار صغير أولي، يمكن توسيعه في المستقبل. وهكذا، أغلقت دائرة أخرى، من الصراع العربي ضد الهجرة اليهودية. ففي سنوات العشرينات والثلاثينات، تمكن العرب من إقناع بريطانيا والتأثير عليها لاصدار سلسلة من أكتف البيضاء التي خنقت الهجرة اليهودية، وتركت اليهود طعماً للنيران التي التهمت اوروبا فيما بعد.

وفي مطلع التسعينات، حاول العرب ضم الولايات المتحدة، ورشة بريطانيا، الى الجهود الرامية لتحقيق هذا الهدف نفسه - تفويض المستقبل الغامض للملايين اليهود المقيمين داخل انقاض الاتحاد السوفياتي.

إن أياً كان، لا يستطيع التنبؤ بما سيحدث في روسيا، او أوكرانيا، وفي دول أخرى من الجمهوريات السوفياتية سابقاً. لكن اليهود استطاعوا من خلال تجاربهم في الألفي سنة الماضية، معرفة انه عندما تنتقل السلطة من أيدي الملوك والنبل الى أيدي الجماهير، أو قوات تشير المشاعر الشعبية، يصبح اليهود في خطر كبير. وهذه العبرة، يمكن الاستفادة منها؛ في الوقت الحالي، بشأن ما يجري في دول الجمهوريات السوفياتية سابقاً.

صحيح ، أن الشيوعية ، كانت نظاماً دكتاتورياً ظالماً ، لكن منذ سنوات

الخمسينات، وبعد ان تولى خروتشوف الحكم في الاتحاد السوفياتي، عمل على ضمان الأمن الجسدي لليهود. لكن لا يوجد أي ضمان بشأن استمرار هذا النهج الرسمي، في المستقبل في طره. عدم الاستقرار السائد حالياً في الجمهوريات المستقلة، ففي عدد من الجمهوريات السوفياتية سابقاً، تنمو حركات لاسامية متجددة تدعو صراحة لانهاء مسألة اليهود. وما صعود اليمين اللاسامي في روسيا، في انتخابات البرلمان الروسي في ربيع عام ١٩٩٤، إلا واحداً من هذه المؤشرات الواضحة لهذا التوجه. وستزداد خطورة هذه التوجهات، إذا ما انهار النظام العام الجماهيري، وسادت الفوضى في هذه الجمهوريات. ولهذا السبب، هنالك ضرورة مزدوجة لتجهيز اليهود الى اسرائيل: الضرورة الملحة لمغادرة يهود الجمهوريات السوفياتية المستقلة أماكنهم؛ والضرورة القومية الاسرائيلية، التي تدعو لاستيعابهم داخل اسرائيل.

إذا، مالذي يمنع يهود الاتحاد السوفياتي سابقاً من مغادرة امكان سكناهم في هجرة جماعية؟ ان يهود أوروبا الشرقية، يعرفون جيداً الخطر الذي يهددهم من انفجار اللاسامية هناك. ويعرفون أيضاً، أن أبواب الوطن القومي اليهودي مشرعة الان أمامهم، وتحكمها دولة يهودية مستقلة. لكنهم، مع ذلك، يعرفون أيضاً ان الأبواب الاقتصادية، التي تعني العثور على عمل محترم، وسكن مريح، في اسرائيل، غير مفتوحة أمامهم. فالاقتصاد الاسرائيلي عاجز الان عن استيعاب هذا الكم الهائل من المهاجرين خلال وقت قصير.

صحيح، أن يهود روسيا، مستمرون في القدوم الى اسرائيل، ولكن ببطء، يختلف كثيراً عن موجات الهجرة التي شهدتها فترة ١٩٩٠ - ١٩٩١. ويعود هذا التباطؤ في الهجرة، الى المعلومات غير المشجعة التي يتلقاها هؤلاء اليهود من أقاربهم واصدقائهم الذين سبقوهم الى اسرائيل ويعانون من صراع يومي في سوق العمل الاسرائيلي. وبما أنه لا توجد لدى يهود روسيا، امكانية الهجرة الى مكان آخر غير اسرائيل، يفضلون الآن البقاء في امكانهم ريثما يتضح الوضع.

وهنا، تواجه الحركة الصهيونية تحدياً فريداً. هناك ملايين اليهود يشعرون بأن الأرض تמיד تحت أقدامهم. وهم منفتحون لاستيعاب رسالة صهيونية جديدة مصدرها الدولة اليهودية - تلك الدولة التي لم يكن لها وجود في الثلاثينات، وكانت في الخمسينات تصارع من أجل البقاء. فاسرائيل اليسوم ، بأربعة ملايين

يهودي، وقدرة تكنولوجية وعلمية مميّزة، وجيش ربما يكون أفضل جيش في العالم، اسرائيل هذه، تستطيع ان تبعث، من جديد، الحياة في الحركة الصهيونية المتجددة، في الوقت الذي يواجه فيه الشعب اليهودي تحديات القرن الحادي والعشرين. فبواسطة هجرة جماعية متجددة، تستطيع اسرائيل تأمين الحجم السكاني المطلوب، الذي كان دائماً وأبداً الهدف المنشود للصهيونية منذ نشأتها.

لم يقل، هرتسل، نورداو، وفينسغر، أنه يجب على كل الشعب اليهودي الهجرة الى الدولة اليهودية، لكنهم آمنوا بأن غالبية هذا الشعب ستعيش فيها. ان تجمع اكثر من نصف الشعب اليهودي في اسرائيل، لم يعد حلاً بعيد المنال، وربما يصبح هذا الهدف في متناول اليد، حتى في مطلع القرن القادم.

هذه فرصة، لم تتوفر للشعب اليهودي منذ ظهور الحركة الصهيونية. ففي النصف الأول من هذا القرن، منعت الهجرة الجماعية الى "أرض اسرائيل" لأن أبواب البلاد كانت مغلقة من قبل الاتراك، ومن ثم البريطانيين. أما في النصف الثاني من هذا القرن، فقد فُتحت ابواب البلاد بعد قيام الدولة، لكن ابواب الهجرة أغلقت من قبل السوفيات الذين منعوا هجرة اليهود. وبعد سقوط الشيوعية، فُتحت الأبواب، مرة ثانية، أمام الهجرة الى البلاد على نطاق واسع، لأول مرة منذ مائة عام. إذ لم يعد هناك أي مانع خارجي يحول دون هجرة يهود العالم الراغبين في القدوم الى اسرائيل. وهذا تغيير تاريخي كبير، لم يدرك أهميته سوى القليل. ان أياً كان، لا يستطيع القول الى متى يستمر هذا الوضع. فمن المحتمل ان يؤدي عدم الاستقرار في الجمهوريات السوفياتية المستقلة الى تولي السلطة من قبل أنظمة حكم دكتاتورية، تعيد اغلاق الأبواب أمام الهجرة اليهودية من جديد. لذا، يتوجب على اسرائيل ان تستغل "نافذة الفرص" التاريخية التي فُتحت امام الشعب اليهودي. يتوجب عليها العمل بجد وسرعة من أجل تهجير اليهود الى البلاد، والشرط الوحيد لذلك، هو تغيير اسلوب ادارة الدولة، بشكل يبعث الرغبة لدى اليهود بالهجرة الى اسرائيل.

رغم كل المشاكل التي واجهتها في مجالي الاستيعاب والاسكان، أدركت حكومة الليكود أهمية هذه المسألة، ووجهت كافة الموارد القومية في هذا الاتجاه، في عامي ٩٠ - ١٩٩١. من الصعب القول ان حكومة العمل، التي خلفت حكومة الليكود، أظهرت نفس الادراك، أو أنها تعاملت بنفس الجدّة مع مسألة

الهجرة. فهذه الحكومة، تشغل نفسها في الركض وراء سلام مضلل مع شركاء، ليسوا بالشركاء. وبدلاً من هذا، كان عليها ان تدرك العلاقة بين هجرة يهودية جماعية، وبين ترسيخ السلام، بيننا وبين العرب.

ان من شأن موجات هجرة جماعية، ان تضع نهاية للعلم العربي برؤية دولة اليهود تنهار كدولة الصليبيين التي ظلت تصغر وتتقزم، حتى تلاشت نهائياً. ستكون مثل هذه الهجرة اليهودية، خطوة حاسمة نحو تحقيق السلام: وجود ديمغرافي يهودي قوي، الى جانب السيطرة على المنطقة الجغرافية المطلوبة لضمان أمننا، سيقتنعان العالم العربي بأن وجود اسرائيل أصبح حقيقة تاريخية ثابتة، وان محاولات القضاء عليها لن تنجح. والسؤال الحاسم هو: كيف تستطيع الصهيونية تجسيد الطاقة الكبيرة الكامنة في الهجرة اليهودية، وفي نفس الوقت منع حدوث هجرة معاكسة من اسرائيل، على نطاق واسع؟

لا شك في أن الاجابة على هذا السؤال، سيكون لها تأثير على مستقبل اسرائيل الديمغرافي، اكثر بكثير من التوقعات الفارغة الصادرة عن الديمغرافيين المحترفين.

يجب ان لا نستخلص من كل ما قلناه، أن اسرائيل لا تعاني من "مشكلة ديمغرافية". ان مثل هذه المشكلة موجودة فعلاً، مع أنها أصغر بكثير مما يعرضه علينا المؤيدون للاتسحاب. لكنني أؤمن ان بقدور اسرائيل والشعب اليهودي، ايجاد حل لهذه المشكلة بأبعادها الحقيقية. ان مستقبل اسرائيل يتوقف على السياسة العامة التي تتبناها اسرائيل بشأن الهجرة، واصرارها وحكمتها في تنفيذها.

ان هجرة ملايين اليهود الى اسرائيل، لن تحدث بصورة تلقائية، كما لن تكون ثمرة لاجراء دراماتيكي وحيد. بل يجب حشد وتنسيق كافة الجهود في ثلاثة اتجاهات قد تؤدي، مجتمعة، الى ظهور حركة هجرة كبيرة، في اوساط الشعب اليهودي: إحياء الدافع الصهيوني في اوساط يهود العالم؛ إنشاء علاقات سلام مبنية على الأمن مع جيراننا العرب؛ وإحداث تحول أساسي في النظامين السياسي والاقتصادي في اسرائيل:

* أولاً: يجب ان نمسي بصورة منهجية الدافع للهجرة في اوساط كافة

الجاليات اليهودية في العالم، وتبدأ بالبلدان ذات المستقبل السياسي، غير الواضح. فالى جانب تعميق الثقافة اليهودية، وتدرس اللغة العبرية في المهجر، لا توجد وسيلة أفضل من تعميق الفكرة الصهيونية في اوساط الجاليات اليهودية هذه، لمنع عملية انصهار اليهود في بلاد المهجر، الأخذة بالتسارع.

يجب أن تبدأ بشرح الفكرة الصهيونية من جذورها، لهؤلاء اليهود. أن نوضح لهم، ما اراده هرتسل، وهو أن الدولة اليهودية خُلقت لتكون ملجأ لليهود. كما أن هناك رسالة صهيونية أخرى يجب توجيهها الى يهود الدول المستقرة، وهي أن الحركة الصهيونية ترى أن دولة اليهود ضرورية، ليس من أجل حماية اليهود من الإبادة، فحسب، إنما لتكون وسيلة لرفع قيمة حياتهم كشعب.

فاسرائيل، هي المكان الوحيد على وجه البسيطة، الذي يستطيع اليهود ان يعيشوا فيه كقومية مستقلة، وليس كأقلية تعيش تحت رحمة أغلبية. كان هذا المبدأ، في نظر الجماهير اليهودية في العالم، قوة ايجابية، وجذابة، أكثر من الحاجة الى الفرار من اللاسامية أو لتحسين مستوى الحياة. يجب ان ننمي لدى الشعب اليهودي النظريات التي تمكنه من السعي الى حياة جديدة، حياة سيادة وكرامة. وهذه، ما زالت أكبر مهمة تواجه اسرائيل والشعب اليهودي.

• ثانياً؛ يجب أن تكون لدى اليهودي الذي يفكر في الهجرة الى اسرائيل، القناعة التامة، بأن بقاء الدولة مضمون. ان النزاع المستمر مع العرب، لم يمنع الموجات المتلاحقة من المهاجرين اليهود، في السنوات المائة الماضية، من الوصول الى البلاد، ذلك لأن اليهود قدموا الى "أرض اسرائيل" التي كانت تقاتل ضد العرب الفوضويين، ومن ثم الى دولة اسرائيل، التي تصارع ضد الدول العربية، آمنوا أن الصهيونية، ستتغلب في نهاية المطاف على أولئك الذين يريدون القضاء عليها. ويجب ان نعزز هذا الايمان من خلال عملية سياسية، تسعى لتحقيق سلام حقيقي، أي سلام يرتكز على أسس أمنية قوية. وهذا هو التحدي الثاني الذي يواجه دولة اسرائيل.

• ثالثاً؛ يجب إحداث تحول في النظامين السياسي والاقتصادي في اسرائيل. إذ دون مثل هذا التحول، لن يؤدي تعزيز الدافع الصهيوني الى تحقيق نتائج بعيدة الأثر. ودون اقتصاد فئال وقوي، لا يمكن توطين ملايين اليهود في

دولة اسرائيل.

ان مصير الاتحاد السوفياتي، يشير الى انه، على المدى الطويل، لا يمكن استقرار شعب دون اقتصاد ملائم. غير ان الحواجز العالية التي تضعها البيروقراطية الاسرائيلية الرسمية والمتصلية في وجه تحرير الاقتصاد الاسرائيلي، أحبطت، أكثر من مرة، مبادرات وصفقات قام بها اسرائيليون ويهود من الشتات. ولو أزال اسرائيل هذه الحواجز لأُتيحت أمامها فرص كبيرة، ولتدفقت عليها جماهير اليهود من كافة أنحاء العالم.

إذا أصبح الاقتصاد الاسرائيلي حراً مزدهراً، ستفرغ روسيا من يهودها، ويأتي مئات الآلاف من المهاجرين من دول أخرى، ويضمنها الولايات المتحدة. لقد أدهشت اسرائيل العالم، عندما ضاعفت عدد سكانها في سنواتها الأولى، غير ان استيعاب لاجئين مشردين في الخمسينات، لا يشبه استيعاب مهاجرين مثقفين من دول متطورة، في سنوات التسعينات.

ها هي اسرائيل تواجه، مرة أخرى، فرصة زيادة عدد سكانها بصورة مثيرة - إذا قررت اغتنام هذه الفرصة. إذ ان دولة يهودية، يبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين يهودي، بعد جيل، أي في عام ٢٠٢٠، مع معدل دخل اقتصادي للفرد، أفضل مما هو عليه اليوم، تستطيع أن تكون قوة حقيقية على العجلة الاقتصادية العالمية.

إن اسرائيل كهذه، ستتوفر لها القاعدة الاقتصادية والتكنولوجية المطلوبة لضمان أمن عسكري واستقلال سياسي، وبالتأكيد، لن تظل بحاجة الى المساعدة الأمريكية التي تقيد حرية حركتها، على هذه الأصعدة. غُيّر أن إدخال إصلاحات على الاقتصاد الاسرائيلي ليس بالأمر السهل. والغريب أن كافة محاولات أحداث إصلاح جذري في الاقتصاد الاسرائيلي، بامت بالفشل، لأن هذا الاقتصاد لم تكن لديه القدرة الكافية على تحمّل هذه الإصلاحات بالذات.

لم يسبق أن وقفت اسرائيل على حافة هاوية اقتصادية مثلما تقف اليوم دول اوروبيا الشرقية. فني، براغ، مثلاً، يحدث اليوم تحول حاد من اقتصاد شيوعي الى اقتصاد حر، رغم المعاناة المرتبطة بتحول من هذا النوع، ذلك لأن الشعب التشيكي يدرك أنه ليس لديه خيار آخر.

لقد فشل الاقتصاد السابق في هذه الدولة، الذي كان يُدار بقوة أوامر وتعليمات بلشفية، جعلت المواطنين يعيشون مستوى حياة دول العالم الثالث، رغم ان هؤلاء السكان، كانوا في مستوى ثقافي وتعليمي يماثل المستوى الذي كان سائداً في الدول الغربية. وفي اسرائيل أيضاً، لا تزال الحياة الاقتصادية تُدار وفقاً لأوامر صادرة من الأعلى، كما جرت العادة منذ خمسين سنة، لكن النتائج هنا لم تكن مخزية، بل متوسطة فقط.

لا شك في أن إنجازات الاقتصاد الاسرائيلي، ليست جيدة للغاية، لكنها ليست سيئة الى درجة تثير لدى الجمهور الاسرائيلي الرغبة في احداث ثورة في النظام الاقتصادي المعمول به في اسرائيل. واذا لم يطرأ تحوّل، ربما تواصل اسرائيل السير في نفس الطريق، وقد تحقق نمواً اقتصادياً متواضعاً. ففي الواقع، هنالك نموّ كهذا، يتحقق تدريجياً، منذ منتصف الثمانينات، بفضل اجراءات ليبرالية معينة، واستثمارات في مجال الصناعات العلمية قامت بها شركات اجنبية واسرائيلية. وأدى هذا النشاط الاقتصادي، الى تحقيق زيادة متواضعة في الناتج العام للفرد، طيلة العقد الأخير. ولكن هذه الزيادة، لم تجعل من اسرائيل مركز اجتذاب للبادرات الهائلة الكامنة لدى الشعب اليهودي في العالم، وبالتأكيد، ليست كافية لاستيعاب ملايين المهاجرين الجدد.

يستثمر رجال أعمال يهود أموالاً طائلة في المكسيك، وتشيكيا، وسنغافورة، لكنهم يمتنعون عن الاستثمار في اسرائيل، ليس لأنهم يعارضون الصهيونية، إنما لأنهم يخشون على مستقبل مشاريعهم. وفي حقيقة الأمر، حاول بعضهم الاستثمار في اسرائيل، لكنهم اکتبوا بنار البيروقراطية الاسرائيلية. كان عليهم الانتظار لعدة أشهر أو سنين، للحصول على الموافقات المطلوبة. ان نمواً اقتصادياً بعيد الأثر، يمكن ان يتحقق في حالة واحدة فقط، وهي تحرير الاقتصاد من الاشراف الحكومي الخانق.

هناك من يدعي، أنه بعد احلال السلام فقط، سيحقق الاقتصاد الاسرائيلي نمواً حقيقياً، غير ان هذا الادعاء هو مجرد ذريعة، يستخدمها الراغبون في تكبيل أيادي اسرائيل بقيود اقتصادية. لا شك في أن السلام الحقيقي، سيحسن المناخ الاقتصادي، ويلفي المقاطعة العربية. لكن الادعاء بأن السلام وحده، سيؤدي الى نمو اقتصادي ثوري كهذا ، تردد بشكل خاص في اعقاب التوقيع على اتفاق

أوسلو، وقد اعتمد على الادعاء المعروف، بأن السلام سيؤدي الى الاستقرار السياسي، وهو العنصر الرئيسي في اعتبارات المستثمرين.

لا شك في ان الاستقرار السياسي، أمر مرغوب من قبل رجال الأعمال، لكنه ليس شرطاً كافياً لترجيح القرار الاستثماري. لقد كانت دول مثل تشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا في العهد الشيوعي، من أكثر الدول استقراراً سياسياً، بعد الحرب العالمية الثانية، لكن أحداً لم يستثمر فيها أغيرة واحدة، لانهما لم توفرأ للمستثمرين ظروف السوق الحرّة. وفي المقابل، هناك دول مثل تايوان، هونغ كونغ، كوريا الجنوبية، كان وضعها السياسي والدولي بعيداً عن الاستقرار، حظيت باستثمارات ضخمة ومعدلات نمو اقتصادي مرتفعة، لأنها حولت اقتصادها الى اقتصاد السوق.

عملياً، لا يعتبر السلام مع الدول العربية عنصراً مهماً الى هذه الدرجة، في مجال التجارة المستقبلية معها. فبعد ١٥ سنة من السلام مع مصر، بلغت التجارة الاسرائيلية مع مصر حوالي (٢٠) مليون دولار سنوياً. وفي ضوء الصادرات الاسرائيلية المتنّعة والموجهة، بشكل رئيس، الى الاسواق المتقدمة في أوروبا والولايات المتحدة، لا يوجد للكثير مما يمكن عرضه على اقتصاديات الدول العربية، التي في معظمها متأخرة جداً عن الاقتصاد الاسرائيلي. ولكن، لا شك في أن إنشاء علاقات سلام سيفتح أمام الشركات الاسرائيلية، نافذة نحو الشرق، الى الاسواق الواسعة في جنوب شرق آسيا، واليابان والصين. كما أن موقع اسرائيل الجغرافي، القريب من أوروبا، قد يمكّنها من ان تكون جسراً بين الشرق والغرب، وبين الشرق، وبين أوروبا الوسطى، ورابطة الدول المستقلة. وهذه ثروة اقتصادية حقيقية لكن فيها طاقة كبيرة. لقد بنت سنغافورة امبراطورية اقتصادية كاملة، على أساس كونها جسراً بالاتجاه المعاكس، من الغرب الى الشرق.

ولكن لن تكون هنالك أية إمكانية جدية لتجسيد هذه الطاقة دون انتهاز سياسة واسعة الأفق، يرافقها استعداد لتحرير الاقتصاد الاسرائيلي من قبضة البيروقراطية السياسية، التي تحول دون تجسيد الطاقات والامكانيات الكامنة في هذا الاقتصاد.

ألا يمكن تقليص الاشراف الحكومي على الاقتصاد.

لقد أثبتت ألمانيا في سنوات الستينات امكانية مثل هذا التقليص ، وذلك

عندما الغي المستشار الألماني ايرهارد، آلاف الأنظمة والقوانين غير المبررة في الاقتصاد الألماني. ويمكننا أيضا العثور على نماذج أخرى، في التحرر الاقتصادي الذي طرأ في الثمانينات في كل من اسبانيا وبريطانيا، وفي التسعينات في المكسيك والارجنتين وتشيكيا. لقد ثبت أنه، في أي مكان تقلص فيه التدخل الحكومي، كان يتدفق رأس مال كبير على الدولة، ويبدأ النمو الاقتصادي فيها بالتسارع.

يمكننا عمل كل هذا، في اسرائيل أيضاً، إذا توفرت الرغبة السياسية لذلك. حيث أن الصعوبات الاقتصادية الاسرائيلية، هي صعوبات سياسية في جوهرها.

ان البروقراطية هي أعشاب طفيلية تنبت في وزارات الحكومة، لكن الوزارات التي ستكون مستعدة للتنازل، بحض ارادتها، عن القوة والنفوذ للذين تمنحهما لها صلاحيات الاشراف والسيطرة، قليلة جداً. وهذا هو السبب وراء عدم قدرة أي رئيس حكومة في اسرائيل، على تقليص صلاحيات وزيرها، أو وزارة في حكومته. دون تعريض حكومته لخطر السقوط الفوري. إذ أنه بمقتضى النظام السياسي المتبع في اسرائيل، يعتبر كل وزير أو عضو كنيسة، كسان ميزان" قد يتوقف مصير الحكومة كلها على موقفه. لذا، فليس مصادفة، ان يكون حوالي ربع أعضاء الكنيسة وزراء، رغم عدم وجود كفاءة لديهم لاشغال منصب الوزير.

كيف سقطت اسرائيل في هذا المستنقع الاقتصادي، وكيف يمكن إخراجها منه؟

بدأ الاقتصاد الاسرائيلي طريقه منطلقاً من ايدولوجية اشتراكية. بالنسبة لمن كان يريد انشاء دولة من لا شيء، وان يقيم في طرفه عين، بنية تحتية لم تكن موجودة نهائياً، كان الاسلوب الاشتراكي منطقياً في نظره. إذ أنه في السنوات الأولى بعد قيام الدولة، لم يكن يقدور الحكومة الاسرائيلية، الاعتماد على رأس المال الخاص في بناء المستشفيات، والمدارس، وشق الطرق، وإنشاء المصانع التي كانت ضرورية للنهوض بالدولة الناشئة.

ولكن، في سنوات الستينات، بعد الانتهاء من إنشاء البنية التحتية الاساسية، أصبح الاسلوب الاشتراكي لا مبرر لاستمراره، وكان من شأن الاشراف الحكومي، خلق الصعوبات، وإفشال النشاط الاقتصادي فقط. وخلال الثلاثين سنة التي تلت ذلك ، رفض الجهاز الاقتصادي الحكومي الاعتراف بأنه أصبح قديماً

بالأب. لم يكن ذلك إنفلاتاً اقتصادياً فقط. منذ البداية خدمت المركزية، حزب العمل، الذي أوجد هذا الأسلوب، وحقق بفضلها فائدة سياسية كبيرة، ومن ثم الليكود الذي سارع بعد توليه السلطة، عام ١٩٧٧ لتولي كافة الصلاحيات التي كانت بأيدي السلطة السابقة.

في الواقع، لم يكن هنالك أي سياسي، في إسرائيل، مستعداً لتقليص صلاحياته بمحض إرادته. ومن كان يفكر في ذلك، سرعان ما يحذره الواقع السائد من أن زملاءه سيهددون قوة على حسابه. إن نظام الحكم الوزاري، على غرار ما هو متبع في إسرائيل غير قادر على التسليم بتطبيق نظام خصخصة، على نطاق واسع، للمشاريع الصناعية التي تملكها الحكومة أو تقع تحت إشرافها.

يبلغ عدد الشركات الحكومية حوالي ١٥٠ شركة، وهي متغلغلة في كل زاوية من الحياة الاقتصادية التجارية في إسرائيل - من تزويد الماء والكهرباء، وحتى رسم الخرائط وتقديم خدمات الطعام لشركات الطيران. صحيح أنه يجب عدم خصخصة كل هذه الشركات، ولكن لا داعي أبداً لأن يكون معظمها ملكاً للحكومة. لقد تم الآن، كما هو معلوم، خصخصة عدد ضئيل من هذه الشركات، لكن التدخل الحكومي، عديم المسؤولية، في البورصة الإسرائيلية، يزيد في صعوبة خصخصة هذه الشركات.

ولكي ندرك كيف يحول النهج السياسي المتبع في إسرائيل، دون تحقيق هذه الخصخصة المطلوبة للاقتصاد، نفترض أن رئيس الحكومة طلب من الوزير الفلاني، بيع شركة حكومية تسيطر عليها وزارته. سيرفض الوزير هذا الطلب، بشكل عام، أو يقوم بتأخير تنفيذ الطلب، لأن من المحتمل أنه ما كان ليصبح وزيراً لولا أنه تعهد لعزبه بتعيين مجلس إدارة هذه الشركة من رجال الحزب، ولن يتنازل عن هذا الحق بسهولة. وإذا أصّر رئيس الحكومة، وظل يطلب منه بيع الشركة، سيبلغ له نفس الوزير، بأنه في أعقاب التصويت على عدم الثقة القادم، بالحكومة، قد يجد رئيس الحكومة نفسه في وضع لن يستطيع بعده أن يطلب أي شيء. وبهذه الطريقة وغيرها، يمنح النظام السياسي الإسرائيلي، ليس خصخصة الاقتصاد فحسب، إنما يحول أيضاً، دون تقليص الإشراف والسيطرة الحكومية على القطاعات الاقتصادية غير الحكومية.

هناك من يعتقد أنه، خلافاً لأهم أخرى، يعتبر الاسرائيليون أقل قدرة على إدارة الأعمال، وهذا هو السبب الرئيس وراء عدم نجاح النمو الاقتصادي في إسرائيل. ويقولون ان القدرات على إدارة الأعمال، تقف عند ساحل البحر الابيض المتوسط، ولا تتجاوز. غير أن بالامكان تفنيد هذا الادعاء بسهولة إذا ما نظرنا الى الأعمال المزدهرة التي يديرها اسرائيليون كثيرون هاجروا من اسرائيل الى الخارج، واصبحوا رجال أعمال بارزين، في ظل مناخ اقتصادي مفتوح، في سهل السيليكون في كاليفورنيا، وفي شارع ١٢٨ في بوسطن، وشيكاغو، وميامي وغيرها.

يجب أن لا نشكك في كفاءة الاسرائيليين، لأن العيب موجود في النظام السياسي الاسرائيلي، الذي كُتِل أيديهم بقيود حديدية من التعليمات والقوانين المانعة. ان الاقتصاد الاسرائيلي قادر على التغير بسرعة، أو على الأقل بمعدل سرعة التغير التي شهدتها اقتصاد الأرجنتين والمكسيك، وتشيلي، بعد أن تم تطبيق الليبرالية المطلوبة. وبما أن مثل هذا التحول، هو تحول سياسي في جوهره، فان الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها من أجل تحقيق هذا التحول، هي الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، ليتم بهذه الخطوة تقليص قدرة بعض الوزراء واعضاء كنيست وكتل نيابية صغيرة، على الاحتفاظ بالحكومة كرهينة لتلبية مطالبهم. فلو أن رئيس الحكومة تم انتخابه بالاقتراع المباشر من الشعب، وليس من قبل اغلبيه (٦١) عضوا في الكنيست، لأصبح أكثر قوة في مواجهة العناصر المعنية بمنع تطبيق الليبرالية الاقتصادية. هذا الأسلوب، يمنح رئيس الحكومة، صلاحية تعيين أو إقالة أي وزير في حكومته، هذه الصلاحية غير الموجودة حالياً، سوى على الورق فقط. ان من شأن الانتخابات المباشرة، منح رئيس الحكومة حرية العمل المطلوبة، لتنفيذ سياسة قاسية، مثل تقليص حقيقي في عدد الشركات الحكومية، وقوة البيروقراطية، دون أن يخشى سقوط حكومته، كنتيجة لمثل هذه الاجراءات.

لكن هذا لا يكفي بالطبع. فالوضع يتطلب تغييرات أخرى عديدة، مثل إدخال تعديلات على القوانين السائدة الآن، في مجالات العمل والتأمين الصحي، التي تمنح الهستدروت قوة منع تطبيق اي اجراء، من شأنه تقليص احتكاكها للاقتصاد العمالي. فالهستدروت ذاتها، تملك مشاريع اقتصادية كثيرة، ومؤسسات

تشغيلية كبيرة وغير ناجعة، والتي يتم اتخاذها من الافلاس التام، بفضل دعمها بمبالغ هائلة من اموال دافعي الضرائب. ولكي تقضي على هذه العيوب المختلفة في الاقتصاد، يجب الشروع بنضال شديد ضد أصحاب المصالح المتنوعة، الذين يتخندقون في مواقعهم، منذ ما يزيد على خمسين سنة. ولكي نطوّر الصناعة وتقضي على الضائقة السكنية، ندعو الضرورة الى نقل اجزاء كبيرة من العقارات والاراضي التي يسيطر عليها الجهاز البيروقراطي، الى السوق الحرة. ففي اسرائيل، تحتفظ الحكومة بجزء كبير جداً من الاراضي - ٩٣% - مقابل ٣٠% في الولايات المتحدة.

على الرغم من التغيير الذي يبدو في الأفق، في النظام السياسي المتبع في اسرائيل، لا يستطيع أحد ان يضمن بأن تخرج اسرائيل من احسانها زعماء سياسيين، لديهم الرغبة في تغيير النظام الاقتصادي. ان تحرير الاقتصاد الاسرائيلي بصورة جذرية، يعتبر شرطاً حتمياً لاستيعاب موجات هجرة كبيرة، ويمكننا تنفيذ ذلك عملياً، عندما تكون لدى الحكومة الاسرائيلية سياسة اقتصادية صحيحة، واصرار سياسي على تطبيقها.

ولهذا السبب، يجب أن ندخل الى وعي الزعماء والمشرعين الاسرائيليين المشغلين، حقائق الحياة الاقتصادية. ان الكثيرين من رجال السياسة والمثقفين في اسرائيل، يعتقدون لسبب ما، ان قوانين الاقتصاد الاساسية لا تنطبق على اسرائيل، وان دولة اليهود معفاة من تأثير قوة السوق. إن هؤلاء لا يميزون بين حاجة اسرائيل لاستثمارات حكومية كبيرة في مجالات شق الطرق، والبنية التحتية لشبكة المياه والكهرباء وما شابه ذلك، وبين الحاجة الى الغاء الاشراف الحكومي على الصناعة، والتجارة، والخدمات.

يحق للحكومة، وهي ملزمة أيضاً، بشق الطرق وتنفيذ مشاريع حيوية أخرى، تفوق كلفتها قدرة شركات خاصة، ولكن في مجالات أخرى، على الحكومة ان تقلص إشرافها. إن جانبي هذه السياسة، يقوي أحدهما الآخر. فمثلاً، وجود شوارع وطرق سريعة وحديثة، يساعد على رفع مستوى الانتاج في المصانع، بينما تستطيع المصانع ذات الانتاج العالي، المساعدة في تغطية نفقات شق طرق أفضل وأسرع. وسيكون أول من ينجذب الى اسرائيل بعد تقليص الاشراف ، وتخفيض

الضرائب، هم الاسرائيليون الذين هاجروا.

يعيش اليوم في الولايات المتحدة الآلاف من رجال الاعمال الاسرائيليين، كما في أوروبا وأماكن أخرى أيضاً، ناجحون في اعمالهم، ويرغبون في العودة الى اسرائيل. وبما أنه لا توجد حواجز لغوية وثقافية بينهم وبين بقية سكان اسرائيل، وبما أنهم اكتسبوا خبرة وعلاقات عمل دولية، يستطيع هؤلاء المساهمة بدور حقيقي في توسيع نطاق الصادرات الاسرائيلية.

وهناك دور مميز ليهود الولايات المتحدة في هذا الانتعاش الاقتصادي المأمول. إذ يمكن ان تكون مساهمتهم كبيرة في العقد القادم كونهم "مهاجرين اقتصاديين"، أي رجال أعمال وصدراء، يقومون بدور حاسم في إدارة أعمال جديدة في اسرائيل. إذ لا يوجد في العالم مجموعة سكانية مؤهلة ومبدعة، كيهود الولايات المتحدة، في مجالات الصناعة والتجارة والمال. ولا شك أنه في اعقاب حدوث تحول جذري، يستطيع الاقتصاد الاسرائيلي ان يجني فائدة كبيرة من قدرتهم هذه. ولا شك أيضاً، انه في حالة تحسن صورة الاقتصاد الاسرائيلي، سيأتي الى اسرائيل ليس اليهود، واليهود المهاجرين منها فحسب، بل ستجذب مستثمرين كثيرين من غير اليهود أيضاً.

ان كل هذه الأمور، هي في متناول يد اسرائيل. فحقيقة ان اصلاح السياسي قد بدأ، والانكار الليبرالية الاقتصادية بدأت تتغلغل في وعي الاسرائيلي العادي، تدل على ان اسرائيل أصبحت ناضجة لادخال تغييرات اقتصادية وسياسية واسعة النطاق.

هذا القول لا يعني الاعتراف باجراءات التحرير الاقتصادي التي اتخذتها حكومة الليكود في أواخر السبعينات والثمانينات اعتراضاً أيضاً، على الانفتاح التدريجي الذي تشهده السوق الاسرائيلية منذ ذلك الوقت. ولكنه مع ذلك يعتبر عن حقيقة أساسية واحدة: لا يزال مركز الثقل في النظام الاقتصادي السائد في السياسة الاسرائيلية، يميل نحو المركزية في الاقتصاد، وادارته بواسطة أوامر عليا، صادرة عن الحكومة.

ان من مصلحة الصهيونية اقتلاع "البلشفية"، و"البارونية" وإبعادهما عن الساحة الجماهيرية. إذ أن شعباً صمد في مواجهة ظروف التشرد، وتغلب على

معارضة ومقاومة امبراطوريات فورية، والعالم العربي كله، يستطيع، بالتأكيد، ان يجند قوة الارادة المطلوبة، للتغلب على العائق الاخير أمام عودة ملايين من أبنائه الى وطنهم. ان إذابة الجصود البيروقراطي الذي فرضته اسرائيل على نفسها، ليس بالمهمة المستحيلة. فالمسألة الديمغرافية هي مسألة هجرة في أساسها، والهجرة هي مسألة اقتصاد وثقافة. ان بمقدور اسرائيل ان تضع الأسس القوية والصلبة، لأغلبية يهودية قوية وثابتة في دولة اليهود، إذا رغبت في ذلك فقط، تماماً كما تنبأ هرتسل في حينه.

ان الحلم الصهيوني، الذي أعلن الاحصائيون والضعفاء عن موته، مرات عديدة، لا يزال على قيد الحياة، مثلما تبين لنا بعد ان فُتحت أبواب دول الكتلة الشرقية أمام هجرة اليهود. وتبين أيضاً أن كل توقعات الضياع، التي تفلتت بغطاء الواقعية العلمية، لم تكن سوى اهتزاز الثقة بالاهداف الصهيونية وبقدرة الشعب اليهودي على تخفيفها.

إن المفريت الديمغرافي، ليس من نتاج "الواقع"، انما هو تعبير عن الانهزامية لدى أولئك الذين فقدوا ايمانهم. بما أنهم، هم أنفسهم، لا يرون الطريق المؤدية الى انتصار الصهيونية، اعربوا عن استعذابهم للاعلان عن هزيمتهم، والانسحاب، حتى لو كان هذا الانسحاب الى دولة لا يتجاوز عرضها بضعة كيلو مترات، ظهرها الى البحر، واصبغها ممدودة الى الزر النووي. لكن الحلم الصهيوني لا يمكن تحقيقه عن طريق التراجع الى الخلف والهروب من اجزاء من "أرض اسرائيل" التي يخشى كثير من اليهود عدم قدرتهم على الاحتفاظ بأغلبية فيها. لم تقلل الصهيونية أبداً، ان الطريق لتحقيق اغلبية يهودية في البلاد، هي الانصراف من كل منطقة أو اقليم، يكون اليهود فيه أقلية. إذ لو تصرفت اسرائيل على هذا النحو، لتنازلت، منذ زمن، عن يافا، عكا، الجليل، واجزاء كبيرة من النقب. ولتقلصت الى جيب يهودي صغير ذي "أغلبية" يهودية مصطنعة، تنشُد الأمن لنفسها، على طول الساحل. ان مثل هذه الدولة الكتيبة، لم تكن لتجذب الكثيرين للعيش فيها. كما أنها ستفرغ بسرعة من سكانها، ومن قوتها، نتيجة للهجرة المعاكسة، التي ستنبع من الضعف واليأس.

لقد شعرنا بمثل هذه الحالة النفسية القومية، فعلاً، في السنوات التي سبقت حرب الايام الستة ، عندما توقفت الهجرة نهائياً تقريباً ، وارتفعت نسبة الهجرة

العاكسة من اسرائيل حتى أصبحوا يتنكرون في اسرائيل بالقول: "على آخر شخص يهاجر من اسرائيل أن يطفئ أنوار المطار في اللد".

لقد اجتاز المسيحيون في لبنان مرحلة كهذه، لكن الأمر لم ينته هناك بتروديد "نكتة". إذ استمرت هجرة المسيحيين الى خارج لبنان مما أدى الى خراب الدولة. كان المسيحيون الموارنة في لبنان، في الماضي، طائفة كبيرة وقومية، ولكن لم تكن لديهم "هجرة" وفكرة "صهيونية" تشجعانهم على البقاء في لبنان. وهكذا، غادر المسيحيون لبنان، ومع مرور السنين، لم يبق منهم سوى جيب صغير في ضواحي جونبة، شمال بيروت، التي يسيطر عليها المسلمون من الجبال الواقعة الى الشرق من قطاع الساحل، ثم جاء السوريون أخيراً، ليسيظروا على لبنان كلها، وسلبوا الدولة من المسيحيين، ومن بقية سكان البلاد.

ان نفس الشعور بالضياع والضعف، ساد بين الاسرائيليين الذي توصلوا في سنوات الثمانينات الى استنتاج، هو أن عهد الصهيونية قد ولى، بعد توقف الهجرة اليهودية. وقبل وقت قصير من بدء موجة الهجرة الكبيرة من الاتحاد السوفياتي، في مطلع التسعينات قال أولئك المتشائمون: "علينا ان نكون واقعيين"، أن موجات الهجرة الكبيرة، التي حدثت في الماضي، لن تتكرر، لذا، علينا ان نتكيف مع اسرائيل صغيرة، دون هجرة". غير أن الصهيونية لا تزال تواجه مهمتها الرئيسة: جلب غالبية الشعب اليهودي الى "أرض اسرائيل".

واليوم، يجب ان نسمى، أكثر من أي وقت مضى، نحو تحقيق هذا الهدف الصهيوني. لذا يجب علينا عدم اضعاف الفكرة الصهيونية، بل تقويتها في المجالات الثقافية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، لكي تستطيع تحقيق الامكانيات الكبيرة المتاحة لها.

ان دولة اسرائيل، عندما يعيش فيها ما بين ٨ - ١٠ ملايين يهودي، بعد بضع عشرات من السنين، يمكنها ان تتمتع بالازدهار، والحركة، والاستقلال على نحو لا يمكن تخيله في اسرائيل اليوم. وبما أن اسرائيل ستتقوى الى هذا الحد، سيضطّر العالم العربي، في النهاية، الى ابرام السلام الحقيقي معها. وهذه النظرية تتعارض مع النظرية السائدة اليوم في اسرائيل، والقائلة ان اسرائيل ستحقق السلام، إذا تصالحت مع العرب ، عن طريق تقديم تنازلات بعيدة المدى لهم ،

تؤدي الى اضعافها وتقليص حجمها، فقط. وفي واقع الامر، فان السلام الدائم
يمكن تحقيقه فقط، اذا استطاع الشعب اليهودي اقناع العرب، انه يجب ان يبقى
معهم والى جانبهم، لانه موجود هنا، وسيبقى هنا.

الفصل التاسع

"سلام دائم"

ان اسرائيل مؤهلة للتوصل الى سلام مع كافة الدول العربية المجاورة. ولكن، كي يكون هذا السلام دائماً، يجب ان يركز على أسس متينة من الأمن، والعدل، والحقيقة بشكل خاص. إذ أن الحقيقة كانت الضحية الأولى في المعركة العربية ضد اسرائيل، والسلام الذي يركز على أنصاف الحقائق، وعلى التشويه، لابد أن يتحطم، في النهاية، على صخرة الواقع في الشرق الأوسط.

ان السلام الحقيقي، يجب ان يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المنطقة الحقيقية، وحالات العداء الخاصة والدائمة فيها. وعليه ان يعرض حلولاً واقعية للنزاع الجوهري القائم والدائم بين العالم العربي وبين دولة اليهود. ان النزاع، ينبع من وجود كيان يهودي مستقل بالذات، وليس له علاقة بالأرض بشكل خاص. إن كل ما شاهدناه حتى الآن، يدل على ان معارضة العرب لوجود اسرائيل، كانت وما زالت، اللعبة الرئيسية، التي تحول دول تحقيق السلام.

ففي مؤتمر مدريد، على سبيل المثال، دعا رئيس الوفد الفلسطيني في كلمته، إلى تسليم المراكز السكانية الاسرائيلية الكبيرة الى دولة فلسطينية جديدة، وإغراق ما تبقى من اسرائيل باللاجئين العرب. ومنذ ذلك الوقت، ظل عرفات يكرر فكرة "السلام" هذه يومياً تقريباً، ويعد اتفاق اوسلو أيضاً. وفي المؤتمر تساهل وزير الخارجية السوري فيما اذا كان يحق لليهود، وهم ليسوا شعباً، على حد تعبيره، إقامة دولة خاصة بهم. وقبل المؤتمر بحوالي سنة، أجاد وزير الدفاع السوري، مصطفى طلاس، تلخيص جذور المشكلة بقوله: أن النزاع بين الأمة العربية، وبين الصهيونية، هو نزاع وجود وليس نزاع حدود". ومن أجل تجسيد اقوال طلاس، يجدر بنا الإشارة إلى أنه يوجد بين سوريا وتركيا، منذ سنوات كثيرة، نزاع حدود شديد، يتعلق بمنطقة الاسكندرون التي تقع حالياً تحت السيطرة التركية. تطالب سوريا "بإعادة" هذه المنطقة اليها غير ان هذا الأمر، لا يمنعا من الاعتراف بتركيا، وإنشاء علاقات دبلوماسية معها. لكن النزاع الاقليمي، بشأن هضبة الجولان، يتعدى مسألة موقع خط الحدود ، انه ينبع من رفض سوريا الاعتراف

بحق إسرائيل في الوجود - الرفض الذي عبّرت عنه سوريا بالهجمات المتكررة على إسرائيل، عندما كانت هضبة الجولان بأيديها.

إذن، هذه هي نقطة الانطلاق التي يجب ان نبدأ منها في حل النزاع بين العرب وإسرائيل. يجب على الدول العربية أن تعترف وتسلم بوجود إسرائيل بصورة مباشرة، ودون شروط. لا يكفي إنها حالة الحرب، إنما يجب على أنظمة الحكم العربية، التخلي نهائياً عن سعيها للقضاء على دولة اليهود، ومنع هذا التغيير مصداقية، عن طريق إبرام سلام رسمي معها. وهذا يعني، إلغاء المقاطعة الاقتصادية ضد إسرائيل، وقف التعاطم العسكري الموجه ضدها، وصنع معاهدات سلام معها. يجب على الدول العربية ان تكتف بنفسها، مع الواقع الذي ظلت ترفضه حتى اليوم: ليس الاعتراف بحقيقة وجود إسرائيل فحسب، إنما الاعتراف رسمياً ودون أي تحفظ، بحق إسرائيل في البقاء بين هذه الدول. وهذا يعني ان على الدول العربية قبول مبدأ التعايش المتبادل، تقوم على أساسه علاقات هذه الدول مع دولة إسرائيل.

ان أسلوب التعايش، هو أسلوب واقعي، إذ أنه يمكّن المجتمعات المتصارعة مع بعضها البعض، من العيش والتطور، حتى من خلال استمرار النزاعات، وربما مع مرور الوقت، تستطيع هذه المجتمعات حل الخلافات العميقة بينها. ففكرة التعايش المتبادل، تحدد على أية حال، قيوداً للصراع. ولكن طيلة ٧٥ سنة، ظلت السياسة العربية رهينة لفكرة معادية لليهود لا تعرف الحدود: بسبب هذه الفكرة، حاول الزعماء العرب تجنيد النازيين لخدمة أهدافهم. كما أنهم شنّوا خمس حروب على إسرائيل بغية تحقيق "الحل النهائي"، ولجأوا للإرهاب الدولي، وهزوا اقتصاد العالم بفرضهم الحظر على تصدير النفط، ويحاول بعضهم انتاج القنبلة النووية لاستخدامها في المعركة "الأخيرة" ضد الصهيونية. لذا يجب اقتلاع هذه الفكرة من جذورها - ليس من أجل إسرائيل فقط، بل من أجل العرب أنفسهم، ومن أجل سلام العالم أجمع.

إعتاد البعض التقليل من أهمية معارضة العرب لوجود إسرائيل، بصفتها القوة المحركة للنزاع العربي الإسرائيلي. ان مثل هذا الغموض، مألوف جداً في أقوال المعلقين حول الشرق الأوسط، ويتم التعبير عنه من خلال اجراء مقارنة كاذبة ييسن متطلبات وطموحات الطرفين - وكأنه مقابل مطالبة إسرائيل

بالاعتراف بحقوقها في الوجود، يجب عليها أن تدفع للعرب الثمن متمثلاً بالاستجابة لطلباتهم المتنوعة، وبخاصة الإقليمية منها. لكن من يجري مثل هذه المقارنة، بين حق الوجود، وبين هذه المطالب، ويرى أنهما طرفاً معادلة واحدة، يتجاهل بذلك الحقيقة التاريخية، ويخلط بين السبب والمسبب. والأخطر من هذا، أنه يقرر، في إطار معادلته مناقشة ذلك بسهولة، إذا تصورنا وضعاً عكسياً: لنفترض أن إسرائيل رفضت الاعتراف بحق سوريا بالوجود، وتهدد بالقضاء عليها، إذا لم تخرج من قطعة أرض تطالب بها إسرائيل لنفسها. عندئذ سيمر العالم كله، في ذلك طلباً جنونياً – وهو محق في ذلك. غير أن رفض العرب الاعتراف بوجود إسرائيل إذا لم تستجب لطلباتهم بشأن التخلي عن المناطق التي سبق أن هاجموها انطلاقاً منها، يحظى باهتمام بالغ من جانب معظم الدول. هيا، ننسى، أن حق إسرائيل في الوجود ليس موضوعاً للتفاوض – تماماً كما أن حق سوريا ومصر في الوجود غير قابل للمساومة.

في ردهم على هذا، يدعي العرب أن الظلم الذي الحق بالفلسطينيين شديد، لدرجة لا تسمح لهم بالتسليم بوجود إسرائيل قبل رفع هذا الظلم. غير أن الهدف الوحيد لهذا الادعاء هو إخفاء الحقيقة. ففي عام ١٩٤٧، عرضت الأمم المتحدة على العرب الفلسطينيين دولة، ورفضوها. وهكذا فعلت أيضاً كافة الدول العربية التي أرسلت جيوشها عام ١٩٤٨ إلى إسرائيل، لاحتلال كل ما تستطيع احتلاله من أراضيها. أضف إلى ذلك، أنه عندما كانت الضفة الغربية وغزة بأيدي الأردن ومصر بعد عام ١٩٤٨، لم يطالب أي عربي، ولو تلميحاً، بإقامة دولة فلسطينية في هذه المناطق. لذا، فإن العلاقة التاريخية بين رفض العرب الاعتراف بإسرائيل، وبين مطالبتهم بدولة فلسطينية، ليس لها دليل على أرض الواقع.

على هذا الأساس، وكما يتضح من دراسة الحقائق التاريخية لم تكن القضية الفلسطينية القوة المحركة للنزاع العربي – الإسرائيلي، بل جاءت نتيجة له. فلو تم "حل" القضية الفلسطينية، ستبقى هنالك عناصر قوية، في العالم العربي والإسلامي، تسعى للقضاء على إسرائيل.

إن قضية العرب الفلسطينيين، يجب أن تحظى بحل متطقي، يأخذ بالحسبان وضعهم وضائقتهم، إلى جانب حقوق اليهود وأمن إسرائيل. لكن شيئاً واحداً يجب

توضيحه منذ البداية وهو ان مطالب العرب الفلسطينيين سواء الحقيقية منها أو الوهمية، لا يمكن ان تكون بشاية المسند المحشو والملصق بصدغ اسرائيل.

اليوم، وبعد خمس حروب، أصبحت عدة دول عربية مستعدة للاعتراف باسرائيل _ لكن هناك دولاً أخرى تقول، أنها ستفعل شريطة أن توافق اسرائيل على اقامة دولة فلسطينية، تقسم القدس، وتحاذي تل ابيب، وتشكل خطراً كبيراً على وجود اسرائيل. ومثل هذا الشرط المسبق، الذي يطرحه قسم كبير من العالم العربي، يشير إلى المسافة التي لا يزال على هؤلاء العرب ان يقطعوها، قبل ان يسلموا حقيقياً بوجود اسرائيل، كدولة يهودية مجاورة لهم.

يجب ان لا نستغرب هذا الأمر، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدعاية المعادية لاسرائيل، التي غسلت دماغ الجماهير العربية والاسلامية، طيلة عشرات السنين. لقد ظل ملايين الناس، يستمعون يومياً إلى القول ان الدولة الصغيرة الموجودة بينهم " ليس لها مكان تحت الشمس، ويجب اجتثاثها بصفقتها " سرطاناً " وان يُلقى بها في سلة نفايات التاريخ"، مثلاً استمعت الى ممثل ايران في الأمم المتحدة وهو يعلن ذلك في عام ١٩٨٥.

وان ظلت هذه الأقوال تتردد، صبح مساء، على مسامع الجماهير العربية طيلة حوالي خمسين سنة، يصعب الاعتقاد بأن هذه النظرة العدائية يمكن ان تتغير الى حد كبير، في أوساط هذه الجماهير. وفعلاً، حتى بعد مؤتمر مدريد، واتفاقيات أوسو، التي حظيت بتغطية عالمية واسعة، ووصفت بأنها وضعت حداً لعهد الحروب العربية _ الاسرائيلية، اتضح ان كراهية اسرائيل في العالم العربي، عميقة الجنور للدرجة لن يسهل اقتلاعها.

في عام ١٩٩٤، نشرت صحيفة "وول ستريت جورنال" خلاصة استطلاع للرأي العام العربي أجراه البروفسور هلال حسان، من الجامعة الأمريكية في بيروت، عام ١٩٩٣. وشمل الاستطلاع ألف شخص، وتبين منه ان ثلاثة أرباع الجمهور العربي في سوريا ولبنان ومن الفلسطينيين، يعارضون أي نوع من السلام مع اسرائيل، ويؤيدون استمرار حالة العرب معها. في حين ان الربع الأخير المتبقي، المؤيد لعملية السلام، يعتبرها "وفقاً لاطلاق النار فقط" هدفها اضعاف اسرائيل تمهيداً لشن حرب فعالة ضدها في المستقبل.

رغم ذلك، تجدر الإشارة إلى أن اتفاقية السلام مع مصر كانت بمثابة فسحة أصل جديدة، مثلاً كان مؤتمر مدريد، رغم خيبة الأمل منه، نافذة نحو امكانيات جديدة للمصالحة. لقد شرع العرب والاسرائيليون بحوار مباشر، يمكن ان يؤدي إلى ارساء سلام حقيقي بين اسرائيل وجيرانها، إذا استطاعت اسرائيل ان تواجه الظروف المطلوبة لارساء سلام كهذا. لقد أصبح هذا الحلم حقيقة، مع دولة عربية واحدة على الأقل، هي الأردن. لا شك بأن اتصالات اسرائيل العلنية مع دول عربية مختلفة تقع في اطراف العالم العربي، مثل امارات الخليج، وتونس، تعتبر اتصالات ايجابية، تنطوي على فرص تقليص العداء تجاهها، لكن هذه الاتصالات، لم تحسم جذور المشكلة، المتمثلة بالمواقف المتطرفة لأنظمة الحكم العربية، التي تشكل مركز الثقل في العالم العربي.

من الواضح، أن هذه الأنظمة، لا تزال تضرر العداء الشديد لاسرائيل، ولكن يجب ألا تنكر حقيقة، انه في السنوات الأخيرة، طرأ تحرك معين نحو الاستعداد لتحقيق تسويات سياسية مع الدولة اليهودية. وهذا التحرك لا ينبع من حدوث تغييرات في الايديولوجية، إنما جاء لأثار الانتصار الاسرائيلي في حرب الأيام الستة، الذي منع اسرائيل حدوداً أمنية، ومن التحول الجيو - سياسي الكبير الذي تلا انهيار الاتحاد السوفياتي. لقد أدى اختفاء الامبراطورية السوفياتية إلى تلاشي أكبر تأييد استراتيجي للعدوان العربي ضد اسرائيل، كما أن هزيمة العراق أمام ائتلاف دولي برئاسة الولايات المتحدة، أوضحت للأنظمة الراديكالية في الشرق الأوسط، بأن عليهم الانصياع، بشكل أو بآخر، للواقع الدولي الجديد.

كانت هذه هي الاسباب التي جعلتني أومن في اعقاب حرب الخليج، بأن على اسرائيل استغلال الفرصة، وأن تحاول الشروع في مفاوضات سلام مع جيرانها، من مواقف واضحة، هذه المرة. لقد آمنت أن باستطاعتنا ان نطلب من العرب التخلي عن مواقفهم التقليدية، وليس فقط الرد على مطالبهم التي ظلوا يطلبونها من اسرائيل منذ حرب الأيام الستة، وأيدت ذهابنا إلى مؤتمر مدريد، بهدف تشجيع بوارد التسليم بوجود اسرائيل، التي بدأت تظهر في العالم العربي. غير انه، مقابل هذه البوارد، هنالك رغبة في القضاء على اسرائيل، تشكل عنصراً مركزياً في السياسة الشرق أوسطية.

فمثلاً، قبل مؤتمر مدريد بأسبوعين، عُقد مؤتمر الدول الاسلامية في طهران،

وكان يمثل التوجه العاكس في نظرة العرب الى اسرائيل. وفي هذا المؤتمر، قرر ممثلون عن جميع اجزاء العالم الاسلامي وبضمنهم ممثلو الدول التي شاركت في مؤتمر مدريد ومنها سوريا، وعدد من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، بأنه يجب تدمير دولة اسرائيل.

لقد تخلت منظمة التحرير الفلسطينية، ظاهرياً، عن هذه النية في اطار اتفاقية اوسلو. إذ يتضح، في الواقع، من تصريحات زعماء المنظمة المتكررة، منذ اتفاق اوسلو، ان خطة المنظمة تهدف الى اقامة دولة فلسطينية على مراحل، تستطيع انطلاقةً من هذه الدولة – بالتعاون مع دول عربية أخرى – القضاء تدريجياً على دولة اسرائيل المقرّمة. وما دعوة عرفات الى الجهاد، بعد ثمانية أشهر، فقط، من اتفاق اوسلو، إلا دليل على النهج الاساسي تجاه اسرائيل، الذي لا يزال سائداً لدى شريحة كبيرة من العالم العربي. وهذه أعراض مرض سياسي شديد، يتطلب وقتاً طويلاً للشفاء منه. وكما هي الحال بالنسبة لاضطرابات نفسانية أخرى، فمن اعراض هذا المرض الرغبة في العنف كوسيلة لتفريغ ضغوط لا ارادية. ان الشرط الأول لتحقيق سلام، هو الرفض المطلق للتسليم بمثل هذا التعصب، بأي صورة كانت، والتنديد به بشدة في أي مكان كان في العالم.

ان القرارات المتطرفة التي صدرت عن المؤتمر الاسلامي في طهران، لم تثر ولو جملة تنديد واحدة من جانب أية دولة عربية، في حين حظيت دعوة عرفات للجهاد في عام ١٩٩٤، بتنديد ضعيف من جانب حكومة اسرائيل، والتأجيل لبضع ساعات فقط، سلسلة اللقاءات المستمرة بين وزير الخارجية الاسرائيلي وعرفات، التي تواصلت وكأن شيئاً لم يحدث.

من الخطأ، الاستهزاء بتأثير هذا التعصب، والنظر اليه باعتباره مراعاة وللإستهلاك الداخلي فقط، فاذا لم يواجه هذا الاسلوب المتطرف بمقاومة شديدة قد يؤدي الى إبعاد وجهات نظر المعتدلين في العالم العربي، وإثارة حماس الجماهير العربية من جديد، وتقويت فرصة المصالحة بين اليهود والعرب. هنالك الكثيرون في العالم العربي، الذين يعترفون بضرورة اعتراف العرب باسرائيل، ولكنهم، مع ذلك، يألّفون نهجهم "الواقعي" الذي يعبرون عنه بالسؤال: إذا لم تتنازل اسرائيل عن المناطق المحتلة، ماذا نستفيد من السلام؟ لنترك جانباً موضوع الاراضي موضع الخلاف (سنعود اليه ثانية) ، لنرى أنه دون هذا الموضوع سيحقق العرب

مكاسب كبيرة أيضاً من السلام. يستطيع العرب ان يوفرُوا على أنفسهم تكاليف الحروب الأخذة بالازدياد، فقد دَلَّت حرب الخليج على ان الحرب أصبحت الآن أكثر كلفة وأكثر دماراً.

ففي ضوء التقدم التكنولوجي العسكري والقنابل الذكية والصواريخ وغيرها من اسلحة الدمار، يتوجب على كل زعيم عربي يصر على الخروج الى الحرب، ان يأخذ بالحسبان النتائج المحتملة للحرب وهي: قد يجد جيشه مدمراً، وعاصمته مدمرة، ونظام حكمه في خطر، وربما يفقد حياته ايضاً. لكن اخطار الحرب هذه الايام، ليست عسكرية فقط. الحرب تجلب بين اجنحتها دماراً اقتصادياً فظيماً ايضاً. فقد جاء في تقرير الامم المتحدة عن نتائج حرب الخليج، ان الدمار الذي الحق بالطرق، والجسور، والسكك الحديدية، محطات الطاقة، ومصافي التكرير، والمصانع في العراق، ترك اثراً بالغ الخطورة على اقتصاد الدولة: لا يمكن توزيع الاغذية، او تطهير المياه، او تصريف مياه المجاري، او ري المزروعات، او نقل العلاجات الى الاماكن المطلوبة.

باختصار، يقول التقرير ان العراق اعيدت الى عصر ما قبل الصناعة، لا شك ان هذا التقرير ينطوي على مبالغة. وقد الحقّت هذه الاضرار بالعراق، عدو استخدم قوته بحذر نسبي. في حين ان العراق التي لم تستخدم بحذر قوتها ضد الكويت، كبذلتها خسائر تقدر بحوالي ٣٠ مليار دولار.

اذن، فالعرب الحديثة، تنطوي على دمار مزدوج: دمار عسكري، ودمار اقتصادي. وبعد حرب الخليج، لا شك في انه يجب على الزعماء العرب، ان يأخذوا بالحسبان، ان اسرائيل لن تقف مكتوفة الايدي فيما لو تعرضت لهجوم آخر، واذا واجهت خطراً يهدد وجودها، فسترد بقوة هائلة. وان اي انسان عاقل، عريباً كان ام يهودياً، لا يمكن ان يرضى عن مثل هذا التطور.

كلما ارتفع ثمن الحرب، ازدادت الفائدة من الامتناع عن الحرب، واحلال السلام، فالسلام لا يحول دون الدمار والخراب وهدر طاقات وموارد هائلة فحسب، بل يوفر امكانية استغلال البنية الاقتصادية القائمة في الدولة، من اجل تحقيق النمو الاقتصادي. كما يمكن السلام، الدولة، من التعاون مع جيرانها بشكل يعود بالفائدة على الطرفين، وربما هنا، تكمن الفائدة الكبرى للسلام.

لقد عرفت اسرائيل هذه الحقيقة دائماً، غير ان الزعماء لم يقبلوا بعد بفكرة ان العالم العربي سيستفيد من السلام مع اسرائيل، بقدر لا يقل عن الفائدة التي ستجنيها اسرائيل من هذا السلام.

صحيح، انه في عصر الحرب الباردة، كانت الانظمة العربية تعطي بدعم عسكري واقتصادي من الدول العظمى - الدول الراديكالية، من الاتحاد السوفياتي، والدول المعتدلة، من الولايات المتحدة. ولكن بعد سكون الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية، تقلصت الى درجة ما، الاهمية الاستراتيجية لهذه الدول، ولم يعد بمقدورها التنح بالامتيازات التي كانت تعطي بها آنذاك.

وكلما تركز اهتمام الدول الصناعية على التجارة المتبادلة بين بعضها البعض، زاد تهيش العالم العربي من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. لذا فالسلام مع اسرائيل، يمكن ان يصبح بالنسبة للدول العربية جسراً الى العالم الغربي الصناعي، من اجل تجنيد الاستثمارات والتكنولوجيا المتقدمة والحصول على خدمات مالية متنوعة وفتح قنوات تجارية جديدة.

كيف يمكن ان يكون شكل هذا السلام فيما لو آمن العرب به باخلاص؟ لن يكون هنالك مجال من مجالات الحياة لا يتأثر به واولها، على سبيل المثال، المجال التجاري. فمنذ حرب الايام الستة، انتهجت اسرائيل سياسة "الجسور المفتوحة" على نهر الاردن، ورغم ذلك، ظلت طرق التجارة الاسرائيلية نحو الشرق مغلقة، بشكل عام، نظراً لوجود حاجز بري عربي، ومقاطعة سياسية عربية لاسرائيل، في حين ظلت طرق التجارة العربية ايضاً محدودة، ذلك لان العالم العربي لم يستخدم المنشآت المتطورة في اسرائيل ولا موقعها الجغرافي المميز، ففي عهد السلام، يستطيع العالم العربي استغلال الموانئ الاسرائيلية على البحر المتوسط، ويستفيد من قدرة اسرائيل على ان تكون مركزاً اقليمياً فعالاً لاجراض التجارة والخدمات. ولا شك في ان السلام مع الاردن سيساعد على تحقيق مثل هذه الامكانيات. كما ان الاقتصاد المائي، سيجني فائدة كبيرة من السلام. وهذا السائل الثمين، سينافس النفط، كمنصر رئيس في النزاعات التي قد تندلع في المنطقة في السنوات القادمة. وستصبح الاتفاقيات المتعلقة بالمياه اكثر صعوبة في التحقيق في هذا الشرق الاوسط الجاف. فالحجم السكاني الكبير، والمتزايد في هذه المنطقة، يلقي عبئاً ثقيلاً ومتزايداً ايضاً على مصادر المياه القليلة فيها ، لذا فان

اجراء مفاوضات مبكرة حول موضوع الثروة المائية الاقليمية، سيكون لمصلحة كافة الاطراف. وستكون اول دولة تستفيد من السلام على هذا الصعيد، هي الاردن، اكثر الدول جفافاً. اذ ان مخصصات الفرد السنوية فيها لا تزيد على ١٥٠م مكعب من المياه (مقابل حوالي ٢٠٠٠م مكعب للفرد في سوريا). لذا فالتعاون بين الاردن واسرائيل، سيؤدي الى زيادة كميات المياه المتوفرة في الدولتين معاً. فشلاً، سيوفر السلام امكانية ان تتعاون اسرائيل والاردن في انشاء محطة لتحلية المياه على البحر الاحمر، التي ستكون مشتركة للدولتين، واكثر جدوى على الصعيد الاقتصادي من اقامة محطتين منفردتين، بحجم اصغر، وسيكون باستطاعة دولة جافة اخرى تقع على البحر الاحمر، الانضمام الى المشروع، هي العربية السعودية. وكذلك الامر بالنسبة لسوريا، التي يبدو انها تتمتع بواقر من المياه، حيث انها تغطي من الجهد التركية، الرامية الى اقامة سدود على نهر الفرات الذي يزود سوريا بالقسم الاكبر من مياهها. وفي اعقاب هذه الجهود التركية، من المتوقع ان يزداد التوتر بشأن اقتسام مياه نهر اليرموك المشتركة لكل من سوريا والاردن واسرائيل. لذا يجب ان يتم في اطار الاستعدادات لابرام معاهدة سلام مع سوريا، وضع ترتيبات ثابتة كاستمرار للترتيبات الخاصة باقتسام مياه اليرموك من عام ١٩٥٥، والتي تم تعديلها بواسطة اريك جونسن، المبعوث الخاص للرئيس الامريكى ايزنهاور. كما أن السلام، سيساعد سوريا على الاستغلال الافضل لمصادر المياه الاخرى المتوفرة لديها.

لقد طوّرت اسرائيل اسلوباً حديثاً ومجدياً للرّي مثل اسلوب الرّي بالتنقيط، الذي يضمن وصول ٨٥% من المياه الى المزروعات المروّية. في حين ان نسبة الاستفادة من مياه الرّي في سوريا لا تزيد على ٤٠%، وبعد تحقيق السلام، سيصبح بمقدور المزارعين السوريين ان يتعلموا من اسرائيل أساليب الرّي الحديثة والمجدية، مثلما تعلمها المزارعون الفلسطينيون، في الضفة والقطاع.

كما يستطيع المهندسون الاسرائيليون مساعدة سوريا في إنشاء خطوط قطرية لنقل المياه، الى المناطق الجافة في الدولة، على غرار الناقل القطري للمياه الذي غيّر وجه الاقتصاد المائي في اسرائيل.

ومن بين المزايا الاقليمية للسلام، السياحة الحرة وسهولة وصول مواطني الدول العربية الى المؤسسات الطبية في اسرائيل . ولا شك في أن المستوى الطبي

سيحسن على مستوى المنطقة، ويصبح بمقدور الأطباء العرب الحصول على تأهيل مهني في إسرائيل.

إذا كان السلام سيعود بمثل هذه الفوائد الكثيرة على العالم العربي. لماذا لم ينهض زعماء الدول العربية، ليشرحوا لشعوبهم هذه الفوائد، ويسعوا لتحقيق السلام؟ هل من المعقول أن يكون (١٥٠) مليون نسمة، غير ملوكيين لهذه الحقائق الواضحة والجليلة؟ أن الإجابة على هذا التساؤل، هي أنهم ليسوا جميعاً مصابين بالعمى. إذ يوجد في كل دولة عربية أشخاص ليسوا بحاجة لأي شرح يحملهم على الاعتراف بضرورة إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل، والتوصل إلى سلام معها، والعمل بالتعاون معها من أجل تقدم الشرق الأوسط، نحو مستقبل أفضل في القرن الحادي والعشرين. لكن هذا التوجه يصطدم بعقبتين: الأولى؛ أن عدد العرب الذين يدركون فوائد السلام، أقل من عدد أولئك الذين يرفضونه. كما أن بعض الزعماء العرب الذين يعلنون رغبتهم في تحقيق السلام، لا يعتبرونه هدفاً في حد ذاته، إنما مجرد وسيلة فقط، لاسترداد الأراضي التي فقدوها في الحرب، أو لضمان الحصول على مساعدات عسكرية من الغرب. أن السلام في نظر الكثيرين من الزعماء العرب، هو مجرد كلام يقصد به تحقيق غاية ما. الأمر الذي يجعل بالامكان التخلي عن السلام في الظروف المناسبة، وقد لا تطول المدة التي يحل فيها السلام. وهكذا، يمكن التوقيع على اتفاقية سلام اليوم، والتناكر لها غداً، بعد الحصول على ثمن هذا السلام وهذا الأسلوب "المرن" لتحقيق السلام، يتناقض مع أسلوب مواطني الدول الغربية، ويضمنهم الإسرائيليون، الذين يعتبرون السلام هدفاً، لا يرقى إليه الشك.

اليسار أو اليمين، في إسرائيل، جميعهم يرغبون ويتوقون إلى انتهاء حالة الحرب مع العالم العربي، والتوصل إلى سلام مستقر ودائم معه. فالخلافات الداخلية في إسرائيل تتعلق بطرق تحقيق السلام، وليس حول قيمة وأهمية السلام نفسه.

أن بعض العرب الذين تنسجم وجهة نظرهم بشأن السلام، مع النظرية الغربية، يجدون أنفسهم في مراجعة مع شرائح مهمة من المجتمع العربي. فنظرية السلام التي تفهمها هذه الشرائح، تنسجم مع السلام الذي يعرضه عرفات على إسرائيل: "سلام صلاح الدين"، ما هو إلا هدنة تكتيكية في حرب مستمرة، أو أنه كما قال

في مسجد جوهانسبرغ عام ١٩٩٤، "لايتعدى الاتفاق الذي وقعه النبي محمد مع قبيلة قريش". أي سلام مؤقت، تمهيداً للقضاء التام على العدو.

والثاني ان أياً من الزعماء العرب الراغبين في تحقيق سلام دائم مع اسرائيل، لا يريد ان ينهي حياته مثل الرئيس السادات، والرئيس اللبناني بشير الجميل، والاف العرب الفلسطينيين المعتدلين، الذين قُتلوا على أيدي المفتي، ومنظمة التحرير الفلسطينية من بعده، ومنظمات فلسطينية أخرى بتهمة "خيانة" القضية العربية لدى محاولتهم التوصل الى سلام حقيقي مع اسرائيل. الحقيقة هي، أن أية بادرة عربية لتحقيق مثل هذا السلام مع اليهود، تواجه فوراً الارهاب والتهديد بالقتل من جانب القوميين العرب المتطرفين والاصوليين المسلمين.

يجب علينا الاعتراف بالواقع المر، وهو أننا سنجد دائماً، في الوسط العربي، جناحاً متطرفاً يرفض السلام. فسياسة الارهاب التي اتبناها المفتي، لاتزال قائمة حتى اليوم، كما كانت في عهد المفتي نفسه. وطالما ظل مثل هذا الجناح المتطرف من السياسة العربية يملك قوة كافية لارهاب وتخويف بقية الاجنحة وارغامها على الرقص على انغامه، سيكون من الصعب جداً، تحقيق سلام حقيقي وثابت. لذا فان تقليص قوة المتطرفين على التخويف والابتزاز، يعتبر شرطاً حتمياً لإدارة مفاوضات سياسية ناجحة مع أي عنصر في العالم العربي.

إن المغرب، يعتبر نموذجاً لهذا المبدأ: عندما كان القذافي في ذروة قوته، وبعد ان احتل معظم مساحة تشاد، ويث الرعب في العالم، من خلال الارهاب الدولي الذي تبناه، دخل الملك الحسن الثاني الذي يعتبر "النقيض المطلق" للقذافي، في وحدة تشير الاستغراب بين ليبيا والمغرب. ولكن بعد بضعة اشهر من القصف الأمريكي لطرابلس، وهزيمة القوات الليبية في تشاد، حل الملك الحسن الاتحاد مع ليبيا، ودعا وزير الخارجية الاسرائيلي لعقد لقاء عني مع. ومنذ ذلك الوقت، يسعى الحسن الى انشاء علاقات سلام رسمية مع اسرائيل.

وكذلك سوريا، التي أدركت بعد حرب الخليج انه بعد سقوط الحليف السوفياتي، يجب عليها التعامل بحكمة مع عالم أصبحت فيه الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة. ولهذا السبب استجابت للدعوة الأمريكية بشأن الدخول في

مفاوضات مع اسرائيل، وسمحت لهندوبها بالجلوس على طاولة واحدة مع المنطويين الاسرائيليين، لمعادنات السلام التي بدأت في مدريد.

غير انه في كثير من الاحيان، يتسبب العالم الغربي في تفاقم خطورة الوضع، وذلك عندما يتبنى أسوأ المتطرفين. إذ عندما يقوم هؤلاء، ببادرة حسنة ما، ولو كانت ضئيلة جداً، يبيع العالم الغربي ويكثر من المديح والثناء عليهم، لدرجة انه يسارع في التوقيع على اتفاقيات اقتصادية أو عسكرية معهم، من خلال الافتراض بأن مثل هذه التسهيلات، ستغري الانظمة المتطرفة بالاعتدال في مواقفها.

لقد برز العيب الشديد في مثل هذا الاسلوب، في الثمانينات عندما كانت الدول الغربية، تتنافس فيما بينها على تسليح العراق، وقد تكرر هذا الخطأ من جديد، بصورة مدعشة هذه المرة، في مبادرة الحكومة الاسرائيلية، بتأييد حماسي من الدول الغربية، لانشاء قوة عسكرية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية غربي نهر الاردن، التي قصد بها ظاهرياً، مواجهة حركة حماس، لكنها ستوجه في يوم ما ضد الدولة اليهودية.

ان الاستنتاج الواضح من كل ما تقدم، هو أنه يجب عدم تسليح المتطرفين. ويجب أيضاً فرض قيود على مبيعات الاسلحة "للمتدلين"، فالشرق الأوسط، المعتدل اليوم، قد يصبح متطرفاً غداً _ في أعقاب ثورة داخلية، أو غزو خارجي، أو ضغط سياسي، من جانب العالم العربي.

ان الطابع الدكتاتوري لأنظمة الحكم العربية، وقوة المتطرفين بينها، يتطلبان من اسرائيل التمييز بين "السلام المرغوب" وبين "السلام الموجود"، أي نوع السلام الذي يمكن تحقيقه في منطقتنا. لا يوجد مواطن اسرائيلي، غير راغب أو لا يتمنى أن تكون هنالك علاقات سلام مع العالم العربي، على غرار تلك القائمة بين الدول الديمقراطية، في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. ان "السلام المرغوب" الذي يتمناه معظم المواطنين في اسرائيل، هو نوع السلام المتبع بين الدول الديمقراطية الذي لا يحتاج الى حراب للمحافظة على بقائه. ولو كان من الممكن ارساء مثل هذا السلام على المدى المنظور، لتخلصنا من مسائل الأمن والردع. إذ أنه في ظل سلام كهذا، سيتصالح العرب معنا، صلحاً مطلقاً، ولأصبح بالامكان التحدث عن "شرق أوسط جديد"، دون الخوف من انهيار الاتفاقيات التي أبرمت

مع العرب في المستقبل.

هل نقف حقاً، على أعتاب عهد سلام من هذا النوع؟ هذا السؤال، يلزمنا أن نبدأ بطرح السؤال التالي: ما هي الاحتمالات المعقولة لحلول حكومات ديمقراطية محل الانظمة الدكتاتورية في الشرق الأوسط؟

يمكننا الجزم أنه دون ممارسة طفوط خارجية شديدة ومستمرة، ليس ثمة أي احتمال لحدوث مثل هذا التحول على المدى القريب، ولا حتى على المدى البعيد. ذلك لأن احتمال حدوث تحول ديمقراطي في معظم اجزاء الشرق الأوسط، وإلى جانبه حدوث تحول في نظرية السلام، يتعلق، بصورة مباشرة، بقوة مطالبة العالم الغربي، للعرب باتباع النهج الديمقراطي في أنظمة الحكم العربية.

لقد كانت العلاقة الوثيقة بين القيم الديمقراطية وبين نمو الرغبة في السلام، واضحة دائماً للمسؤولين عن السياسة الخارجية في الولايات المتحدة. الأمر الذي دفعهم الى تقديم مساعدات اقتصادية وغيرها، لدول عديدة في العالم، لتشجيعها على تطبيق مبادئ الديمقراطية فيها. لكن العرب فقط، كانوا معنيين من مثل هذا الضغط. وكان هذا "الاعفاء الديمقراطي" الممنوح للعرب، في غير مصلحة اسرائيل، المضطرة للعيش في ظل احتمال قيام هذه الانظمة، في اية لحظة، بالعمل ضد الدولة اليهودية بنفس البشاعة والوحشية التي تتعامل بها مع مواطنيها أنفسهم.

قبل حرب الخليج، ربما كان من الممكن الافتراض، بأن الغرب يتقدم تدريجياً نحو الطلب من الحكام العرب إتباع النظام الديمقراطي في بلدانهم. وبعد الحرب، تبين أنه لا أساس لمثل هذا الافتراض.

لم يسبق أن شهد التاريخ حاكماً أضعف من الأمير الصباح، حاكم الكويت، الذي ظل في المنفى بالعربية السعودية، ينتظر الغرب لتخليص بلاده من مخالف العراق. ولم تكن هنالك لحظة أفضل أو أنسب من تلك اللحظة لمطالبته بالتعهد باتباع النهج الديمقراطي في بلاده بعد عودته، لكن أحداً لم يفكر في ان يطلب منه ذلك.

يبدو أن الغرب أعفى العرب من مطالبتهم بالديمقراطية، ليس بسبب سيطرتهم على الجزء الأكبر من احتياطي النفط في العالم فقط، بل بسبب النظرة

العامة تجاههم، التي ورثها من وزارة المستعمرات البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى - أن العرب لا زالوا غير مستعدين للديمقراطية، وأن الديمقراطية لا تنسجم مع الاسلام، وأن أشكال الحكم التقليدية السائدة في العالم العربي، مناسبة لهم، وما شابه ذلك. لذا، فإن اسلوب التعذيب، وقطع الاعضاء، الجسدية، والعبودية، وعدم حرية الصحافة، والحكم المطلق لعائلة واحدة، لا تعتبر استبداداً أبداً.

إن الثقافة العربية، والعقيدة الاسلامية، لا تنطويان على أية ذريعة لاعفاء العرب من الديمقراطية، أكثر مما تنطوي عليه ثقافة اليابان في عام ١٩٤٥، والتراث الروسي في عام ١٩٨٩، فعلى الرغم من أنه لم يسبق أن كانت في هاتين الدولتين أنظمة حكم ديمقراطية، لم يتنازل الغرب عن مطالبه بشأن تطبيق الديمقراطية فيهما، اذن لكي نستطيع تحقيق سلام دائم في الشرق الأوسط يجب على الولايات المتحدة التوقف عن تدليل الانظمة الدكتاتورية العربية. وعليها ان تمارس الضغط على هذه الانظمة، لحملها على احترام الحقوق الاساسية للانسان في دولها، وتسمح لمن يريد العيش بسلام مع اسرائيل "بالخروج من الخزانة" والاعراب عن وجهة نظره علانية. وتشكيل أحزاب سياسية، ومن ثم انتخابه لمنصب تمكنه من اخراج برامج الى حيز التنفيذ.

هناك من يدعي بأنه يجب عدم تطبيق الديمقراطية في الدول العربية، خشية ان يؤدي ذلك الى جلب المتطرفين الاسلاميين الى السلطة. غير أنني لا أقصد بمصطلح "ديمقراطية" حكم الأغلبية فقط، إنما أقصد مجمل الاجراءات المطلوبة لانشاء نظام حكم تعددي، مثل دستور، حرية صحافة، احترام حقوق الفرد.

ومفهوم في حد ذاته، أن المطالبة بتطبيق الديمقراطية لا تسلب الدول العربية حقها في حماية نفسها من الحركات المعادية للديمقراطية، مثل الحركات الاسلامية المتطرفة. وإذا لم تُتبع الخطوات الحقيقية لتطبيق الديمقراطية في الدول العربية، فلن يزداد عدد أولئك العرب المستعدين لصنع سلام حقيقي (وليس تكتيكياً) مع اسرائيل.

ولكن، في الوقت الذي لا نرى في الأفق احتمالاً حقيقياً لتطبيق الديمقراطية في منطقتنا، فانتنا نشهد في السنوات الأخيرة، تعزيزاً للاتجاه المعاكس، وبخاصة

تجاه التطرف الديني الاسلامي الذي بدأ يحتل مواقع جديدة له كل سنة. وهذا لا يعني أنه في ظل واقع الشرق الأوسط الحالي، لا يمكن تحقيق السلام مع العرب. لكن الاستنتاج هو ان السلام الذي ستتيه "سلام ديمقراطيات" ليس مجالاً للبحث الآن. وان السلام الذي تستطيع دولة اسرائيل أن تتوقع الحصول عليه، هو "سلام الردع" فقط، أي تسويات سلمية منروطة بقدرة اسرائيل على ردع الطرف الثاني عن خرق هذه التسويات، وشن حرب جديدة عليها. فالسلام مع مصر، شأنه شأن اتفاق السلام مع الاردن، تحلقا نتيجة اعتراف زعماء هاتين الدولتين بعدم وجود احتمال لوحدة عربية قادرة على إلحاق الهزيمة باسرائيل في ساحة الحرب.

من المرغوب فيه، ان يتم توقيع معاهدات سلام تزدي الى انهاء حالة الحرب الرسمية، لكن مثل هذه المعاهدات لا تزال غير قادرة على كبح جماح خطر اندلاع حرب جديدة في المستقبل. لذا يجب ان تشتمل أية تسوية سلمية في المنطقة، على ترتيبات أمنية مفصلة، وعلينا أيضاً، أن ندرس الحد الأدنى من المطالب الأمنية التي تمكن اسرائيل من حماية نفسها من العدوان، وفي نفس الوقت تحافظ على استمرار السلام.

ولا أقصد هنا، المطالب الاقليمية فقط، فوجود ترتيبات أمنية متفق عليها بين اسرائيل والدول العربية مثل، "خط أحمر" بين دمشق والقنص، أو التزام كل طرف بإبلاغ الطرف الآخر عن المناورات العسكرية الكبيرة، من شأنه تقليل خطر أن يؤدي توتر ما بين اسرائيل ودولة عربية، الى اندلاع حرب. ويمكن أيضاً إنشاء مناطق فاصلة، يُحظر فيها حشد قوات عسكرية كبيرة بالقرب من مناطق حدودية حساسة، بحيث يتم نزع هذه المناطق الفاصلة من الاسلحة الثقيلة مثل الدبابات والمدافع، ويُسمح لضباط من كلا الطرفين بالتجول فيها، والتأكد من تطبيق الاتفاق. وواضح انه لدى تحديد حدود المناطق الفاصلة، لابد من الأخذ بعين الاعتبار الفجوة الكبيرة القائمة بين حجم اسرائيل، وبين حجم الدول العربية المجاورة لها (كما يحق لاسرائيل المطالبة بتقليص حجم الجيش السوري المرباط مقابل حدودها).

غير أن هذه الترتيبات كلها، وبغض النظر عن مدى نجاعتها، لن تكون كافية في يوم ما، يقرر فيه اعداء اسرائيل خرق المبادئ المتفق عليها والشروع في حرب ضدها.

لقد سبق أن أوضحنا، أنه من الناحية العسكرية، لن يكون الجيش الاسرائيلي قادراً على وقف هجوم وتجنيد الاحتياط، بغية ضمان بقاء الدولة، دون العمق الاستراتيجي المتوفر حالياً لاسرائيل. كما ان الضمانات الدولية، لا يمكن ان تحل مكان العمق الاستراتيجي (أو ارتفاع استراتيجي، كما هو الحال بالنسبة للطفة الغربية والبولان معاً)، وكذلك، وضع قوة دولية رمزية في هضبة الجولان، لن يكون كافياً لحل هذه المشكلة بالطبع، اذ لا توجد لمثل هذه القوة أية أهمية عسكرية، أو قدرة على صد هجوم. فإذا ما قررت سوريا الخروج الى الحرب، سوف تتغلب على مثل هذه القوة بسهولة _ أو انها ستطلب اخلاها سلفاً، مثلما فعل عبدالناصر، قبل حرب الأيام الستة، أو من خلال الأعمال الارهابية، مثلما انسحبت القوة الأمريكية من لبنان، بعد نفس قيادة مشاة البحرية في بيروت، على أيدي عملاء سوريين.

وإذا قررت الدول العظمى استخدام قوة عسكرية كبيرة، فمن المشكوك فيه، أن تكون قادرة على ارسال القوات المطلوبة الى المنطقة، في الوقت المناسب. فالكويت، هي دولة يساري حجمها دولة اسرائيل (دون الضفة الغربية)، تم احتلالها خلال ست ساعات، لكن تحريرها، تطلب حشد قوات عسكرية هائلة أحضرها الغرب خلال ستة أشهر كاملة. يجب أن لا نطلب من اسرائيل الاعتصام على إحياء الموتى؛ إذا جُزمت في ميدان المعركة، فلن تنهض بعدها أبداً. خلافاً للكويت العربية، إذا أُحتلت الدولة اليهودية، سيتم تدميرها كلياً. لقد أحسنت جولدا منير في وصفها الضمانات الدولية بشأن اسرائيل عندما قالت: "حتى يأتوا لاثاذا، لن يجدوا ما ينقذونه".

يمكننا ادراك مغزى وقيمة الضمانات الدولية، مما جرى ويجري في الصومال واليوستة. ففي الوقت الذي عُرضت فيه المذابح أمام ملايين المشاهدين في أنحاء العالم، لم تنجح الدول "الراقية" وعلى رأسها الأمم المتحدة، في التغلب على عصابات غيرمنظمة مزودة بأسلحة قليلة، ولا تعتمد على دعم دول عظمى عسكرية أو اقتصادية. فكيف تستطيع هذه الدول صد جيوش عربية نظامية في ذروة الحرب؟

على أية حال، يجب أن يكون الدفاع عن اسرائيل، بأيدي قواتها العسكرية فقط _ قوات تكون مستعدة وقادرة على العمل في أي لحظة ضد أي غزو أو

هجوم. وما أن السلام في الشرق الأوسط يرتكز، أولاً وقبل كل شيء، على الأمن، يجب أن نوضح ما هي الحدود الآمنة بالنسبة لإسرائيل. واضح أن حدود ما قبل حرب الأيام الستة، كانت حدود حرب وليست حدود سلام. إذا فالسؤال الذي يحتاج إلى الإجابة هو:

"إلى أي مدى يجب توسيع هذه الحدود لتحقيق الأمن المطلوب لضمان بقاء السلام".

لقد رأينا أنه ليس المقصود إضافة عمق استراتيجي فقط، إنما السيطرة على سلسلة جبال الضفة الغربية، الجدار الواقعي للدولة من أي هجوم قادم من الشرق. وكما أوضحنا، فإن إسرائيل ليست قادرة على التخلي عن السيطرة العسكرية على هذا الجدار، ولا حتى عن هضبة الجولان، التي تحمي شمال البلاد، دون تعريض نفسها لخطر حقيقي في الحرب. لذا، فلا يمكن الحديث عن السلام والأمن الإسرائيليين، وفي نفس الوقت نطالب بانسحاب إسرائيل إلى حدود غير قابلة للدفاع عنها.

إن المقارنة التي يحاولون إجراؤها بين الانسحاب من سيناء ونزعها من السلاح، وبين الانسحاب من الضفة الغربية والجولان ونزعها من السلاح، ليست ناجحة. إذ أن نزع السلاح من سيناء، التي يبلغ عرضها حوالي ٢٠٠ كم، يوفر للجيش الإسرائيلي الوقت اللازم لتعبئة الاحتياط، في حالة خرق اتفاق السلام من قبل مصر. غير أنه في هضبة الجولان، يدور الحديث عن عرض لا يزيد، في أقصاه، عن ٢٥ كم فقط، وهي منطقة يستطيع الجيش السوري اجتيازها خلال بضع ساعات، فيما لو انسحبت إسرائيل منها. ولهذا السبب، لا يوجد بديل لاحتفاظ إسرائيل بمنطقة هضبة الجولان المسيطرة، إذ بواسطتها فقط يمكننا صد هجوم سوري في المستقبل. ولكي تصد معاهدة السلام مع سوريا لوقت طويل، لا يجوز لإسرائيل أن تتخلى عن مواقعها الدفاعية والإنذارية الموجودة على الهضبة، مقابل ترتيبات أمنية هشة، ترتكز، بشكل رئيسي، على مناطق منزوعة السلاح ومقلّسة القوات، يمكن اغراقها بقوات معادية في ساعات معدودة. كما أن استمرار سيطرة إسرائيل على مرتفعات الضفة الغربية فقط، هو ما يمكن أن يعوضها عن عدم توفر العمق الاستراتيجي المطلوب للدفاع عن القدس والسهل الساحلي ضد عدوان عربي من الجبهة الشرقية القريبة جداً من هذه الأهداف.

ويجب على اسرائيل ان تصر على الاحتفاظ بالاماكن التي ترى أنها ضرورية للدفاع عن وجودها. لان مثل هذه السيطرة السيادية، هي الضمان الوحيد لتحقيق أمن عسكري حقيقي، لا ينهار فيما لو غير الطرف الثاني نواياه.

يوجد، بالطبع، من يستهين بأهمية مناطق الضفة الغربية على الصعيد الأمني، مقابل أهمية هضبة الجولان، ويدعون بأن هضبة الجولان، يربط فيها جيش قوي لدولة عربية معادية، في حين ستقام في الضفة الغربية، "دويلة" مع جيش صغير، كما أن الاردن لا تشكل تهديداً استراتيجياً لاسرائيل بسبب صغر حجم جيشها نسبياً، وتوقيعها على معاهدة سلام معنا، غير أنه، كما سبق وأوضحنا، ان هذا الوضع قد يتغير في طرفة عين لقد كانت الاراضي الاردنية في الماضي جزءاً من الجبهة الشرقية. وقد اجتاز الجيش العراقي الاراضي الاردنية عام ١٩٤٨، وعام ١٩٦٧ (في عام ١٩٧٣ أرسلت العراق ثلث جيشها عن طريق سوريا). صحيح ان الجيش العراقي ضعف بعد حرب الخليج، لكن أي تخطيط مسؤول يتعلق باحتياجات الامن الاسرائيلية، لا بد أن يأخذ بالحسبان إعادة بناء هذا الجيش في السنوات القليلة القادمة.

ان وجود الاردن كم منطقة فاصلة مقابل تهديد كهذا من جانب العراق، هو أمر حيوي بالنسبة لاسرائيل، لكنه ليس شرطاً كافياً ولا بأي حال من الأحوال. فاذا ما تفوض نظام الحكم في الاردن نتيجة لتهديد خارجي، أو مؤامرة داخلية تقوم بها عناصر خارج سيطرة اسرائيل، سيتغير وضع اسرائيل الاستراتيجي بين عشية وضحاها.

ان تحويل الاردن إلى منطقة مواجهة، بالإضافة إلى إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية، يعتبر كابوساً استراتيجياً: اذ لأول مرة، قد تجد اسرائيل نفسها في مواجهة جبهة شرقية راديكالية، تتمتع بتواصل اقليمي من الهضاب المطلّة على السهل الساحلي، وحتى بغداد. وهذا هو الخطر الكبير الذي تنطوي عليه إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية: انها تهدد بانهييار المنطقة الفاصلة في الجبهة الشرقية للدولة، وتسلب قدرة اسرائيل على السيطرة على الجدار الواقعي الحيوي جداً، لصد التهديد القادم من الشرق. كما يجب ان لا نسخر من قدرة الدولة الفلسطينية على انشاء جيش يشكل خطراً على اسرائيل مع مرور الوقت. اذ سيرابط هذا الجيش في الضفة الغربية ، اي في وسط البلاد، وسيسيطر على المناطق

المشرفة على كل اسرائيل. في هذه الحالة، سيكون باستطاعة جيش صغير نسبياً، مزود بأسلحة حديثة (ولوصواريخ كثف، مثلاً) خلق تهديد مباشر على المدن الاسرائيلية وقواعد الجيش والمطارات وكافة المرافق الحيوية فيها. والشروع في حرب ضد مثل هذا الجيش، ومحاولة احتلال مواقعه بعد ان يتمركز جيداً في جبال الضفة الغربية ومدنها، يحتاج الى جهد دام، وينطوي على سقوط اعداد كبيرة من الضحايا، حتى لو لم تتدخل دول اخرى من الجبهة الشرقية في هذه الحرب. ولهذه الاسباب نجد ان دولة فلسطينية لا تشكل تهديداً تكتيكياً فحسب، انما هي تهديد استراتيجي من الدرجة الاولى على وجود دولة اسرائيل. وسيزداد الوضع خطورة، اذا ما استخدمت الدولة الفلسطينية نقطة انطلاق لتوسع الاسلام الاصلي.

ان الاسلام المتطرف، يهدد الان دولاً عربية مثل الجزائر ومصر والاردن، وقد وجد له قاعدة واسعة في اوساط السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، مثلاً بحركتي حماس والجهاد الاسلامي.

ان الافتراض بأن من شأن تحقيق اتفاقية سلام بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وقف التوسع الاسلامي هو افتراض غير صحيح ابداً، اذ لا توجد علاقة بين هذا التوسع كما هي الحال في الدول التي ذكرناها آنفاً، وبين النزاع العربي الاسرائيلي، بل تتعلق بأمور ثقافية وتاريخية اعمق واوسع بكثير. والافتراض بأن منظمة التحرير الفلسطينية ستنبري، بمحض ارادتها، لمحاربة هذا التوجه، مشكوك فيه للغاية، فقبل ان يدخل منطقتي غزة واريحا، عقد عرفات اتفاقيات تعاون مشترك مع حركة حماس، والجماعات الاسلامية الاخرى، وفور انشاء الحكم الذاتي، دعا عرفات في غزة، الى تحالف بين المنظمة والحركات الاسلامية، ووصف الشيخ احمد ياسين، زعيم حماس، بأنه "بطل قومي". حتى ولو ادى صراع القوى القائم بين منظمة التحرير وحماس، الى صراع علني وعنيف، لا يمكننا معرفة اي من الحركتين قد تنتصر في النهاية.

ان احتمال قيام دولة فلسطينية اسلامية، في الضفة الغربية وغزة اولاً، ومن ثم في الاردن، يشكل خطراً ليس على اسرائيل فقط. اذ ان مثل هذا التطور سيجلب ايران الى مشارف تل ابيب، ويمنعها امكانية الاقتراب من سوريا من جهة الجنوب، وشبه الجزيرة العربية من الشمال، وإلى مصر من الشرق. ومعنى هذا التطور واضح بالنسبة لاسرائيل . ان وجود دولة فلسطينية لا بد ان يلزم

اسرائيل، عاجلاً ام آجلاً، بالدخول في مجابهة خطرين شديدين يهددان وجودها: جبهة شرقية قومية متحدة مع العراق، او جبهة اسلامية متطرفة بزعامة ايران.

لذا فان المطالبة بقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية تتعارض كلياً مع السعي لتحقيق سلام حقيقي. اذ ان وجودها يضمن حالة عدم استقرار ونزاع مستمر، يؤدي في النهاية الى حرب حتمية.

كما ان هذه المطالبة تتجاهل حقيقة وجود دولة فلسطينية قائمة حالياً. فافرض اسرائيل الانتدابية كبيرة لدرجة تجعلها قادرة على استيعاب دولة يهودية صغيرة، اسرائيل، ودولة اكبر لعرب فلسطين، تلك التي تدعى الاردن. هنالك حل للنزاع بين الشعبين، يتمثل باقامة دولتين: دولة يهودية للشعب اليهودي المقيم غرب نهر الاردن، ودولة عربية للشعب العربي الذي يقيم معظمه شرقي النهر.

واضح ان هذا القول لا يرضي القوميين الفلسطينيين، لكن هذا لا يهم ابداً: يمكن تحقيق الطموحات الوطنية للعرب الفلسطينيين في ارض اسرائيل الانتدابية الموجودة حالياً تحت سيطرة العرب - في دولة الاردن التي يحكمها الهاشميون. ان القول بأن الاردن، هي الدولة الفلسطينية، هو تعريف لوضع قائم وموجود، وليس صياغة حقوق (التي تحدثنا عنها في الفصل الاول). كما انه ليس دعوة للقيام بأية عملية، ولا لاستبدال نظام الحكم في هذه الدولة.

ومفهوم، ان وجود وطن قومي فلسطيني، لا يستوجب اقامة كافة الفلسطينيين فيه، فالفلسطيني من الضفة الغربية، يستطيع السكن في اسرائيل، والا يختار الحياة في الاردن، مثلما يوجد يهود يفضلون العيش في الولايات المتحدة أو في فرنسا، وعدم الهجرة الى اسرائيل. لكن الفلسطيني الذي اختار العيش في الضفة الغربية، يجب عليه الاعتراف بحقيقة انه اختار ان يكون اقلية في منطقة خاضعة لسلطة الدولة اليهودية. ولا يحق له المطالبة بدولة فلسطينية ثانية في الضفة الغربية، مثلما لا يحق لعرب اسرائيل المطالبة بدولة فلسطينية ثالثة في الجليل ورابعة في النقب.

ان الموضوع الذي يجب مناقشته والتفاوض بشأنه مع عرب الضفة الغربية هو مسألة صفتهم المدنية وليس مطالبتهم بالسيادة العربية على هذه المناطق الحيرة لمستقبل اسرائيل . غير ان الفلسطينيين يواصلون التمسك بمطلبهم اقامة دولة

فلسطينية ثانية ضمن منطقة ٦٥ كم تفصل بين الاردن والبحر:

اسرائيل للاسرائيليين، الاردن للاردنيين، فلسطين للفلسطينيين". هكذا يعلن الناطقون باسم منظمة التحرير الفلسطينية باستمرار، ومنذ عام ١٩٩٢، انضم اليهم ايضاً الناطقون بلسان حكومة اليسار الاسرائيلية ان الهدف من هذا الشعار، هو خلق الانطباع وكأنه يعيش في فلسطين الانتدابية ثلاثة شعوب لا اثنان، من خلال نية واضحة لتثبيت "حقوق فلسطينية" على حساب اليهود.

ان هذه الشعارات العربية - والاكثر من ذلك استعداد الحكومة الاسرائيلية لقبولها، عندما وافقت في اوسلو على التمكين من اقامة دولة فلسطينية فعلياً في مناطق الحكم الذاتي، أولاً في غزة واربعاً، ومن ثم في كل المنطقة، حتى الطرف الشرقي من الخط الاخضر- قلصت، ان لم تكن قد الفت نهائياً، احتمال تنازل العرب عن شيء ما على المدى القريب. لقد عززت هذه الموافقة، الى درجة كبيرة جداً ، الميول التقليدية لدى العرب ، للتناكر للتسمية التي قد تدوم طويلاً وتضمن الاستقرار.

ان موافقة الحكومة اليسارية في اسرائيل، على اقامة دولة ثالثة، بين الاردن واسرائيل، لن تساهم في احلال السلام بين اليهود والعرب، انما ستزيد حماس اولئك المتطرفين بين العرب، لزيادة جهودهم الرامية الى القضاء على اسرائيل.

كذلك الحال، بالنسبة لمطالبة العرب باسترجاع القدس، فهي هي عرفات، يعلن منذ سنوات عديدة، صبح مساء، ان السلام لن يتحقق، طالما لم يرفع العلم الفلسطيني فوق المسجد الاقصى. وبعد اتفاق اوسلو، اخذ يعلن ان هدفه هو اقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس في اسرع وقت ممكن. ولم ترفض الدول الغربية هذه المطالب نهائياً، حيث تضمنت مشاريع السلام التي عرضتها حكومات هذه الدول، حتى اليوم، بنداً يمكن منظمة التحرير الفلسطينية من رفع علمها في المدينة - بشكل عام، في الجزء المسمى بأجهزة الاعلام الغربية القدس الشرقية العربية".

لا يوجد شيء خاص بالعرب فقط، في القدس الشرقية، فهذا الجزء من المدينة ، يضم الحي اليهودي ، الذي استطاع الجيش الاردني احتلاله في عام

١٩٤٨. لقد كانت الطائفة اليهودية مقيمة في هذا الحي الاف السنين، لكن هذه الحقيقة لم تمنع الاردنيين من قتل الكثيرين من ابنائها، والذين لم يقتلهم - طردوهم. ويعيش حالياً في شرق المدينة حوالي ١٥٠ الف يهودي، وعدد مماثل تقريباً من العرب، الذين لم تسهم اسرائيل بأذى بعد الاحتلال عام ١٩٦٧، بل عرضت عليهم الجنسية الاسرائيلية ايضاً، وذلك خلافاً لتعامل الاردنيين مع اليهود.

كما تشمل القدس الشرقية ايضاً، المسجد الاقصى، وحائط المبكى، ومدينة داوود. كانت تلك عاصمة الشعب اليهودي لآكثر من الف سنة، وتشكل اليوم مركز الطموح للشعب اليهودي في سبيل العودة الى ارض اسرائيل" ويعثها من جديد. لذا يجب ان لا يطلب من اسرائيل التفاوض بشأن اي جزء من القدس، ولا بأي ظرف من الظروف، تماماً مثلما لا يجوز ان نطلب من الامريكيين التفاوض على واشنطن ومن الانجليز على لندن، ومن الفرنسيين على باريس.

لقد عرضت اسرائيل على العرب منحهم حقوقاً مدنية بصفتهم سكان المدينة، اي مساواة في الحقوق داخل المدينة- ولكن ليس حكماً سياسياً على القدس.

ونظراً لاهمية القدس بالنسبة للشعب اليهودي، والعقائق التي نشأت في المنطقة بعد بناء الاحياء اليهودية الجديدة بعد تحرير المدينة عام ١٩٦٧- يوليو، وموت، رموت اشكول، مزراح تلبيروت، هجفعا هتسرفاتيت، بسجات زئيف، نفيه يعكوف، معلية ادوميم، وجفعات زئيف- لم تعد فكرة تقسيم القدس من جديد، وأردة في الحسبان.

رغم كل ذلك، ليس العرب وحدهم الذين يتيهون في ظل هذا الحكم الخيالي، اذ توجد في معظم وزارات الخارجية للدول الغربية، وبضمنها الولايات المتحدة، خرائط لا تظهر عليها القدس الشرقية بصفتها جزءاً من القدس الموحدة تحت السيادة الاسرائيلية. وفي الواقع، لا تعترف معظم الحكومات، حتى بالجزء الغربي من القدس كجزء من اسرائيل، مدعية ان المكانة النهائية للقدس ستقرر في اطار المفاوضات، على امل ان تصبح المدينة في نهاية المطاف، دولية، نظراً لمكانتها الخاصة في نظر اليهود والمسلمين والمسيحيين معاً. ولكن طيلة عمر القدس ومنذ

نشأتها، لم تكن مفتوحة أمام أبناء كافة الديانات، الا وهي تحت الحكم الاسرائيلي، وتحظى الاماكن المقدسة هذه بحماية متساوية. اذ انه خلال التسعة عشرة سنة التي عاشتها المدينة تحت الحكم الاردني، لم يمنع الاردنيون اليهود من الوصول الى الاماكن المقدسة لهم فيها وفقاً لاتفاقية الهدنة من عام ١٩٤٩، فحسب، بل بذلوا كل ما بوسعهم لمحو وتشويش اية ذكرى للماضي اليهودي في المدينة. حيث دمروا الكنس، ودمسوا المقابر، وحطموا المواقع الاثرية اليهودية. فاذا سلبت القدس من الشعب اليهودي الوحيد الذي ضمن حرية الوصول الى الاماكن المقدسة لاتباع كافة الاديان، واصبحت خاضعة لادارة دولية، فلن يشكل هذا الامر خرقاً لحق الشعب اليهودي التاريخي في عاصمته الوحيدة فحسب، انما سيكون بداية لحالة من التدهور يتمكن المتعصبون الاسلاميون خلالها، من تحويل المدينة الى ساحة اصطدامات دينية لا تنقطع.

يجب على اسرائيل، في اطار اتفاقية سلام مع العرب، ان تضمن حرية وصول المسلمين الذين يريدون الصلاة او الزيارة الى الاماكن المقدسة الاسلامية، ولكن لا يجوز لها ابداً، ان توافق على اية مساس بالمكانة السيادية في المدينة وقدرتها على ابقاء القدس مدينة مفتوحة وموحدة تحت حكم اسرائيل.

هذا هو السبب الذي جعل كل الحكومات الاسرائيلية بدءاً من حكومة ليفي اشكول، وحتى حكومة اسحق شيمير، ترفض طرح موضوع القدس للتفاوض مع العرب. ولم يرد اي ذكر للقدس في اتفاقيات كامب ديفيد.

لقد جاء في الاتصالات التي سبقت انعقاد مؤتمر مدريد ان باستطاعة كل طرف طرح مطالبه في المفاوضات، لكن اسرائيل رفضت ادراج موضوع القدس، كبنء على جدول اعمال المباحثات.

هنالك مبدأ معروف في ادارة اية مفاوضات، وهو ان الصراع حول جدول الاعمال، هو جزء لا يتجزأ من المفاوضات نفسها. وفي اللحظة التي يوافق فيها احد الاطراف علانية على البحث في موضوع ما، في اطار جدول اعمال المباحثات، تبدأ المباحثات في نفس الموضوع بالذات. وهذا، بالضبط، ما فعلته حكومة اسحق رابين بالنسبة للقدس في اتفاقيات اوسلو . لاول مرة منذ تحرير المدينة على ايدي

الجيش الاسرائيلي في عام ١٩٦٧، توافق اسرائيل رسميا على اجراء مفاوضات مع العرب بشأن مطالبهم باعادة تقسيم المدينة. ويعد اتفاقيات اوسلو، بدأنا نسمع تلميحات واضحة صادرة عن اوساط معينة في الحكومة الاسرائيلية، بشأن النية في تقسيم المدينة الى احياء عربية ويهودية.

كما تراجعت الحكومة عن رفضها السماح لسكان المدينة ترشيح انفسهم لانتخابات المجلس الاداري الفلسطيني، الذي سيكون في واقع الامر، حكومة فلسطين التي تطالب بالقدس عاصمة لها. كما وافقت حكومة رايبين ايضا على رسائل مرفقة لاتفاقية اوسلو، تضمنت ضمان حرية عمل مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة. وهذا يعني ان الحكومة الاسرائيلية اعترفت واقعيًا بنشاطات "الاورينت هاوس" بيت الشرق الذي يستخدم كمقر للحكومة الفلسطينية القادمة.

وفعلًا، بعد اتفاقية اوسلو، بدأ رجال منظمة التحرير الفلسطينية يستخدمون هذه المنشأة بصورة علنية، كوزارة خارجية فلسطينية بكل معنى الكلمة، واستقبلوا فيها رؤساء دول، ووفوداً رسمية ودبلوماسية من عشرات الدول.

كما افتتحوا مكاتب اخرى للمنظمة في جميع انحاء الجزء الشرقي من القدس، ومنذ التوقيع على اتفاقيات اوسلو، والاعلام الفلسطينية ترفرف في القدس دون ازعاج.

كل هذه الامور، تشير بوضوح، الى توجه المعسكر اليساري في اسرائيل، نحو تقسيم القدس من جديد، بناء على طلب العرب. ولهذه الاسباب بالذات، يجب على اسرائيل استغلال اول فرصة تتاح لها، لتأكيد رفضها المطلق، للبحث في مسألة السيادة على القدس. كما يجب عليها اتخاذ اجراءات طوارئ. وعلى رأسها، اغلاق مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة، بهدف ضمان سيادتها الوحيدة على العاصمة الابدية للشعب اليهودي.

سنجد من يدعي ان اسرائيل بمطالبتها السيطرة على القدس ومناطق الضفة الغربية، تتوقع ان يتخلى العرب عما يطالبون به من حق لهم. وردي على ذلك هو ببساطة:

منذ أكثر من مائة عام يحارب العرب اليهود لانهم يرفضون تليين نظريتهم المتصلبة بشأن عدم التنازل عن ذرة تراب واحدة من الارض العربية. وحقيقة الامر، لم يشهد تاريخ العرب كله، ان تنازل العرب بمحض ارادتهم عما هو حتى اقل من ذرة تراب واحدة، لا من اجل السلام، ولا لاي هدف آخر. لقد حان الوقت لنذكر ان السلام لن يتحقق الا اذا كان الطرفان مستعدين للتنازل، ويحصل كل واحد منهما على الحد الأدنى المطلوب لبقائه.

لقد سبق ان قدمت الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل الكثير من اجل التعايش والسلام. اذ انه خلال القرن الحالي، قدمت الحركة الصهيونية، في اربع حالات، على الاقل، تنازلات كبيرة:

- * عام ١٩١٩، تنازل الصهاينة عن مطالبتهم ببناء نهر الليطاني في جنوب لبنان، الذي كان من المقرر ان يكون مصدر المياه الرئيس للاستيطان اليهودي.
- * عام ١٩٢٢، تم اقتطاع حوالي ٨٠٪ من اراضي الوطن القومي اليهودي في شرق الاردن، وارغم اليهود على قبول هذا الاقتطاع.
- * في اطار اتفاق السلام مع مصر عام ١٩٧٩، تنازلت الصهيونية من اجل السلام، عن صحراء سيناء، واخلت الاف اليهود وهدمت البيوت والمدارس والمزارع التي بنتها في الصحراء طيلة ١٥ سنة، وتنازلت حتى عن كل مطالبتها القومية الاستراتيجية والاقتصادية المتمثلة في هذا الجزء من الارض، التي تلقى فيها الشعب اليهودي التوراة، ليصبح امة.
- * عام ١٩٨٩، سلمت اسرائيل طابا للمصريين.

غير ان الاسوأ والخطر من هذا كله، كانت موافقة حكومة اليمار الاسرائيلية في عام ١٩٩٤، على تمكين منظمة التحرير الفلسطينية من السيطرة على قطاع غزة، ورأس الجسر في اريحا، مهددة بذلك لتوسع سلطة المنظمة الى بقية الضفة الغربية.

منذ ٧٥ سنة، واليهود يقدمون التنازلات المتكررة لقد تنازلوا المرة تلو الاخرى، عن مطالب جوهرية، واستراتيجية، وتقليدية، وتاريخية، في سبيل ارضاء جيرانهم العرب، ومن خلال الامل في شراء السلام. غير انه لا يمكن تحقيق سلام

حقيقي طالما ظل اليهود مطالبين بتقديم التنازلات التي لا تنتهي، في حين لا يطلب من العرب التنازل عن شيء، باستثناء اعلانهم التنازل عن الرغبة في ابادة اسرائيل (حتى هذا التعهد، يخرقه العرب احياناً).

ان الانظمة العربية التي تملك مساحات كبيرة من الارض تبلغ ٥٠٠ ضعف مساحة اسرائيل، يتوجب عليهم الان تقديم تنازل ضئيل مقابل التنازلات الكبيرة التي قدمها اليهود: للمرة الاولى في تاريخهم الذي امتاز بالاحتلال وعدم المعانة، يتوجب على العرب التخلي عن مطالبهم الاقليمية. ومن اجل السلام ايضا، يطلب منهم التنازل عن اربعة اجزاء من عشرة الاف جزء (٠,٠٠٠٤) من المناطق الواسعة التي يسيطرون عليها. وهذا التنازل يجب ان يكون عن منطقة الضفة الغربية، قلب الوطن القومي اليهودي، والسور الواقي لدولة اسرائيل، والتي تشكل استمراراً للجدار الواقي في هضبة الجولان.

فاذا كان الزعماء العرب ليسوا على استعداد حتى للتنازل مرة واحدة، واذا كان يدفعهم حلم انشاء مملكة عربية مترامية الاطراف وخالية من اليهود، لدرجة انهم غير مستعدين للتنازل عن مساحة ارض صغيرة لتمكين دولة اسرائيل من الحياة بصورة حقيقية، لا يمكننا الافتراض بأنهم مستعدون لسلام حقيقي.

لقد اصبح واضحاً ان المتطلبات القومية لاسرائيل تستوجب استمرار السيطرة على الجدار الواقي المتمثل بجبال الضفة الغربية . ولكن ، ماذا سيكون مصير العرب المقيمين في هذه المنطقة؟

يدعي الكثيرون، بأنه اذا احتفظت اسرائيل بهذه المنطقة، ربما تحقق الامن الذي توفره لها مساحة هذه المنطقة، لكنها ستكون مضطرة، في نفس الوقت، لتحمل اعباء وجود عدد كبير من السكان المعادين لها. لذا يجب على اسرائيل ايجاد طريقة لتخفيف عدا هؤلاء السكان العرب، الذين سيبقون تحت سيطرتها، دون التنازل عن المنطقة التي تعتبر حيوية لوجودها.

اين تقع التجمعات السكانية العربية الكبيرة في المنطقة التي احتلتها اسرائيل في عام ١٩٦٧؟

في هضبة الجولان، لا يوجد عرب تقريباً، (باستثناء ١٦ ألف درزي). وفي الضفة الغربية، السكان قليلون نسبياً، والتجمعات البلدية (باستثناء القدس) تقع في نابلس، جنين، رام الله، الخليل، التي تقع على مرتفعات جبلية حيوية من الناحية الاستراتيجية للدفاع عن اسرائيل. في الواقع، توجد منطقة واحدة مكتظة بالسكان العرب، وتعتبر اقل حيوية من الناحية الاستراتيجية هي قطاع غزة. اذ يتساوى عدد السكان في هذا القطاع مع عدد سكان الضفة الغربية تقريباً، لكن مساحته تشكل حوالي ٦% من مساحة الضفة الغربية (حوالي ٣٥٠ مقابل ٥٥٠٠ كيلومتر مربع). ولا توجد في قطاع غزة جبال او مناطق مسيطرة، وتنفصله عن مصر منطقة واسعة هي صحراء سيناء. لهذه الاسباب، فان الهمية الاستراتيجية لقطاع غزة، هي اقل بكثير من اهمية الضفة الغربية. اذ ان اهمية هذه المنطقة الامنية تكمن في قربها من المدن الاسرائيلية.

لقد كتبت في الطبعة باللغة الانجليزية لهذا الكتاب، قبل اتفاق اوسلو، واخلأ غزة، ان غزة قد تستخدم قاعدة ينطلق منها "المغربيون" لتنفيذ عمليات ارهابية ضد المواطنين الاسرائيليين. وهذا ما حدث بالضبط. فبعد انسحاب الجيش الاسرائيلي من غزة وتسليمها لمنظمة التحرير الفلسطينية، تصاعدت العمليات الارهابية المنطلقة من هذه المنطقة، التي تتمركز فيها قيادات حركتي حماس والجهاد الاسلامي. وهكذا تبين ان افتراض حكومة رابين، بأن يأخذ عرفات دور اسرائيل في مكافحة الارهاب الاسلامي في غزة، لا اساس له من الصحة. من المحتمل، بالطبع، ان يحدث صراع قوى بين حماس والجهاد الاسلامي، وبين منظمة التحرير الفلسطينية من اجل السيطرة على المناطق التي ستخليها اسرائيل، غير انه فيما يتعلق بهدفهم النهائي، لا يوجد فرق بين هذه الحركات كلها. فكلها تسعى للقضاء على اسرائيل في النهاية. لقد خدمت اتفاقيات اوسلو والقاهرة، هذا الهدف الى درجة كبيرة، وزادت قوة الحركات الاسلامية في مناطق الضفة الغربية وغزة، وبخاصة في غزة.

ان الشرط الذي لا بد منه، لابعاد خطر الارهاب القادم من غزة، ومن امكان اخرى في البلاد، هو اعادة منع حرية العمل للجيش الاسرائيلي وقوات الامن، بحيث تشمل امكانيات غير محدودة للعمل الوقائي، والمطاردة والاستخبارات التي

بدونها لا يمكن محاربة الارهاب. كذلك، يجب الاسراع في تنفيذ استثمارات اقتصادية من قبل دول مختلفة في غزة نفسها، تحت اشراف حريص لضمان عدم انتقال هذه الاموال الى خدمة اهداف معادية لاسرائيل، او لمنافع شخصية. اذ ان مثل هذه الاستثمارات، ستوفر اماكن عمل في غزة وتقلل من حاجة مواطني القطاع، للبحث عن مصادر عمل في اسرائيل. ولكن، على الرغم من اهمية محاربة الارهاب القادم من غزة، يجب الاعتراف بالاهمية البالغة للاخطار التي تهدد وجود اسرائيل بالذات، والكامنة في تخلي اسرائيل عن مناطق الجولان والضفة الغربية. في الضفة الغربية، يجب على اية حال، معالجة مسألة مكانة السكان العرب بطريقة لا تعرض امن اسرائيل للخطر، وفي نفس الوقت توفر حلاً يضمن استمرار الاستقرار والتعايش السلمي. في عام ١٩٧٩، اتفقت اسرائيل ومصر في اطار اتفاقيات كامب ديفيد، على التفاوض بشأن تسوية الوضع في هذه المناطق، لكن هذه الاتفاقيات رفضتها كل العناصر العربية التي كان من المقرر ان تتفاوض مع اسرائيل: رفض العرب الفلسطينيين، والحكومة الاردنية (التي يوجد لديها معظم الفلسطينيين) البحث في هذه المسألة. وبعد ذلك، باثنتي عشرة سنة، في مؤتمر مدريد ١٩٩١، ظل العرب يرفضون، اتفاقيات كامب ديفيد. فقد رفض الوفد الاردني - الفلسطيني البحث في هذه الاتفاقيات، حتى انه امتنع عن ذكر اسمها فقط، لكن كان يبدو ان المندوبين الاردنيين والفلسطينيين يقبلون على الاقل، بمبدأين من المبادئ الاساسية لاتفاقيات كامب ديفيد، ليكون قاعدة للبحث هما:

* أولاً: ان يكون هدف المفاوضات التوصل الى اتفاقية مرحلية تعالج الترتيبات المتعلقة بالحياة اليومية للسكان وتؤدي الى توفير حالة من الهدوء تمكن من بناء الثقة، في حين تبدأ المفاوضات بشأن الحل الدائم بعد ذلك بسنوات معدودة فقط.

* ثانياً: وافق الوفدان على ان تكون التسوية المرحلية على شكل ادارة ذاتية للعرب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لا تحدد الاطار السيادي في المستقبل.

كانت تلك هي السياسة التي اتبعتها الحكومات الاسرائيلية منذ كامب ديفيد، الى حين تولي الحكومة اليسارية السلطة في عام ١٩٩٢، حيث حرقت كل الاوراق.

ظاهرياً، واصلت هذه الحكومة المفاوضات حول "الحكم الذاتي" لكن تفاوضها مع منظمة التحرير الفلسطينية، بالذات، التي تطالب بدولة فلسطينية، وموافقتها، في اطار اتفاق اوسلو، على تمكين المنظمة من التقدم نحو تحقيق هذا الهدف، يعتبر انحرافاً عن هذه السياسة.

كانت نظرية حكومة اسرائيل، عندما وقعت على اتفاقيات كامب ديفيد، تقضي بضرورة التوصل الى تسوية تمنح الادارة الذاتية لعرب الضفة الغربية وغزة، من خلال الابقاء على موضوعي السيادة والامن بأيدي اسرائيل. ففي اطار مثل هذه التسوية، ستكون اسرائيل هي المسؤولة الوحيدة عن الامن الداخلي في كل المنطقة، وعن التفيتش الحدودي، والسياسة الخارجية، ومميزات اخرى تتعلق بالسيادة. في حين يتم نقل مجالات اخرى الى ادارة ذاتية فلسطينية، بشكل يبقي عرب الضفة وغزة خاضعين لسلطتهم الادارية، تحت الحكم الاسرائيلي.

لكن، ما فعلته حكومة رايبين، عام ١٩٩٣، يتجاوز هذا الحد بكثير. فمن خلال تطبيق اول مرحلة من اتفاقيات اوسلو في غزة واربعاً عام ١٩٩٤، تنازلت هذه الحكومة عن اية امكانية للسيطرة الامنية في هذه المناطق، بعدما سلمت هذه المسؤولية لجيش "المخربين" التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، فحتى لو ان منظمة التحرير الفلسطينية وحركتي حماس والجهاد الاسلامي، جمدت عملياتها الارهابية، في الوقت الحاضر، كاجراء تكتيكي، فهي قادرة على استئنافها بسهولة في الوقت المناسب. علاوة على ذلك، استخدمت حكومة رايبين مصطلح "حكم ذاتي" الوارد في اتفاقيات كامب ديفيد، لاقامة بنية اساسية لدولة فلسطينية، في كل مناطق الضفة الغربية وغزة، وفقاً لما نصت عليه اتفاقيات اوسلو، فقد وافقت الحكومة الاسرائيلية على منح السلطة الفلسطينية بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية ، صلاحيات الحكم في كافة المنطقة حتى الخط الاخضر (باستثناء المستوطنات اليهودية، القدس، منشآت الجيش الاسرائيلي، التي ستبقى لبحثها في المفاوضات حول الحل الدائم).

كما حصلت السلطة الفلسطينية على اشياء اخرى ذات اهمية مثل المياه الاقليمية في غزة ، وحق اصدار جوازات سفر وطوابع ، وادارة علاقات خارجية

براسطة ممثلات المنظمة في الخارج، ووضع افراد شرطة فلسطينيين على نقاط العبور على جسر ي نهر الاردن ورفع، والحق في رفع علم دولة فلسطين.

في الواقع، لم تبق صلاحيات سيادية لم تسلم لمنظمة التحرير الفلسطينية، في المرحلة الاولى من اتفاقيات اوسلو. وان تطبيقاً مماثلاً لبقية مراحل الاتفاقيات في بقية اجزاء الضفة الغربية سيؤدي حتماً الى انسحاب اسرائيلي كامل الى خطوط عام ١٩٦٧، الامر الذي سيعرض اسرائيل لخطر جسيمة تهدد وجودها. لذا، يجب ان لا نسمح بأن يكون اتفاق غزة واريحا اولاً سابقة لتسويات اخرى في الضفة الغربية. يجب اعادة العمل بمقتضى السياسة التي تبنتها كافة الحكومات الاسرائيلية حتى عام ١٩٩٢، اي تحقيق تسويات تبقي بايدي اسرائيل المسؤولية الامنية، وتحول دون قيام سيادة عربية في الضفة الغربية، وفي نفس الوقت تمكن السكان العرب، من ادارة شؤون حياتهم اليومية بأنفسهم، في اطار حكم ذاتي.

ان الحكم الذاتي، لا يعني دولة. انه نوع من نظام حكم داخلي يسمح لاقلية قومية او دينية بادارة شؤونها تحت سيادة شعب اخر.

يختلف الحكم الذاتي عن السيادة "الاستقلال" بقاء عدة صلاحيات معينة بأيدي الحكومة السيادية، وعلى رأسها السيطرة المطلقة على حدود الدولة والامن الداخلي، والعلاقات الدبلوماسية مع دول اخرى، فمثلاً: رغم وجود اقليم يتمتع بحكم ذاتي في شمال اسبانيا، هو اقليم الباسك، يربط جنود اسبان على الحدود الشمالية، وشرطة اسبانية وليس باسكية، ويرفع العلم الاسباني وليس الباسكي، والمسؤولية عن محاربة الارهاب الباسكي، هي بأيدي الحكومة الاسبانية، وليس الجيش الباسكي، ووزارة الخارجية الاسبانية هي التي تقيم علاقات دبلوماسية مع دول العالم وليس وزارة الخارجية الباسكية.

غير انه في اطار اتفاق " الحكم الذاتي " الذي وقعته حكومة رابين مع الفلسطينيين، سلمت كل هذه الصلاحيات الى السلطة الفلسطينية، لذا فالاستنتاج الحتمي لما تسميه حكومة رابين "حكماً ذاتياً" هو "دولة". لذا يتوجب علينا رفض هذا النموذج المزيف للحكم الذاتي ، وعدم تطبيقه في مناطق الضفة الغربية، التي

يجري التفاوض بشأنها الآن، والعودة الى نظرية الحكم الذاتي الحقيقي.

كيف يمكننا تحقيق توازن عملي بين مطلبي الامن لليهود، والحكم الذاتي للعرب؟

ان المتطلبات الامنية الاسرائيلية، وحاجة العرب لادارة حياتهم اليومية، يمكن تقسيمها حسب طبيعة الارض تقريباً. فالجيش الاسرائيلي لا يقيم منشاته داخل مراكز المدن، ولا يجري تدريباته في المناطق البلدية. باستثناء حالات تقع فيها مفترقات او مناطق مهيمنة، داخل حدود البلديات. ان الدفاع العسكري، يعني اولاً وقبل كل شيء، السيطرة على المناطق المفتوحة. وبالطبع، تنطبق هذه الاقوال على الدفاع ضد غزو خارجي من قبل قوات عسكرية نظامية، وليس في اطار مقاومة ارابيين قادمين من داخل المنطقة، الامر الذي يتطلب الوصول الى اية نقطة بحرية.

من جهة ثانية، لا مجال للافتراض بأن سكان كل مجموعة منازل مقامة على رأس تلة ما، يحق لهم المطالبة بحكم ذاتي لانفسهم. يجب ان يمنح الحكم الذاتي للمراكز البلدية، اذ انه في الاماكن التي يسكنها عدد قليل من العرب، تكون مسألة الحكم المحلي لا معنى لها عملياً. ويمقتضى هذه النظرية، لن نجد صعوبة ابداً في تلبية هذين المطلبين:

يمكن تطبيق الحكم الذاتي على السكان العرب في مناطق التجمع السكاني العربي، وعدم تطبيقه على المناطق قليلة السكان، بحيث تضم هذه المناطق ضمن "مناطق الامن الاسرائيلية" التي اتفق بشأنها مبدئياً في كامب ديفيد، والتي اعترفت بها اتفاقيات اوسلو ايضاً.

مفهوم، انه بمقتضى نظرية منظمة التحرير الفلسطينية، من المقرر ان تكون الضفة الغربية منطقة متصلة واحدة وحكم عربي فلسطيني لمنطقة معظمها خال من السكان، باستثناء مستوطنات ومنشآت عسكرية تكون موزعة كجزر معزولة. بحيث يصبح بالامكان خنق هذه الجزر وابعادها نهائياً لدى اقامة الدولة الفلسطينية على كل المنطقة ، حتى "الخطر الاخضر". وفعلاً، لن تكون هنالك اية

قيمة عسكرية، لشركات متفرقة هنا وهناك كجزء متباعدة في أحد المحيطات إذ انه، لكي نستطيع الدفاع عن منطقة يجب ان تتوفر حرية الحركة في المنطقة كلها.

يجب ان لا توافق اسرائيل، ولا بأي حال من الاحوال على وضع يقضي بأن تراقب قوات الجيش الاسرائيلي ما يجري في المنطقة، من وراء الاسلاك الشائكة المحيطة بمعسكراتها المغلقة، دون ان تكون لديها القدرة على العمل والتدخل. ففي هذه الحالة، سيكون بمقدور "المخربين" العرب، ضرب اي هدف يحلو لهم، دون اي ازعاج اذاً، كي نستطيع محاربة الارهاب، يجب تمكين قوات الجيش الاسرائيلي من الوصول الى اي زاوية في المنطقة، بما فيها، التجمعات السكانية في المدن، التي قد ينطلق "المخربون" منها، ومن ثم يهربون اليها. كما يجب على اسرائيل ان تضمن في اطار اية تسوية تتعلق بالضفة الغربية، مصالحها القومية الحيوية.

ان اول واهم هذه المصالح هو المحافظة على الامن الاستراتيجي اي المحافظة على قدرة الدولة في الدفاع عن نفسها، ضد هجوم تشنه جيوش الدول العربية (علاوة على قدرتها في مجال محاربة الارهاب، التي تحدثنا عنها، والتي عليها ان تحرص على الحفاظ عليها). ان اسرائيل ملزمة بضمان سيطرتها العتمية على المناطق الحيوية لصد اي هجوم من الشرق: وهذا يعني، السيطرة الكاملة على غور الاردن وعلى المحاور المؤدية اليه من وسط البلاد، والسيطرة على ظهر الجبل، والاحتفاظ بمنشآت عسكرية حيوية في اماكن ذات اهمية استراتيجية في الضفة الغربية. كما ان فكرة وضع قواعد عسكرية ومنشآت انذار مسبق اسرائيلية، لمدد غير محدودة، في المناطق التي ستكون حتى تحت سيطرة فلسطينية جزئية، ليست مناسبة على المدى البعيد، لذا، يجب على اسرائيل منع اقامة اية سيادة اجنبية على الضفة الغربية.

• ثانياً: يجب على اسرائيل ضمان سيطرتها على مصادر المياه في الضفة الغربية، أي السيطرة على المناطق الواقعة فوق احواض المياه الجوفية الحيوية للاقتصاد المائي الاسرائيلي. يوجد الى الاسفل من مرتفعات السامرة الغربية حوض المياه "يركون- تنينيم" الذي يزود اسرائيل بحوالي ٤٠% من مياهها الجوفية. وان استغلالاً مبالغاً فيه من قبل الفلسطينيين، قد يفرغ هذا الحوض من المياه، او يلوثه، او يزيد نسبة الملوحة فيه ، ودون هذا الحوض، ستواجه اسرائيل مشكلة

خطيرة، تهدد وجودها، بصورة لا تقل عن مسألة الامن العسكري، ومفهوم، ان احضار مئات الاف الفلسطينيين الى المنطقة واسكانهم في غرب "السامرة"، سيزيد من هذا الخطر، لذا، يجب الحيلولة دون تحقيق هذا الامر الذي من شأنه خلق مشاكل اضافية خطيرة.

• ثالثاً؛ يجب على اسرائيل ان تحتفظ لنفسها بحق المراقبة الديمغرافية، فهي منظمة التحرير الفلسطينية تعلن صراحة عن نيتها اخراق الضفة الغربية بأكثر من مليون لاجئ اضافي. ولا شك في ان معظم هؤلاء سيستقون على المنحدرات الغربية والشمالية والجنوبية لمناطق الضفة الغربية، بغية خلق اتصال ديمغرافي، عربي يمتد الى داخل وادي عارة، الثلث، النقب، ومناطق أخرى داخل الخط الاخضر". ومن هناك، سيطالبون باصرار اكثر، "بحق العودة الى الوطن السليب". ولكي نوقف هذا الخطر، يجب على اسرائيل خلق مناطق عازلة، تكون مأهولة باليهود، في نفس المناطق التي يمكن ان تؤدي السيطرة الاسرائيلية عليها الى الحيلولة دون تطبيق هذا التوجه الفلسطيني الديمغرافي. كما يجب على اسرائيل، ان تحتفظ بسيطرتها على المعابر الحدودية، لمنع دخول اعداد كبيرة من السكان المعادين لاسرائيل ووجب عليها ايضاً، العودة الى مبدأ توطين اللاجئين الفلسطينيين في الاماكن التي يتواجدون فيها حالياً، في لبنان، سوريا، والاردن، وغيرها. واذا لم تصر اسرائيل على تطبيق هذه المبادئ، ستجد نفسها، في غضون بضع سنوات، تواجه طلباً عربياً بالعودة الى مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧، بغية "حل المشكلة السكانية" التي ستنشأ في مناطق الضفة الغربية وغزة.

واخيراً، على اسرائيل ان تبدأ فوراً باتخاذ اجراءات كفيلة بضمان وحدة القدس تحت السيادة الاسرائيلية. اذ ان اعادة تقسيم المدينة، وجعل الجزء الشرقي منها عاصمة فلسطين (في المرحلة الاولى من مشروع المراحل) يعتبر هدفاً مركزياً لكافة الحركات الفلسطينية. ويجب على اسرائيل ايضاً، تعزيز حلقة الاستيطان اليهودية التي تبدأ من غوش عسّيون في الجنوب، مروراً بمستوطنة متصبيه يريحو، ومعاليه ادوميم، في الشرق، وتنتهي في مستوطنات منطقة بيت ايل، في الشمال. وبهذه الطريقة تحول اسرائيل دون مهاجمة المدينة من خلال تجمعات سكانية عربية.

لا يوجد امام اسرائيل خيار، سوى الاصرار، وبشدة، للحفاظ على مصالحها

القومية، المذكورة آنفاً، وضمناها تعريف واسع، وليس محدوداً، لمصطلح "المناطق الامنية" التي ورد ذكرها في اتفاقيات كامب ديفيد. وعن طريق تعريف "المناطق الامنية" بالذات، تستطيع اسرائيل تقليل الخطر الذي تنطوي عليه امكانية خلق اتصال اقليمي عربي من نهر الاردن حتى الخط الاخضر، ومن يثر السبع حتى الناصرة. اذ دون مثل هذا الاتصال الفلسطيني، لن يكون من السهل اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية. وسيتوقف الى درجة كبيرة، خطر تحول الحكم الذاتي في هذه المناطق، الى دولة بكل معنى الكلمة.

ان الدمج بين الاصرار على الاحتفاظ بمناطق امنية واسعة، والاحتفاظ بصلاحيات مركزية في كل المنطقة، يعتبر المفتاح للدفاع، طويل الامد، عن وجود اسرائيل.

ولكي تحافظ اسرائيل على مصالحها هذه، يجب ان توضع بصورة لا تقبل التأويل، ان الحكم الذاتي في الضفة الغربية، يجب ان يكون حكماً ذاتياً فقط، وليس دولة عربية جديدة. ويجب ان تركز ادارة الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية، على مجموعة الوية يكون اهمها: جنين، نابلس والخليل، بحيث يشمل كل واحد من هذه الالوية، المدينة الرئيسية فيه، والبلديات والقرى المحيطة بها، وستضم هذه الالوية الاغلبية العظمى من السكان العرب في الضفة الغربية. وباستثناء مواضيع حيوية، مثل الامن، وارض الدولة، والمياه، التي يجب ان تبقى بأيدي السلطة المركزية الاسرائيلية، يتم تطبيق الحكم الذاتي في كافة المجالات الادارية الاخرى، ويصبح بمقدور الفلسطينيين بناء مجتمعهم بالطريقة التي تحلو لهم. ويجب تطبيق هذه التسوية المكونة من مناطق امنية، والوية ادارية للحكم الذاتي، في البداية لفترة انتقالية ثم يتم دمجها في المفاوضات حول التسوية الدائمة. على ان تشتمل التسوية الدائمة على حل مشكلة الجنسية لسكان الحكم الذاتي في الضفة الغربية، الذين يحمل معظمهم الجنسية الاردنية، والتي يجب ان تسعى لكي يبقوا يحتفظون بها. ويجب على العرب، سكان الضفة الغربية، ان يبرهروا بوضوح، انهم يريدون السلام وليس الحرب، طيلة فترة تمتد لعشرات السنين، قبل ان تفكر اسرائيل بمنح الجنسية الاسرائيلية لمعظمهم، او لجزء منهم.

من شأن هذه الخطة، منح اسرائيل السيطرة على المنطقة الحيوية للدفاع عن

نفسها، وتوفر استجرار السيادة اليهودية على قلب بلادنا، بالإضافة الى تطوير الاستيطان في مناطق الضفة الغربية وغزة، وفي نفس الوقت، ستوفر للعرب في هذه المناطق، الظروف التي تمكنهم من ممارسة الحرية الفردية، والحكم الذاتي الجماعي.

وإذا ما اخرجت هذه الخطة الى حيز التنفيذ، لن يبقى الى الغرب من نهر الاردن، ولو عربي واحد، لا يملك حق التصويت. وبما ان هذه الخطة معدة لكي تدوم فترة طويلة، يستطيع العرب واليهود معاً، بناء ثقة متبادلة وتكييف انفسهم مع الظروف الجديدة.

وهل سيقبل العرب الفلسطينيون بالحكم الذاتي، كما هو مقترح هنا؟ سيقبلون به، اذا ادركوا بأن اسرائيل لن توافق ابداً على السماح لهم باقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية.

من خلال هذا الادراك، جاءوا الى محادثات السلام مع حكومة الليكود في مدريد، رغم معرفتهم الجيدة بمواقف اسرائيل. غير انه بعد اتفاقيات اوسلو، اعتادوا حالة عدم وجود حدود لما يستطيعون الحصول عليه من حكومة اسرائيل، ولا يوجد اي سبب يجعلهم يقبلون بأقل من دولة فلسطينية مستقلة، على كامل الارض. وعندما يعلم الفلسطينيون ان في اسرائيل حكومة ترفض تمكينهم من اقامة دولة فلسطينية، ستزداد احتمالات التوصل الى اتفاق معهم، حول انشاء حكم ذاتي وليس دولة.

في مثل هذه الظروف، قد تجد بين العرب عناصر ذات اهمية تفضل تسوية الحكم الذاتي المقترحة آنفاً، على اقامة دولة فلسطينية. فنظام الحكم الاردني لا يريد، بالتأكيد، رؤية دولة بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية، يمكن لها ان تهدد وجوده. كما يمكن ان تفضل سوريا والعربية السعودية ايضاً استمرار وجود نظام الحكم الاردني، على دولة فلسطينية - اسلامية قد تتوسع بسرعة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية، وتنشئ، حلفاً مع صدام حسين او مع ايران، وتشكل عندئذ تهديداً لوجود هذه الانظمة بالذات.

ان الركض الجنوني، الذي تقوم به حكومة رايبين في سعيها لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية، يعميد الى الازهان، تأييد الدول الغربية لاقامة

جمهورية اسلامية في ايران عام ١٩٧٩. وعلى غرار ما حدث آنذاك، ستكون النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة الطائشة، الدمار ليس لاسرائيل وحدها، انما للشرق الاوسط، وفي النهاية - للعالم كله ايضاً. لذا فان مشروع الحكم الذاتي تحت السلطة الاسرائيلية، هو البديل الوحيد للحيلولة دون وقوع هذا الخطر الذي ينطوي عليه مشروع "السلام" بمقتضى اتفاقيات اوسلو، وهو الضمان الذي يقوم به التيار اليساري في اسرائيل، بين "مؤيدي السلام"، و"معارضيه" داخل اسرائيل، ليس مضحكاً فحسب، انما لا اساس له من الصحة ابداً. اذ لا يوجد في الشعب الاسرائيلي، من يعارض السلام، لكن يوجد معارضون كثيرون للسلام الوهمي، الذي يهدف فقط، لاقامة دولة فلسطينية، ومن ثم الى حرب خطيرة، واشد بكثير مما شهدناه حتى اليوم.

وفي نهاية الامر، نقول ان الفرق الرئيسي بين نظرية اليسار الاسرائيلي، وبين النظرية الواردة هنا، هو كما يلي: يؤمن اليساريون بأن السلام سيتحقق عن طريق تقزيم اسرائيل ووضوحها لمعظم املاات العرب، في حين نؤمن نحن بأن السلام سيتحقق عن طريق تعزيز قوة اسرائيل، من خلال تمسكها بخطوط الدفاع الحالية، والاصرار على حقوقها، وفي حين ان اليساريين يريدون دولة وليس حكماً ذاتياً، نريد نحن حكماً ذاتياً، بدلاً من دولة. كما ان الفرق بيننا ينبع من مبدئين اساسيين هما: نحن نؤمن بضرورة توسيع الاستيطان اليهودي، وليس العربي، وزيادة الهجرة اليهودية، وليس تحقيق فكرة "العودة" الفلسطينية، وتعزيز قوة الجيش الاسرائيلي بدلاً من الاعتماد على جيش "المخربين" ليدافع عنا.

نستطيع تلخيص البديل الذي ننادي به بكلمتين: تقوية الصهيونية. فقد كانت قوة الصهيونية وشباتها، اي "دولة اسرائيل" دائماً وابدأ، المفتاح الحقيقي للسلام مع العالم العربي. وهكذا، فان اسرائيل قوية، هي فقط القادرة على التوصل الى تسويات سلام حقيقية مع العرب. لكن، ليست اسرائيل والدول العربية فقط، هي المسؤولة عن احلال السلام الدائم في منطقتنا اذ توجد اهمية بالغة ايضاً للمساعدات السياسية والاقتصادية من جانب الدول الغربية، لتحقيق مثل هذا السلام عملياً.

لقد حدثت الخطوة الاولى في هذا الاتجاه، لدى افتتاح المحادثات متعددة الاطراف في اطار مفاوضات السلام التي بدأت عام ١٩٩١. فاذا قدمت عناصر

خارجية كهذه مساعدات في مجالات، مثل تطوير مصادر مائية وحماية البيئة، فان المنطقة ستجني فائدة كبيرة، ويقل فيها خطر اندلاع حرب جديدة، تكون ناجمة عن احتكاكات في مجالات حساسة كهذه.

في هذه المرحلة، يركز التدخل الدولي في المساعدات، على تنفيذ المطلب الفلسطيني، بشأن اقامة دولة فلسطينية بالذات. وبدلاً من ذلك، كان على حكومات الدول الغربية، تركيز مساعداتها على مجالين محددين يتطلبان تدخل هذه الدول، واللذين يدرهما ربما لن تتوفر امكانية احلال سلام مستقر ودائم هما: اعادة توطين اللاجئين العرب، ومنع تطوير اسلحة غير تقليدية في الدول العربية وايران. فخلال عشرات السنين الماضية، تبين ان مخيمات اللاجئين المنتشرة في ارجاء الشرق الاوسط، هي عبارة عن مستنبتات لنمو الكراهية ويؤثر للفليان والارهاب. اذ بدون هذه المخيمات، لن تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية الاستمرار في البقاء..

بالنسبة للدول الغربية، لا يعتبر حل مشكلة اللاجئين، مجرد مسألة اخلاقية. اذ توجد لهذه الدول مصلحة حيوية واضحة في القضاء على وجود هذه المخيمات وانهاء معركة الارهاب، التي يديرها زعماء المخيمات ضدها، وستكون الدول الغربية ملزمة بتنفيذ مشاريع للبناء وانشاء البنية التحتية التي من شأنها تحويل المخيمات الى احياء سكنية دائمة. ويتوجب عليها ايضا ان تستثمر اموالاً طائلة في مجالات التريبة الثقافية والاقتصاد في سبيل رفع مستوى حياة اللاجئين.

صحيح ان الدول العربية قادرة وسهلة على تمويل عملية توطين اللاجئين بقدرتها الذاتية، لكن وفي ضوء تصرف هذه الدول في الماضي، سيكون مكسباً كبيراً، فيما لو ساعدت بشيء ما في مشروع توطين كهذا. ولكن، يجب عدم التنازل عن ضرورة مساهمة الدول العربية في توطين اللاجئين: الدول العربية، هي التي خلقت مشكلة اللاجئين منذ البداية، وهي المسؤولة ايضاً عن عدم حلها حتى اليوم. وان اشترك هذه الدول بالذات، في توطين اللاجئين في اماكن تواجدهم الحالية، يعتبر اختصاراً بالغ الاهمية بالنسبة لالتزاماتها بانهاء النزاع مع اسرائيل.

غير ان الدول الغربية لا تضغط على العرب لحملهم على التخلي عن حلم "حق العودة". وعندما سئلت الولايات المتحدة، عما اذا كانت لا تزال تؤيد قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ١٩٤ في كانون اول ١٩٤٨، الذي دعا الى اعادة اللاجئين الى اماكن سكنهم، لم تجرؤ على القول "لا" وبعد ثلاثة ايام من التردد، تفوه ممثلوها بكلام ليس له معنى: هذا القرار، لا يتعلق بمسيرة السلام. ان مثل هذه المواقف، تبقي العرب في ظل الامل، بأن يحل اليوم الذي يتمكنون فيه من غمر اسرائيل بشرات الاف اللاجئين، الامر الذي سيؤدي الى انهيار الدولة.

يجب على العالم الغربي ان يعلن، بصورة لا تقبل التأويل، ان قرارات الامم المتحدة، التي مضى وقتها، والمتعلقة باللاجئين، اصبحت ملغاة، وعليه ان يضع الفلسطينيين والعالم العربي امام الامر الواقع، فالعرب، غير قادرين على القول، مثلاً، انهم يوافقون على مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧، الذي رفضوه قبل خمسين سنة تقريباً.

ان الظروف تتغير مع الزمن، ويجب على العرب ان يدركوا بأنه لا يمكنهم ارجاع عقارب الساعة الى الوراء كلما ارادوا ذلك. لذا يجب ان نكمل، على اية حال، المسيرة التي بدأت في الامم المتحدة، في اعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي، وان نلغي كافة القرارات المعادية لاسرائيل، التي اتخذتها هذه المؤسسة الدولية خلال الحرب الباردة.

ان كل هذه الاجراءات، تشكل في الواقع مشروع سلام واحداً، يتألف من ثلاثة عناصر هي:

- * اتفاقيات ثنائية بين اسرائيل والدول العربية، بما فيها تحديد رسمي للحدود بينها وتسويات سلمية.
 - * تقديم مساعدات دولية من قبل بقية دول العالم.
 - * اتفاقيات ثنائية بين اسرائيل والفلسطينيين، يتحدد فيها كيف يمكن ان يعيش العرب واليهود معاً، ويتم الاتفاق على مسائل الحكم الذاتي والامن.
- وكل واحد من هذه العناصر الثلاثة، يتطلب بلورة صيغة دقيقة ومفصلة تأتي نتيجة لمفاوضات متعمقة.

من المحتمل ، بالطبع ، ان يطرأ من خلال المفاوضات تعديل على بعض هذه

العناصر، بأن تضاف إليها عناصر جديدة، مثلاً، لكنني على قناعة تامة، بأن الفكرة العامة التي أوردتها في هذا الفصل، يمكن أن تكون إطاراً لاحتلال سلام حقيقي واقعي ودائم بين العرب وإسرائيل.

إن محاولة تحقيق سلام بين إسرائيل والعرب، يجب أن تشمل علاوة على مسألة الأراضي المختلف عليها، العناصر الآتية: معاهدات سلام رسمية بين الدول العربية وإسرائيل. ترتيبات أمنية مع الدول العربية تحمي إسرائيل من أي هجوم، وتمكن الأطراف من التأكد بأن الاتفاقيات تنفذ نصاً وروحاً، تطبيع العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل والغاء المقاطعة الاقتصادية على إسرائيل. وقف الدعاية اللاسامية واللايهودية الرسمية في المدارس ووسائل الإعلام في الدول العربية. هيئة دولية تمنع بيع أسلحة ووسائل قتال غير تقليدية لأنظمة الحكم المتطرفة في الشرق الأوسط: مشروع دولي لتوطين اللاجئين، وتعاون إقليمي لتطوير مصادر للمياه وحماية الطبيعة والبيئة.

هذه هي الطريق لتحقيق سلام بيننا وبين العرب في الشرق الأوسط، كما هو في حقيقة الأمر - منطقة متوترة، غير مستقرة، غير ديمقراطية، مشبعة بالعداوات المتأصلة. وهذه العداوات والشعور بالكراهية لن يختفيا بسرعة لذا، يجب أن نبني المصالحة العربية مع إسرائيل على أسس من الاستقرار والأمن والتعاون، وبالتدرج، فالأسلوب التدريجي سيوفر للأطراف امكانية تغيير نظريتهم بشأن تطبيق السلام وشكله، فيما لو طرأ تغير جوهري نحو الأفضل، في الظروف السياسية والعسكرية الأساسية السائدة في المنطقة.

منذ انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة، يتنافس في الوسط العربي توجهان متناقضان:

* توجه إيجابي يقضي بالتسليم بوجود إسرائيل والتصالح معها، من خلال الافتراض بأنها لن توافق على تقليص مجالها الأمني، وتوفير خيار عسكري عربي للقضاء عليها نفسها.

* توجه تتزعمه منظمة التحرير الفلسطينية، يدعو إلى إعادة إسرائيل، على مراحل، إلى خطوط عام ١٩٦٧، بوسائل دبلوماسية وعسكرية معاً، وخلق الظروف المطلوبة للقضاء عليها.

برز التوجه الاول في مؤتمر مدريد، عندما حضرت كل الدول المجاورة لاسرائيل الى التفاوض معها، دون ان تتنازل اسرائيل، سلفاً، عن متطلباتها الامنية الحقيقية. في حين برز التوجه الثاني معزراً في اتفاقيات اوسلو والقاهرة، عندما بعثت اسرائيل في الحرب الامل من جديد، بأنها ستقلص ضمن حدود عام ١٩٦٧.

ان اصرار العرب على اعادة اسرائيل الى حدود حرب عام ١٩٦٧، لا يمكن ان يلاقي رداً ايجابياً من جانب كل من يرغب في تحقيق سلام حقيقي. يجب ان نقول للعرب، انه لن يحل السلام دون امن، ولسنا على استعداد للمغامرة بوجودنا، من اجل تلبية مطالبهم. واذا لم يوافق العرب، اليوم، على هذا، يجب ان نتحمل بالصبر على امل ان يوافقوا عليه غداً. وعلى أية حال، لا يجوز ابداً ان نتأثر بتصريحاتهم بأنهم لن يوقعوا على معاهدات سلام معنا، اذا لم نوافق على انسحاب من شأنه وضعنا في حالة خطر دائم.

في الشرق الاوسط، يتقدم الامن على السلام ومعاهدات السلام، وكل من لا يدرك هذا، سيظل دون امن ودون سلام، وفي نهاية الامر - محكوم عليه بالفناء. ولكن، علاوة على كل ما اسلفنا، توجد مشكلة خطيرة جداً، يجب على كل اولئك الراغبين في احلال سلام حقيقي في منطقتنا، تركيز اهتمام بالغ بها. وهذه المشكلة، تتطلب منا النظر اليها على انها مسألة اولى على رأس سلم الاولويات، تتقدم من حيث الاهمية على كافة المواضيع المتعلقة بالنزاع العربي - الاسرائيلي.

ان مشكلة توسع الاسلام المتطرف واحتمالات حصول ايران على اسلحة نووية، مشكلة لا تحظى بمعالجة مناسبة من جانب الدول الغربية. فعلاوة على الارهاب، كان التعصب الديني موجوداً في الشرق الاوسط طيلة مئات السنين، غير انه اصبح قوة دولية في السنوات الاخيرة فقط، عندما حظي باداة نشر دولية، بصورة دولة مستقلة ذات سيادة. فمنذ اللحظة الاولى لاقامة الجمهورية الاسلامية في ايران، عملت هذه الدولة، دون كلل، على اثارة الاقليات الاسلامية في آسيا وافريقيا، واوروبا الغربية. ووجهت جهودها، بشكل رئيس، لاثارة الجماهير الاسلامية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا.

في العقد الاول لقيام الجمهورية الاسلامية، كانت مواردها مخصصة للحرب

مع العراق، وبعد انتهاء الحرب، تفرغت لاذكاء. نار الارهاب ضد اهداف غربية، وبوساطة مبعوثيها، نظمت ايران سلسلة هجمات ارهابية ضد عناصر غربية في الشرق الاوسط، وعلى رأسها اسرائيل، وعلى اهداف غربية في العالم، بما فيها تفجير المركز التجاري في قلب نيويورك.

ان ظهور التعصب الديني بزعامة ايران، يعيد الى الازهان، الى درجة كبيرة، ظهور الشيوعية بزعامة الاتحاد السوفياتي، في سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي: ايدولوجية قتالية، تنشرها دولة تستخدم ملايين المؤيدين في دول مختلفة، لديهم قناعة بأن هدفهم، هو احتلال العالم. لكن هناك فرقاً واحداً اساسياً بين الحركتين: ففي حين ان الشيوعيين، اظهروا اسلوباً واقعياً تجاه امكانيات توسعهم، مفضلين التعايش على تحقيق هدفهم الايدولوجي، نجد ان المتعصبين الاسلاميين يلجأون الى الاسلوب المعاكس، بحيث ينمون لدى مؤيديهم الاستعداد للموت في سبيل تحقيق حلمهم الديني، وهكذا، شهدنا "ارهابيين انتحاريين"، وشباباً ارسلتهم امهاتهم للموت في سبيل الاسلام.

كل هذه الامور، تعتبر مؤشرات لتشوهات نفسانية وثقافية عميقة، تجعل من التعصب الاسلامي "ورماً سرطانياً" يهدد بصورة حقيقية المدنية الحديثة. ومن شأن حصول هذه الحركة على قنبلة نووية زيادة خطورتها على العالم كله، عشرات الازعاف: علاوة على التشجيع العظيم الذي سيمتحنه مثل هذا التطور، لملايين المؤمنين، ولا يمكن، ولا بأي حال من الاحوال، الغاء احتمال قيام ايران باستخدام السلاح النووي، ليس ضد اسرائيل فقط، بل ضد دول اخرى، وستتخذ الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة، وستحاول بهذه الطريقة تحقيق الحلم القديم، المتمثل بانتصار الاسلام على الكافرين.

لذا، يجب ان لا يظل الرد على هذا الخطر الجسيم مقتصرأ على وقف او احتواء ايران (Containment) فقط، بل يجب ان يكون اكثر شمولاً. فمتلماً ادت التغييرات في نظام الحكم الروسي الى انهيار الشيوعية، فان احداث تغيير في مواقف نظام الحكم الايراني، قد يؤدي الى وقف توسع وباء التعصب الديني.

من اجل ضمان مثل هذه النتيجة، يجب على الولايات المتحدة ان تقره عملية دولية ، على غرار تلك التي قامت بها ضد العراق - اي فرض حظر دولي

على صادرات النفط من ايران، وعقوبات اقتصادية وسياسية عليها، تنمية ورعاية طموحات ديمقراطية لدى جماعات مختلفة داخلها، واتخاذ اجراءات اخرى كفيلة بوقف المسيرة الخطيرة التي تقوم بها ايران وعلاوة على كل هذا، يعتبر التدخل الدولي امرا ضروريا لمنع انتشار الاسلحة غير التقليدية في ايران، والعراق ايضا. حيث انه بعد هزيمة العراق، لا تزال تكتشف لديه منشآت اسلحة نووية، لذا، فان الطريقة الرئيسية لمنع، او ابعاد اليوم الذي ستتملك فيه الدول العربية وايران القدرة على تدمير المدن الاسرائيلية (ومدن دول اخرى) بضغط زر، هي فرض حظر شديد وشامل على تزويد الوسائل والمعلومات التكنولوجية النووية، لانهظمة حكم دكتاتورية في الشرق الاوسط، وتطبيق هذا الحظر عن طريق فرض عقوبات مشددة على الدول التي تخرقه.

ان الولايات المتحدة الامريكية، هي الدولة الوحيدة القادرة على تطبيق مثل هذا النهج العقابي. فاذا لم يتخذ الاجراء الدولي المناسب بهذا الشأن، فستكون مسألة وقت فقط، حتى تمتلك ايران، او اية دولة اخرى من الدول الدكتاتورية في الشرق الاوسط، اسلحة نووية، وعندئذ لن تهدد وجود اسرائيل فقط، بل سلام العالم اجمع.

واخيراً، يجب ان ندرك ان اي تقدم، او عدم تقدم في تحقيق التسويات في الضفة الغربية والجولان، لن يغير شيئاً مقابل هذا الخطر المتميز.

الفصل العاشر

مسألة القوة اليهودية

في عام ١٩٨٧، زرت بولندا، عندما كانت تحت الحكم الشيوعي. هبطت بنا الطائرة في مطار عسكري بالقرب من كركوب، حيث سافرنا من هناك بالسيارة، وسط مناظر طبيعية رتيبة. وسرعان ما مررنا بقرية صغيرة، كان فيها شيء واحد يميزها هو الاسم: "أوشفيتش" (أوشفيتس). وبعد وقت قصير، وصلنا إلى باب المعسكر الذي لا زال يحمل العنوان الفظيع "العمل يحرر". وأوضح لي المضيفون، أن عملية الإبادة الرئيسية التي قتل فيها حوالي مليوني يهودي، لم تكن تجري هنا. صحيح أن عدة آلاف من اليهود ماتوا في المعسكر الرئيس في أوشفيتس، لكن هذا المعسكر كان يستخدمه الألمان كمركز تحقيقات وتعذيب، بينما تتم عملية القتل والإبادة في مكان آخر.

وبعد ذلك توجهت سيرا على الأقدام برفقة أعضاء كنيسة وشباب إسرائيليين ويهود من دول أخرى، على طول خط سكة الحديد من أوشفيتس إلى بركناو، القريبة. وبعد مسير ١-٢ كم، قادتنا قضبان سكة الحديد عبر بوابة أخرى، إلى باب معسكر "بركناو"، حتى وصلنا على بعد بضعة مئات الأمتار داخل المعسكر، إلى بقايا ثكنات محروقة، كانت تصلها يومياً عدة قطارات محملة بالآلاف اليهود، الذين يتم إزالتهم في هذا المعسكر ثم يقتادون بسرعة إلى حجرات الغاز.

قبل وقتي هناك، في بركناو، لم أكن اتخيل كم كان صغيراً وحقيقياً ذلك المكان. لقد كان بالإمكان وقف العمل في ذلك "المسلخ" من خلال طلعة جوية واحدة يقوم بها سرب من القاذفات، ولم يكن ذلك الأمر يتطلب جهداً خاصاً. إذ أن دول الحلفاء قصفت أهدافاً متنوعة قريبة من هذا المعسكر. لم تكن هنالك حاجة سوى لإعطاء أمر بسيط واحد، لإحدى الطائرات لكي تنحرف قليلاً، وتوقف تلك المجزرة. لكن ذلك الأمر لم يعط أبداً.

يعتقد الكثيرون من زوار "بركناو" أن دول الحلفاء لم تكن تعلم بأن الألمان يبيدون، بصورة منهجية، كل يهود أوروبا. لكن تلك ليست هي الحقيقة. طيلة سنة ونصف السنة، هي فترة عملي كمندوب لإسرائيل لدى الأمم

المتحدة، عملنا انا وزملائي على فتح الارشيف السري الذي كان يحتوي على ملفات الاسم المتحدة الخاصة بمجرمي الحرب النازيين. وبعد ان نجحنا في التوصل الى الملفات تبين لنا ان "كجنة جرائم الحرب" التابعة للحلفاء والتي شكلت في بريطانيا عام ١٩٤٢، وضمت مندوبين عن ١٧ دولة كانت تعرف جيداً ما يدور في معسكر "بركناو" منذ مطلع عام ١٩٤٤- قبل سنة ونصف السنة من هزيمة المانيا النازية. ولو ان دول الحلفاء تصرفت بناء على تلك المعلومات المتوفرة، لكان بالامكان انقاذ ملايين اليهود من الابادة. غير ان الحلفاء عرفوا، ولم يفعلوا شيئاً، وبذلك حكموا على يهود اورويبا بالموت.

كيف وصل اليهود هذا الحد من حالة الضعف والوهن المطلق؟ وكيف حدث ان شعباً كاملاً، اقتيد كالأغنام الى المسلخ، دون القدرة على مقاومة هذا الهجوم المخيف، الذي استهدف وجوده؟ وما السبب الذي منع الشعب اليهودي من التأثير على دول العالم كي تفعل شيئاً، ولو ضئيلاً لانتفاذه؟
ان مسألة الضعف اليهودي تحتل مركز التجربة المساوية التي اجتازها الشعب اليهودي، وتشكل جانباً واحداً لعملة الوجود اليهودي.

اما الوجه الثاني، فهو اعادة تعبئة القوة اليهودية في جيلنا الحالي. وهذان هما القطبان اللذان تحرك بينهما تاريخ الشعب اليهودي في العصر الحديث. ولا شك في ان السنوات المائة الاخيرة، التي يتطرق اليها هذا الكتاب، مثلت تجربة مريرة خاضها الشعب اليهودي. من المذابح في روسيا، ومحاكمات درايفوس، واللاسامية المتصاعدة في اورويبا والسياسة البريطانية لمنع دخول اللاجئين اليهود الفارين من اورويبا، بفعل الكارثة، الى ارض اسرائيل، كلها، كانت مراحل مأساوية في مسيرة تدهور الشعب اليهودي الى حالة الضعف المهينة التي اصابتها. في حين ان قيام دولة اسرائيل، واهياء القوة العسكرية اليهودية وتغلبها على اعداء اكبر منها بكثير، تعبر عن تحرك المؤشر نحو القطب المضاد.

وعلى الرغم من الدراما العظيمة التي شهدتها تاريخ اليهود في القرن الحالي، يمكننا ان نفهم قيام اسرائيل من خلال زاوية نظر تاريخية اوسع، تتعلق بالاف السنين من الوجود اليهودي. فالشعب اليهودي هو من اقدم الشعوب في العالم. ويمتاز عن بقية الشعوب بقوة ذاكرته. والصهيونية، هي عبارة عن تجربة معروضة

لنسج مستقبل جديد، لشعب عريق، بخيوط الإرادة القومية التي غزلت في فجر التاريخ اليهودي ولا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.

لكي نفهم العلاقة المتبادلة بين مسألة القوة اليهودية، وحالة الهم والضعف الذي تميز بها شعبنا في عهد الكارثة، يجب علينا دراسة وضع اليهود خلال فترة أطول بكثير من العهد الجديد.

أولاً، يجب أن ندرس وضع اليهود في العالم القديم، حيث أنه، في التاريخ القديم، حدثت أحداث حاسمة في حياة الأمة، تركت بصماتها إلى درجة كبيرة على طابع اليهود، ووجهات نظرهم، وآمالهم المستقبلية.

خلافًا للشخصية التي الصقت باليهود، خلال مئات السنين الماضية، لم يكن أبائنا في العصر القديم معروفين كضحايا، لا حول لهم ولا قوة. فالتاريخ الروماني وغيره يشير إلى أن اليهود لم يكونوا مرغوبين كثيراً في العالم القديم، لكن الجميع كانوا يكتفون لهم الاحترام بفضل أصرارهم وصمودهم في وجه أي هجوم يستهدف حقوقهم وحريتهم، إذ، في حقيقة الأمر، قل ما نجد شعباً يحارب بهذا الأصرار والاستمرارية، ضد قوات أكبر منه بكثير.

لقد تم احتلال وطن اليهود مرات عديدة، من قبل الآشوريين والبابليين والفرس، والمكدونيين، والرومانيين والعرب، لكن الشعب اليهودي، صمد في الاحتلال وفي الشتات، طيلة ما يقرب من ألفي عام وبقي موجوداً.

خلال المرحلة الأولى والطويلة من تاريخ الشعب اليهودي خرج من أبنائه رجال جيش وزعماء، سرموقون قادوه في صراعه المستمر. ولا توجد أمم تستطيع الافتخار بأشخاص مثل: موسى، يهوشع، جدعون، شمشون، دبوراً، شاول، يهوئان، داود، ملوك إسرائيل ويهوذا، نحميا، المكابيون، يهود هجليلي، اليعازر بن يثير. شمعون بارجيودا، باركوخفا، وغيرهم من الزعماء الأقل شهرة، الذين صمدوا وقادوا التمرد ضد روما وبيزنطة.

لقد وقف يهود أرض إسرائيل وحدهم، في وجه روما، تلك الدولة العظمى التي خضعت لها معظم شعوب العالم في تلك الأيام، وظلوا يقاومون بأصرار طيلة سنوات كثيرة ضد الحكم الروماني.

إذا كانت هنالك ميزة واحدة، على الأقل، تبرز في ثنايا التاريخ اليهودي

القديم، فهي تلك المتمثلة برفض الشعب اليهودي الشديد، للتنازل عن استقلاله السياسي، والديني، واستعداده لمواصلة الكفاح، ضد من ارادوا استعباده. لقد نجح اليهود في كفاحهم عدة مرات، وفشلوا عدة مرات اخرى، لكن الكفاح في حد ذاته ساعدهم في المحافظة على هويتهم وقيمهم، ورفضه، لم ينصهروا ولم يهتفوا مثل اسم اخرى كثيرة تلاشت تحت وطأة امبراطوريات عظمى.

كيف اختلفت هذه القدرة على المقاومة، وكيف استبدلت بشخصية اليهودي الضعيف؟ لم يحدث ذلك في يوم وليلة. لا شك في ان الصراع الطويل والمأساوي ضد الرومان، قد استهلك قسماً كبيراً من طاقة الاسم اليهودية. هناك من حدد زمن السقوط النهائي للشعب اليهودي، بقمع تمرد باركوخفا، الذي حدث بعد ستين سنة من فشل التمرد الاول، وخراب القدس، وخلافاً لهذا الاعتقاد، لم تضعف سلسلة الهزائم التي التحقت بالشعب اليهودي، مقاومة اليهود، والشاهد على هذا، هو ثورتهم ضد البيزنطيين، بعد تمرد باركوخفا.

طالما، ظل الشعب اليهودي يعيش على ارض وطنه، كان يجد طريقة للقيام بعمل عسكري وسياسي. حتى في مطلع القرن السابع للميلاد، كانت لا تزال هناك قدرة على المقاومة لدى اليهود، وذلك عندما ابرم يهود البلاد حلفاً مع الغزاة الفرس، ضد الحكم البيزنطي. ولكن، بعدما طردوا من بلادهم ونشردوا في انحاء العالم، لم تعد لدى اليهود الظروف المطلوبة للدفاع عن النفس. صحيح ان اليهود في اورشليم عاشوا في احياء محصنة خاصة بهم، لكنهم فقدوا القدرة على حماية انفسهم شيئاً فشيئاً. ففي ألمانيا، حرّموا حق حمل السلاح للدفاع عن انفسهم، رغم انهم كانوا، في تلك الدولة، اكثر عرضة للهجوم من اي دولة اخرى.

ان من يحرم من حمل السيف، سرعان ما ينس كيفية استخدامه، ويبدأ استعداده النفسي للمقاومة يتلاشى. وهكذا اصبح اليهود اقلية اجنبية بحاجة الى حماية الحكام الذين لم يسارعوا، في كثير من الاحيان، لتوفير هذه الحماية لهم. ان الضعف في حد ذاته يغري بالعدوان على الضعيف، وهذا ينطبق، بشكل خاص، على اليهود، الذين دمجوا النجاح الاقتصادي مع الضعف السياسي والعسكري، وهكذا اصبح اليهود هدفاً للمطاردة والطرود.

عندما كان يطرد اليهود من دولة ما، يجدون ملجأ في دولة اخرى ، ولكن

بعد ان يمددوا صفقة مع حاكم تلك الدولة، او مع المقيمين اليه. وعندما يطاح هؤلاء الذين منحوا الحماية لليهود، يصبح اليهود عرضة للمطاردة والاعتداء عليهم من جديد. الامر الذي جعل من الشعب اليهودي ضحية لاعمال التنكيل والقتل على ايدي شعوب اخرى، وتلاشت قدرته على المقاومة نهائياً. واصبحت كلمة "يهودي" شتيمة تشير للاشمئزاز والسخرية. وفي لغات عديدة في العالم اصبحت كلمة "يهودي، كلمة مرادفة لمعنى "جبان". والخطر من هذا، ان اوساطاً واسعة بين اليهود سلموا بهذه الشخصية المهينة، وبدأوا يرون انفسهم كما يرونهم الغرباء..

زئيف جيوتنسكي، كان احد القلائل من زعماء الجيل الثاني للصهيونية، الذين ادرکوا الى اين يتجه اليهود. فطيلة سنوات الثلاثينات لم يتوقف جيوتنسكي عن دق جرس الانذار والتحذير من الخطر القادم الذي يتهدد اليهود، في اوروبا.

ففي التاسع من آب ١٩٣٨، قال في ذكرى خراب بيت المقدس (الهيكل)، في وارسر مخاطباً اليهود: منذ ثلاث سنوات، وانا اناشدكم يا يهود برلندا واحلركم، من اقتراب الكارثة. ان قلبي يقطر دماً لرؤية اخواني واخواتي الاعزاء لا يحسون بالبركان الذي سيبدأ قريباً بقذف لهب الابادة. اناشدكم بالله ان ينقذ كل منكم نفسه، طالما وجدت امامه فرصة لذلك- والوقت قصير. لكنني اود ان اقول لكم شيئاً آخر في هذا اليوم، التاسع من آب: ان من يستطيع ان يفر بنفسه من الكارثة، لا بد ان يشهد الفرحة اليهودية الكبرى: ولادة وقيام دولة يهودية من جديد. لا اعرف ما اذا كنت انا ساحطى بذلك - لكن ابني، "نعم". انني مؤمن بهذا، مثلما انني واثق بانه غداً صباحاً ستشرق الشمس من جديد، انني مؤمن بهذا ايماناً كاملاً.

في تلك الفترة، اي سنة واحدة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان هنالك عدد قليل فقط من اليهود يتوقعون الكارثة القادمة، وقليلون ايضا هم الذين شاركوا جيوتنسكي ايمانه، بأن الشعب اليهودي سيتغلب على الكارثة ايضا.

عام ١٩٤٢، اجتمع حكام المانيا النازية في بيت واسع في حي فنزا في برلين، لوضع خطة "الحل النهائي" وعلم، فيما بعد، من خلال وثائق مؤتمر فنزا، ان النازيين خططوا لآبادة اليهود، في جميع انحاء اوروبا، من بريطانيا وحتى الاتحاد السوفياتي . واعدوا قوائم مفصلة للقضاء على (١١) مليون انسان. كان النازيون

يقصون في البداية القضاء على يهود أوروبا فقط، ولكن عندما وصلت جيوشهم الى شمال افريقيا، بدأوا يطردون اليهود من هناك الى معسكرات الموت. وكانت هزيمة هتلر، فقط، هي التي انقذت يهود شمال افريقيا وروسيا من الابداء.

يبدو ان تلك كانت النتيجة الحتمية للتغيير المستمر الذي طرأ على وضع اليهود: تحول ابناء المكابيين الى خراف تقاد الى الذبح، وتقرر اخفاؤهم من على وجه الارض. ولكن، من تلك النقطة بالذات، في الدرك الاسفل من الانحطاط اليهودي، بدأ التحول الكبير الثاني في تاريخ الشعب اليهودي: لقد اكتشف، من جديد، قدرة المقاومة اليهودية. ففي مطلع القرن السابق، كانت قد بدأت تظهر في الوسط اليهودي اول مؤشرات للشوكة. اذ ان الجيوش الضخمة التي تشكلت في أوروبا بعد هزيمة نابليون، بدأت تجند في صفوفها جنوداً يهوداً. وفي الحرب العالمية الاولى، قدم عدد كبير من الجنود اليهود في مختلف الجيوش، وكان من بينهم قادة بارزون. وفي الحرب العالمية الثانية، برزت القوة اليهودية في اطار جيوش الحلفاء، غير ان المؤشر الذي كان له بالغ الاثر بشأن قرب حدوث التحول الكبير في تاريخ الشعب اليهودي الحديث، اكتشف في قاع الهوة بالذات، في "جيتو" وارسو، في معسكرات ترينكا وسويبور واماكين اخرى، حيث تورد اليهود على الجنود النازيين في صراع بطولي لا مثيل له في تاريخ البشرية. تلك الحالات من التمرد التي وقعت في ظل ظروف يائسة ولا امل فيها، اثبتت انه لم ينقطع بعد، الخيط القديم، الذي نسج منه الطابع اليهودي.

اصبحت نهضة القدرة اليهودية على المقاومة، جزءاً من سياسة موجهة، في اطار الحركة الصهيونية فقط. ففي الحرب العالمية الاولى، بدأ الصهاينة باعادة بناء القوة العسكرية اليهودية التي اهلها اليهود طيلة مئات السنين. بدأت الجهود في هذا الاتجاه، بتشكيل تنظيمات دفاعية يهودية، ضد العصابات في روسيا، في الفترة ما بين ١٨٨١-١٨٨٢، والمذابح التي تلت ذلك.

ثم تكررت في تشكيل منظمة "هشومير، (الحارس) في ارض اسرائيل"، قبل الحرب العالمية الاولى وخلالها، واستمرت من خلال تشكيل الكتائب العبرية في اطار الجيش البريطاني، و "سرايا الليل" التي نظمها، اورد فينجاييت، في الثلاثينات، واللواء اليهودي، والوحدات اليهودية من ارض اسرائيل التي قدمت في اطار الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية . ومن خلال هذه البدايات

المتواضعة، تمت المنظمات السرية اليهودية - الهجناه، ايتسل، ليحي - التي مهدت الطريق لتأسيس الجيش الاسرائيلي، مع قيام الدولة.

بعد قيام دولة اسرائيل، ادرك معظم اليهود في العالم، الاهمية الحاسمة لبناء قوة عسكرية يهودية. وخصصت اسرائيل معظم مواردها لتقوية جيشها، وكلفت افضل ابنائها لهذه المهمة. وما ادهش العالم، ان اسرائيل افرت من ابنائها افضل المقاتلين في العالم، وانشأت جيشاً اثبت المرة تلو الاخرى، قدرته على الحاق الهزيمة بألة حرب كبيرة وعظيمة. اضف الى ذلك، ان جنود الجيش الاسرائيلي اثبتوا في حريهم ضد الارهاب، ان الدول المتحضرة ايضاً، قادرة على محاربة هذا النوايا الخبيث.

لم يؤد هذا التطور الى احداث تغيير جذري في وضع اليهود في "ارض اسرائيل" بعد ان استطاعوا ان يصدوا بنجاح، هجمات استهدفت القضاء عليهم، فقط، بل تحسنت صورة اليهودي في نظر الاجانب ايضاً.

غير ان التحول الدرامي، طرأ على الشكل الذي اصبح اليهود يرون انفسهم فيه. بدا هذا التحول في سنوات التسعينات من القرن الماضي. اذ كان من يزور "ارض اسرائيل" في تلك الفترة، يشاهد التغيير الذي طرأ على ابناء الجيل الاول من اليهود، الذين ترعرعوا خارج الاحياء اليهودية القديمة والمغلقة في صغد والقدس. كان يشاهد شباباً، معظمهم من ابناء وينات مهاجرين يهود، وصلوا منذ فترة وجيزة الى البلاد، يحرقون الارض، ويركبون الخيول، ويتعلمون الرماية، يتحدثون اللغة العبرية الحديثة، يتصادقون مع جيرانهم العرب، ويتصارعون معهم اذا دعت الحاجة ايضاً، حتى انهم كسبوا احترامهم.

كانت عائلة اهرونسون، من زخرون يعقوب، نموذجاً واضحاً لهذا اليهودي الجديد. كان ابناء العائلة، فلاحين ثرياء، حتى ذاع صيتهم في "ارض اسرائيل" وخارجها في بداية القرن الحالي، بفضل انجازات الابن الاكبر للعائلة، اهرون. كان اهرون اهرونسون، شخصية متعددة الصفات، مهتماً زراعياً ناجحاً، اثبتت تجاربه العلمية، في المجال الزراعي، القدرة على احياء الارض القاحلة، واستغلالها بنجاح، كما كانت له افكار سياسية، وكان زعيماً مؤهلاً للقيادة ايضاً.

لقد قرر اهرونسون المساعدة في طرد الاتراك من البلاد ، والحصل من اجل

احتلالها من قبل البريطانيين. عنننذ اقام هو، وشقيقته، سارة، ومجموعة من الشباب اليهود، بينهم الرومانسي الحساس، ابلوم فاينبرغ، والمفاسمر المثير، يوسف ليشنسكي، شبكة "ثيلي" وهي شبكة تجسس نقلت معلومات الى السفن البريطانية، من مزوعة عائلة اهرونسون، التي كانت قريبة من ساحل البحر.

لقد قتل جميع افراد هذه الشبكة، فيما بعد في ظروف مأساوية: سارة، انتحرت بعد ان القى القبض عليها من قبل الاتراك وعذبوها؛ ابلوم، قتل على ايدي البدر في رمال رفح، بينما كان في طريقه الى مواقع البريطانيين في مصر؛ ليشنسكي، اعدم شنقاً على ايدي الاتراك في دمشق، بعد ان القى القبض عليه في شمال البلاد؛ واهارون، قتل في عام ١٩١٩ في حادث طائرة غامض، فوق بحر المانش، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره. لكن تلك الروح والجرأة المستمدتين من التراث اليهودي، خلقا نموذجاً جديداً للتقدير والتقليد من قبل جيل كامل من الشباب، الذين نشأوا في ارض اسرائيل.

لقد حدث هذا التحول الجوهري في طبيعة اليهود في ارض اسرائيل في النصف الاول من القرن الحالي. فعشية قيام الدولة اليهودية، كان قد نما وترعرع جيل جديد، كان مستعداً لان يحمل على كاهله مهمة الصراع من اجل تحرير الامة.

ان ابناء الجيلين الثاني والثالث الذين ولدوا وكبروا في اسرائيل، بعد حدوث التحول المذكور، بدأوا ينسون، او ربما لم يعرفوا كلياً، ماذا كانت تعني حياة اليهودي في "جيتو" في اورويما او في اليمن.

ثمة يهود كثيرون ترعرعوا في اسرائيل، لا يعرفون الشعور بعدم الامن الذي يمتاز به يهود كثيرون في المهجر، وبضمنهم ايضاً، اليهود الذين يعيشون في اغنى الدول واكثرها استقراراً. صحيح، ان اسرائيل نفسها عرضة دائماً لهجمات مستمرة، وان مواطنيها معرضون لعمليات عداوية قاتلة، لكن في احيان متباعدة فقط، يشعر اليهودي بعدم الراحة بسبب يهوديته. وصحيح انه بين الحين والآخر، تجد من يتساءل بشأن اهمية وجود دولة اسرائيل بالذات، وفيما اذا كان العيش في المهجر افضل من العيش فيها . لكن هذه حالات شاذة فقط . اذ ان الغالبية

العظمى من يهود اسرائيل يشعرون بأن اسرائيل هي بيتهم رغم كل الصعوبات التي تواجه الدولة.

ومقابل هذا، رغم ان يهوداً كثيرين يقولون انهم يشعرون بأن امريكا بيتهم، فان وقوع عدة حوادث لا سامية شديدة كافية لسلبهم هذا الشعور بالامن، هذا لا يعني ان يهود اسرائيل يتفوقون بالجرأة والشجاعة على اليهود خارج اسرائيل. لكن ما يمتاز به اليهود في "ارض اسرائيل" هو شعور داخلي بالانتماء الذي يخلق في اعماق القلب شعوراً بالامن بهوية اليهودي وبقوته. وهذه هي النتيجة الثانية العظيمة لمودة صهيون.

لكن التحول لم يكن مكتملاً، كما لم يكن مترقياً ان يكون مكتملاً في هذه الفترة الزمنية القصيرة. فالشعب اليهودي الذي عاش خارج العمل السياسي الحقيقي، ولم تكن لديه قوة سياسية طيلة مئات السنين، لم يكن قادراً على التكيف في يوم وليلة، مع وجود مستقل. اذ بعد مضي اجيال عديدة، كان الغريب هم الذين يقررون مصير اليهود، اصبح من الصعب على الكثيرين منهم هضم فكرة انتهاء الوضع الذي كان يفرض فيه الاجانب عليهم رغبتهم وارادتهم، وانه اصبح بطورهم رسم سلوكيات الاخرين وفقاً للمصلحة اليهودية.

ان الترية السياسية الحقيقية، تعترف بحقيقة انه بين الحين والاخر، يجب على الشعب ان يمارس ضغطاً ويعبى. قوة، لكي يحقق هدفه، وهذا الاجراء هو جزء طبيعي وحتمي من الصراع المستمر من اجل البقاء.

غير ان هذه النظرية، لم تكن بالامر الطبيعي ابداً، بالنسبة للغالبية العظمى من اليهود. الامر الذي تطلب، في النصف الاول من القرن الحالي كفاً مرأ من اجل اقناعهم بضرورة بناء قوة عسكرية، وتجريدتهم من النظرية التي تعمقت لديهم وهي انه لا يجوز لليهود "تلنيس" ايديهم بحمل السلاح. اذ واجهت محاولات هرتسل وجيبوتنسكي وغيرهما، في تحدي هذا السلوك، وخلق قوة عسكرية وسياسية يهودية، الاستهزاء والسخرية من قبل كثيرين من اليهود، الذين اعتبروها سجوناً فاشياً للقوة.

كان هناك الكثير من اليهود الذين حننوا من ان انشاء قوة عسكرية يهودية سيؤدي باليهود الى السلوك العسكري والقومية المتطرفة، وكان حمل السلاح بالذات

امر معطور من الناحية الاخلاقية.

لم تستجب الغالبية العظمى من يهود اوريا الى ندائات الصهيونية السياسية، لتنظيم قوة مقاومة سياسية وعسكرية، وهدرت اربعة عقود اثنى من الذهب، كان باستطاعتهم ان يحصلوا خلالها، على السلاح والحلفاء وان يفتحوا ابواب البلاد، او على الاقل طرقاً للهروب خلال الحرب. وكانت النتيجة الحتمية لعدم الاستجابة تلك هي - معسكر اوشفيتس.

في ايماننا هذه، يصعب ان نفهم اصرار معظم اليهود، قبل مئة سنة، او حتى قبل خمسين سنة، على عدم اعتبار الدفاع الذاتي ضرورة واضحة ومفهومة في حد ذاتها. كان ذلك هروباً من الواقع، نابهاً من ابتعاد اليهود عن مجالات العمل السياسي والعسكري طيلة ما يزيد عن الف سنة.

ومفهوم، انه بعد الكارثة، ادرك يهود كثيرون ان عدم قدرتهم على وضع قوة مقاومة شديدة، في مواجهة النازيين، جعل من السهل عليهم تنفيذ عملية ابادته ستة ملايين يهودي. وقد ترجم الشعب اليهودي هذا الفهم المتجدد الى عمل، عندما انشأ الجيش الاسرائيلي، اذ كان واضحاً لكل ذي عقل، انه دون وجود مثل هذه القوة، ستحل باليهود كارثة جديدة - هذه المرة، على ايدي العرب.

هذا الامر، لا يمنع الكثيرين من الاسرائيليين الذين سبق أن اعترف اباؤهم بضرورة مثل هذه القوة العسكرية في حرب "الاستقلال" وبقية حروب اسرائيل، من التشكيك في ضرورة الإبقاء على هذه القوة وتطويرها.

من المحتمل، انه نتيجة للرحلة المؤلمة التي قطعها الشعب اليهودي، اصبحت النفس اليهودية تبحث عن طريقة للخلاص من ضرورة البقاء في صراع دائم. وأصبح هؤلاء الاسرائيليون يتساءلون: متى سينتهي هذا الامر؟ هل محكوم علينا أن نبقى نحارب الى الأبد؟

لا يمكننا إعطاء اجابة كاملة عن هذه التساؤلات. إذ أن أيأ كان، لا يستطيع أن يتنبأ بما اذا كان السلام أفضل بالنسبة لنا أم الاستمرار في الحروب، لأن أي انسان غير قادر على ان يتنبأ بنتائج وحجم تلك الحروب المستقبلية. هل ستندلع حروب؟ وهل ستنتج الجهود الدبلوماسية في منع وقوعها؟ أم ستتوقف الحروب بسبب وجود قوة الردع؟

رغم أننا غير قادرين على اعطاء اجابات قاطعة على هذه الأسئلة، نستطيع القول، بالتأكيد، أن النزاعات السياسية والدينية في الشرق الأوسط، لن تنتهي في المستقبل المنظور، إلا إذا قبلنا بفكرة أن "نهاية التاريخ" تقف على الأبواب وأن عهد عودة المسيح يقترب.

لا توجد بلاد في العالم يسودها الميول والرغبة لرؤية كل شيء. يأخذ مكانه بسلام وسرعة، مثلما هي الحال في اسرائيل. دولة، تحاصرها باستمرار منذ نشأتها جيرش تريد القضاء عليها، وابناؤها وبناتها يكرسون معظم حياتهم في الخدمة العسكرية النظامية والاحتياطية، لا بد أن تصبح لديها رغبة شديدة في السلام.

وهكذا حدث، ان انجرفت طبقات واسعة من الجمهور الاسرائيلي، وكثير من زعمائه أيضاً، وراء نظريات مجردة وغير واقعية، وخيالية بشأن الوضع في الشرق الأوسط.

إنني أذكر جيداً، المزاج الذي ساد اسرائيل، بعد هزيمة العرب، في حرب الايام الستة، لقد توقع الكثيرون ان العرب، سيطلبون فوراً إنهاء النزاع، "نحن بانتظار مكالمات هاتفية"، كما قال ديان آنذاك. لقد بدت لي تلك الفكرة آنذاك، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، فكرة صبيانية. لكن المدهش، هو أن معظم الاسرائيليين تملكهم، آنذاك، فكرة ان العرب سيطلبون انتهاء النزاع، ولم يفكروا أبداً بأن العرب سيظلون يحاربون اسرائيل بوسائل أخرى، حتى يصبحوا قادرين على خوض جولة عسكرية قادمة. لم يقرر الكثيرون آنذاك، كم من الجولات والهزائم الأخرى، يتطلب الامر، حتى يبدأ التغيير البطيء. في نظرة العرب تجاه اسرائيل.

يبدو أن الكثيرين من اليهود في اسرائيل، توصلوا الى استنتاج بأن العرب يرغبون في التوصل الى سلام مع اسرائيل لاعتقادهم بأن العرب يحملون نفس المشاعر، متجاهلين الاختلافات القائمة من حيث الثقافة والتاريخ والدين والقيم السياسية التي تفصل بين المجتمع الاسرائيلي، والعالم العربي.

اعتقد كثير من الاسرائيليين أيضاً، أن العرب يمتقنون الحرب مثلهم، وأنهم اذا شروا لهم نوايا السلام الاسرائيلية كما يجب، سيرحبون بنا.

لقد سبق أن وُجد مثل هذا الاسلوب الساذج، لأول مرة في "ارض اسرائيل" في

العشرينات بواسطة حركة "بريت شلوم" (حلف السلام)، بزعامة الحاخام الأمريكي يهودا لايب مجنس، الذي استوطن في القدس وعُيِّن رئيساً للجامعة العبرية. فقد فتر مجنس مقاومة العرب للحركة الصهيونية بمصطلحات استمدتها من الثقافة السياسية الأمريكية مباشرة: صراع العرب ضد اليهود ناجم عن سوء اتصال. وأمن انه من الممكن اجراء حوار منطقي مع المفتي لاسكاته وارضائه. ولا يجوز لليهود ان يحملوا السلاح، ولا بأي حال من الاحوال، لان هذا من شأنه، فقط، تعميق العداء العربي لهم.

لكننا من الصعب ان نصدق اليوم، بأن المفكرين اليهود البارزين من مستوطني "ارض اسرائيل" ظلوا متمسكين بهذه النظرية في سنوات الثلاثينات بعدما تمادى المفتي في تصريحاته التحريضية وتعاونه مع النازيين. ولكن، مع مزيد الأسف، لا يزال مؤيدو هذه النظرية موجودين بين ظهرائنا حتى اليوم. انهم يواصلون تجاهل الواقع السياسي في العالم العربي، يسفرون من نوايا أولئك الذين قرروا تدمير اسرائيل، والمناداة بمصالحة وارضاء الاعضاء بأية وسيلة.

ان معظم سكان اسرائيل، يرفضون هذه النظرة السطحية المجردة لمشكلة العالم العربي، لكن التيار الفكري آنف الذكر، يضم شرائع ذات اهمية في المجتمع، ولدى تولى الحكومة اليسارية السلطة، عام ١٩٩٢، ترسخ هذا التيار في اوساط الحكم الاسرائيلي أيضاً.

ينبع هذا التيار من رغبة اليهود الشديدة، في رؤية نهاية هذا الصراع والتوصل بسرعة، الى حالة سلام وأخوة، التي تنبأ بها الأنبياء في آخر الزمن. وهذا الاسلوب غير سياسي، وغير واقعي، وخطير على حياة الأمم. لكن مؤيدي هذه النظرية يؤمنون بأن تاريخ الشرق الأوسط، سيصل أخيراً الى نهاية محددة، أو الى الوضع الذي يدعى "السلام" الذي سيكون خالياً من أية منفصات تقض مضاجعنا: لن تكون هنالك حروب، ولا نزاعات خارجية، ولا خلافات داخلية. سيسلم العرب بوجود اسرائيل، ويعيش اليهود بسعادة ورفاه الى الابد. وستصبح دولة اسرائيل جنة الدنيا، يحظى اليهود فيها بالراحة اخيراً، من معاناتهم وصراعهم المستمر .

ولا بأس في الرغبة لتحسين الواقع شريطة أن لا نجعله بالاماني. لكن هذا،

بالضبط، ما يريده كثيرون من الاسرائيليين ويحاولون عمله. فمن خلال خيالهم الابداعي الخصب، يؤمنون بإمكانية انتهاء النزاع العربي - الاسرائيلي بالكلام الفارغ. وكأننا لا نعيش في ذروة عاصفة صحراوية تضرنا بخليط من التعصب والعداء. وكأننا نعيش في الغرب المتوسط الامريكى، وليس في الشرق الأوسط.

ان هذه النظرية الخيالية لوضع اسرائيل والايمان بقدرتها على تحقيق نهاية مفاجئة للمقاومة العربية والاسلامية، كانت تسيطر على التربية التي منحت للأجيال الصاعدة قبل قيام الدولة ويعدده. لكنه بعد قيام دولة اسرائيل وتزايد الهجمات عليها، وبعد ما بدأ يلوح في الأفق السلام المنشود، بدأت الفجوة بين المثالية والواقع، وزاد الشعور بالاحباط لدى الجمهور، وخاصة في الأوساط التي تشكل قطبي الخاظة السياسية الاسرائيلية.

حسب نظرية هذه الأوساط، لم يكن الخطأ في المثالية، ولا حاجة لراستها من جديد، انما نحن المذنبون، لأننا انحرفنا عن الطريق الصواب. إذ ان رفض العرب الاعتراف بنا، هو عقاب على خطيتنا. وإذا أصلحنا طريقنا الخاطئة نستطيع تحقيق حلم السلام المثالي، الذي تتوق اليه النفس الاسرائيلية.

إن هذا الايمان الشديد، السائد في الأوساط اليسارية الاسرائيلية، ينبع من وعيهم للايمان "بالخطيئة القديمة"، خطيئة "الاحتلال" التي ارتكبتها اسرائيل في حرب الايام الستة. وهذه الأوساط، تتوق بشدة الى السنوات التسعة عشرة التي سبقت حرب الايام الستة، والتي كانت اسرائيل تعيش فيها كالطفل الخداج". انهم قادرون على ان يبعدوا من ذاكرتهم ذلك الخطر الفظيع الذي كان يهدد الدولة، في تلك الايام، ويتذكرون فقط الوحدة الوطنية القوية التي نشأت آنذاك لمواجهة ذلك الخطر.

حسب نظرية اليساريين الاسرائيليين، كان احتلال الضفة الغربية وغزة وشمولها باسرائيل، في اعقاب حرب الايام الستة، السبب الرئيس لجعل اسرائيل دولة لا إنسانية، حيث أدى الى قمع العرب الفلسطينيين وتلويث النفس الاسرائيلية. واصبحت هذه الادعاءات، نظرية تثبت صحتها، في أعقاب المذبحة التي نفذها أحد مستوطني كريات اربع ضد المسلمين في الحرم الابراهيمي في الخليل، رغم ان أيًا كان، لم ينتبه الى انه بعد ست سنوات من الانتفاضة والاف العمليات والاصابات

ضد المستوطنين في الضفة وغزة، فقد المستوطنون قدرتهم على ضبط النفس وخرقوا القانون في حالات عديدة.

ويقول اليساريون، أنه من أجل انقاذ نفسها، يجب على اسرائيل ان تجري عملية جراحية مؤلمة وتبتز عضواً من اعضائها. فاذا تخلصت اسرائيل من "المناطق" سيتغير كل شيء، فيها نحو الأفضل دفعة واحدة؛ سيتحسن الاقتصاد، وتتخلص الخدمة الاحتياطية، تنشأ أماكن عمل للمهاجرين الجدد، وستوفر الأموال الكافية لثق طريق جديدة وأمنة.

كانت هذه إحدى الرسائل التي نشرها حزب العمل لدى تسلمه السلطة عام ١٩٩٢، ولا يزال يحاول ترسيخ هذه الرسالة في أذهان الجمهور الاسرائيلي. وعلاوة على ذلك، تنشر هذه الادعاءات في الصحافة الأجنبية، على شكل مقالات تتحدث عن التأثير السلبي للاحتلال الذي يتعرض في ظله، الاطفال والنساء للتعذيب والتنكيل. ان هذه النظرية تنطوي على استنتاج هو: أُخرجوا من المناطق وألقوا أنفسهم.

ان مزيدي هذه النظرية، على قناعة تامة بأننا نقف، في الواقع، على أبواب الخلاص، لكننا لا نزال أغيب من أن ندخلها. وفي المقابل، يمكننا العثور على صورة طبق الأصل لهذه النظرية في اوساط الحركات اليمينية، التي تعتقد ان باستطاعة اسرائيل ان تنعم بالاستقرار الحقيقي فيما لو تخلصت من العرب الذين يعيشون فيها بواسطة "الترحيل".

وهكذا، يعتقد اليساريون أنه اذا تخلصنا من المناطق المحتلة سيحل الخير على اسرائيل، في حين تعتقد الحركات اليمينية انه اذا تخلصنا من العرب، سنحقق نفس النتيجة.

ان هاتين النظريتين تدلّان على عدم وجود رؤية واقعية للواقع السياسي الاسرائيلي، وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع الصعب المحترم علينا، نتيجة لوجودنا كأمة بين الشعوب العربية. إن الصراع المستمر، لا يعني بالضرورة حرباً الى ما لا نهاية. غير أنه سيتطلب، بالطبع، جهداً قومياً طويل المدى، وربما ندخل، بين الحين والآخر، في مجابهات دولية شديدة. حتى لو توصلنا الى انتهاء حالة الحرب مع العرب ، وأحللنا السلام الرسمي معهم، وحتى

لو نتج عن ذلك انخفاض حقيقي في مستوى النزاع العربي - الاسرائيلي فلن تتلاشى نهائياً أخطار الحرب والمجاهدات في المستقبل، تماماً مثلما لم تنته كلياً لنزاعات بين الشرق والغرب، بعد انتهاء الحرب الباردة، ومثلما لم تنته نزاعات أخرى في اماكن أخرى. لذا، لا يمكننا الابتعاد عن صراع البقاء، دون ان نتخلى عن الحياة نفسها. وهذا هو الشيء الذي يصعب على اليهود عامة، والاسرائيليين خاصة، التكيف معه. فالشعب اليهودي، الغني بالمثاليات، بعدها سري، والاخر علني، لا يزال يفتقر الى تجارب السنين في السلطة السيادية وادارة حياة دولة، وهي امر مطلوب لجعل الرؤية السياسية اكثر دقة وحة.

ان مثل هذه الأمة، تجد صعوبة في التكيف مع ظروف واقع السياسة الدولية. فميل السياسة الاسرائيلية للهروب الى الخيال، تنبع من عدم قدرة اليهود على التسليم بوجودهم الدائم مع الصراعات، ومع ضرورة الاحتفاظ دائماً بقوة يهودية لمواجهة هذه الصراعات.

مفهوم، أنه بعد عشرات السنين من النزاع الدامي مع العرب، أصبح معظم الاسرائيليين يقبلون بالنظرية القائلة ان القوة العسكرية، هي مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن اسرائيل، على الأقل، في المستقبل المنظور. غير أن انتصارات الجيش الاسرائيلي بالذات، هي التي شوشت الحقيقة الحاسمة التالية: ان القوة العسكرية لا تكفي لضمان بقاء الأمة. في الماضي، فشل يهود كثيرون نتيجة لعدم قدرتهم على فهم اهمية القوة العسكرية؛ واليوم يفشلون نتيجة للمبالغة في أهمية هذه القوة، باعتبارهم انها القوة الوحيدة المطلوبة لضمان بقاء الدولة، ونتيجة لعدم ادراكهم ضرورة وجود انواع أخرى من القوة، وعدم وجود رؤية شاملة لمناصر القوة القومية التي تركز على طاقات ثقافية واقتصادية وسياسية. ولهذا السبب يبدي كثير من الاسرائيليين استعدادهم للدفاع عن بلادهم بقوة، لصد أي هجوم عسكري، وهذا ينطوي على ميل واضح ومثير للقلق، للاتئنا أمام أي ضغط دولي، سياسي أو اقتصادي. إنهم يتساءلون: من نحن الذين سنقاوم العالم كله؟ فإذا كانت الدول العظمى تريد ذلك، فما علينا سوى الرضوخ.

ان فكرة "انه يجب على دولة ما ابداء مقاومة شديدة لرغبة الدول العظمى أحياناً ، لا تخطر ببال هؤلاء الاسرائيليين. كما أن هناك عدداً أقل، أيضاً ،

يعتقدون بأن مثل هذه المقاومة يمكن أن تعود علينا بالفائدة. ان عادة الانحناء والاستسلام التي اكتسبها الشعب اليهودي طيلة سنوات التشرد، لا تزال سائدة الى درجة كبيرة على الصعيد السياسي. وكما تنبأ هرتسل في حينه، حيث قال: ان من أصعب التغييرات التي يمكن ان يجتازها الشعب اليهودي هي الاقلاع عن هذه العادات. اذ كتب في يومياته: "ان اصعب شيء سواجهه هو العثور على دبلوماسيين يهود". لقد ثبت في القرن العشرين، ان القوة السياسية لا تقل اهمية عن القوة العسكرية، في النزاعات الدولية. ها هو هتلر، مثلاً، فهم هذا الامر جيداً، في حين لم يحاول ضحاياه التشيكيين صد هجومه السياسي: لقد مكّنوه من دفعهم الى زاوية سياسية في مؤتمر ميونيخ، واضطروا اخيراً للاستسلام، دون ان يطلقوا ولو طلقة واحدة.

ولكن، ليس ضحايا العدوان فقط هم الذين يدفعون احياناً ثمن استهانتهم بالقوة السياسية، فالمعتدون أيضاً، قد ينسرون احياناً، اهمية القوة السياسية ويدفعون الثمن باهظاً. ها هو، صدام حسين، مثلاً، لم يأخذ بعين الاعتبار أهمية الرأي العام الدولي، عندما خرج لاحتلال الكويت.

لقد تغلب الجيش العراقي، في غضون ساعات فقط، على الجيش الكويتي، لكن صدام حسين، لم يكن مستعداً نهائياً للصراع السياسي الذي استمر طيلة الشهور الستة التي تلت الغزو. انه لم يستطع اقناع دول العالم بعدالة حربه، ولذا لم يتمكن من منع نشوء جبهة حربية ضده استهدفت انقاذ الكويت. ولو أدرك صدام حسين الخطر السياسي الذي كان ينتظره، لحاول بالتأكيد، أن يسهل للغزو من خلال حملة دعائية محكمة، توفر له خلفية تبرر الاحتلال، كأن يدعي أن حكما الكويت يقومون شعبهم بوحشية، أو ان الكويتيين هم جزء من الشعب العراقي، أو أن الشعب الكويتي سيرحب بالجيش العراقي الذي سيحرره، وهكذا. ولكن، لأن صدام أهمل ميدان المعركة الدولي، ألحق بنفسه هزيمة مهينة. حيث كان وحيداً على الحلبة الدولية. ولم يهب أحد لمساعدته، وأخيراً نجا صدام نفسه بسبب عدم اصرار الامريكيين، في الساعات الأخيرة، من الحرب. وكما تعلم صدام بالطريقة الصعبة، لكي ينتصر المرء في ميدان المعركة، يجب ان ينتصر أيضاً على الحلبة السياسية، ولكي ينتصر سياسياً يجب ان يضمن النصر على صعيد الرأي العام، ولكي يضمن النصر في هذا الصراع، يجب ان يقنع الجمهور بصحة طريقه.

ان مثل هذه الامور التي تستهدف تجنيد الرأي العام على نطاق واسع وتأييد الجماهير، لا تعتبر زائفة عن الحاجة، ويقدور أي أمة تعيش حالة صراع، ان تتنازل عنها. ففي ظل المفاهيم الديمقراطية في العالم، وعلو شأن وسائل الاعلام الجماهيرية، أصبح الرأي العام الدولي ميداناً رئيساً، يتم فيه حسم الصراعات السياسية. ويغض النظر عن كون الصراع عادلاً، او ظالماً، يتوجب على كل طرف في صراعات سياسية وعسكرية، أن يحاول اقناع العالم بعدالة هدفه.

ولكي نفهم قوة الرأي العام في عصر وسائل الاعلام الجماهيرية، تكفينا المقارنة بين التأثير المكهرب لخطابات تشرشل في الحرب العالمية الثانية، التي كان يستمع اليها، عبر الراديو، الملايين من البشر، وتأثير خطاب الرئيس لينكولن في جستبرغ، الذي كان معنوياً تقريباً.

كان خطاب لينكولن، إبان الحرب الأهلية في امريكا، ينطوي على كثير من الايحاء، ولا يقل في فعراء عن أفضل خطابات تشرشل، وهناك من يعتبره أحد الخطابات القوية التي سُمعت في التاريخ، لكن ذلك، استمع اليه عدد قليل من الناس فقط، ولم يكن له أي تأثير على مجريات الحرب الأهلية.

وهناك من يقول أيضاً، أنه لو وجدت اذاعة في تلك الفترة، خلال الحرب الأهلية الامريكية، وكان باستطاعة لينكولن بث خطابه عبرها، فلن يكون قادراً على نقله الى الجماهير بالقوة المطلوبة نظراً لضعف صوته، خلافاً لصوت تشرشل الجمهوري. لكن كل هذه الامور، تؤكد الواقع الجديد في القرن الحالي وهو: في الصراعات السياسية والعسكرية، هنالك أهمية بالغة للرسالة القوية، المصروغة كما يجب، والتي يجري يشها عبر وسائل الاعلام بالشكل المناسب.

كثيرون من المتورطين في صراعات دولية في هذه الايام، ادركوا هذا المبدأ. فهذا، ستالين، حاول تقديم نفسه وكأنه منقذ البشرية، وعرض نظام حكمه الاستبدادي امام ملايين الناس على أنه ديمقراطية راقية. وقد خلف هتلر وستالين تركة " الكذبة الكبرى " هذه، لعدد من أنظمة الحكم الاستبدادية والدكتاتوريين الصغار بعدهما، أمثال عبدالناصر، وهوشي منه، وفيدل كاسترو.

لقد استخدم هؤلاء جميعاً نفس التقنية في محاولاتهم للتأثير على أبناء

شعوبهم، وعلى حلفائهم، وعلى أعدائهم أيضاً، بغية اضعاف قوة المقاومة لديهم، أو لحملهم على تأييدهم.

فيتنام الشمالية، مثلاً، ادارت اثناء الحرب الفيتنامية حرباً دعائية ضد الجنوب، بحيث عرضت نفسها كنموذج حسن، في حين عرضت الجنوب كنموذج سيء للحكم. كما أن الحرب الدعائية التي ادارتها فيتنام الشمالية، والتي كانت موجهة الى الرأي العام الامريكي، ساهمت كثيراً في اضعاف رغبة الامريكيين في مواصلة الحرب.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تفوقت الانظمة العربية على أي عنصر آخر في استغلالها للدعاية كأداة لخدمة سياستها. لقد ادركت الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية أهمية هذه الأداة وتسخيرها لتحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على اسرائيل.

ففي أعقاب انتصار اسرائيل في حرب ١٩٦٧، أدرك العرب انه من أجل اعادة العجلة الى الوراء، يجب عليهم الهاق الهزيمة باسرائيل على الحلبة السياسية، أي، في الصراع على كسب الرأي العام، ولهذا وجدوا ان عليهم مخاطبة حاسة العدل، لدى الانسان العادي، في العالم الغربي، وفي اسرائيل ذاتها. ولهذا السبب، بدأ العرب ينسجون "قناعاً واسعاً من الأكاذيب"، التي سبق أن تطرقنا الى معظمها: الادعاء أن القضية الفلسطينية هي قلب النزاع في الشرق الاوسط، وتحويل السبب الى المسبب، وعرض منظمة التحرير بأفضل صورة، وغير ذلك.

لقد ركز العرب سعيهم في الدرجة الاولى على تجريد اليهود من كل جانب أو رمز يحتوي على ما يشير الى عدالة نضالهم، وشوهوا تاريخ اسرائيل بصورة مدعشة، وزرعوا بدلاً منها تاريخاً فلسطينياً كله من نسج الخيال، والاكاذيب: حل العرب مكان اليهود في كونهم أبناء هذه الارض منذ بدء الخليقة، في حين ان اليهود احتلوا مكان العرب في الدور التاريخي "للفزاة" الاجانب؛ وأستبدل الشتات اليهودي، "بشتات" فلسطيني فظيع.

كل هذ الأمور، استهدفت اقناع شعوب العالم بأن اسرائيل ألحقت ظلماً شديداً بالعرب، وأنهم، أي العرب، يحاولون رفع هذا الظلم فقط، وان أهل المنطق في كل العالم، يجب ان يساعدهم على رفع هذا الظلم.

ومقابل العرب الذين بدأوا معركة منهجية ومستمرة لكسب الرأي العام، هجرت اسرائيل كلياً تقريباً، هذا الميدان وما أثقل على اليهود بشكل خاص، كان عدم خبرتهم في اللعبة الدولية النابع من انقطاعهم الطويل عن حياة الدولة. كما أن التركيز الاسرائيلي على القوة العسكرية، كان خطأً. إذ بقي الاسرائيليون سنوات عديدة يؤمنون بعدم ضرورة الرد على الدعاية العربية.

لم ينقذ الجيش اسرائيل من الدمار في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧؟ وألا يستطيع ان يفعل هذا مرة أخرى؟ وحتى لو واصل العرب "الكذب" في الأمم المتحدة ووسائل الاعلام والجامعات الغربية. هل يجب على اسرائيل ان تزج نفسها بهذه التفاهات، طالما توجد لديها قوة عسكرية قادرة على صد هجماتهم؟

بهذا المعنى تماماً، جاءت اقوال بن غوريون في احدى المرات وهو يخاطب الأمة الفتية في سنوات الخمسينات: "كيس مهماً ما يقوله الفرياء، بل ما يفعله اليهود".

لقد صدق الى حد ما في قوله هذا، إذ دون عمل يهودي لا يمكن ترسيخ الدولة. ولكن دون دعم سياسي دولي، سيكون من الصعب المحافظة على مكاسبها. لذا فان ما يقوله الفرياء، قد يكون بالغ الأهمية في ظروف معينة، ويجب ايجاد طرق للتأثير على ما يقولونه. كما أن بن غوريون ارتكب خطأ فاحشاً عندما استهان بأهمية الرأي العام الدولي، بعد أن احتل الجيش الاسرائيلي سيناء عام ١٩٥٦، حيث أعلن بن غوريون آنذاك، ان اسرائيل ستبقى في سيناء ألف سنة، لكنه لم يفعل شيئاً لكسب التأييد السياسي في اوساط الرأي العام الامريكي، الذي كان بحاجة ماسة له، لاضعاف معارضة الرئيس الامريكي ايزنهاور لهذه الخطوة. لذا أرغم على الانسحاب من سيناء ومن قطاع غزة، انسحاباً سريعاً بعد بضعة أشهر فقط من الحرب.

ان ايمان الاسرائيليين بتفوق قوتهم العسكرية بالذات، هو الذي قلص جهود اسرائيل كي تضمن لنفسها أخلاقاً سياسية، التي بدونها يصعب على أية أمة، وبخاصة اذا كانت أمة صغيرة، العمل على الساحة الدولية.

من هنا، ينبع الرأي السائد حالياً، بأن مصير اسرائيل قد حُسم وحُكم عليها بالعزلة، وان العالم كله ضننا، واننا لا نستطيع ان نفعل شيئاً بهذا الشأن، وأنه لا توجد لاسرائيل طريقة أخرى، سوى تعبئة قوتها (العسكرية) لمواجهة الضغوط التي

تُمارس عليها، أو حسب نظرية اليسار الاسرائيلي، الاستسلام، والرضوخ لكافة المطالب العربية، لتُعطى بشعبية قصيرة المدى.

غير ان حقيقة تعرض اسرائيل، أكثر من مرة في تاريخها، للعزلة المطلقة، لا تستوجب أن يكون الوضع هكذا، دائماً. فدول العالم، تقرر عقد الاحلاف السياسية، وفقاً لمصالحها الانية، وفي الدول الديمقراطية - حسب ميول الرأي العام أيضاً. ولهذا، تستطيع اسرائيل ان تعمل على هاتين الجبهتين معاً - جبهة المصالح، وجبهة الرأي العام - لكي تقنع حكومات دول كثيرة وشعوبها أيضاً، بأن دعم اسرائيل له ما يبرره، ومناسب أيضاً لهذه الدول. لن يؤدي هذا الى كسب كل دول العالم الى جانب اسرائيل، ولا حتى معظمها، لكنه يكفي لكسب قسم منها الى جانبنا، وتخفيف عدااء القسم الآخر لنا. كانت هذه هي بالضبط، نظرية هرتسل عندما سعى بنجاح لكسب التأييد للصهيونية من حكام بريطانيا، ألمانيا، روسيا، تركيا، وغيرهم. لكن خلفاءه في الحركة الصهيونية، لم يدركوا عمق نظريته ولم يطبقوها بنجاح، ربما لان هرتسل كان أحد اليهود الاقلاء من أبناء جيله، الذين ادركوا كيفية ادارة هجوم دبلوماسي ومعركة على الرأي العام، ونفذ ذلك بكفاءة. غير ان هرتسل توفي ولم يترك وراءه تلاميذ يسيرون في طريقه. فمعظم الزعماء الصهاينة الذين جاؤوا بعده، سلكوا تقريباً، ودون مقاومة تذكر، بالظلم الذي تعرض له اليهود على أيدي البريطانيين، في الفترة بين الحريين العالميتين. كان معظمهم يعتقدون ان اليهود غير قادرين على مصارعة دول عظمى مثل بريطانيا، وضم ان الرأي العام البريطاني، ومن ثم الامريكي، كان متعاطفاً للغاية مع الحركة الصهيونية.

كان جيبوتنسكي، هو الوحيد، من تلاميذ هرتسل، الذي فهم أهمية المقاومة السياسية، وقال انه من الممكن، ويجب، مقاومة الضغوط التي تتعرض لها الصهيونية. وأكد جيبوتنسكي أهمية ما أسماه "نظرية الضغط الجماهيري" الى جانب بناء القوة العسكرية اليهودية التي تتولى حماية المستوطنين اليهود. ان السياسة لا تتحمل الفراغ؛ إذ مارس أحد الاطراف الضغط السياسي والدعائي، في حين بقي الطرف الثاني مكتوف اليدين، سيضطر الطرف السلبي للرضوخ للضغط في نهاية الامر. لذلك، قال جيبوتنسكي ان الطريق الوحيدة المتوفرة للشعب اليهودي هي مقاومة الضغط الذي تتعرض له الصهيونية، بممارسة

مخطط مضاد يكون موجهاً ضد الحكومات الاجنبية، وجماهير المواطنين فيها. ومن أجل القيام بذلك، يجب ان يبذل اليهود روحاً قتالية في المعركة السياسية، لا تقل عن تلك المطلوبة في المعركة العسكرية.

وجيبرتسنسكي، شأنه شأن هرتسل، مات دون ان يفهمه كثير من الصهاينة. لقد مات جيبرتسنسكي صغيراً نسبياً، عندما كان يعمل في الولايات المتحدة عام ١٩٤٠ في مجال الاعداد لمعركة اعلامية استهدفت اقناع الرأي العام الاميركي بعدالة المطالبة باقامة دولة يهودية. لقد أدرك معظم السائرين في طريق جيبرتسنسكي أفكاره العسكرية والاقليمية، لكن قليلاً منهم فقط، هم الذين أدركوا المبدأ الثالث، السياسي، في نظريته: "ضرورة بذل جهود متواصلة من الاقناع وممارسة الضغط على الساحة الدولية، بغية الدفاع عن مصالح الشعب اليهودي".

لقد قامت حكومات الليكود في اسرائيل والتي حذرت جيبرتسنسكي في نواح عديدة، بجهود متواصلة على الصعيد الدولي، ولكن بصورة جاءت مناقضة تماماً للمبادئ المذكورة آنفاً. لقد نفذت حكومات الليكود عدة أعمال بالغة الاهمية، لكنها لم تفعل شيئاً لاقتناع العالم بعدالة هذه الأعمال. إذ ان هذه الحكومات، أبدت اصراراً وجرأة في اعمالها، لكنها لم تحاول توضيح الضرورة والمنطق في هذه الأعمال، لكي يعترف الجمهور في اسرائيل والعالم، بضرورتها وفائدتها.

ببساطة، نقول، ان ضرورة كسب الرأي العام، لم تكن مسألة ذات أهمية في نظر حكومات الليكود، لذا لم توجد الوسائل المطلوبة لتحقيق هذا الكسب على الساحة الدولية.

هنالك نموذج بارز جداً لهذا السلوك، يتمثل في هجوم سلاح الجو الاسرائيلي على المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١. كانت تلك العملية، هدفاً للانتقاد والشجب من كل مكان في العالم تقريباً، لان اسرائيل لم تفعل شيئاً ضد الدعاية العربية والانتقادات الغربية للمهجوم. وعندما غزت اسرائيل لبنان، عام ١٩٨٢، ارتكبت خطأ فاحشاً؛ فبدلاً من ادارة حرب دعائية، عملت اسرائيل العكس تماماً، حيث فرضت على نفسها صمتاً اعلامياً في الايام الأولى والحاسمة للحرب، وبذلك، مكنت اعدائها من غمز العالم بوجهات نظرهم المشوهة لما يجري. فقد اختفت، من الصورة، التي عرضتها وسائل الاعلام العالمية حقيقة أن مستوطنات

شمال اسرائيل كانت تعاني من قصف وهجمات "الارهابيين" التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية، طيلة عشر سنوات كاملة. وان جيلاً كاملاً من الاطفال الاسرائيليين نشأ في الملاهي؛ وان سكان المدن الاسرائيلية الشمالية بدأوا يهجرون منطقة الحدود مع لبنان. كما لم تُذكر أيضاً. أعمال القتل والاغتصاب والسلب التي ارتكبتها رجال منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان، خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب، وحقيقة أنه، حتى المسلمين الشيعة، في جنوب لبنان، استقبلوا جنود الجيش الاسرائيلي بالترحيب.

عندئذ قفزت منظمة التحرير الفلسطينية الى هذا الفراغ في الاعلام العالمي، وأكثر من نشر القصص والروايات الملفقة حول جرائم الاسرائيليين في جنوب لبنان. فقد نجحت المنظمة، على سبيل المثال، في اقناع وسائل الاعلام العالمية، أن الهجوم الاسرائيلي على جنوب لبنان ترك حوالي ٦٠٠ ألف نسمة دون مأوى (ولم ينتبه أحد الى ان هذا الرقم يزيد على عدد سكان المنطقة). وعندما رفعت اسرائيل ستار التعقيم التي فرحته على نفسها، كانت تلك "الكاذيب"، قد أصبحت حقائق ثابتة، لدرجة ان أفضل اصدقاء اسرائيل، صعب عليهم تأييدها. وهكذا كانت المعركة السياسية فاشلة قبل ان تبدأ. لكن النتائج كانت أخطر بكثير. فإذا كان هناك شيء، ما لا يزال عالماً في اذهان العالم، من حرب لبنان، فهو المذبحة التي ارتكبتها مسيحيون لبنانيون ضد مئات الفلسطينيين في مخيمي اللاجئين صبرا وشاتيلا، القريبين من بيروت. ان جنود الجيش الاسرائيلي لم يرتكبوا تلك الجريمة البشعة، بل نفذها عرب جاؤوا للانتقام لمقتل الرئيس المسيحي المنتخب للبنان. بشير الجميل. ولم تشترك قوات اسرائيلية في المذبحة، كما لم تمهد لها، حتى أنها لم تعلم بها. وقد أوصت لجنة التحقيق برئاسة رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية القاضي كهان، باقالة وزير الدفاع ارئيل شارون، لانه لم يعلم بان المذبحة ستحدث فقط. كان رأي لجنة التحقيق هو انه بحكم وظيفته كان يجب عليه ان يتوقع قيام المسيحيين بارتكاب هذه المذبحة وكان من واجبه منع وقوعها. لكن الدعاية العربية، بدعم من اليسار الاسرائيلي، خلقت الانطباع بان اسرائيل المعتدية، انحطت الى الدرك الاسفل، وارتكبت مذبحة بحق عرب ابرياء..

تركت تلك الحرب أثراً ملموساً، إذ لم يدرك الجمهور في الدول الغربية ان العملية الاسرائيلية في لبنان ، أنزلت ضربة قاسمة بالارهاب الدولي ، بل على

العكس، اعتبرها حرباً عديمة المنطق وليس لها أي مبرر. ولذا زادت معارضة الدول الغربية للعملية الاسرائيلية في لبنان، وزاد أيضاً الضغط على اسرائيل لمنعها من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، بعد ان حاصرتها قواتها في غرب بيروت.

فالعالم الغربي، الذي اختطف رجال منظمة التحرير الفلسطينية طائراته ومواطنيه وقتلوا ممثليه، أصبح يكافح الآن من اجل انقاذ المنظمة من ايدي الجيش الاسرائيلي. واخيراً رضخت اسرائيل للضغط الغربي. وغادر بيروت عشرات الالاف من "القتلة" مع اسلحتهم، وتقلوا الى مكان آمن في تونس (كمرحلة انتقالية في طريق العودة الى غزة واربعاً بعد ١٢ سنة).

كان أهم حدث في حرب لبنان، أبرز أهمية الصراع السياسي، هو قضية الرئيس الامريكى ريفان والطفلة الفلسطينية مبتورة اليدين، فبعد أن طرد الجيش الاسرائيلي قوات منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان، بدأ عملية قصف انتقائية وحذرة على معقل المنظمة الاخير في غرب بيروت. وكان الهدف ارضامها على الاستسلام وتجنب الخسائر البشرية الجسيمة، التي كانت ستلحق بالطرفين فيما لو تم اقتحام المدينة. وفي ذروة حصار بيروت، عُرِضت على الرئيس ريفان صورة لطفلة فلسطينية صغيرة فقدت ذراعيها نتيجة للقصف الاسرائيلي. عندئذ اتصل ريفان، وهو بحالة تأثر وغضب شديدين، برئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن، وأبلغه بأن القصف الاسرائيلي يجب ان يتوقف فوراً. واستجاب بيغن لهذا الطلب.

في تلك الايام، كنت اعمل بوظيفة سكرتير سياسي في سفارة اسرائيل بواشنطن. وعندما شاهدت الصورة طلبت تكبيرها. وكلما زاد تكبير الصورة، زاد الشك لدي بأنها مزيفة، أي انها صورة لم تلتقط أثناء الحرب نهائياً. واخيراً طلبت من قيادة الجيش الاسرائيلي في بيروت العثور على الطفلة. وبعد بضعة ايام عُثِرَ عليها، وتبين فعلاً أنها مصابة ولكن منذ سنوات عديدة قبل الحرب – في الحرب الاهلية في لبنان، – أي على ايدي عرب. ولكن لم يكن آنذاك بالامكان اصلاح ما حدث. فقد تغفلت حقيقة وحشية اسرائيل في وعي ملايين الناس في الولايات المتحدة وفي العالم كله.

بعد كل هذه الاحداث، كان من المتوقع ان تعترف اسرائيل بحقيقة عدم الفصل بين السياسة والاعلام. لكن هذا لم يحدث.

في دول اخرى، يعتبر هذا الامر مفهوماً في حد ذاته. فالرئيس الاميركي ومعظم زعماء العالم لا يتخذون بشكل عام، قرارات ذات اهمية قبل ان يفحصوا الرد المتوقع على قراراتهم لدى الرأي العام العالمي (والرأي العام داخل بلدانهم، بالطبع).

في حقيقة الامر، يشمل اجراء اتخاذ القرارات، مناقشة مستفيضة للسؤال: كيف يمكن ان يرد الجمهور على هذا القرار، وما الذي يجب عمله لكي يكون الرد ايجابياً. ان هذا المبدأ، يمكن ان تتجاهله الدول الكبرى، في بعض الاحيان، لكن دولة صغيرة، يتوقف وجودها الى درجة كبيرة على نظرة دول العالم اليها، لا يحق لها بأي حال من الاحوال، تجاهله. ربما تضطر دولة ما لاتخاذ قرارات من المتوقع ان لا تلقى التأييد المطلوب، الا انه لا يوجد ما يمنعها من محاولة تقليص المعارضة الى ادنى حد ممكن بوسائل مختلفة. لكن الوضع في اسرائيل، وبخاصة حسب نظرية اليساريين، فان الاسلوب السائد هو ان الطريقة الوحيدة لكسب تعاطف العالم مع اسرائيل في النزاع العربي - الاسرائيلي، هو قبول املاات العرب.

ان اسرائيل، التي اكتشفت قوتها العسكرية، لا تبدي نفس القدرة السياسية المطلوبة لاستمرار بقائها في عالم متغير وخطير. لذا يجب علينا احداث تحول بعيد المدى في الصراع الاسرائيلي على هذه الحلبة، وعرض مواقفها وسياساتها بصورة مختلفة عن تلك الصورة التي عُرِضت بها حتى اليوم.

خلافاً للنظرية المألوفة، لا توجد مشكلة اعلامية تقتصر على تزويد صورة معينة، لعرضها على شاشات التلفاز. اذ ان قدرة العدو على خلق امور واضحة بواسطة الصيغ اللغوية، تعتبر المرحلة الحاسمة الاولى في اي جدل سياسي، وتُحسم هذه المرحلة، بشكل عام، بواسطة الصحيفة والكتاب في كثير من الاحيان، قبل وصولها الى شاشات التلفاز.

فخلال السنوات التي عملت فيها كممثل لاسرائيل في الولايات المتحدة، تبين لي، انه خلافاً لما يعتقد الكثيرون، فان كلمة واحدة تساوي أحياناً، من حيث

قيمتها ألف صورة؛ مثلاً، الاصطلاحات "احتلال اسرائيل"، "شعب مشرد"، "أرض عربية"، "أراضٍ مقابل السلام"، وما شابه ذلك، قدمت خدمة للغرب، أكثر من كل صور الانتفاضة مجتمعة.

لقد بذل العرب جهوداً كبيرة، في نشر المقالات، والرسائل الصحفية والكتب، والنشرات الاعلامية ضمنوها صيفاً لغوية، تظهر ان مقاومتهم لاسرائيل عادلة واخلاقية.

لذا يتوجب على اسرائيل شن حملة واسعة النطاق لاتقاذ نفسها من المصيدة التي وقعت فيها، بسبب عدم مبالاتها. يجب عليها تفنيد "الكاذب" العربية، من خلال طرح الايضاحات والحقائق التي لا تقبل التأويل ونشرها في الصحف والنشرات والكتب، في الغرب، وفي سائر أرجاء العالم. يجب على اسرائيل ان توضح للجميع، قاعدة حق اليهود في هذه الارض، وتاريخ النزاع العربي - الاسرائيلي، واهداف وتكتيك اعدائها، والشروط المطلوبة لاحلال سلام دائم وحقيقي في المنطقة.

عندما أؤكد على أهمية الكلمة المكتوبة في الصراع ضد من يحاول تشويه سمعة اسرائيل، لا أقصد بالطبع، التقليل من أهمية الكلمة المذاعة، وبخاصة عبر شاشة التلفاز. فكما اتضح خلال حرب الخليج، كانت شبكات التلفزيون الدولية، المصدر الرئيس للمعلومات، سواء للزعماء أو الجمهور. إذ ان ما شاهدته جورج بوش على شاشة التلفاز في البيت الابيض، شاهدته صدام حسين في فندقه تحت الارض في بغداد، وشاهده ميخائيل غورباتشوف في الكرملين، واسحق شмир في مكتب رئيس الحكومة في القدس. وكان لما عُرض وشُعب عبر هذه الشبكات، تأثير فوري على وجهات نظر زعماء العالم، وعلى مواطني الدول الحرة. فإذا كان للرأي العام الدولي أهمية كبيرة في النصف الأول من هذا القرن، فإن أهميته الآن لم تكن تخطر ببال أحد، قبل ثلاثين أو اربعين سنة. لذا، فان اسرائيل التي تواجه عواصف سياسية كثيرة ومتلاحقة، لن تستطيع الاستمرار في ادارة شؤونها السياسية والدبلوماسية، في ظل تجاهل هذا العنصر بالغ الأهمية. ولكي تفند "الكاذب" التي تلصق بها، يجب على اسرائيل ان تجند أفضل العقول والكتاب لخدمتها.

وهذا الأمر يستوجب "تحسيناً عاماً" في مكاتب الحكومة ذات العلاقة بمسألة الاعلام مثلاً: يجب إعادة النظر في تعريف واجب الشخص الدبلوماسي،

وتعيين الدبلوماسيين حسب الكفاءة، وحسب قدرتهم على الظهور أمام وسائل الاعلام في البلاد التي يعملون بها. كما يجب اعادة النظر في المخصصات المرسدة لاغراض اجراء الدراسات والبحوث والاصدار، والابقاء على علاقات مناسبة مع وسائل الاعلام. والأهم من هذا كله، يجب ادراك مبدأ، انه لا يمكن النجاح في الصراع السياسي الدولي دون كسب تأييد الرأي العام الدولي. والغريب في الأمر، ان اليسار الاسرائيلي غير القادر على هضم هذه الحقيقة، على الصعيد الدولي، يفهمها جيداً ويطبقها بأدق تفاصيلها على الصعيد القومي. فاذا كانت هنالك جهة يحاول اليساريون السيطرة عليها بصورة كاملة، فهي وسائل الاعلام الاسرائيلية. إذ لا توجد صحيفة، أو قناة تلفزيونية، أو دار نشر كتب أو نشرة اعلامية، تخلو من وجود دائم لليساريين فيها. ان معظمهم يسيطر، بصورة عملية، ولا يترددون في استخدام هذه القوة، لرسم أفكار ووجهات نظر المواطنين في اسرائيل، والحسم في مواضيع سياسية هامة. لكن، ما يبدو لهم مفهوماً داخل اسرائيل، يعتبر في نظرهم؛ لا لزوم له، أو غير ممكن تحقيقه خارج حدودها. ما السبب وراء هذا التناقض؟ في نظر الكثيرين من اليساريين، لا حاجة أصلاً، لبذل جهد سياسي دولي، لانهم يعتقدون بأنه إذا انتهجت اسرائيل السياسة "الصحيحة"، سيضمها العالم فوراً الى أحضانه. والتفسير العملي لهذه النصيحة، هو التخلص من المناطق المحتلة التي يكرهونها، لانهم يعتقدون بأن كل ما تتعرض له اسرائيل الآن، مصدره "الكارثة" التي أصابت اسرائيل في حرب الأيام الستة، عندما سيطرت على هذه المناطق. لقد نسي اليساريون الحروب الفظيعة التي خاضها العرب ضد اسرائيل في السنوات التي سبقت حرب الأيام الستة. ويمحون من ذاكرتهم الخطر الجسيم الذي كان يهدد اسرائيل عشية تلك الحرب، وحقيقة أن تلك الحرب شنها العرب عليها، انطلاقاً من جبال الضفة الغربية.

كما يرفض اليساريون التطرق الى امكانية ان لا تتوقف مطالب العرب من اسرائيل، عند اخلاء الضفة الغربية وغزة (مثلما لم تتوقف عند اخلاء سيناء).

إنهم لا يفكرون بأنه بعد سقوط المناطق التي احتلتها اسرائيل في حرب الأيام الستة، بأيدي العرب، سيطالبرتها بالقدس الشرقية، وبحق العودة، وباستقلال عرب الجليل والنقب، وما شابه ذلك، سلسلة لا تنتهي من الطلبات، التي ستعرض اسرائيل لخطر فادح، ستضطر أخيراً لدفع هذا الخطر بالجوء الى الدفاع عن

وجودها بالذات. ان الحاجة لادارة معركة سياسية - اعلامية لكسب تأييد العالم، لن تتلاشى حتى لو تغيرت الظروف السياسية.

إن العالم الذي اعتاد رؤية اسرائيل كمعتدية، سيفقد لها على كل انسحاب تقوم به من المناطق حسبما يطلب العرب. وستحظى اسرائيل بالشاء والترتيب على اكتافها، طالما ظلت تقدم التنازلات من طرف واحد، غير أنه في اليوم الذي تقرر فيه حكومة اسرائيلية ما - ولا بد أن يأتي هذا اليوم - بأن عليها ان ترسم خطأ لا تستطيع الانسحاب منه، ستتوقف فوراً صحبات التأييد، ليمود الضغط الدولي عليها من جديد.

مخطئ، كل من يدعي بأن مشاكل الاعلام الاسرائيلية، ستحل مع انشاء الدولة الفلسطينية. إذ ان العرب سينمون الفارق القوسي في اوساط العرب في اسرائيل المقترمة، وعندئذ ستواجه الدولة خطراً يهدد وجودها، وورطة اعلامية في آن واحد.

ان الاسرائيليين الذين لا يولون اهمية لتأثير الرأي العام، يعتقدون، بشكل عام، ان المطالب العربية هي عادلة من البداية. وهذا هو شرع خاص لعقدة المطاردة: " اذا كان اعدائي يطاردونني، فيبدو أنني أسأت لهم. واذا كان اعدائي يطلبون مني - مقابل فك الحصار عني - ان افتح لهم ابواب جداري الواقى، يجب ان افتحها، لكي احرر من عبء الحصار الثقيل".

ويغية تبرير هذا الاسلوب، يطرح مؤيدو الاستسلام كل انواع الادعاءات التي يمكن ان تساعدهم مثل:

"العدو لم يعد عدواً"، والجدار الواقى لم يعد واقياً" وما شابه ذلك. واذا لم يقبل أحد بهذه الاقوال، يمكنهم الادعاء دائماً بأنه طراً "تغيير دراماتي" في العالم المحيط بنا. ألم يطرأ في تاريخ الانسانية تحول حقيقي، بحيث جعل الاعداء اصدقاء؟ فلماذا يجب ان تبقى اسرائيل بالذات ظاهرة شاذة سيئة؟ إذا فلنتح الابواب، ونعانق اعدائنا، ونعيش معاً بهدوء وسعادة من الان والى الأبد.

ان مثل هذا الادعاء، محبب بشكل خاص، لدى مؤيدي الشرق الاوسط الجديد الذين يدعون بأن ثورة البروستروسكا في الاتحاد السوفياتي السابق ،

وسقوط نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا، وتغييرات كثيرة أخرى شهدها العالم، تبرهن على ان الشرق الاوسط أيضاً، يقف على عتبة عهد جديد، عهد السلام.

ان حقيقة حدوث تغييرات معينة في مناطق عديدة من الكرة الارضية، ليس بمقدورها الاثبات أن نفس الشيء يمكن ان يحدث في الشرق الاوسط.

صحيح ان أنظمة متطرفة، كالنظام السوري، أرغم على الجلوس الى مائدة المفاوضات مع اسرائيل، بعد سقوط راعييه السوفياتي، وان أنظمة أخرى أكثر اعتدالاً، تجرأت على انشاء علاقات علنية مع اسرائيل بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وهزيمة العراق، غير أنه ومن نواحٍ عديدة، تغيّر الوضع في منطقتنا الى الأسوأ بالذات، أو على أية حال، لم يحدث فيه تحسّن. هل تغيّر صدام حسين الى الأفضل؟ أو القذافي؟ هل يبدو في الأفق ثورة ديمقراطية في العراق؟ أو في ايران؟

لم يحدث أي تحول على الأنظمة الدكتاتورية في الشرق الاوسط. فمشترياتنا من الاسلحة الشرقية والغربية آخذة في التزايد، ولم تعد بحاجة الى موافقة الاتحاد السوفياتي للخروج في مفاخرة عسكرية. والأخطر من هذا، هو ان تطوير الاسلحة النووية في ايران، يتقدم بسرعة، والتعصب الاسلامي يزداد قوة ونشاطاً.

ولكن، يبدو ان أياً من هذه الأمور، لا يزعج اولئك الذين يدعون بأنها مجرد محاولة لتشويه الصورة النقية للواقع الذي يرونه في مخيلتهم.

أحياناً، يعرض هؤلاء الاسرائيليين، أنفسهم، صيغة مختلفة لتبرير ياسهم. يقولون، ما الفائدة من رفض مطالب العرب، اذا كانت الولايات المتحدة، وبقية الدول العظمى في العالم، تزيد هذه المطالب بصورة مطلقة؟ إنهم لا يفكرون أبداً بأن مهمة الزعامة الاسرائيلية هي اقناع الادارة الامريكية، بأن مصلحة الولايات المتحدة تلزمها بانتهاج سياسة تتناسب والمصالح الاسرائيلية وليس العكس.

ان من يؤيد وينادي بهذا الموقف الاستسلامي الذي ذكرته آنفاً، لا يدرك ان الولايات المتحدة دولة ديمقراطية فيها عدة قوى فاعلة ومؤثرة على رسم السياسة الامريكية: الادارة، الكونغرس، وبخاصة الرأي العام، وان كل واحد من هذه العناصر، منفتح للحوار والاقناع، والنقاش. وبالتالي فان السياسة الامريكية تجاه اسرائيل تتقرر بناء على مزج لمواقف هذه القوى مجتمعة، ولدى اسرائيل الفرصة

المتازة لمحاولة اقناع كل واحد من هذه العناصر، بعدالة قضيتها.

هنالك دول قضايها ليست عادلة، تحاول الاقتناع، فلماذا لا تفعل اسرائيل أيضاً؟ غير ان هذا هو بالضبط ما حدث في الثلاثينات، عندما وقف الشعب اليهودي مكتوف اليدين ولم يناضل في سبيل عدالة مطالبه، في وجه السياسة البريطانية المعادية، ولم يحاول تجنيد الرأي العام البريطاني الذي كان آنذاك يتعاطف مع الصهيونية. واليوم أيضاً، يوجد في اسرائيل تيار يعارض أية مقاومة اسرائيلية للضغط الامريكى، خشية ان يؤدي هذا الى تمكير صفر العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة.

ان هذا منطق أعوج، اذ لا يجوز أبداً لاسرائيل ان تضحي بمصالحها الحيوية في سبيل المحافظة على علاقات تكمن اهميتها في قدرتها على ضمان هذه المصالح، وليس التضحية بها.

ان الكثيرين من الاسرائيليين، يميلون الى نسيان ان اسرائيل لم تحصل على مساعدة أمريكية في الفترة مابين ١٩٤٨-١٩٦٧، تلك الفترة التي بدت فيها اسرائيل دولة ضعيفة يهددها الخطر.

لقد بدأ الدعم الامريكى الواسع لاسرائيل، بعد حرب الايام الستة فقط، بعدما تبين، دون أدنى شك، أن اسرائيل، هي أقوى دولة عسكرية في الشرق الاوسط. وان من يطالب باستمرار بالعودة الى حدود عام ١٩٦٧ الخطيرة، ينسى هذه الحقائق، ويدعي أن استمرار التمسك بالمناطق المحتلة، هو الذي سيعرض الدعم الامريكى للخطر. لا شك بأن اصرارنا على البقاء في الضفة الغربية سيؤدي الى خلافات مع الولايات المتحدة، لكنه في الواقع لا يوجد شيء يمكن ان يعرض للخطر الدعم الامريكى لاسرائيل على المدى الطويل، أكثر من اعادة اسرائيل الى وضعها الهش. عندئذ لن تجد اسرائيل دولة في العالم تقف الى جانبها وهي ضعيفة خائفة القوي، تماماً كما كان وضع الشعب اليهودي، قبل قيام الدولة.

كذلك الأمر بالنسبة للضعف الاقتصادي. فاسرائيل الضعيفة اقتصادياً، لا تنجح على عقد الاحلاف معها سواء اقتصادية او سياسية. لكن، عندما تتخلص اسرائيل من القيود السياسية والبيروقراطية التي تحول دون تحقيق نمو اقتصادي، تصبح، في اسرع وقت ، دولة اقتصادية عظيمة ، الجميع يخطبون ودها ، مثلما

حدث لتايوان، وكوريا الجنوبية: لقد استطاعت هاتان الدولتان التغلب على عزلتهما السياسية من خلال تعاملهما الاقتصادي.

علاوة على هذا، وبما أن هناك امكانية معقولة بأن تنقلص المساعدات الامريكية لاسرائيل في السنوات القادمة، أو ربما تتوقف نهائياً (لأسباب امريكية داخلية لا علاقة لها بالشرق الاوسط) فمن الافضل أن تبدأ اسرائيل باجتذاب الاستثمارات اليها من الولايات المتحدة، بدلاً من الاعتماد على التبرعات فقط. الامر الذي سيجعل للولايات المتحدة مصلحة محددة في اسرائيل، ربما ستكون أقوى مما كانت عليه ابان الحرب الباردة.

هنالك من يعتقد انه في اعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وتحييد تهديده للمصالح الغربية في المنطقة، تقلصت كثيراً، أهمية اسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة. لكنني لا أشاركهم هذا الرأي. لقد استبدل انهيار الاتحاد السوفياتي، خطراً، بخطر أشد.

لقد حرص السوفييات على كبح الدوافع العدوانية لدى الدول التابعة لهم، وكانوا دائماً يعرفون كيف ينسحبون في المرحلة المتقدمة من صراع خطير ربما كان سيؤدي الى مجابهة مباشرة مع الولايات المتحدة. فضلاً، امتنع الاتحاد السوفياتي دائماً عن السماح لوصول التكنولوجيا النووية لأنظمة الحكم الحليفة له، لانه كان يدرك جيداً، حجم الخطر الذي ينطوي عليه تسليم حكام مفامرين امثال صدام حسين والقذافي، أسلحة مدمرة كهذه. لكن هذا هو الخطر الذي لا زال يهدد العالم حالياً. فايران والعراق، وربما سوريا أيضاً، تبذل جهوداً حثيثة لتطوير قنابل نووية، وصواريخ تستطيع حمل هذه القذائف الى اهدافها. كما أدى انهيار الاتحاد السوفياتي، الى تمكين أنظمة الحكم العسكرية في الشرق الاوسط من التزود بالاسلحة دون رقابة، ولم يعد في المنطقة عنصر قادر على كبح طموحاتهم العدوانية سوى اسرائيل. فاسرائيل، تعتبر عنصراً مساعداً على تثبيت الاستقرار في منطقة مضطربة. ولكن ليس اسرائيل الضعيفة، التي ستكون غارقة، طيلة الوقت في محاولات للمحافظة على بقائها، وتكرس كل مواردها وطاقاتها من أجل الدفاع عن حدودها الهشة. إذ أن اسرائيل كهذه، لن تكون مؤهلة للقيام بدورها في ردع الدوافع العدوانية لدى أنظمة الحكم الدكتاتورية في الشرق الاوسط. كما أن صعود

نجم إيران كمركز عالمي لنشر التعصب الديني الاسلامي، ينطوي على اخطار لم يسبق ان عرفناها إبان الحرب الباردة.

كل هذه الأمور، هي أخطار حقيقية، لم تختفي من العالم، مع اختفاء التهديد السوفياتي، وقد تزداد خطورة في السنوات القادمة. وهناك مصلحة اسرائيلية مشتركة مع دول أخرى كثيرة، في دفع هذه الاخطار، وهذا القاسم المشترك، قد يشكل قاعدة لأحلاف سياسية ذات أهمية في المستقبل.

لكن، مع انهيار الدولة السوفياتية، برزت مجالات أخرى لمصالح متبادلة كانت سرية حتى الوقت الأخير. إذ أن دولاً عديدة لم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل، أو انها كانت قطعت علاقاتها معها بعد حرب الايام الستة وحرب "يوم الغفران"، أنشأت علاقات مع اسرائيل بزعامة حكومة الليكود في الفترة ما بين ١٩٨٨-١٩٩٢: الصين، روسيا، الهند، نيجيريا، وغيرها، حوالي ثلاثين دولة (وهناك دول أخرى عديدة أعادت علاقاتها مع اسرائيل، بعد تولي حكومة العمل في ١٩٩٢).

كانت العملية الديمقراطية التي تشهدها دول أوروبا الشرقية، أحد اسباب هذا التغيير، لكن هناك دافعاً قوياً ومهماً آخر، كان وراء تدفق الدبلوماسيين والزعماء من هذه الدول، على اسرائيل، هو تقديرهم بأن لاسرائيل قدرة مميزة في التأثير على سياسة الولايات المتحدة التي تعتبر الآن الدولة العظمى الوحيدة في العالم.

ان الدول الديمقراطية تتصرف بدوجة كبيرة. وفقاً للرأي العام الجماهيري داخلها. ولا توجد دولة في العالم، تبرز فيها هذه الحقيقة أكثر من الولايات المتحدة. فالدعم الامريكى لاسرائيل، لا ينبع من المصلحة فقط. فالولايات المتحدة، أكثر من أي دولة ديمقراطية أخرى في العالم، ترسم سياستها الخارجية وفقاً لتوجهات جمهور الناخبين الامريكيين، ومنذ وقت طويل، يرى هذا الجمهور باسرائيل، دولة ذات قيم مشتركة مع الولايات المتحدة، وان تنمية هذا التعاطف والتأييد، هو واجب كل حكومة اسرائيلية.

ورغم ذلك، فأنني أؤكد من جديد، انه إذا كانت اسرائيل دولة ضعيفة ومهددة بالخطر، لن تحظى بأي دعم من جانب الولايات المتحدة، سوى الاعراب عن

تعاطفها معها. ولا نتحدث هنا عن تقديرات نظرية؛ إذ إنه قبل حرب الايام الستة، وعندما فرض الائتلاف العربي بزعامة عبدالناصر، حصاراً على اسرائيل، أبدت الادارة الامريكية تعاطفاً شديداً مع اسرائيل. لكن الادارة الامريكية، آنذاك، لم تحرك ساكناً لمساعدتها. فإذا لم تكن قادراً على حماية نفسك، ربما لن تجد من هو مستعد للدفاع عنك". ان ضائقة الارمن في مطلع هذا القرن، واليهود في منتصفه، والاكرد في اواخره، تعتبر أفضل نموذج للمذابح التي ارتكبت بحق شعوب لا حول لها ولا قوة .

كل ما تقدم يقودنا الى استنتاج واضح هو: القوة، هي حجر الزاوية لكل جهد يستهدف كسب حلفاء جدد، والمحافظة على تحالفات قائمة. ولكن دون حملة تستهدف اشارة التأييد السياسي العالمي، لن تكون القوة العسكرية والاقتصادية كافية لضمان استمرار هذا الدعم من قبل دول العالم. وينفخ الدرجة، لا يعتبر التأييد الدولي، بديلاً عن الدفاع الذاتي. لذا، يجب على الشعب اليهودي ان يرفض بشدة، الادعاء العقيم، الذي يردده اليسار الاسرائيلي، وهو انه اذا تنازلت اسرائيل عن اجزاء ذات اهمية في جدارها الواقعي، فأنها ستكسب قوة اخلاقية تكسبها تأييداً مستمراً من جانب الدول الكبرى في العالم. إذ ان الضعف لا يكسب شيئاً. وانه لن يضمن استمرار تأييد هذه الدول، بل سيكون سبباً لضمان عدم اكرثائها باسرائيل. وفي نفس الوقت، يجب ان ترفض اسرائيل أيضاً، النظرية الفجة السائدة في اوساط اليمين الاسرائيلي وهي أن ما قيل حتى الان، لن يغير شيئاً، لان العالم يعادينا، ولا مجال لتغيير هذا الوضع. ويقول اصحاب هذه النظرية، ان الافعال هي التي تقرر الاشياء وليس الكلمات، لذا نستطيع ان نتنازل عن الكلام.

انهم مخفطون. إذ يمكننا تنمية التأييد والتعاطف مع اسرائيل في اوساط الشعوب، وخاصة في الدول الديمقراطية الغربية، عن طريق حملة اعلامية مستمرة تستهدف كسب تعاطف الجمهور. ولو ان الشعب اليهودي عرف هذه الحقيقة في الثلاثينات، لاستطاع حمل الولايات المتحدة وبريطانيا على مساعدته آنذاك. ولو أن اسرائيل أدركت هذا أيضاً، لما سمحت للدعاية العربية المشوّهة للحقائق، بأن تسيطر على الرأي العام الدولي.

كيف يمكننا توضيح حقيقة ان هذه الاقوال غير واضحة ولا مفهومة، في اوساط الشعب اليهودي، وبخاصة في أعقاب المطاردة التي عانوا منها في السنوات

المائة الأخيرة؟ يجب ان نذكر هنا انه لو نظر عدة اشخاص الى لوحة كلمات متقاطعة" فقد يتوصلون الى آراء مختلفة بشأن طريقة حلها. فعلى سبيل المثال؛ هناك اسراييليون يدركون أن القوة العسكرية لا تكفي، ويستنتجون من ذلك، أنه لا حاجة لقوة عسكرية كبيرة، واخرون يشككون في نبوة هرتسل، ويرهنون على ذلك بحقيقة أن مطاردة اليهود لم تتوقف، حتى بعد قيام الدولة اليهودية التي تتعرض للاعتداء، مثلما كان يتعرض اليهود للاعتداء في المهجر. لكن هؤلاء يخطئون باصابة النقطة الرئيسة وهي؛ ان هرتسل لم يتنبأ بان الدولة اليهودية ستلغي كل احتمال لتعرض اليهود للمهاجمة، إذ لا توجد دولة يمكن ان تضمن لشعبها عدم تعرضه للاعتداء. لكن هرتسل والصهاينة الاوائل، رأوا في الدولة اليهودية إطاراً لوجود قومي رسمي، وأفضل أداة دفاعية بيد الشعب عند الخطر. وفعلاً، لا يمكننا تجاهل التغيير الكبير الذي طرأ على مصير الشعب اليهودي منذ قيام الدولة. إذ انقذت اسراييل جاليات يهودية تتعرض للاضطهاد، مثل يهود اليمن، واثيوبيا الذين تم احضارهم الى وطنهم العتيق على اجنحة النسر.

وتشكل اسراييل ملاذاً آمناً لملايين اليهود من روسيا واوكرانيا وأماكن أخرى تشهد موجة متجددة من اللاسامية. ويشعر كل هؤلاء اليهود، بما لم يشعر به يهود اوربا، قبل خمسين سنة: بأنهم ليسوا معزولين في العالم، وان لديهم مكاناً يلوذون به، ودولة تتوق لرؤيتهم، وهي على استعداد للعمل والتدخل من اجل ضمان أمنهم وسعادتهم عند الحاجة.

ولو أن اسراييل أُقيمت قبل موعدها ببضع سنين، لما حدثت الكارثة، أو لربما كانت أضيّق نطاقاً. إذ ستكون هنالك بلاد تستوعب اللاجئين اليهود الذين طردتهم الولايات المتحدة وبقية دول العالم من اراضيها. ولكانت هنالك دولة تعمل من اجل السماح ليهود اوربا بالخروج، وجيش مستعد للقتال من أجل تحقيق هذا الهدف. لكن ما كان ناقصاً في الماضي، لن يكون ناقصاً في المستقبل ابداً؛ لم يعد اليهود ضعفاء، بل اصبح بمقدورهم الكفاح في سبيل قضيتهم، وتجنيد الآخرين لصالح هذه القضية. هناك حقيقة لا تقبل التشكيك فيها، وهي انه منذ قيام الدولة تولي اليهود مهمة السيطرة على مصيرهم.

دولة اسرائيل هي الآن في قلب دوامة دولية، وتحتاج الى حكمة سياسية بالغة لكي تستطيع المناورة على هذه الحلبة، ولا تكون مستيرة من قبل الآخرين. يجب عليها ان تتجاوز، بسرعة، مرحلة الشباب، والانتقال الى مرحلة النضوج السياسي. لقد اجتاز الشعب اليهودي عملية تحول سريعة في مجال بناء قوته العسكرية، ويجب عليه الآن، اجتياز عملية أخرى مماثلة لتعزيز قدرته السياسية. إن العالم كله، يشهد التغيير التاريخي الذي يمر به الشعب الاسرائيلي، من وضع الضعف المتناهي، الى وضع القوة، من حالة عدم القدرة على مقاومة قوى الظلام، الى ترسيخ قوة قومية تمكنه من أخذ زمام مصيره بيديه.

وهذا تحول لا يمكن تصديقه بسهولة. وهو ينطبق كثيراً على اعداء اسرائيل بشكل خاص، الذين يعتقدون بأن وجود القوة اليهودية ليس سوى انحراف مؤقت عن مسار التاريخ الثابت، وان مصير الدولة اليهودية الزوال عاجلاً ام اجلاً، على أيدي القوى السياسية والدينية والعسكرية المحيطة بها.

غير أن أولئك المتعاطفين أيضاً مع المعاناة اليهودية، والذين يرغبون في ان يروا نهاية لهذه المعاناة، يصعب عليهم التكيف مع وجود قوة يهودية. ان هذا النوع من المؤيدين لاسرائيل، يجد صعوبة في رؤية اليهود كمجموعة قومية تملك قوة، لأن القوة لا بد أن تجلب معها ضرورة مواجهة مسائل أخلاقية، وان من يملك القوة، معرض أيضاً لارتكاب الاخطاء. وعندما يكون لليهود جيش ودولة، يصبح بالامكان اتهامهم بالقيام بأعمال مختلفة تنبع من هذا الوضع الجديد، وهذه النظرة بالذات، تعتبر أحد أسس نجاح الدعاية العربية: إنها تتخاطب عالمياً لم يعتد بعد على واقع يشهد قوة يهودية عسكرية وسياسية. فالدعاية العربية تشجع المتعاطفين مع اليهود، على الرغبة في العودة الى العصر الذي كان فيه اليهود متهمين بكل شيء، لانهم كانوا الضحية التي لا يوجد من يتقنها.

وعلى هذه الخلفية، لم يتعرض العرب لأي انتقاد عندما طردوا مئات الالاف من الناس، مثلاً فعلت السعودية بمواطنيها من أصل يمني عام ١٩٩٠، والكويت بالفلسطينيين عام ١٩٩١، في حين تعرضت اسرائيل للشتائم والانتقادات الشديدة، عندما طردت لمدة سنة، مجموعة "أرهابيين" متعصبين من حركة حماس، أقسموا على القائها في البحر. وهذا هو المقياس الذي تتعرض اسرائيل وفقاً له للتمييز والشجب بسبب مرابطة بضعة الاف من جنودها ، في قطاع ضيق

في جنوب لبنان، من اجل حماية نفسها، في حين لم يتفقه أحد ولو بكلمة واحدة، ضد سوريا التي ضمت معظم الاراضي اللبنانية؛ كما لم يتعرض أي انسان للدول العربية التي تطبق التمييز العنصري العلني الذي يمنع اليهود من الاقامة على اراضيها، وفي نفس الوقت تُتهم اسرائيل بالعنصرية، عندما تحاول قمع أعمال شغب يقوم بها العرب الذين يتمتعون بالحرية أكثر من مواطني أية دولة عربية. وهذه النظرة لا تقتصر فقط على أعداء اسرائيل، بل يوجد كثيرون من المتعاطفين والمؤيدين لها الذين يؤمنون حقاً بفكرة الدولة اليهودية، لكنهم لا يستطيعون قبول الواقع المرافق لهذه الفكرة – أي ان الدولة المضطرة للعيش في هذا الواقع الصعب المحيط بها، لا بد ان تجد نفسها مرغمة أحياناً، على اتخاذ اجراءات مثل، خلق مناطق فاصلة، أو طرد "مخربين" وقمع اضطرابات.

ومع ذلك، توجد في المجتمع الحديث الذي لا يزال متأثراً بالقيم "التناخية" رغبة قوية لرؤية نهاية لرحلة العذاب للشعب اليهودي. لقد عبّر الفيلسوف الايطالي، جوباني تستافيكو، الذي عاش في القرن السابع عشر، عما بدا له قانون التاريخ الذي لا مفر منه: أن دورة حياة الأمم تتألف من سلسلة متوقعة من المراحل – ولادة، شباب، نضوج، وموت".

وقد تبني مؤرخون كثيرون جاموا بعد ذلك، من، هيجل، حتى توينبي، هذه الفكرة، وكبرهان على صحتها اوردوا الحقائق المتعلقة بمصير الاشوريين، البابليين، الفرس، المصريين، اليونانيين، الرومانيين وحتى الشيوعيين في عصرنا الحاضر – حضارات، وُلدت، ازدهرت، ذُبلت، ثم ماتت. على هذا الاساس، يؤكد لنا المؤرخون، أنه اذا انتظرنا فترة طويلة للغاية، فان التاريخ كفيل بارضاح الجميع، دون استثناء. غير أن اليهود يشكلون ظاهرة شاذة عن هذه النظرية: لقد تلقوا ضربات أكثر من أي شعب آخر، ورغم كل ذلك، رفضوا الموت.

وربما نجد الصواب أكثر، في أقوال أحد اليهود من تلاميذ (هيجل) وهو الحاخام نحمان كروكمل، الذي يقول: أن اليهود أيضاً شهدوا فترات ذبول وانحطاط شأنهم شأن الأمم الأخرى، لكنهم تهربوا من الموت المرة تلو الأخرى، من خلال ولادة جديدة، فتحت امامهم دورة حياة جديدة. ويمكن ان تكمن هنا الحقيقة المدهشة:

"عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه ان يأتيه ببرهان على وجود الله، اكتفى بالقول: "إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله".

لقد عادت خاصية الشعب اليهودي للبروز بشكل أكبر مع نهضة القومية الجديدة. يمكننا الاشارة الى بقايا شعوب قديمة أخرى موزعة في جميع انحاء العالم كشرذ لحريق كبير انتشر في انحاء العالم. لكن اليهود، فقط، هم الذين لم تنطفئ. جمرتهم بعدما خبت نارهم. والشعب الاسرائيلي، فقط، هو الذي عرف كيف يشعل ناراً جديدة من الجمرات المقتلة.

أما الآن، فقد بدأت مرحلة جديدة في تاريخ شعبنا. منذ قيام دولة اسرائيل، تغير جوهر طموحاته. ففي المهجر، كان الهدف الرئيس للشعب هو استعادة ما فقد، أما اليوم، فأصبح هدفه المحافظة والاحتفاظ بما استعاد. نحن الآن في بداية هذه المهمة، وستكون لنتائج نضالنا أهمية بالغة، ليس بالنسبة لمصير الشعب اليهودي فقط، بل بالنسبة للانسانية أجمع.

هنالك أمل لدى الكثيرين في العالم، بأن يستطيع اليهود التغلب على العقبات الكاداء التي تعترض طريقهم، ويجتازوا النهر الهائج الذي يفصل بين الموت والحياة، وان يعودوا لبناء أرضهم المختارة من جديد. وإذا كانت أقوال، النبي عموس؛ "في ذلك اليوم سأبني عريشة داوود الساقطة" بدأت تتحقق، يجب أن نرى فيها برهاناً على وجود الأمل لكل الشعوب والأمم تحت الشمس.

ان نهضة شعب اسرائيل، هي على أية حال، أحد الرموز الكبرى للانسانية. فهذه ليست قصة اليهود فقط، إنما هي روح الانسان التي ترفض باصرار وعناد، الاستسلام لحكم التاريخ. هذه رحلة لا مثيل لها. رحلة شاقة لشعب صمم على العودة من جنيذ ليحظى بالمكانة التي يستحقها بين الشعوب.

انتهى

مكان بين الأمم

هذا الكتاب

مثال صارخ، على مضامين الفكرة الصهيونية، التي لا تتغير بتضاريس الزمان أو المكان، وأنموذج للعقلية التي تجرّت عند منطق القوة، الذي سفح التاريخ، وطمس الجغرافيا، ليبرز من بين أطلالهما شعب الله المختار، الذي دانت له حضارات الأمم، ونطقت باسمه الديموقراطية، وشدّت الرحال إلى اعتابه طلباً للعلم والمعرفة، شخوصه هم الكمال بعينه، وفيما عداهم رعا.. خدم.

وهو برنامج عمل، يلبي أطماع المتطرفين، الذين سيجدون في تنبأهوا ضالّتهم، فيحملونه على الأعناق إلى سدة الحكم، رمزاً لإسرائيل الحلم، التي لا تنتظمها حدود وإلى ذلك، فالكتاب خلط لأوراق الزيف، والاتهامات، مشفوعة بحقائق مستخرجة من صكوك الاستعمار، وأشياع الصهيونية، ممن تخرجوا في مبدارس الهيمنة واستعباد الشعوب.

المؤلف ينياامين تنبأهوا، تقدّم احتياطاً، ولد عام ١٩٤٩ في تل أبيب، وشارك في عدد من الحروب، أنهى دراسته الجامعية وحصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة فيلادلفيا، وهو عضو نشط في حركة حيروت - الليكود وبعد أكثر المتطرفين فيها.

شغل عدة مناصب رفيعة، منها مندوب دائم لإسرائيل في الأمم المتحدة، انتخب للكنيست الثانية عشرة، وعين نائباً لوزير الخارجية، وعضو الوفد الإسرائيلي إلى مؤتمر مدريد.

انتخب زعيماً لحزب الليكود اليميني، وسيخوض منافسة على رئاسة الوزراء، في الانتخابات القادمة عام ١٩٩٦م.

يقي أن نقول، أن المترجم محمد عودة الدويري، ومن خلال سعة اطلاعه، ومعرفته بأعماق اللغة العبرية، استطاع أن يضع بين أيدينا كتاباً يتميز بسلاسة التعبير والأمانة العلمية.

كلمة
النشر والتوزيع

المبصرة الأردنية الهاشمية - عمان - وسط البلد
خلف متلعه القدس - ص.ب ٢٢٢٢ هاتف ٣٦٨٨٨
فاكس ٣٥١٤١٥ - صندوق البريد ٣٨٩٩
البريد الإلكتروني: info@kalamia.com